

- دور جامعة تونك في دراسة شعابا الشباب وتميزهم،
- د. محمد عبد الله سلامة الزعاري، جامعة تونك - المملكة العربية السعودية.
- هل هو تفهم كفايات أم أنه تفهم معارف وجعلوات،
- د. عوايب الأخضر، محجر ياسين، جامعة قاصدي مرباح ورقلة،
- علاقة مركز الضغط بالأساليب المعرفية لدى طلبة الجامعة الجزائرية،
- د. حكيم زبدي ود. العربي غريب ود. عباس بلقوميدي، جامعة وهران،
- أثر بعض أبعاد البيئة المعرفية على عمارة حل المشكلات عند الطالب الجامعي الجزائري،
- د. ركزة سميرة، جامعة البليدة، ٢ - الجزائر،
- التهيئة السياحية المستهدفة في الجزائر،
- أ. هبة بوزعين، جامعة تلمسان،
- ثورة التحرير الجزائرية وترسيخ اليات ارتباط الدين بالسياسة،
- د. براني ككثوم، جامعة وهران،
- سهريلولة العالمة الجزائرية في الخطاب الثقافي المغربي،
- د. جلال غشاب، جامعة سوق أمراس،
- قراءة في رواية لادة الأقدار عند هنتشه،
- د. فوزية شيف الله، جامعة تونس المنار،
- د. نافع القمودة الحضاري في فكر مالك بن نبي،
- د. جيلالي بوبكر، جامعة الشلف،
- سؤال المدونة في فكر صاه عبد الرحمن، من النقد إلى الإبداع،
- أ. بن سعيد محمد، المركز الجامعي البني،
- المصير الصوفي... والرهرة الروحية كتاب فائدة الرسائل أهل الوسائل للشيخ سيدي محمد بن عالم الله،
- حمدادو بن عمر، جامعة وهران،
- استكشاف الصم، الأفريقية والجزائرية قبل القرن ١٩م،
- أ. موساوي طاهر، جامعة بشار،
- حضارة الأصابع في منظومة التربية والتعليم،
- د. بن نعمية عبد الغفار، جامعة وهران،
- تحليلات شرف الفقيه في بلاد المغرب،
- أ. عباس رضوان، باحث جامعة تلمسان،
- الأرشيف وهوارة في «طبع المصراع» لآل أبي،
- د. زكرياء قريش، جامعة قسنطينة ٢،
- البحث في الدراسة المبررة للأفكار لمقاربة، وإلحاق،
- ترجمة د. محمد بنسائي، دكتوراه في الترجمة، جامعة ليون ٢، فرنسا،

مجلة دراسات إنسانية واجتماعية

مجلة دورية محكمة تصدرها

جامعة وهران

العدد 05 / جانفي 2015

العدد 05 / جانفي 2015
الإيداع القانوني: 2751 - 2012
ISSN : 2253 - 0592
2015 - 2014

دار القدس العربي للطباعة النشر والتوزيع
تعاونية الهداية 01 بلقايد وهران
B.P 627 R.P ص.ب 627 البريد المركزي — 31000 وهران
503206- FAX :0410792339956-0556230762
Quds_arabi@hotmail.fr
www.darelqodsalarabi.dz



مجلة دراسات

إنسانية واجتماعية

مجلة دورية محكمة تصدرها جامعة وهران

مدير المجلة

أ.د. شاهد العربي

مسؤول التحرير

أ.د. عبد القادر بوعرفة

هيئة التحرير

- أ.د. غياث بوفلجة - أ.د. لونيبي رابح - أ.د. عمار يزلي -

أ.د. سلاك بونوة

الهيئة الاستشارية

أ.د. البخاري حماني. (جامعة وهران) أ.د. بوزيد بومدين. (جامعة وهران) أ.د. مزيان محمد. (جامعة وهران) أ.د. عبد الحق منصوري. (جامعة وهران) أ.د. عبد الرزاق قسوم. (جامعة الجزائر) أ.د. زروخي إسماعيل. (جامعة قسنطينة) أ.د. بن نعيمية عبد المجيد (جامعة وهران) أ.د. حسن حنفي (مصر) د. سهيل فرح. (لبنان) أ.د. يوسف أحمد (سلطنة عمان). أ.د. العلاوي أحمد (جامعة وهران) أ.د. بوباية عبد القادر (جامعة وهران) أ.د. دحوفغور. (جامعة وهران) أ.د. لقجع عبد القادر. (جامعة وهران) أ.د. طاهر بلحيا (جامعة وهران)

الآراء الواردة في المجلة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها

شروط النشر بالمجلة

- 1- أن يتسم البحث بالأصالة والجدة والقيمة العلمية، ودقة التوثيق.
- 2- ألا يكون جزءا من بحث سبق نشره أو جزء من رسالة جامعية.
- 3- أن يكون البحث مكتوبا باللغة العربية أو بإحدى اللغتين الأجنبية: الإنكليزية - الفرنسية.
- 4- ألا يزيد عدد صفحات البحث عن ثلاثين صفحة، شريطة أن يكون عدد أسطر الصفحة (ما بين 19 و 21) سطرا.
- 5- أن يرفق البحث بملخص بالإنكليزية أو الفرنسية، وعند الكتابة بلغة أجنبية يكون الملخص باللغة العربية على ألا يتجاوز كل ملخص (15) سطرا.
- 6- أن ترفق سيرة علمية مختصرة .
- 7- أن يكتب المقال وفق الشروط الفنية الآتية:
- حجم الخط: 16 - حجم الورق: (24 / 16)
- هوامش الصفحة: أعلى: 2 سم أسفل: 2 سم، أيسر: 2 سم
أيمن: 2 سم.
- 8- الإحالات تكون أسفل الصفحة، وتوضع قائمة المصادر والمراجع في صفحة مستقلة مرتبة وفقا للصيغة التالية:
كنية المؤلف، اسمه: اسم الكتاب (المقال)، اسم المحقق (إن وجد)، دار النشر، مكان النشر، رقم الطبعة، تاريخ الطبع.
- يجب أن تفوق عدد صفحات المقال 15 صفحة.
- يمكن استعمال طريقة (EPA).
- 8- تخضع البحوث للتحكيم، ولا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- 10- ترسل البحوث على عنوان البريد التالي: Dirassat31@gmail. com

فهرس الموضوعات

- 1- الكلمة الافتتاحية..... 09
- 2- دور جامعة تبوك في دراسة قضايا الشباب وتنميتهم/ د. محمد عبد الله سلامة الزعاريير/ جامعة تبوك - المملكة العربية السعودية.... 11
- 3- هل هو تقويم كفاءات أم أنه تقويم معارف ومعلومات / د. عواريب الأخضر، محجرياسين/ جامعة قاصدي مرياح ورقلة 23
- 4- علاقة مركز الضبط بالأساليب المعرفية لدى طلبة الجامعة الجزائرية/ د. كريمة إزيدي ود. العربي غريب ود. عباس بلقوميدي (جامعة وهران 38
- 5- أثر بعض أبعاد البنية المعرفية على عملية حل المشكلات عند الطالب الجامعي الجزائري/ د. ركزة سميرة (جامعة البليدة 2 - الجزائر)..... 57
- 6- التنمية السياحية المستدامة في الجزائر/ أ. وهيبة بوريعين/ جامعة تلمسان..... 81
- 7- ثورة التحرير الجزائرية وترسيخ آليات ارتباط الديني بالسياسي/ د. براني كلثوم (جامعة وهران..... 93
- 8- سيميائية العلامة التراثية في الخطاب الإشهاري المغربي/ د. جلال خشاب (جامعة سوق أهراس)..... 107
- 9- قراءة في ماهية إرادة الاقتدار عند نيتشه/ د. فوزية ضيف الله/ جامعة تونس المنار 121
- 10- موانع التجديد الحضاري في فكر مالك بن نبي / د. جيلالي بوبكر (جامعة الشلف)..... 149
- 11- سؤال الحداثة في فكر طه عبد الرحمن: من النقد إلى الإبداع. / أ. بن سعيد محمد / المركز الجامعي البيض 161

- 12- الحضور الصوفي. . . والمعرفة الروحية كتاب خاتمة الرسائل لأهل الوسائل للشيخ سيدي عدة بن غلام الله/ حمدادو بن عمر (جامعة وهران) 179
- 13- استكشاف الصحراء الإفريقية والجزائرية قبل القرن 19م/ أ. موساوي طاهر(جامعة بشار). 197
- 14- حضارة الإصلاح في منظومتي التربية والتعليم/د. بن نعمية عبد الغفار (جامعة وهران) 209
- 15- تجليات شرف الفقيه في بلاد المغرب/ أ:عباس رضوان (باحث جامعة تلمسان) 221
- 16- الأرشيف ودوره في صنع القرار الإداري /د. زكرياء قرجع /جامعة قسنطينة 2 235
- 17- البحث في الدراسة الترجمة: مناهج أم مقارنة؟/ دانيال جيل / ترجمة د. محمد بسناسي (دكتوراه في الترجمة/جامعة ليون02، فرنسا) 253

الكلمة الافتتاحية

يصدر العدد الخامس من مجلة "دراسات اجتماعية وإنسانية" في ظروف وأجواء عالمية جد معقدة، إذ يشهد العالم تدافع سياسي رهيب، وصراع حضاري عصيب، واحتباس ثقافي خطير، وتوتر عسكري ليس له مثيل في تاريخ البشرية. . . يترجم ذلك كله حقيقة واحدة هي أن العالم أصبح اليوم بلا ضمير ولا وازع.

لم تعد للإنسان تلك المكانة التي وهبها له الله، والتي دافع عنها الفلاسفة والعلماء منذ أمد طويل، حيث أصبح الإنسان اليوم مجرد رقم في معادلة، أو مجرد قطعة غيار في ماكينة السّاسة والقادة الكبار.

تحولت القيم الإنسانية والأخلاقية بدورها إلى مجرد أحرف وعبارات جوفاء، لقد ماتت هي ذاتها ووئدت على عتبات حضارة القرن الحادي والعشرين، والذي سيظل أكبر وصمة عار في جبين الإنسانية.

انخرفت المؤسسات الدولية عن وظيفتها وأهدافها، وأصبحت أداة طيعة في خدمة القوى العالمية الكبرى، ولم نعد نرى سوى الدمار والقتل والجوع والتشرد، ونهب ثروات الدول بطرق جديدة تلبس بلبوس الشرعية الدولية، ويتنافس خبراء العمالة في تطويعها وتسويقها وتسويقها.

نحتاج في هذا العالم المتهافت إلى جرأة العلماء والفلاسفة في قول الحقيقة، وتشريح الأوضاع المعقدة، وتشخيص العلل، وتفكيك البنى والأسس القاعدية للمؤسسات العالمية. ونحتاج في الوقت نفسه إلى قوة طرح البدائل الحضارية الممكنة، وتمكين الإنسان الحائر من تغيير أوضاعه نحو الأفضل، مع القدرة على استشراف المستقبل.

إن الله خلق الناس شعوبا وقبائل لغاية التعارف والتآلف والتجاور، ويفرض قانون التعارف التعايش والسلم، والإنصاف والمحبة، فالأرض تسع الجميع، والله رب كل العالمين.

أسرة التحرير

دور جامعة تبوك في دراسة قضايا الشباب وتنميتهم

د. محمد عبد الله سلامة الزعائر/جامعة تبوك - المملكة العربية السعودية

مقدمة*:

تحرص جامعة تبوك على تفعيل دورها في خدمة المجتمع المحلي في منطقة تبوك، وتنميته من خلال مجالات متنوعة منها البحث العلمي، فقد تولت عمادة البحث العلمي منذ تأسيسها، وبتوجيهات من الإدارة العليا بالجامعة الاهتمام بالدراسات والأبحاث التي تخدم المجتمع والمنطقة، وظهر ذلك في المجالات البحثية التي يتم الإعلان عنها سنوياً ضمن البرنامج السنوي للأبحاث الممولة من الجامعة.

وفي عام 1430هـ أجرت عمادة البحث العلمي دراسة قام بها فريق من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة استندت على التطبيق الميداني من خلال استبانته تم توزيعها على أعضاء هيئة التدريس بالجامعة وعلى مديري مؤسسات المجتمع المحلي في المنطقة وعنوانها "الأولويات البحثية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في جامعة تبوك ومديري مؤسسات المجتمع المحلي في منطقة تبوك" صدرت على شكل كتاب تناول آراء أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ومديري الدوائر والمؤسسات الأهلية والحكومية في المنطقة في تحديد الأولويات

* - SUMMARY: This study aims to trace the role of the University of Tabuk interest in studying the issues of youth, through the annual university funded research program, researches are presented by faculty members based on research areas announced at the beginning of each year, where Deanship of Scientific Research supervise the procedures of arbitration and fund follow ups. The project also aims to introduce the efforts of care from the University of Tabuk toward youth as one of the most influential and number of community groups, and to highlight their role in the interaction with the community issues and to provide reference data and documented information that help the university to achieve its community goals, it also aims to reveal youth-related topics that have been presented by researchers from the university faculty members, and to identify youth issues that have not been studied. This study seeks to achieve the objectives through:

1. Survey research funded by the university in the last five years.
2. Classification of research funded by the university based on study and research areas.
3. Determine the role of the university to take care of youth issues through fund research programs.

Title of Project: The Role of the University of Tabuk in the Study of Youth Issues and Development

Dr.Mohammed Abdollah Alzaareer /University of Tabuk – KSA

البحثية التي تساعد الجامعة على القيام بدورها المنوط بها في العملية التعليمية وأداء رسالتها البحثية في التنمية، ولتكون الأساس الذي يركز عليه النشاط البحثي في الجامعة بما يخدمها مستقبلا ويفعل دورها في خدمة المنطقة، وينت المجالات البحثية التي يتم الإعلان عنها ضمن البرنامج السنوي للأبحاث الممولة من الجامعة على الأولويات التي حددتها الدراسة والتي يتم تحديثها في كل عام بما يخدم الجامعة والمنطقة. ومن بين الأولويات البحثية التي تم التركيز عليها الأولويات البحثية في المجال الاجتماعي وشمل ذلك ما يتعلق بقضايا الشباب وتنميتهم. وبعد الإعلان عن تأسيس كرسي الأمير فهد بن سلطان لدراسة قضايا الشباب وتنميتهم في جامعة تبوك عام 1432هـ، بدأت الجامعة بتوجيه بعض المجالات البحثية التي يتم الإعلان عنها لتخدم الشباب وقضاياهم، مما فتح المجال واسعا أمام أعضاء هيئة التدريس لإعداد أبحاث تهتم بالجوانب الفكرية، والنفسية، والاجتماعية للشباب، وبحث السبل المناسبة لتنميتهم، ورصد القضايا والمشكلات التي تواجههم والظواهر والسلوكيات الشبابية الدخيلة على المجتمع السعودي، وتقديم نتائج وتوصيات تساهم في وضع حلول مناسبة للعديد من المشكلات.

• أهمية الدراسة

تكن أهمية الدراسة في أنها تسعى إلى تتبع دور الجامعة في دراسة قضايا الشباب وما تقدمه من دعم مادي للأبحاث الممولة التي يقوم بإعدادها أعضاء هيئة التدريس ضمن المجالات البحثية التي يتم الإعلان عنها مع بداية كل عام على البرنامج السنوي الذي تشرف على إجراءاته عمادة البحث العلمي بالجامعة. كما أن الدراسة تحاول إبراز دور جامعة تبوك في التفاعل مع قضايا المجتمع، وتوفير بيانات ومعلومات مرجعية موثقة عن دور الجامعة المجتمعي. وحصص الموضوعات المتعلقة بالشباب التي تم تناولها من الباحثين من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، والتعريف بها، كما أن الدراسة قد تكشف عن الموضوعات التي لم تدرس وتم الشباب لتوجيه الأبحاث نحوها.

تركز الدراسة على حصص الأبحاث العلمية التي تم تنفيذها ضمن برنامج الأبحاث الممولة من الجامعة منذ العام 1429هـ وحتى عام 1434هـ ثم تصنيف الأبحاث الممولة من الجامعة حسب الموضوعات للتعرف على الموضوعات التي تم التركيز عليها من الباحثين، وتمت الإشارة باختصار إلى الأبحاث الممولة التي تعالج بعض المشكلات الأكاديمية للطلبة لأن هذه الموضوعات مرتبطة بشكل مباشر بالعملية التعليمية وتعد من المهام الرئيسة للجامعة في رسالتها التعليمية.

تتجه الدراسة بعد ذلك نحو تحليل نماذج من الأبحاث الممولة من الجامعة المتعلقة بقضايا الشباب من خلال الإشارة إلى أهمية هذه الأبحاث وأهدافها ونتائجها وتوصياتها، ثم حاولت الدراسة تحديد دور الجامعة في الاهتمام بقضايا الشباب والتعرف على نقاط القوة لتعزيزها،

والوقوف على نقاط الضعف ومعالجتها، لترسم سياسة واضحة وبرامج تؤدي إلى دور أكثر فاعلية للجامعة في التعامل مع قضايا الشباب، حتى تتمكن من تعزيز حضورها في ذهنية الشباب وجذبهم إليها وتوجيههم بما يخدم الوطن ومنجزاته والمحافظة عليه. اعتمدت الدراسة بشكل رئيس على المعلومات الواردة في ملخصات الأبحاث الممولة والنتائج والتوصيات فيها، والتي أعدها أعضاء هيئة التدريس ومولتها الجامعة، وامت الإشارة في الهامش إلى اسم الباحث وعنوان البحث وأنه ممول من الجامعة وسنة التمويل ورقم البحث، كما اعتمدت على العديد من المراجع والدراسات الحديثة، ونظرا لطبيعة الموضوع وارتباطه بالجامعة اعتمدت الدراسة إضافة إلى ذلك على إصدارات الجامعة من كتيبات تعريفية، ونشرات إعلامية وملخصات الأبحاث الممولة الصادرة عن عمادة البحث العلمي والإعلانات السنوية عن المجالات البحثية، وبعض المقالات المرتبطة بموضوعات الشباب والكتب الصادرة عن الجامعة.

هذا جهد اجتهدت في تنظيمه وترتيبه وتحليل معلوماته فإن أصبت فبتوفيق من الله وله الحمد والشكر عليه وإن أخطأت فمن نفسي ومن غير قصد.

• جامعة تبوك والبحث العلمي

تولي جامعة تبوك ومنذ تأسيسها عام 1427هـ¹ البحث العلمي أهمية كبيرة فقد تضمنت رسالتها ورؤيتها تأكيداً على الاهتمام بهذا الجانب الهام والحيوي. وبدأت الجامعة باتخاذ خطوات عملية لتهيئة بيئة بحثية ملائمة بالجامعة، تؤدي فيما بعد إلى تحقيق رؤية الجامعة ورسالتها وأهدافها الإستراتيجية في الاستفادة من البحث العلمي في تحقيق التنمية الشاملة وفي تنمية الإبداع والابتكار، ولتحقيق ذلك أصدر معالي مدير الجامعة قراراً عام 1428هـ يقضي بإنشاء وحدة البحوث والاستشارات بالجامعة، تتولى الإشراف على النشاط البحثي لأعضاء هيئة التدريس بالجامعة، وتعنى بتهيئة البيئة البحثية في الجامعة، ثم تحولت الوحدة إلى عمادة مسمى عمادة البحث العلمي، بعد صدور قرار معالي مدير الجامعة بتكليف أول عميد لعمادة البحث العلمي بتاريخ 1430/10/25هـ، وأصبحت عمادة البحث العلمي المرجعية البحثية والأكاديمية التي تعنى بإدارة وتنظيم شؤون البحوث والدراسات والاستشارات، وتنمية وتطوير البيئة البحثية بالجامعة²، وحتى تسهم العمادة في تحقيق رؤية ورسالة الجامعة، في مجال البحث العلمي حرصت على تأسيس عدد من الوحدات التي تسهم

¹ - انظر البرقية الصادرة من ديوان رئاسة الوزراء برقم 3514/م ب وتاريخ 1427/5/3هـ المتضمنة موافقة خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز على إنشاء جامعة تبوك) انظر أيضا التقرير السنوي للجامعة الصادر عام 1432/1433هـ)

² - (انظر القرار الإداري الصادر من معالي مدير الجامعة رقم 9/ت/1428هـ وتاريخ 1428/12/1هـ)

في تطوير البيئة البحثية بالجامعة، وتسهم كلها في تشجيع الشباب من طلاب الجامعة في المراحل المختلفة للمشاركة بإعداد الأبحاث ومن هذه الوحدات: وحدة الأبحاث الممولة من الجامعة التي أنشئت عام 1431هـ¹، وتتولى الإشراف على الإجراءات الإدارية والمالية للأبحاث التي تمويلها الجامعة سنويا (كما أنشأت العمادة في عام 1434هـ ثلاث وحدات تعنى بالأنشطة البحثية الأولى وحدة جوائز التميز البحثي وتولت العمل على وضع الآليات المناسبة لتحفيز الباحثين وتنشيط النشر العلمي لأعضاء هيئة التدريس بالجامعة² والثانية وحدة التمويل الخارجي وتختص بمتابعة الإجراءات الإدارية والمالية والفنية للأبحاث الممولة من خارج الجامعة، والثالثة وحدة براءات الاختراع وتعنى بتشجيع الباحثين والمهتمين بالجامعة على القيام بأبحاث متميزة تؤدي إلى براءات اختراع وإعداد القواعد المنظمة لذلك من آليات ونماذج وإجراءات لتسجيل براءات الاختراع⁴.

وفي عام 1432هـ تم إنشاء مركز أبحاث شبكات الاستشعار والأنظمة الخلوية بدعم من وزارة التعليم العالي، للمساهمة في تطوير قاعدة للأبحاث في مجالات شبكات الاستشعار اللاسلكية، تكون قادرة على بناء كوادرات وطنية متخصصة ومتميزة في مجالات الأنظمة الخلوية وشبكات الاستشعار، إضافة إلى بناء مرجعية علمية وتقنية بالملكة لدراسة الشبكات الخلوية اللاسلكية وشبكات الاستشعار⁵. وفي تطور آخر في العام نفسه، تم إنشاء معهد البحوث والاستشارات بالجامعة، ليتولى إجراء الدراسات وتقديم الاستشارات والخدمات العلمية والبحثية مدفوعة الثمن لكافة القطاعات الحكومية والخاصة⁶.

ولتحقيق دور تفاعلي بين الجامعة والمجتمع في مجال البحث العلمي، فإن الجامعة ممثلة بعمادة البحث العلمي، سعت إلى إبراز دورها في خدمة مجتمع منطقة تبوك كخطوة تتبعها فيما بعد خطوات أخرى تحاكي ما تصبو إليه إدارة الجامعة من تفعيل لدورها في خدمة المنطقة في ميادين عديدة، ولعل من الأدلة الملموسة والواضحة لهذا الدور ما تخصصه الجامعة من دعم مالي يتزايد مع كل عام، وهذا التزايد في الدعم المالي يرافقه تزايد في أعداد الأبحاث الممولة من الجامعة، فعلى مدار الست سنوات من عمر عمادة البحث العلمي، التي تشرف على النشاط

¹ - انظر القرار الإداري الصادر من معالي مدير الجامعة رقم 30/11/259 ق وتاريخ 1430/10/25هـ.

² - انظر القرار الإداري الصادر عن وكالة الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي رقم 31/34/167 د تاريخ 1431/5/25هـ.

³ - (انظر القرار الإداري الصادر عن مكتب معالي مدير الجامعة رقم 34/052/18577 تاريخ 1434/3/23هـ).

⁴ - (انظر القرار الإداري الصادر عن مكتب معالي مدير الجامعة رقم 34/052/26199 تاريخ 1434/4/23هـ).

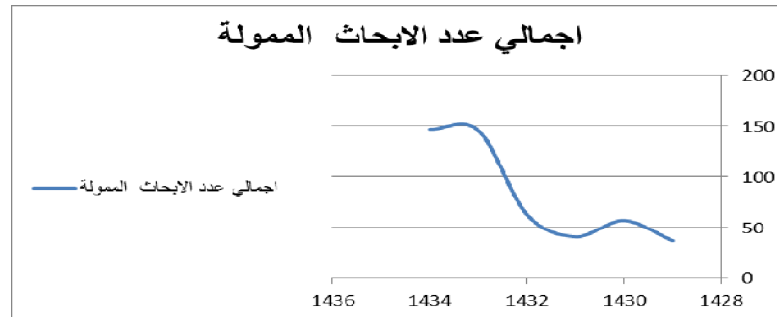
⁵ - (انظر قرار الانشاء الصادر عن مكتب معالي مدير الجامعة رقم 34/052/43865 تاريخ 1434/7/5هـ).

⁶ - دليل الجامعة، الاصدار الاول ص 74-75.

البحثي في الجامعة، تم تمويل ما يزيد على 491 بحثا كما هو مبين بالجدول رقم (1) في مجالات العلوم المتنوعة، أي بمعدل ما يزيد على الثمانين بحثا في السنة.

م	السنة	إجمالي عدد الأبحاث الممولة	الميزانية المخصصة
1	1429	37	1872860
2	1430	57	3670000
3	1431	41	3798000
4	1432	63	6206500
5	1433	146	8.735.500
6	1434	147	13,008,651
	الإجمالي	491	37291511

جدول رقم (1)



- الأبحاث العلمية (برنامج الأبحاث الممولة من الجامعة خلال الخمس سنوات الأخيرة
- يبين عدد الأبحاث الممولة من الجامعة منذ تأسيسها ما قامت به الجامعة تجاه الشباب الذين يمثلون شريحة هامة ومؤثرة في المجتمع، ويمكن تتبع هذا الدور من خلال عدد الأبحاث ذات العلاقة بقضايا الشباب، اعتمادا على البيانات الموجودة في عمادة البحث العلمي - الجهة المشرفة على النشاط البحثي - والحصص للأبحاث يبدأ بالإشارة إلى المجالات البحثية التي يتم الإعلان عنها سنويا من الجامعة، ثم يتم حصر الأبحاث الممولة في العام نفسه المعلن عن مجالاته البحثية وتم وضع البيانات المتعلقة بالأبحاث الممولة في جدول يتضمن اسم الباحث، والقسم، والكلية، وعنوان البحث، ورقمه الذي تم التمويل المالي على أساسه.
- إن أهمية دراسة ما يتعلق بالمجتمع المحلي مثل وما زال أحد أهم الأولويات التي تهتم بها الجامعة، وانطلاقا من ذلك ركزت عمادة البحث العلمي عملها لترجمة اهتمامات الجامعة على الواقع باتجاهين رئيسيين هما:

أولاً: دراسة الأولويات البحثية التي تهتم الجامعة والمجتمع

بدأت الجامعة بتلمس ما يمكن أن تقدمه للمجتمع في مجالات البحث العلمي من خلال إجراء دراسة علمية قام على إعدادها فريق علمي من أعضاء هيئة التدريس يرأسه أول مشرف على وحدة البحوث والاستشارات بالجامعة عام 1429/1428 هـ وعنوانها "الأولويات البحثية من وجهة نظر أعضاء هيئة التدريس في جامعة تبوك ومديري مؤسسات المجتمع المحلي في منطقة تبوك للعام الجامع 1429/1428 هـ" وشكلت الدراسة الركيزة التي مكنت الجامعة من الوقوف على الموضوعات الملحة التي تحتاج إلى البحث والدراسة، كما كانت الدراسة أحد العوامل المساعدة في البدء بالتهيئة لبيئة مناسبة لبناء جسور من العلاقة بين الجامعة وبين مؤسسات المجتمع المحلي خاصة في مجال التنمية، كما فتحت الباب لتبادل الأفكار بين أعضاء هيئة التدريس في الجامعة وإدارات المجتمع المحلي¹ وقد صدرت الدراسة بكتاب من إصدارات العادة في العام 1431 هـ واعتمدت الدراسة على توزيع الاستبيانات على أعضاء هيئة التدريس والمسؤولين بالجامعة ومديري الإدارات المحلية الحكومية والأهلية، ثم تم جمع الاستبيانات وتحليلها واستخلاص النتائج التي بني عليها فيما بعد الإعلان عن المجالات البحثية².

ثانياً: الإعلان السنوي عن المجالات البحثية التي تهتم المجتمع المحلي

درجت الجامعة منذ العام الأول على تأسيس وحدة البحوث والاستشارات في أواخر عام 1428 هـ على الإعلان عن مجالات بحثية ساهمت في إحداث نشاط بحثي بين أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، وتطورت هذه المجالات فيما بعد لتحاكي متطلبات المجتمع وحاجاته، وخصصت الجامعة سنوياً نسبة من الميزانية لدعم الأبحاث العلمية المقدمة من أعضاء هيئة التدريس على المجالات البحثية المعلن عنها سنوياً، ويأتي ذلك في إطار الاستفادة من الإمكانيات المتاحة لدى الجامعة لإعداد دراسات علمية تتعلق بالمجتمع المحلي وتؤسس لعلاقة وثيقة بين الجامعة والمجتمع. وسوف توضح الدراسة البيانات المتعلقة بالأبحاث الممولة والتي تم تقديمها على المجالات البحثية المعلن عنها سنوياً من عمادة البحث العلمي ضمن البرنامج السنوي لتمويل الأبحاث³.

¹ - دليل الجامعة، الإصدار الأول ص 75.

² - (انظر العطوي، عويض بن حمود وآخرون، الأولويات البحثية في جامعة تبوك والمجتمع المحلي العام الجامعي 1428-1429 هـ، إصدارات عمادة البحث العلمي، جامعة تبوك، 1431 هـ وسيشار إليه عند تكرار ورود عويض العطوي، الأولويات البحثية).

³ - (عويض العطوي، الأولويات البحثية)

• تصنيف وتحليل الأبحاث الممولة من الجامعة في قضايا الشباب

بعد المراجعة المتأنية لهذه الأبحاث التي تم تمويلها على مراحل خلال الست سنوات الماضية، فإن الموضوعات الرئيسة التي تناولت قضايا الشباب تصنف على محاور رئيسة شملت: الأمن الفكري، وموضوعات تبحث في ذوي الاحتياجات الخاصة، وموضوعات تتناول المجال الصحي للشباب، وموضوعات تبحث في بعض الظواهر السلبية المنتشرة بين الشباب، في حين تناولت موضوعات أخرى المخدرات وأضرارها وطرق الوقاية منها، وموضوعات تناولت البطالة التي يعاني منها قطاع واسع من الشباب، وأسبابها وطرق علاجها، كما أن عددا من الدراسات بحثت مواضيع في المشكلات التعليمية والأكاديمية¹.

• تقييم دور الجامعة في البحث بقضايا الشباب

ان اهتمام الجامعة في قضايا الشباب يبدو ظاهرا من خلال احتضانها لكرسي الأمير فهد بن سلطان لدراسة قضايا الشباب وتمييزهم الذي أعلن عن تأسيسه بالجامعة عام 1431هـ² ويظهر أيضا في المجالات البحثية التي يتم الاعلان عنها سنويا والتي تضمنت في كل عام مجالات تتعلق بقضايا تهم الشباب، ويتلاقى هذا الاهتمام مع التوجهات الوطنية للمملكة العربية السعودية في الاهتمام بقضايا الشباب والتي من أبرزها إنشاء المركز الوطني لأبحاث الشباب في جامعة الملك سعود عام 1427هـ³، ومبادرة وزارة الاقتصاد والتخطيط الهادفة الى تطوير الإستراتيجية الوطنية للشباب ضمن مشروع تم الاتفاق على تنفيذه بين وزارة الاقتصاد والتخطيط وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي⁴ وتأسيس كرسي الأمير نايف بن عبدالعزيز لتنمية الشباب⁵، وفي عام 1431هـ تم توقيع اتفاقية إنشاء كرسي الأمير محمد بن فهد لدعم المبادرات الشبابية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية⁶.

¹ - الليبي، فهد بن مسعد وآخرون، صناعة البحث العلمي في الجامعات الناشئة "تجربة جامعة تبوك نموذجاً" ورقة عمل مقدمة في منتدى الشراكة المجتمعية في مجال البحث العلمي "صناعة البحث العلمي في المملكة" جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 22-23 جمادى الأولى 1432هـ، 26-27 إبريل 2011م

² - جامعة تبوك، كتيب تعريف، جامعة تبوك، إصدارات الجامعة عم 1432هـ ص 14، انظر أيضا صحيفة الرياض، 25 ذي الحجة 1431، العدد 15500

³ - عمادة البحث العلمي بجامعة تبوك، ملخصات الأبحاث العلمية الممولة من الجامعة الإصدار الثاني عام 1429/1430هـ والإصدار الثالث عام 1430/1431هـ والإصدار الرابع عام 1431/1432هـ والإصدار الخامس عام 1432/1433هـ.

⁴ - الموقع الإلكتروني الرسمي للمركز الوطني لأبحاث الشباب على الرابط <http://ncys.ksu.edu.sa/intor> وسيشار اليه عند تكرار وروده الموقع الإلكتروني الرسمي للمركز الوطني لأبحاث الشباب.

⁵ - الموقع الإلكتروني لوزارة الاقتصاد والتخطيط في المملكة العربية السعودية على الرابط <http://www.mep.gov.sa/themes/GoldenCarpet/index.jsp#1382636815260> وسيشار اليه عند تكرار وروده الموقع الإلكتروني لوزارة الاقتصاد والتخطيط في المملكة العربية السعودية

⁶ - انظر الموقع الرسمي الإلكتروني لكرسي الأمير محمد بن فهد لدعم المبادرات الشبابية على الرابط التالي http://www.imamu.edu.sa/research_chairs/Youth_initiatives/Pages/default.aspx وسيشار اليه عند تكرار وروده الموقع الإلكتروني لكرسي الأمير محمد بن فهد.

كما يظهر دور جامعة تبوك في الاهتمام بقضايا الشباب من خلال تجاوب أعضاء هيئة التدريس مع المجالات البحثية وينسجم ذلك مع توجهات الجامعة في إيجاد بيئة بحثية قادرة على تلبية حاجات المجتمع والمنطقة والتنمية، ويظهر من خلال حصر وتصنيف الأبحاث الممولة من الجامعة خلال الست سنوات من بدء العمل بتمويل الأبحاث أن من أبرز الموضوعات التي لاقت اهتماما من الباحثين ما يتعلق بالأمن الفكري¹ وسبل تحصين الشباب من الإخطار التي تهدد ثقافتهم وقيمهم وجاء هذا الموضوع في المرتبة الأولى وقد ركزت العديد من الأبحاث في هذا المجال على اقتراحات في الدور الذي يمكن أن تقدمه الجامعة في تحصين الشباب حمايتهم، وجاء في المرتبة الثانية تناول موضوعات تتعلق ببعض المشكلات الأكاديمية والتعليمية للطلبة² وفي المرتبة الثالثة الأبحاث التي تناولت ما يتعلق بذوي الاحتياجات الخاصة³ ثم الموضوعات التي تناولت الظواهر والمشكلات السلوكية وسبل علاجها⁴ ثم تلا ذلك الأبحاث المتعلقة بأضرار المخدرات وسبل الوقاية منها⁵ ثم الأبحاث التي تناولت بعض الموضوعات الصحية والطبية للشباب⁶ وتم إعداد دراسة في أسباب البطالة وطرق علاجها⁷، ويبين الجدول رقم (2) توزيع عدد الأبحاث حسب الموضوعات المتعلقة بقضايا الشباب.

٢	الموضوع	عدد الأبحاث الممولة
1	الأمن الفكري	20
2	المشكلات الأكاديمية	11
3	ذوي الاحتياجات الخاصة	8
4	الظواهر والمشكلات السلوكية وطرق علاجها	6
5	المخدرات اضرار وسبل الوقاية منها	5
6	المجال الصحي والطبي	4
7	البطالة	1
الإجمالي		55

جدول رقم (2)

وقد جاءت كلية التربية والآداب في المرتبة الأولى من بين الكليات التي تناولت قضايا الشباب بالبحث والدراسة وربما يعود السبب في ذلك لارتباط هذه الموضوعات بالتخصصات الموجودة في الكلية إذا ان قسم التربية وعلم النفس كان الأكثر مشاركة في أعداد أبحاث تتعلق

¹ - ملخصات الأبحاث الممولة من جامعة تبوك الإصدار الخامس.
² - ملخصات الأبحاث الممولة من جامعة تبوك الإصدار الثاني والثالث والخامس.
³ - ملخصات الأبحاث الممولة من جامعة تبوك الإصدار الرابع.
⁴ - ملخصات الأبحاث الممولة من جامعة تبوك الإصدار الرابع والخامس.
⁵ - ملخصات الأبحاث الممولة من جامعة تبوك، عمادة البحث العلمي، أبحاث غير منشورة.
⁶ - ملخصات الأبحاث الممولة من جامعة تبوك الإصدار الثاني الرابع والخامس.
⁷ - البقي، متعب بن عايش وآخرون، البطالة في منطقة تبوك، حجمها، أسبابها، وسائل علاجها، بحث ممول من جامعة تبوك للعام 1433 هـ كتاب تحت النشر.

بقضايا الشباب يليه قسم المناهج وطرق التدريس ثم قسم التربية الخاصة ثم قسم الادارة والتخطيط التربوي.

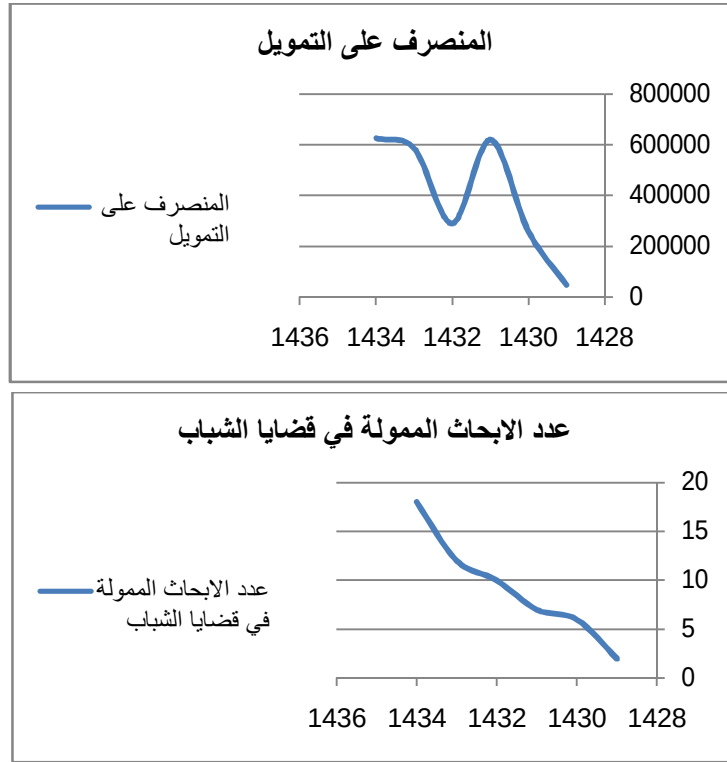
وإضافة إلى ما تقدم من مؤشرات عن مشاركة كليات الجامعة وأقسامها في تناول قضايا الشباب فإنه ينبغي الإشارة إلى توضيح دور الجامعة في الإنفاق على الأبحاث المتعلقة بالشباب قياسا مع إجمالي ما تم إنفاقه على الأبحاث الممولة منذ تأسيس وحدة البحوث والاستشارات بالجامعة وحتى عام 1434هـ ويبين الجدول رقم (3) العدد الكلي للأبحاث الممولة من الجامعة¹ وعدد الأبحاث الممولة في قضايا الشباب ويبين الجدول نفسه أيضا إجمالي ما تم إنفاقه على الأبحاث الممولة في كل سنة ثم ما تم إنفاقه على الموضوعات المتعلقة بالشباب، وذلك حتى يمكن التعرف على ما قدمته الجامعة اتجاه هذه الشريحة الهامة في المجتمع والتي يقع على عاتقها بناء الوطن والمحافظة على منجزاته.

السنة	إجمالي الأبحاث الممولة	ميزانية التمويل	عدد الأبحاث الممولة في قضايا الشباب	المصرف على التمويل
1429	37	1872860	2	50000
1430	57	3670000	6	260000
1431	41	3798000	7	619000
1432	63	6206500	10	291000
1433	146	8.735.500	12	584000
1434	147	13,008,651	18	625000
الإجمالي	491	37291511	55	2.429.000

جدول رقم (3)



¹ - عمادة البحث العلمي بجامعة تبوك، مؤشرات الاداء في البحث العلمي، 1434هـ انظر ايضا التقارير السنوية الصادرة عن الجامعة خلال الفترة 1429-1434هـ.



• النتائج

توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج الهامة يمكن تلخيصها بما يأتي:

إن المتتبع للتوجهات العليا للدولة والإستراتيجية الوطنية للشباب يلحظ الدور الذي تقوم به جامعة تبوك في خدمة الشباب، ويلحظ أيضا انسجام هذا الدور مع التوجهات الوطنية العليا. المجالات البحثية التي يعلن عنها سنويا على البرنامج السنوي للأبحاث الممولة من الجامعة ساهمت بشكل كبير في توجيه الدراسات نحو الاهتمام بقضايا الشباب

في الفترة ما بين 1429 - 1434هـ، بلغ عدد الأبحاث الممولة من الجامعة في موضوعات تتعلق بقضايا الشباب، 55 دراسة من إجمالي الأبحاث الممولة من الجامعة وعددها 491 بحثا، وبلغت تكلفة الأبحاث ذات العلاقة بقضايا الشباب 2،429،000 ريال من إجمالي تكلفة الأبحاث الممولة من الجامعة (37، 291، 511) ريال، وإذا ما تم توزيع الميزانية على السنوات والمجالات البحثية المعلن عنها والموضوعات البحثية ذات العلاقة بتخصصات أعضاء هيئة التدريس فإن إجمالي عدد البحوث الخاصة بالشباب قد يكون مناسبا مع توجهات الجامعة وتطلعاتها .

التجاوب والتفاعل من أعضاء هيئة التدريس مع المجالات البحثية كان مناسباً في تناول العديد من الموضوعات التي تهم الشباب.

بعد الأمن الفكري الموضوع الأكثر تناولاً من الباحثين وفي جوانب مختلفة بدءاً من المنظور الإسلامي ومروراً بالشواهد التاريخية وانتهاءً بتحسين الشباب وقيمتهم من أخطار تكنولوجيات الاتصال والتواصل. وبلغ عدد الأبحاث الممولة في هذا المجال البحثي 20 بحثاً من كلية التربية والآداب وبمشاركة من أقسام التربية وعلم النفس والدراسات الإسلامية والإدارة والتخطيط التربوي والمناهج وطرق التدريس.

لاقت موضوعات حيوية وهامة مثل ذوي الاحتياجات الخاصة وما يتعلق بأضرار المخدرات والوقاية منها والسلوكيات والظواهر السلبية وعلاجها، والمشكلات الأكاديمية والتعليمية عناية مناسبة من الباحثين فقد بلغ عدد الأبحاث الممولة في المشكلات الأكاديمية 11 بحثاً في حين بلغ عدد الأبحاث في موضوعات ذوي الاحتياجات الخاصة 8 أبحاث وبلغ عدد الأبحاث المتعلقة بالظواهر والمشكلات السلوكية 6 أبحاث، و5 أبحاث في موضوعات المخدرات، و4 في موضوعات صحية تتعلق بالشباب وبحث واحد في البطالة.

تشخيص عدد من الأبحاث المشكلات المتعلقة بتدريس بعض المقررات العلمية ومستوى التحصيل فيها واقترح الحلول المناسبة لذلك اتجهت كلية الطب إلى دراسة موضوعات هامة وحيوية تتعلق بظواهر صحية أكثر ما تضر فئة الشباب ومن ذلك التدخين وحوادث المرور ركزت عدد من الدراسات على دور الجامعة في تحقيق الأمن الفكري ووضع تصورات مقترحة لبرامج تكون ذات فاعلية كبيرة في المحافظة على المنظومة القيمية للشباب.

• التوصيات

تأسيس مركز توثيق معلومات لكل ما يتعلق بالشباب.
تنظيم ملتقيات شبابية دورية يشارك فيها شباب من كل الجامعات السعودية يتم من خلالها مناقشة ما يهم الشباب ومشكلاتهم والحلول التي يقترحونها.
تنظم الجامعة لقاءاً سنوياً للشباب في المنطقة يحضره مختصون في قضايا الشباب وأصحاب القرار بالجامعة والمنطقة يتم فيه الاستماع للشباب والافتتاح على همومهم وتلمسها.
التنسيق مع إدارات العلاقات العامة والمؤسسات الإعلامية والإدارات المحلية بالمنطقة وتزويدها بأبرز أنشطة الجامعة المتعلقة بقضايا الشباب والدراسات التي يتم إعدادها في ذلك ورصدها وتوثيقها للتعريف بدور الجامعة في خدمة الشباب.
تتولى الجامعة إصدار صحيفة تهتم بالشباب وقضاياهم ويتولى الشباب تحريرها وإدارتها تحت إشراف مسئولين قادرين على التواصل مع الشباب ومتفهمين لقضاياهم.

تعمل الجامعة على تأسيس موقع الكتروني تفاعلي على الصفحة الرئيسية على موقعها الالكتروني للتواصل مع الشباب بحيث يتم تصميم الموقع بشكل علمي يشارك فيه الشباب أنفسهم ويتيح لهم التفاعل مع كل القضايا التي تشغل اهتمامهم وفكرهم. تبادل الخبرات البحثية مع المراكز والكراسي البحثية المهمة بقضايا الشباب داخل المملكة وخارجها.

إعداد خطة مستقبلية يتم فيها تبني دراسات مفيدة للشباب تجعل الشباب يثقون بدور الجامعة والكرسي في إيجاد حلول لمشكلاتهم وتبني قضاياهم. جمع البيانات الشخصية للشباب في المنطقة والتواصل معهم عبر الشبكة الالكترونية بالاميل والحوال لاستقبال أفكارهم ومشكلاتهم وإطلاعهم على أنشطة الجامعة وكرسي الشباب لبناء جسور من الثقة والتواصل والحضور في الأنشطة المتنوعة التي يتبناها الكرسي وتسهم الجامعة بشكل كبير في تنفيذها من خلال الكوادر البشرية الموجودة فيها من أعضاء هيئة التدريس والموظفين.

تسعى الجامعة إلى تكوين مجموعات بحثية من أعضاء هيئة التدريس والشباب لإعداد دراسات تسهم في تنمية الشباب في الميادين المختلفة اقتصاديا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا. تتبنى الجامعة دراسات تمكنها من الكشف عن القدرات والمواهب الموجودة لدى الشباب للعمل على تنميتها وتطويرها بما يخدم الشباب والمنطقة والوطن. على الجامعة أن تقترب كثيرا من الشباب لتلمس همومهم، وإذا تمكنت الجامعة من معرفة ما يعاني منه الشباب من مشكلات من خلال الشباب أنفسهم عند ذلك يمكن إيجاد حلول لمثل هذه المشكلات ومشاركة ممثلين عن الشباب أنفسهم. طرح مبادرة تتضمن آليات مناسبة تمكن الشباب من تقديم أبحاث تتعلق بقضاياهم وتشكيل مجموعات بحثية من الشباب تقوم باستطلاع آراء زملائهم وحصرها وتوثيقها لوضع حلول مناسبة لها.

تقويم كفاءات أم تقويم معارف ومعلومات

د. عواريب الأخضر، محجر ياسين/ جامعة قاصدي مرباح ورقلة

مقدمة:

يعتبر التقويم عنصرا أساسيا من عناصر المنهج الدراسي فهو يرتبط بأهداف التعلم والمقررات الدراسية وطرائق التدريس، كما يعد جزءا من العملية التعليمية في حد ذاتها ذلك أن العملية التعليمية لا يمكن أن تحقق النجاح المطلوب ما لم يتخللها تقويم لنشاط المتعلم، ومن ثم فإن التقويم يعتبر عاملا من العوامل المساعدة على تطوير المنهج الدراسي وكذا تطوير العملية التعليمية بما يعود بالفائدة على المتعلم.

ونظرا للأهمية التي يكتسبها التقويم في العمل التعليمي فإنه كان ولا يزال موضوع اهتمام ودراسة من قبل الباحثين. فمن بين القضايا التي شغلت الباحثين والمختصين في مجال التقويم في القرن العشرين مثلا قضية الاختبارات كوسيلة من وسائل التقويم. ففي سنة 1949م عقد (بلوم) وجاعته من تلاميذ (تيلر) مؤتمرا للجمعية الأمريكية للبيكولوجيا بحثوا فيها الأوضاع التي كان يتم فيها الإعداد للامتحانات، وما كان يجب فعله لإعادة النظر في تلك الأساليب غير المجدية التي برهن الواقع على فشلها وما يمكن أن يقترحوه من بدائل دقيقة ومحددة ومشاركة بغرض تحسين أساليب التقويم وأدواته وتحديد المعايير التي تضبط اختبار المواضيع وتصحيحها. (هني 2005 ص35).

يظهر من خلال ذلك بان المشكلة التي كانت تشغل الباحثين في هذا المجال هي مشكلة الاختبارات التحصيلية كأسلوب من أساليب التقويم. ومن ثم كان التفكير في بدائل تقويمية أخرى بدلا من الاقتصار على الاختبارات التحصيلية. وهذا الانشغال نفسه يطرحه (أنور عقل) حيث يقول في هذا المجال. لازالت للأسف الامتحانات المدرسية في مدارسنا الوسيلة الوحيدة لتقييم تعلم الطلاب، وقد استغلت للحكم على مقدار ما يحصله الطلاب من معلومات خلال العام أو الفصل الدراسي، وقد اعتاد المعلمون والطلاب وأولياء أمورهم مع مرور الأيام والسنوات على أن الهدف النهائي من تعليم الطلاب هو مجرد النجاح في الامتحانات، وقد ترتب على ذلك انه قد أصبحت الدرجات التي يحصل عليها الطالب في امتحاناته هي غاية في حد ذاتها وليست وسيلة للدلالة على أي نمو معين عنده. (عقل 2001 ص17).

علما بان الاختبارات التي كانت محل انتقاد من طرف الباحثين في نهاية القرن السابق، هي

الاختبارات الموضوعية التي تستند إلى فلسفة المدرسة السلوكية في عمليتي التدريس والتقييم على حد سواء.

- ومن العيوب التي عيبت على هذه الاختبارات كما تذكر (هارت) أنها:
- تعطي قيمة عالية لحفظ أو تذكر المعارف على حساب فهمها ومحاكمتها فكريا.
- تعطي انطبعا مضللا من انه يوجد جواب واحد صحيح لكل سؤال.
- تجعل المتعلمين سلبين يحتاجون فقط إلى تحديد الإجابات الصحيحة وليس إلى بناء أو تكوين هذه الإجابات. (الخليلي 1998 ص 121).

هذه الانتقادات التي ذكرناها والتي وجهت إلى الممارسة التقييمية عموما وإلى الاختبارات التحصيلية كشكل من أشكال التقييم خصوصا كانت عاملا مهما في ظهور مقاربة التدريس بالكفاءات التي تستند إلى النظرية البنائية (Constructivisme) والتي تعتبر نظرية نفسية لتفسير التعلم وأساسا رئيسيا من الأسس النفسية لبناء المناهج المدرسية، إذ ترى أن الطفل لا يأتي إلى المدرسة بعقل فارغ، بل لديه خبرات سابقة يمكن البناء عليها. وأن المعرفة تبنى ولا تنقل وأنها تنتج عن نشاط معين ثم إن بناء المعرفة من وجهة نظر هؤلاء البنائيين هي عملية تفاوضية اجتماعية أي عن طريق الشراكة بين المتعلم والمدرس في الإدراك وتكوين المعنى ولذا تركز المناهج على الكيف المنهجي بدلا من الكم المعرفي. (حاجي 2005 ص 08).

اطلاقا من ذلك أصبحت المناهج الدراسية وفق هذه المقاربة الجديدة تخصص مساحة كبيرة للمتعم للقيام بمجموعة من النشاطات التي تسمح ببناء المعارف وكذا تطبيقها وتوظيفها في مواقف معينة، كما أصبحت العملية التقييمية لا تقتصر على اختبار ما حصله المتعلم من معارف ومعلومات وإنما تتعدى ذلك إلى قياس الكفاءات المكتسبة من خلال العملية التدريسية.

ولمعرفة ما إذا كانت الاختبارات المعتمدة من قبل المدرسين تقيس كفاءات حقيقية أم أنها لا تعدو أن تكون اختبارات تحصيلية تقليدية قمنا بدراسة ميدانية أجبنا من خلالها على التساؤلات التالية

- هل الاختبارات المعتمدة من طرف المدرسين تقيس كفاءات حقيقية كما تتطلبه مقاربة التدريس بالكفاءات؟
- هل تختلف الاختبارات المعتمدة من طرف المدرسين (في كونها تقيس كفاءات أم لا) باختلاف المرحلة التعليمية؟
- هل تختلف الاختبارات المعتمدة من طرف المدرسين (في كونها تقيس كفاءات أم لا) باختلاف طبيعة تكوين المدرس؟
- هل تختلف الاختبارات المعتمدة من طرف المدرسين (في كونها تقيس كفاءات أم لا)

باختلاف الأقدمية في التدريس ؟
قبل الإجابة على هذه التساؤلات رأينا أن نعرف بهذه المقاربة وعلى خصائصها وكذا خصائص
التقويم وفق هذه المقاربة.

- تعريف مقارنة التدريس بالكفاءات
قبل التعريف بهذه المقاربة يحسن بنا أن نتعرف على الكفاءة لغة واصطلاحا.

- تعريف الكفاءة *Compétence*

- تعريف الكفاءة لغة

تطلق الكفاءة في اللغة على القدرة والجدارة، فنقول شخص كفؤ في عمله أي قادر على أداء
عمله بجدارة.

ولقد ورد لفظ الكفاءة في المعاجم اللغوية بمعنى المساواة والمثالة، وهي مأخوذة من الفعل كفاً
ومنه الكفاء والمثل والنظير. (الرازي 1981 ص 572).

وانطلاقاً من ذلك يستعمل مصطلح الكفاءة في الزواج، والكفاءة في الدين، والكفاءة في
النسب، والكفاءة في المال. الخ.

أما مصطلح الكفاية الذي كثيراً ما يستعمل كمرادف للكفاءة، فإنه يعني في اللغة الاكتفاء
والاستغناء عن الغير ومنه قوله تعالى " وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا "(1).

- تعريف الكفاءة اصطلاحا

إن مفهوم الكفاءة مفهوم متعدد الاستعمال polysémique فتارة يرتبط بالهدف الخاص
objectif spécifique وتارة يرتبط بالأداء performance وتارة أخرى يرتبط بالقدرة المعرفية
Capacité Cognitive. ولذلك حظي مصطلح الكفاءة بالعديدة من التعاريف، حتى
تجاوزت المائة تعريف نكتفي منها بالتعاريف التالية:

- تعريف: Louis D'hainout

الكفاءة هي مجموعة من التصرفات الاجتماعية والوجدانية ومن المهارات المعرفية أو من المهارات
النفسية الحس / حركية التي تمكن من ممارسة دور أو وظيفة، نشاط، مهمة أو عمل معقد على
أكمل وجه. (وزارة التربية الوطنية 2001 ص 23)

- تعريف: Leboterf

الكفاءة هي حسن التصرف. وحسن التصرف في نظره يتضمن ثلاث عمليات أساسية وهي:
معرفة التجنيد Savoir Mobilizer

1- الآية رقم (25) سورة الأحزاب.

Savoir Intégrer معرفة الدمج

Savoir Transférer معرفة التحويل

• تعريف: V. Delandsheer

تعرف هذه الباحثة الكفاءة بأنها لفظ يدل على القدرة على تنفيذ مهمة معينة بأسلوب مرض. (بوعلاق 2006 ص 192).

إن هذه التعاريف التي أوردناها رغم أنها تظهر بأنها مختلفة في ظاهرها وفي الألفاظ المستعملة فيها إلا أنها في الحقيقة تلتقي جميعها في الخصائص التالية:
- إن الكفاءة تحمل معنى القدرة على القيام بعمل معين، إذ لا معنى للكفاءة مع العجز على إنجاز مهمة ما، وهذا ما يتفق مع المعنى اللغوي لمصطلح الكفاءة.
- إن الكفاءة هي عملية دمج وتفعيل وتوظيف للمعارف، وفي هذا إشارة إلى دور الذات في التعامل مع ما تستقبله من مثيرات خارجية كما يرى أصحاب النظرية البنائية التي تقوم عليها هذه المقاربة.

- إن الكفاءة من خلال التعاريف السابقة تبرز في مواقف ووضعيات معينة، أين يجد الشخص نفسه أمام مشكلة لإيجاد حل لها لأن الكفاءة لا يمكن تطويرها لدى المتعلم إلا بوضعه أمام وضعيات معقدة أين يتطلب الأمر توظيف المعارف والمكتسبات.
بعد أن عرضنا هذه التعاريف، يجدر بنا أن نشير إلى أن مصطلح الكفاءة قد أستخدم في مجالات متعددة، وفي ميادين مختلفة، فلقد ارتبط بداية بالوسط المهني حيث كان يعني في هذا المجال إنجاز العامل للنشاط الذي كلف به، ومن هنا ظهر مصطلح الكفاءة المهنية Competence professionnelle والذي يعني قدرة الشخص على استعمال مكتسباته من أجل ممارسة وظيفة أو حرفة أو مهمة حسب متطلبات محددة ومعترف بها في عالم الشغل.
ويعتبر (دومنتولان DeMontemolin) أول من ادخل هذا المفهوم إلى ميدان العمل حيث اعتقد أنه أصبح من الضروري استعماله إذا رغبتنا ليس فقط في الوصف بل أيضا في التحليل والتفسير أي تفسير السلوكات المهنية، (بوعلاق 2006 ص 73).

انطلاقا من ذلك يمكن أن نستنتج بأن مصطلح الكفاءة اخذ مفهوما عاما في المجال المهني إذ لم يقتصر على اكتساب المعارف والمهارات، بل تعداه إلى استعمال هذه المعارف والمهارات في وضعيات جديدة في إطار الحقل المهني، كما يشمل أيضا تنظيم العمل وتخطيطه وكذلك الابتكار والقدرة على التكيف مع النشاطات المهنية.

ولقد انتقل مفهوم الكفاءة من المجال الصناعي إلى المجال التربوي، نتيجة للأوضاع المتردية التي آل إليها قطاع التربية والتعليم، بحيث أصبح عاجزا عن تلبية حاجات الإنسان وطموحاته في

ظل مقارنة التدريس بالأهداف، خاصة مع بروز الفارق الكبير بين مردود المؤسسة التربوية (المدرسة) والمؤسسة الصناعية الذي لاحظته بشكل واضح رجال التربية حينها، مما أدى إلى تزايد الانتقادات والاحتجاجات للمطالبة بالتغيير.

في ظل هذه الأوضاع ورغبة في النهوض بالقطاع التعليمي والرفع من مستوى مردوديته ومسايرة للنهضة الصناعية، كان لابد من استعارة مفهوم الكفاءة وتكييفه مع الواقع المدرسي، ومن ثم كان تبنى مقارنة التدريس بالكفاءات كطريقة مثلى لتحقيق الغايات السابقة، وصار مفهوم الكفاءة بالمعنى الذي ذكرناه سابقا هو المفهوم المعتمد في بناء المناهج التعليمية والطرائق التدريسية. (هني 2005 ص50).

وتعتبر (ف. دولانشير V. Delandsheer) من الذين ساهموا مساهمة فعالة في استعارة هذا المفهوم وإدخاله إلى المجال التربوي مع الاحتفاظ بنفس المعنى السابق الذي يفيد بأن الكفاءة ليست معرفة تكتسب وإنما هي بعد ذلك توظيف واستثمار للمعرفة.

1- تعريف مقارنة التدريس بالكفاءات L'approche par compétence

تعرف هذه المقاربة بأنها نموذج من نماذج التدريس يسعى إلى تطوير قدرات المتعلم ومهاراته الإستراتيجية والفكرية والمنهجية والتواصلية من أجل دمجها في محيطه ومن أجل تمكينه من بناء معرفته عن طريق التعلم الذاتي. (بوعلاق 2005 ص178).

كما تعرف كذلك بأنها بيداغوجية وظيفية تعمل على التحكم في مجريات الحياة بكل ما تحمله من تشابك في العلاقات، وتعد في الظواهر الاجتماعية، ومن ثم فهي اختيار منهجي يمكن المتعلم من النجاح في هذه الحياة على صورتها، وذلك بالسعي إلى تجميع المعارف المدرسية وجعلها صالحة للاستعمال في مختلف مواقف الحياة. (حاجي، 2005 ص11).

يلاحظ من خلال هذين التعريفين بأن هذه المقاربة تركز على ربط المدرسة بالحياة وتعطي للعملية التعليمية بعدها الوظيفي بحيث يمكن أن يستغلها المتعلم وان يوظفها داخل المدرسة وخارجها.

ولا يفهم من ذلك بأن مقارنة التدريس بالكفاءات تدير ظهرها للمعارف وإنما على العكس من ذلك فهي تعطي أهمية بالغة للمعارف لكنها تعتبرها كمورد يمكن تجنيدها لمواجهة مشكلات معينة. (Roegiers 2004 p120).

والتجارب تطلعنا يوميا على أشخاص ذوي معارف وقدرات غير أنهم لا يحسنون تجنيدها في وضعية عمل بشكل مفيد، وفي الوقت المناسب، وهذا ما يعاني منه الطلاب حينما يتخرجون من الجامعات والمؤسسات التكوينية، حيث يجدون أنفسهم عاجزين عن استغلال معارفهم واستثمارها حسبما تتطلبه الحياة المهنية.

2- خصائص مقارنة التدريس بالكفاءات

- وانطلاقاً من ذلك فإن مقارنة التدريس بالكفاءات تتميز بالخصائص التالية:
- أ- حرية المدرس واستقلاليته أي أنها تحرر المدرس من الروتين وتشجعه على اختيار الوضعيات والنشاطات التعليمية التي تؤدي إلى تحقيق الكفاءات المستهدفة.
 - ب- التقويم البنائي، أي أن التقويم وفق هذه المقاربة لا يقتصر على فترة معينة وإنما يساير العملية التعليمية، والمهم في العملية التقييمية هنا هو الكفاءة وليس مجرد المعرفة.
 - ج- تحقيق التكامل بين المواد أي أن الخبرات التي تقدم للمتعلم تقدم في إطار مندمج لتحقيق الكفاءات المستعرضة.
 - د- التخفيف من محتويات المواد والأنشطة الدراسية.
 - ر- تفعيل المضامين والمحتويات وتحويلها من مجرد معرفة نظرية إلى معرفة فعلية.
 - ز- الأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية بين التلاميذ وذلك بتوفير العديد من الأنشطة التقييمية التي تساعد على تحديد مستوى الإنجاز الذي حققه كل طالب على حده.

3- التقويم في إطار مقارنة التدريس بالكفاءات

انطلاقاً مما تعرضنا له سابقاً فإن التقويم في إطار مقارنة التدريس بالكفاءات يتضمن معنى جديداً يتناسب مع طبيعة هذه المقاربة وفي نفس الوقت يتناسب مع النظرة الحديثة للعملية التقييمية ومن ثم فإن التقويم وفق هذه المقاربة الجديدة هو عملية إصدار حكم على مدى كفاءة المتعلم في ميدان من الميادين وليس على المعارف المكتسبة، ولقد صدر منشور خاص عن وزارة التربية الوطنية يعتبر التقويم ليس مجرد أداة مساعدة أو وسيلة اتخاذ قرار وتسيير وظيفي، بل هو ثقافة يجب تبنيتها لدى كل المتدخلين في المسار التربوي وإدراجها ضمن ديناميكية شاملة لإحداث تغيير نوعي.

وبناء على هذا المعنى الجديد الذي يتضمنه مفهوم التقويم فإننا نستخلص الخصائص التالية للتقويم في إطار المقاربة الجديدة، وتمثل هذه الخصائص فيما يلي:

- 1- لا يركز التقويم بالدرجة الأولى على المعارف وحدها بقدر ما يركز على التنمية الشاملة للمتعلم.
- 2- يقوم على وضع التلميذ في وضعية يدعى فيها إلى إنجاز عمل شخصي فيوظف فيه جملة من مكتسباته القبلية.
- 3- الاختبار في إطار هذه المقاربة يكشف عن مستوى الأداء ضمن وضعيات معينة (إشكاليات).

- 4- الاختبار يقيس بناء الكفاءات بين المستويات الدراسية في شكل عمودي وأفقي (إدماجي).
- 5- الشهادة في إطار هذه المقاربة تعكس كفاءة الأداء عند التلميذ ضمن برنامج محدد.
- 6- إدماج الممارسة التقييمية في المسار التعليمي لاكتشاف الثغرات المعركة للتعليم، ومن ثم فإن الخطأ وفق هذه المقاربة لا يمثل عجزاً وإنما هو علامة على صعوبات ظرفية يعاني منها المتعلم يقتضي الأمر التدخل لمعالجتها من أجل ضمان سيورة حسنة للتعليم اللاحقة.
- 7- تدعيم التنقيط العددي للنتائج المدرسية في العملية التقييمية بملاحظات ذات مدلول نوعي لضمان علاقات بنائية بين التلميذ والمعلم والولي.
- 8- ممارسة العمليات العقلية العليا وذلك بتكليف التلاميذ بأنشطة تتطلب حلاً لمشكلات أو إصدار أحكام أو اتخاذ قرارات بما يتناسب دائماً مع مستواهم العقلي.

4- أنواع التقييم في إطار مقارنة التدريس بالكفاءات

ينقسم التقييم في إطار مقارنة التدريس بالكفاءات إلى ثلاثة أقسام وهي كالتالي:

5- التقييم الشخصي: Evaluation Diagnostique

ويكون هذا النوع من التقييم في مرحلة انطلاق العملية التعليمية وذلك لمعرفة قدرات التلميذ التحصيلية ومدى تملكه للمكتسبات القبلية (معارف، مصطلحات، مهارات، . . . الخ) وارتباطها بالوضعية الجديدة، وقدرة التلميذ على توظيفها في بناء المعارف الجديدة ومن ثم فإن التقييم في هذه المرحلة يقوم بوظيفة توجيه التعليم التي تسمح للمدرس بأن يتأكد من امتلاك المتعلم للكفاءات القبلية لبناء تعليمات جديدة وذلك من أجل ضمان انطلاقة سليمة وموفقة.

وفي هذا النوع من التقييم يمكن استعمال بالإضافة إلى الاختبارات المعرفية اختبارات القدرات والاختبارات الشخصية لاعتمادها في عمليتي الاختيار والتوجيه.

6- التقييم التكويني: Evaluation Formative

ويحدث هذا النوع من التقييم أثناء بناء التعليمات حيث يقوم المدرس خلال هذه المرحلة بتصحيح ومعالجة أي خلل يظهر أثناء ممارسة العملية التعليمية، لأن التقييم في إطار هذه المقاربة يساير العملية التعليمية ولا يتخلف عنها، فهو تقويم بنائي تتبعي، ومن هنا نستنتج بأن التقييم في هذه المرحلة يقوم بوظيفة تعديل التعليمات الخاطئة انطلاقاً من مبدأ أن الخطأ لا يمثل عجزاً يحول دون استمرار عملية التعلم بقدر ما يمثل صعوبة آنية مؤقتة تقتضي من المدرس أن يكشفها في حينها وأن يقدم العلاج المناسب لضمان السيورة الحسنة للعمليات التعليمية.

ويجدر بنا أن نذكر هنا بأن التقويم التكويني يعد وسيلة لتطوير استقلالية المتعلم وتمكينه من تقويم ذاته بموضوعية Auto- evaluation- objective كما يعتبر كذلك وسيلة لتعليم المتعلم كيف يقود تعلماته لإنجاز أعماله.

7- التقويم النهائي: 'Evaluation Finale'

وعادة ما يكون هذا التقويم في نهاية حصة دراسية أو مرحلة دراسية، والهدف من هذا النوع من التقويم بطبيعة الحال هو معرفة مدى تملك التلاميذ للكفاءات المقصودة، وعليه فإن التقويم بهذا المعنى يقوم بوظيفة الإشهاد على التعلم بمعنى الحكم على حدوث التعلم أو عدم حدوثه، وللإجابة على التساؤلات التي طرحناها في البداية قمنا بدراسة ميدانية اعتمدنا فيها على تحليل محتويات اختبارات مادة التربية الإسلامية المستعملة من طرف المدرسين في جميع مراحل التعليم (الابتدائي والإعدادي والثانوي).

ولقد اعتمدنا في بناء هذه الأداة على المصادر التالية:

المراجع المنهجية التي تضمنت تحليل المحتوى كأداة من أدوات جمع البيانات،
الدراسات السابقة التي تناولت بالدراسة تحليل محتويات الاختبارات خاصة منها التي تناولت تحليل الاختبار وفق تصنيف بلوم.

- المراجع الخاصة ببيداغوجيا التدريس بالكفاءات لاسيما التي تضمنت موضوع التقويم بحيث استطعنا أن نستخلص في النهاية أربعة مؤشرات إذا توفرت في الاختبار فذلك يعني أنه يقيس كفاءة حقيقية وتمثل هذه المؤشرات في كون الاختبار:

- يسمح بتوظيف المكتسبات القبلية.

- يستدعي إنجاز عمل له قيمة بالنسبة للمتعلم.

- يتطلب معالجة مشكلة ما في وضعية معينة.

- يتطلب القيام بأداءات قابلة للملاحظة والقياس.

* أما عن كيفية استخدام تحليل الاختبار، فقد قمنا باختيار عشوائي لسؤالين من الأسئلة المطروحة من طرف المدرسين في مراحل التعليم الثلاثة ابتدائي ومتوسط وثانوي ثم بعد ذلك نقوم بعملية المطابقة بين نص الاختبار المطروح مع المؤشرات التي تتضمنها الأداة، بحيث إذا تضمن نص الاختبار جميع المؤشرات المقترحة في الأداة فذلك يعني أن الاختبار يقيس كفاءة، وإذا لم تتوفر جميع المؤشرات فذلك يعني أن الاختبار لا يقيس كفاءة.

وللتأكد من صدق هذا الاختبار ومدى صلاحيته، لقد تم عرضه على مجموعة من الأساتذة من لديهم إطلاع على مقارنة التدريس بالكفاءات، كما تم عرضه على بعض أساتذة التعليم الثانوي، والمشرفين التربويين ممن تلقوا تكويننا خاصا في التقويم وفق هذه المقاربة.

ولقد شملت عملية التحكيم العناصر التالية:

- مدى ملائمة المؤشرات المقترحة في الأداة للحكم على الاختبار.
- مدى كفاية المؤشرات المقترحة في الأداة للحكم على الاختبار.
- مدى كفاية الأسئلة المختارة للحكم على الاختبار.

وكانت نتيجة التحكيم كما يلي:

* أولا: فيما يتعلق بالأسئلة تم اقتراح أكثر من سؤالين باعتبار أن المدرس يمكن أن يطرح مجموعة من الأسئلة ومن ثم فإن الاكتفاء بسؤالين لا يكفيان للحكم على نوعية الاختبارات المستعملة.

* ثانيا: فيما يخص المؤشرات لقد تم اقتراح ما يلي:

- استعمال كلمة الموارد في المؤشر الأول بدلا من المكتسبات ومن ثم تصبح العبارة كما يلي:

يسمح بتجديد عدة موارد.

- أضيف إلى المؤشر الرابع عبارة في متناول المتعلم. ومن ثم أصبحت الصياغة كما يلي:

يتطلب القيام بادعاءات في متناول المتعلم وقابلة للملاحظة والقياس.

وبقي المؤشر الثالث والرابع كما هو دون أي تعديل.

وبناء على هذه الملاحظات تمت صياغة المؤشرات في صورتها النهائية التي اعتمدها عند تطبيق الأداة وأصبحت صورة الأداة كما هي في الشكل التالي:

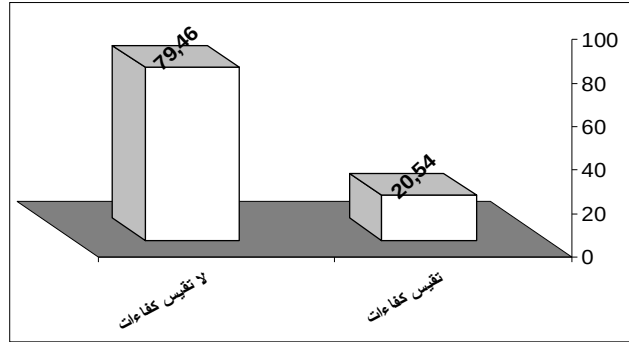
المؤشرات									
السؤال	يسمح بتجديد عدة موارد		يتطلب معالجة مشكلة في وضعية ما		يستدعي إنجاز عمل له قيمة بالنسبة للمتعلم		يتطلب القيام بادعاءات في متناول المتعلم قابلة للملاحظة والقياس		لا يقيس كفاءات
	نعم	لا	نعم	لا	نعم	لا	نعم	لا	كفاءات
س 1									
س 2									

وبعد القيام بهذه الدراسة التي أجريت على 370 مدرسا موزعين على الأطوار الثلاثة تم

اختيارهم بطريقة عشوائية خلصنا الى النتائج التالية:

أولا عرض نتائج الدراسة الخاصة بالسؤال الاول:

- هل الاختبارات المعتمدة من طرف المدرسين تقيس كفاءات حقيقة كما تتطلبه مقارنة التدريس بالكفاءات؟ وكانت النتائج كما هي مبينة في الجدول التالي:



تبين النتائج التي يتضمنها الجدول بأن أغلبية الاختبارات التقييمية التي يعتمد عليها المدرسون لا تقيس كفاءات، حيث بلغت نسبة هذه الأخيرة 79.46% بينما بلغت نسبة الاختبارات التي تقيس كفاءات 20.54% ويمكن تفسير هذه النتيجة بأن مقارنة التدريس بالكفاءات لازالت أمرا جديدا بالنسبة للمدرسين، حيث لم يمر على تطبيقها في المدرسة الجزائرية سوى فترة وجيزة غير كافية لجعل المدرسين قادرين على استعمال اختبارات من هذا النوع لاسيما وأنهم تعودوا لفترة طويلة على استعمال اختبارات تحصيلية معرفية، أضف إلى ذلك أنهم لم يتلقوا تكوينا في إعداد هذا النوع من الاختبارات واستعمالها لتقويم شخصية المتعلم.

ومن العوامل التي تجعل المدرسين كذلك يتجنبون استعمال الاختبارات التي تقيس كفاءات ويميلون إلى استعمال الاختبارات التحصيلية التي تقيس الجانب التحصيلي هيمنة أساليب التدريس القائمة على حشو أذهان المتعلمين بالمعارف والمعلومات، وهذا ما أكدته العديد من الدراسات في هذا المجال والتي من بينها:

- دراسة عبد الله قلي التي توصلت إلى نفس النتيجة فيما يخص تصنيف بلوم، حيث كشفت بأن أغلب الاختبارات تقيس مستويات دنيا وتهمل تماما المستويات العليا بسبب هيمنة طرائق التدريس التي تقوم على الحشو المعرفي، (قلي 2003 ص 283).

- دراسة محمد مقداد التي استهدفت إشكالية عدم ترجمة سلوكيات التلاميذ للأهداف المسطرة في مادة التربية الإسلامية والتي توصلت إلى أن السبب في هذه الإشكالية هو طريقة التدريس المعتمدة والتي لا تركز على الجانب السلوكي وإنما تركز على الجانب المعرفي، (مقداد 1994 ص 247).

- دراسة عدنان بن حاج بصر حاج عثمان والتي كان الهدف منها تقويم مناهج التربية الإسلامية في المدارس الثانوية من وجهة نظر المعلمين والطلاب والتي توصلت إلى النتيجة نفسها وهي

أن طرق تدريس التربية الإسلامية قديمة ويغلب عليها جانب الإلقاء، (فوزية حسين السعيد 2004 ص 46).

ثانيا عرض النتائج الخاصة بالسؤال الثاني

- هل تختلف الاختبارات المعتمدة من طرف المدرسين (في كونها تقيس كفاءات أم لا) باختلاف المرحلة التعليمية؟ وكانت النتائج كم يبينها الجدول التالي:

المرحلة	تقيس		لا تقيس		طريقة المحسوبة	طريقة الإلقاء	درجة الحرية	مستوى الدلالة	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة				0.05	0.01
ابتدائي	26	21.34	217	.7380	42.47	5.99	02	نعم	نعم
متوسط	33	42.43	47	.1598					
ثانوي	17	36.22	30	.1020					
المجموع	76	100	294	100					

تظهر النتائج المبينة في الجدول بأن كلاً من المحسوبة أكبر من كلاً من الجدولة حيث بلغت الأولى 42.47 بينما بلغت الثانية 5.99 وهذا يدل على أن هناك فروقات ذات دلالة إحصائية بين المدرسين في الاختبارات المعتمدة من طرفهم عند مستوى الدلالة (0.01)، كما تظهر هذه النتيجة بأن هذه الفروق تعود لصالح المدرسين الذين يدرسون في التعليم الثانوي والمتوسط ومن الممكن تفسير ذلك بمجموعة من العوامل:

أولاً: أن التعليم في المرحلة الثانوية والمرحلة المتوسطة يعتبر تعليماً متخصصاً بمعنى أن المدرس في التعليم المتوسط يدرس اللغة العربية فقط ومعها مادة التربية الإسلامية وكذلك الحال بالنسبة للمدرس في المرحلة الثانوية فهو يدرس مادة العلوم الإسلامية فقط فهذا الوضع يساعد بطبيعة الحال المدرس أن يرفع من مستوى الاختبارات وأن يجعلها تقيس كفاءات بدل أن تقتصر على قياس معارف ومعلومات، بخلاف ما هو الحال بالنسبة للمدرس في المرحلة الابتدائية فإنه يدرس مجموعة من المواد (اللغوية والعلمية والاجتماعية) بالإضافة إلى مادة التربية الإسلامية مما يضطره إلى اللجوء إلى الاختبارات التقليدية العادية.

ثانياً: أن المتعلم في المرحلة الثانوية والمتوسطة يختلف كثيراً من الناحية النفسية والعقلية عن المتعلم في المرحلة الابتدائية، بمعنى أن الطالب في التعليم المتوسط والثانوي يكون قد قطع شوطاً كبيراً من حيث النمو وعليه يمكن امتحانه بهذا النوع من الاختبارات لأن اختبارات الكفاءة لا تتطلب مجرد استرجاع المعرفة وإنما تتطلب التحكم في هذه المعرفة وتحويلها إلى سلوك حقيقي، وهذا الأمر إذا لم يكن مستحيلاً في هذه المرحلة فهو ليس أمراً سهلاً، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف التي تحيط بالمدرس في هذه المرحلة.

ثالثاً: إن الوضع البيداغوجي الذي يعيشه المدرس في التعليم الثانوي والمتوسط يختلف كثيراً عن الوضع الذي يعيشه المدرس في المرحلة الابتدائية، والأمر يتعلق خاصة بالحجم الساعي الخاص بهذا الأخير، حيث أنه مطالب بتدريس ما يقرب من 30 ساعة أسبوعياً، الأمر الذي لا يساعده ولا يشجعه على استعمال مثل هذه الاختبارات وبالتالي يجد نفسه مضطراً لاستعمال اختبارات تحصيلية عادية.

ثالثاً عرض النتائج الخاصة بالسؤال الثالث

- هل تختلف الاختبارات المعتمدة من طرف المدرسين (في كونها تقيس كفاءات أم لا) باختلاف طبيعة تكوين المدرس؟ وكانت النتائج كما يلي:

الاختبارات و النتائج	تقيس		لا تقيس		ك2 المحسوبة	ك2 المجدولة	رقم الدرجة	مستوى الدلالة	
	التكرار	النسبة	التكرار	النسبة				0.05	0.01
خرج المعهد	35	46.05	128	53.43	0.19	0.5	02	ب.د	ب.د
خرج الجامعة	28	36.84	116	45.39					
توظيف مباشر	13	17.10	50	17					
المجموع	76	100	294	100					

إن البيانات التي يتضمنها الجدول تبين بأن ك2 المحسوبة أقل من ك2 المجدولة، حيث بلغت الأولى 19.0 بينما بلغت الثانية 99.5 وهذا يدل على أنه ليست هناك فروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى (0.05) بين المدرسين في استعمال الاختبارات ترجع إلى نوعية

التكوين التي تلقاها المدرسون ما يعني أن الفروق بين المدرسين في الاختبارات التي يستعملونها في تقويم تلامذهم ليست فروقا جوهرية، وأن نوعية التكوين لا تؤثر في ذلك، ويمكن تفسير هذه النتيجة بأنه لا خلاف بين المدرسين بجميع أصنافهم سواء الذين تلقوا تكوينا في معهد إعداد المدرسين أو الذين تخرجوا من الجامعة أو الذين وظفوا مباشرة ولم يتلقوا أي تكوين في بناء الاختبارات التي تقيس كفاءات، ففما يخص التكوين الذي تلقاه كل من خريجي الجامعات ومعاهد تكوين المدرسين فهو لا علاقة له ببيداغوجيا التدريس بالكفاءات فالتكوين في الجامعة كما ذكرنا سابقا يعتبر تكوينا عاما لا يعد الطالب من هذه الناحية، أما الذين تخرجوا من معاهد تكوين المدرسين سابقا فإنهم تلقوا تكوينا في بيداغوجيا التدريس بالأهداف وليس التدريس بالكفاءات بمعنى أنهم تخرجوا من هذه المعاهد قبل الشروع في تطبيق المقاربة الجديدة.

أما التكوين أثناء الخدمة الذي تلقاه جميع المدرسين بجميع أصنافهم فإنه لم يكن كافيا ولم يعد الإعداد المطلوب لبناء هذا النوع من الاختبارات.

إذا هذه الظروف التي أحاطت بالمدرسين عند تطبيق بيداغوجيا التدريس بالكفاءات هي التي جعلتهم لا يتميزون كثيرا عن بعضهم من الناحية التكوينية وبالتالي لم تكن هناك فروق جوهرية تعزى إلى طبيعة التكوين الذي تلقاه المدرسون.

رابعا عرض النتائج الخاصة بالسؤال الرابع

- هل تختلف الاختبارات المعتمدة من طرف المدرسين (في كونها تقيس كفاءات أم لا) باختلاف الأقدمية في التدريس ؟

مستوى الدلالة	ن.ف. 01	ن.ف. 05	ص.ا. 08	ص.ا. 384	لا تقيس	تقيس		أكبر من 5 سنوات
						نسبة	تكرار	
					61.80	237	82.89	63
					38.19	57	17.10	13
					100	294	100	76
								المجموع

تبين النتائج التي يتضمنها الجدول بأن ك² المحسوبة اقل من ك² الجدولة حيث بلغت الأولى 08.0 في حين بلغت الثانية 84.3 وهذا يعني أن الفروق ليست لها دلالة إحصائية عند

مستوى دلالة 0.05 أي أنه ليست هناك فروق جوهرية في الاختبارات المعتمدة من طرف المدرسين تعود إلى الأقدمية في التدريس وتدل هذه النتيجة على أن الفروق بين المدرسين في استخدام الاختبارات التقويمية ليست فروقا جوهرية وأن الأقدمية في التدريس ليس لها أثر. ويمكن تفسير هذه النتيجة بتشابه الظروف التي أحاطت بالمدرسين عند تطبيق بيداغوجيا التدريس بالكفاءات من حيث الأقدمية إذ من المعلوم أن تطبيق هذه المقاربة الجديدة في الجزائر كان في الموسم الدراسي 2003 – 2004 وهذا يعني أن معظم المدرسين لديهم خبرة خمس سنوات فاقل في التدريس وفق هذه البيداغوجيا خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الجميع لم يتلق تكوينا متميزا ومتخصصا في بناء الاختبارات التي تقيس كفاءات، فهذه العوامل تجعل المدرسين يفضلون استعمال الاختبارات التي تعودوا عليها وهي الاختبارات التي تقيس الجانب التحصيلي البحت، والأقلية من المدرسين فقط الذين أتاحت لهم فرصة التكوين عن طريق مفتشيهم على مستوى مقاطعاتهم التربوية أو عن طريق مطالعات خاصة، وبالتالي فإن الفروق بين المدرسين لم تكن فروقا جوهرية.

وتتفق هذه الدراسة مع دراسة (وضحي السويدي) التي توصلت إلى أن عدد سنوات الخبرة في التدريس لا يعد عاملا مؤثرا في استخدام أساليب وأدوات تقويمية متطورة مما يؤكد لنا الحاجة إلى البرامج التدريبية أثناء الخدمة في مجال التقويم سواء للموجهين والموجهات أو المعلمين والمعلمات وذلك للتعرف على الاتجاهات والأساليب الحديثة في التقويم وأهمية استخدامها في العملية التعليمية. (السويدي 1996 ص 36).

بعض المراجع المستعملة:

- 1- جابر عبد الحميد جابر (2002) اتجاهات وتجارب معاصرة في تقويم أداء التلميذ والمدرس ط1 دار الفكر العربي القاهرة مصر.
- 2- حاجي فريد (2005) بيداغوجيا التدريس بالكفاءات الخلقونية للنشر والتوزيع الجزائر.
- 3- حثروني محمد الصالح (2002) المدخل إلى تدريس بالكفاءات دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر.
- 4- الرازي محمد بن أبي بكر عبد القادر (1981) مختار الصحاح دار الكتاب العربي بيروت لبنان.
- 5- عقل أنور (2000) تقويم طلاب الصف الثالث الإعدادي في مادة العلوم في دولة قطر ط1 دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان.
- 6- عقل أنور (2001) نحو تقويم أفضل ط1 دار النهضة العربية للنشر والتوزيع بيروت لبنان.
- 7- الفتلاوي سهيلة محسن كاظم (2003) الكفايات التدريسية ط1 دار الشروق والتوزيع عمان الأردن.
- 8- لبصيص خالد (2004) التدريس العلمي والفني الشفاف بمقاربة الكفاءات والأهداف، دار التنوير للنشر والتوزيع الجزائر.
- 9- محمد مقداد وآخرون (1994) قراءات في الأهداف التربوية ط1 جمعية الإصلاح الاجتماعي والتربوي بآتنة الجزائر.
- 10- هني خير الدين (2005) مقارنة التدريس بالكفاءات ط1 مطبعة ع/بن
- 11- وزارة التربية الوطنية (2002) الدليل المنهجي لتطبيق مادة التربية الإسلامية الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية الجزائر.
- 12- بداود حسين ومحمد دواوي (2006) النظرية البنائية كأساس بيداغوجيا الكفاءات آمال ومحاذير مجلة الدراسات العدد 4 جامعة عمار تليجي الاغواط.
- 13- بوعلاق محمد (2005) بيداغوجيا الأهداف وبيداغوجيا الكفاءات قطيعة أو امتداد مجلة الدراسات العدد 03 جامعة عمار تليجي الاغواط.
- 14- بوعلاق محمد (2006) التقويم التربوي وفق المقاربة بالكفاءات مجلة الدراسات العدد 04 جامعة عمار تليجي الاغواط.
- 15- الخليلى خليل يوسف (1998) التقييم الحقيقي مجلة التربية العدد 126 اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم.
- 16- عقل أنور (2001) أساليب تقويم طلاب الصف الثالث الإعدادي في مادة العلوم بدولة قطر مجلة التربية العدد 139 اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم.

- 17- Ait Boudaoud Laifa (1999) L'évaluation dans le système scolaire (en Algérie) CASBAH édition.
- 18- Forro Anne (2000) L'enseignant et l'évaluation de BOECK université Bruxelles.
- 19- Morissette Dominique (1997) Guide pratique de l'évaluation sommative de BOECK université bruxelles.
- 20- Odile et Veslin Jean (1992) Corriger des copies, évaluer pour former. Hachette éducation
- 21- Rober F. Mager (2005), Comment définir des objectifs pédagogiques Stedi-boulevard Ney Paris
- 22- Roegiers Xavier (2004) l'école et l'évaluation de BOECK Université de Bruxelles.
- 23- Scallon Gerard (2000) L'évaluation formative de BOECK bruxelles.

بعض المراجع:

- 1- جابر عبد الحميد جابر (2002) اتجاهات وتجارب معاصرة في تقويم أداء التلميذ والمدرس ط1 دار الفكر العربي القاهرة مصر.
- 2- حاجي فريد (2005) بيداغوجيا التدريس بالكفاءات الخلقونية للنشر والتوزيع الجزائر.
- 3- حثروني محمد الصالح (2002) المدخل الى تدريس بالكفاءات دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر.
- 4- الرازي محمد بن أبي بكر عبد القادر (1981) مختار الصحاح دار الكتاب العربي بيروت لبنان.
- 5- عقل أنور (2000) تقويم طلاب الصف الثالث الإعدادي في مادة العلوم في دولة قطر ط1 دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت لبنان.
- 6- عقل أنور (2001) نحو تقويم أفضل ط1 دار النهضة العربية للنشر والتوزيع بيروت لبنان.
- 7- الفتلاوي سهيلة محسن كاظم (2003) الكفايات التدريسية ط1 دار الشروق والتوزيع عمان الأردن.
- 8- لبصيص خالد (2004) التدريس العلمي والفني الشفاف بمقاربة الكفاءات والأهداف، دار التنوير للنشر والتوزيع الجزائر.
- 9- محمد ممداد وآخرون (1994) قراءات في الأهداف التربوية ط1 جمعية الإصلاح الاجتماعي والتربوي بآتنة الجزائر. 67
- 10- هني خير الدين (2005) مقارنة التدريس بالكفاءات ط1 مطبعة عين عكنون.
- 11- وزارة التربية الوطنية (2002) الدليل المنهجي لتطبيق مادة التربية الإسلامية الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية الجزائر.
- 12- بداود حسين ومحمد دواوي (2006) النظرية البنائية كأساس بيداغوجيا الكفاءات آمال ومحاذير مجلة الدراسات العدد 4 جامعة عمار ثلجي الاغواط.
- 13- الخليلي خليل يوسف (1998) التقييم الحقيقي مجلة التربية العدد 126 اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم.
- 14- عقل أنور (2001) أساليب تقويم طلاب الصف الثالث الإعدادي في مادة العلوم بدولة قطر مجلة التربية العدد 139 اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم.
- 15- Ait Boudaoud Laifa (1999) L'évaluation dans le système scolaire (en Algérie) CASBAH édition.
- 16- Forro Anne (2000) L'enseignant et l'évaluation de BOECK université Bruxelles.
- 17- Morissette Dominique (1997) Guide pratique de l'évaluation sommative de BOECK université bruxelles.
- 18- Odile et Veslin Jean (1992) Corriger des copies, évaluer pour former. Hachette éducation
- 19- Rober F. Mager (2005), Comment définir des objectifs pédagogiques Stedi-boulevard Ney Paris
- 20- Roegiers Xavier (2004) l'école et l'évaluation de BOECK Université de Bruxelles.
- 21- Scallon Gerard (2000) L'évaluation formative de BOECK bruxelles.

علاقة مركز الضبط بالأساليب المعرفية لدى طلبة الجامعة الجزائرية

د. كريمة إزيدي ود. العربي غريب ود. عباس بلقوميدي / جامعة وهران

مقدمة*:

يعتبر مفهوم الأسلوب المعرفي وأسلوب الضبط من المفاهيم النفسية المعرفية التي تنتمي إلى مجال علم النفس المعرفي حتى أن هناك من يعتبر أن كلا المفهومين ينتمي إلى نظرية الأساليب

*-Abstract This study is conducted to investigate the Locus of Control among the students of the Algerian universities and to identify their pursued Cognitive Styles. The study also tried to seek the relationship between the Locus of Control and the Cognitive Styles. The study population consisted of 571 university students evenly distributed over the six following disciplines: Letters and Law, Biology, Pharmacy, Civil Engineering and Mechanical Engineering. In order to convert the variable of the Locus of control into quantitative indicators, a compact and translated version from English to Arabic of the NLSC inventory has been adopted by the Researcher K.Izidi. The Witkin & Oltman's group embedded figures test translated into Arabic by A.M.el Charkaoui & al. was adopted in order to convert the variable of the Perceptual-Cognitive Style into quantitative indicators.

The statistical treatment of the data collected led to the following results:

- Students of the Algerian university tend to believe in the external locus of control.
- There is no statistical significance between the genders in term the locus of control they tend to believe in.
- Locus of Control of the University students varies according to his/her Academic specialization.
- Students of the Algerian university tend to adopt the Style of independence from cognitive domain.
- There is no statistical significance between the genders in terms of their adoption of a specific cognitive style.
- There is no statistical significance between the students of various disciplines in terms of their adoption of a specific cognitive style.
- There is no statistically significant differences between students who tend to believe in the internal locus of control and the students who tend to believe in the external locus of control in terms of the adopted cognitive style.
- The relationship between the locus of control and the cognitive style is not necessarily dependent on the variable of gender.
- The relationship between the locus of control and the cognitive style is not necessarily dependent on Academic specialization.
-

المعرفية، إذ اعتبر كل من M Gardner و Klein، أن "الأسلوب المعرفي يعتبر النمط الكلي للضوابط الذي يميز الفرد عن غيره من الأفراد في حين تعتبر الضوابط بمثابة ميكانيزمات منظمة يتبناها الأنا للتوسط بين الحاجات الداخلية والواقع الخارجي".¹ كما تمثل الضوابط المعرفية في نظام المعارف والمعتقدات التي يتخذها الفرد نحو البيئة ونحو نفسه وسلوكه، وتخضع التأثيرات الناجمة من الدوافع للانتقاء على أساس القيود التي يهيئها الضبط المعرفي. ويعتبر الضبط المعرفي بمثابة الأنا الاجتماعي عند Freud حيث يقوم الضبط المعرفي بإرجاء الحاجات. ويميز Messick و Gardner و Jackson بين مصطلحي الأساليب المعرفية والضوابط المعرفية "في أن الأول يشير إلى أبعاد معينة من عملية الإدراك في حين يدل الثاني على تنظيم هذه الأبعاد داخل الفرد".² ولقد عرض Messick جوانب الاختلاف والاتفاق بين الأساليب المعرفية والضوابط المعرفية نوجزها فيما يلي:³

1. تختلف الأساليب المعرفية عن الضوابط المعرفية في أن هذه الأخيرة وحيدة القطب وتهتم بشكل نسبي بوظائف متخصصة في المجال الذي تتناوله كما أنها تتميز بالقيمتين التوجيهية والكمية، في حين تتميز الأساليب المعرفية بأنها مميزة لأداء الفرد في شكله العام وفي كل المجالات وأنها ثنائية القطب.

2. تمثل الضوابط المعرفية في مجال المقارنة بين الأفراد في وظائف نوعية متخصصة، أما الأساليب المعرفية فهي مستعرضة في الشخصية، كما تعتبر الأساليب المعرفية من المتغيرات عالية الرتبة في سيطرتها على تنظيم وتسيير كل من الضوابط المعرفية والاستراتيجيات المعرفية والقدرات العقلية.

3. تتشابه الضوابط المعرفية والأساليب المعرفية في نوع النشاط الممارس والذي يمثل أساسا في طبيعة النشاط المعرفي الذي يمارسه الفرد والمجال الذي يمارس فيه هذا النشاط ولا يتصف الأداء في كل منها من جانب الكم بل أن الأداء "يأخذ صفته بما يتناسب مع طبيعة الموقف وخصائصه عكس القدرة التي تعبر عن الكم، كما ينبغي الأداء في الأسلوب المعرفي والضبط المعرفي إلى ميول الفرد أما القدرات فتعبر عنها كفاءة الفرد".⁴

من خلال هذه المقاربة المفاهيمية، يمكن أن نخلص إلى قراءة فحواها أن المفهومين يختلفان عن

¹ - أنور محمد الشرقاوي (1992) علم النفس المعرفي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى.

² - حمدي علي الفرماوي (1994) الأساليب المعرفية بين النظرية والتطبيق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى.

³ - أنور محمد الشرقاوي (1992) علم النفس المعرفي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى.

⁴ - بنية الخريطة المعرفية وعلاقتها بالأسلوب المعرفي استقلال/اعتماد على المجال الإدراكي، تحت إشراف العربي بن فقيه، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية علوم التربية، الرباط، المغرب.

بعضها البعض لذلك نجد أن العديد من المختصين درسوا العلاقة بين المتغيرين وكانت دالة¹. وأكد هذا الاعتراف العلمي دراسة قام بها عابد ع. النفيعي سنة 1999² وبناءً على ذلك ونظرا لثقل البحث على مستوى هذين المتغيرين في البيئة الجزائرية جاءت الدراسة الحالية لمعرفة العلاقة بين الأسلوب المعرفي الاعتماد- الاستقلال على المجال الإدراكي ومركز الضبط في وجود متغيري جنس الطالب وتخصصه.

إشكالية البحث

يرى جوليان روتر J. B. Rotter أن الأفراد تنمو لديهم توقعات عامة تبعا لمدى استطاعتهم التحكم في أحداث البيئة، حيث يوجد أفراد يدركون أن أفعالهم وطريقة عملهم وخصائصهم الشخصية تؤثر في نمط معيشتهم ومستواها، إذ أنهم يعتقدون أنهم أسياد على أقدارهم ويتحملون مسؤولية ما يحدث لهم وهذا الصنف من الناس هم ذوي الضبط الداخلي. وفي المقابل هناك فئة أخرى من الناس يدركون أنهم مغلوبون على أمورهم وأن مستواهم المعيشي وطريقته لا حول ولا قوة لهم فيه. إذ يعتقدون أنهم مخلوقات مسيرة تتحكم فيهم قوى خارجية لا يستطيعون التأثير فيها.

يشير مصدر الضبط إلى التوقع العام للفرد حول العلاقة بين مجهوده وهدفه في النجاح والتفوق. وهذا ما يفسر عزو الطلبة ذوي الضبط الداخلي نجاحهم أو فشلهم لمماراتهم ومجهودهم الشخصي أو لإلهامهم. أما الطلبة ذوي الضبط الخارجي فيميلون إلى عزو نجاحهم أو فشلهم لعوامل خارجية تنعكس في حسن الحظ أو تعاسته، سهولة الامتحان أو صعوبته، خصائص الأستاذ (منصف أو غير منصف، يحبهم أو يكرههم، كفؤ أو غير كفؤ، . . .) العين، السحر، . . .

تمثل الأساليب المعرفية أحد أهم المؤشرات الهامة في الهامة في إظهار الفروق الفردية في كثير من المتغيرات المعرفية الإدراكية والشخصية والتي تنطوي على أسلوب الفرد المفضل لديه والمميز له في استقبال ومعالجة المعلومات التي تأتيه من خلال جهازه الحسي وفي كيفية إدراكها واسترجاعها واستثمارها في مواقف حياته اليومية، وإن اختيار إستراتيجية ملائمة لموقف ما يعتمد أساسا على التنظيم المعرفي الجيد النابع من الإدراك الجيد للموقف المشكل وتحديد أبعاده تحديدا دقيقا، يصنف على أساسه كل بعد ووظيفته ومهامه داخل التنظيم، ثم يلي ذلك ربط الأبعاد

¹ - محمد احمد علي عايس (2003) التفاعل بين وجهة الضبط والجنس وعلاقته بالتحصيل الدراسي وبعض الأساليب المعرفية لدى عينة من طلاب جامعة التحدي، مجلة دراسات نفسية، مجلد 13، العدد 3، ص: 487-518.

² - سليم محمد سليم الشايب (2001) العلاقة بين الاستقلال/الاعتماد على المجال الإدراكي وبعض المتغيرات الشخصية والبيئية، مجلة علم النفس، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، السنة 15، العدد 15، ص: 110-127.

ومهامها في تنظيم واحد.

لقد تعددت المقاربات النظرية في تناول الأساليب المعرفية ودورها في تفسير الكثير من مظاهر السلوك الإنساني وتحديد الفروق الفردية ودراسة الشخصية من المنظور المعرفي بهدف الكشف عن المحددات المعرفية الثابتة نسبيا ودورها في نوعية وجودة سلوك الأفراد والتفاعل فيما بينهم.

لقد أظهرت دراسات سابقة أن مصدر الضبط -كتوقع عام (سواء كان داخليا أو خارجيا) من العوامل الشخصية الهامة التي تميز الأفراد ذوي الخصائص المعرفية العالية في التعامل مع البيئة بفاعلية ونجاح والتي تتمثل في الأساليب المعرفية إذ تعتبر بمثابة الطرق المميزة للأفراد عن تجهيزهم للمعلومات وحل المشكلات كما تعتمد على طريقة تفاعل الأفراد مع المثيرات البيئية. ومن أمثلة هذه الدراسات: دراسة Witkin الذي بحث في العلاقة بين الأسلوب المعرفي ومركز الضبط، ودراسة Kaplan&Plake ودراسة Sadowski&al. حول مركز الضبط ومتغير الجنس والتحصيل الدراسي. أما Massarie الذي بحث في العلاقة بين الأسلوبين المعرفيين (الاندفاع/التأمل-الاعتماد/الاستقلال عن المجال) ومركز الضبط، كما أجرى Ross دراسة حول العلاقات المتبادلة بين خمسة تكوينات معرفية من بينها مركز الضبط وأسلوب الاعتماد/الاستقلال عن المجال. وكل هذه الدراسات أكدت أهمية كل من الأسلوب المعرفي ومركز الضبط في حياة الأفراد عموما والمواقف التربوية بصفة خاصة. إذا اعتمدنا نتائج هذه الدراسات، ما مدى إمكانية انسحابها على البيئة الجزائرية؟ وانطلاقا من هذا يمكن صياغة مشكلة بحثنا على النحو التالي:

- هل توجد علاقة بين الأسلوب المعرفي الذي يتبناه الطالب الجامعي الجزائري ومركز الضبط لديهم؟ وهل متغيرات جنس الطالب وتخصصه الدراسي يمكنها أن تشرط هذه العلاقة؟

• تساؤلات البحث

ويمكن تفكيك هذه الإشكالية إلى التساؤلات التالية:

1. ما هو مركز الضبط السائد لدى طلبة الجامعة الجزائرية؟
2. هل يحدد جنس الطالب الجامعي مركز الضبط لديه؟
3. هل يحدد التخصص الدراسي للطالب الجامعي مركز الضبط لديه؟
4. ما هي الأساليب المعرفية المعتمدة لدى الطالب الجامعي؟
5. هل تختلف الأساليب المعرفية المعتمدة لدى الطالب الجامعي باختلاف جنسه؟

6. هل تختلف الأساليب المعرفية المعتمدة لدى الطالب الجامعي باختلاف تخصصه الدراسي؟
7. هل توجد علاقة بين الأسلوب المعرفي المعتمد من طرف الطالب الجامعي ومركز الضبط لديه؟
8. هل تختلف العلاقة بين الأسلوب المعرفي المعتمد من طرف الطالب الجامعي ومركز الضبط لديه باختلاف جنسه؟
9. هل تختلف العلاقة بين الأسلوب المعرفي المعتمد من طرف الطالب الجامعي ومركز الضبط لديه باختلاف تخصصه الدراسي؟

• **فرضيات البحث**

يتمثل أساس فرضيات هذه (دراسة في الملاحظات التي تراكمت لدينا من الواقع الجزائري المعاش والدراسات السابقة التي أجراها أعضاء وحدة البحث أو التي أشرفوا عليها وعليه جاءت صياغة الفرضيات في الشكل التالي:

1. يميل طلبة الجامعة الجزائرية إلى الاعتقاد في مركز الضبط الخارجي.
2. يختلف مركز الضبط الذي يميل الطالب الجامعي إلى الاعتقاد فيه باختلاف جنسه.
3. يختلف مركز الضبط الذي يميل الطالب الجامعي إلى الاعتقاد فيه باختلاف تخصصه الدراسي.
4. يميل طلبة الجامعة الجزائرية إلى اعتماد أسلوب الاستقلال عن المجال الإدراكي.
5. تختلف الأساليب المعرفية التي يعتمدها الطالب الجامعي باختلاف جنسه.
6. تختلف الأساليب المعرفية التي يعتمدها الطالب الجامعي باختلاف تخصصه الدراسي.
7. توجد فروق دالة إحصائية بين الطلبة داخلي الضبط والطلبة خارجي الضبط من حيث الأساليب المعرفية المعتمدة.
8. العلاقة بين مركز الضبط والأساليب المعرفية يشرطها متغير جنس الطالب.
9. العلاقة بين مركز الضبط والأساليب المعرفية يشرطها متغير التخصص الدراسي للطلاب.

• **أهمية البحث وأهدافه**

يندرج هذا البحث في إطار الدراسات النفسية التربوية، حيث تحاول فرقة البحث من خلاله الإسهام في إثراء البحوث العربية والجزائرية خاصة والتي تهتم بدراسة العلاقة بين متغيري مركز الضبط والأساليب المعرفية لدى طلبة الجامعة الجزائرية على ضوء متغيري

الجنس والتخصص الدراسي وذلك من خلال استجلاء الفروق بين مجموعات الطلبة المتباينة في الجنس والتخصص الدراسي ومن حيث مركز الضبط (الداخلي-الخارجي) وكذا معرفة الفروق بين مجموعات المقارنة السابقة من حيث الأساليب المعرفية.

• التحديد الإجرائي للمفاهيم الأساسية في البحث

1. مركز الضبط Locus of Control: يقصد بمركز الضبط في هذه الدراسة، إدراك الطالب للعلاقة بين سلوكه والنتائج المترتبة عنه أو ما يحدث له عموماً. ويتم تحويل هذا المتغير إلى مؤشر كمي من خلال مقياس Nowicki&Strickland المختزل والمعرّب من طرف الباحثة كريمة إزيدي ويصنف الطلبة بموجبه إلى:

- **ذوي مركز الضبط الداخلي:** وهم الطلبة الذين يفسّرون نتائج سلوكهم أو ما يحدث لهم عموماً بالاستناد على القدرة أو الجهد أو المهارة ويلقون مسؤولية الأحداث التي تقع لهم على عوامل تقع ضمن مجال تحكمهم.
- **ذوي مركز الضبط الخارجي:** وهم الطلبة الذين يرجعون مسؤولية سلوكهم أو ما يحدث لهم عموماً إلى عوامل خارجة عن مجال تحكمهم أو ضبطهم (الحظ أو الصدفة أو الفرصة أو القدر أو ...)

للإشارة تتراوح الدرجة التي يمكن أن يحصل عليها الطالب على هذا المقياس ما بين 0 و24، إذ يعتبر الطالب ميّالاً إلى الاعتقاد في الضبط الداخلي إن هو تحصل على درجة تقع ضمن المجال [12، 24]، بينما يعتبر ميّالاً إلى الاعتقاد في الضبط الخارجي إن هو تحصل على درجة تقع ضمن المجال [0، 12].

2. الأساليب المعرفية

- **الأسلوب المعرفي الاعتماد/الاستقلال عن المجال الإدراكي:** هو ما يقيسه اختبار الأشكال المتضمنة الصورة الجمعية من إعداد ويتكن وآخرون والذي عرّبه أنور م. الشرقاوي وآخرون.
- **بعد الاعتماد على المجال الإدراكي:** الأفراد المعتمدون على المجال هم الأفراد الذين يحصلون على درجة تقع ضمن المجال [0، 9] في اختبار الأشكال المتضمنة.
- **بعد الاستقلال عن المجال الإدراكي:** الأفراد المستقلون عن المجال هم الأفراد الذين يحصلون على درجة تقع ضمن المجال [9، 18] في اختبار الأشكال المتضمنة.

- منهج البحث

لقد اعتمدت فرقة البحث في معالجة إشكالية الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الذي يدرس الظواهر كما هي في الواقع دون التدخل فيها.

- عينة الدراسة

بلغ حجم عينة الدراسة الحالية 571 طالبا جامعيًا من بينهم 313 طالبة تتراوح أعمارهم بين 20 و 28 سنة موزعين مناصفة على ستة التخصصات: الآداب والحقوق والبيولوجيا والصيدلة والهندسة المدنية والهندسة الميكانيكية.

- أدوات البحث

1. مقياس مركز الضبط: اعتمدت فرقة البحث في تحويل متغير مركز الضبط إلى مؤشر كمي، على مقياس نويكي وستريكلا ند Nowicki&Strickland Locus of Control inventory والذي يعرف اختصارًا بالرمز NLSC النسخة المختزلة والمترجمة من الإنجليزية إلى العربية من طرف الباحثة كريمة إزيدي. بحيث تتكون هذه النسخة من 24 فقرة صيغت في اتجاه مركز الضبط الخارجي. وبهذا تكون درجة المفحوص على هذا المقياس تتراوح ما بين 0 و 24 بحيث كلما اقتربت الدرجة من 0 دلّ ذلك على أنّ المفحوص يميل إلى الاعتقاد في مركز الضبط الخارجي، وكلما دنت الدرجة من 24 دلّ ذلك على أنّه يميل إلى الاعتقاد في مركز الضبط الداخلي.

2. مقياس الأسلوب المعرفي الإدراكي: يتكون الاختبار من خمسة أقسام:

القسم الأول: يحتوي على واجهة الاختبار تشمل عنوان الاختبار ومؤلفه ومعبره ومعلومات شخصية حول المفحوص.

القسم الثاني: يضم التعليمات الخاصة بالاختبار ومثالين عن كيفية الإجابة.

القسم الثالث: تعرض فيه 07 أشكال ليست معقدة كثيرا (سهولة التعقيد) يطلب من المفحوص الإجابة عليها في دقيقتين. وهذه الإجابات تصحح ولا تحسب عند تقدير درجة المفحوص الكلية، فهي للتدريب فقط.

القسم الرابع: يتكون من 09 فقرات متدرجة في الصعوبة والوقت المحدد للإجابة عنها 05 دقائق.

القسم الخامس: يتكون هو أيضا من 09 فقرات، وهي بمثابة صورة مطابقة أو مكافئة للقسم السابق ومتدرجة في الصعوبة ومدة الإجابة عنها 05 دقائق وتمثل كل فقرة من فقرات

الاختبار شكلا معقدا يتضمن بداخله شكلا بسيطا معينا ويطلب من المجيب أن يحدد معالم هذا الشكل البسيط بقلم الرصاص ضمن الشكل المعقد ورعي في تنظيم الاختبار أن لا يستطيع المفحوص رؤية الشكل البسيط والشكل المعقد في نفس الوقت، أما الأشكال البسيطة التي يطلب من المفحوص تحديد معالمها وحدودها ضمن فقرات الاختبار فعددها 08، بحيث وضعت في ورقة لوحدها ووضع لكل شكل بسيط اسم رمز إليه بحرف من الحروف وليتضح الأمر أكثر حول الاختبار.

1- الأساليب الإحصائية: تم توظيف مجموعة من الأساليب الإحصائية في معالجة المعطيات التي تم جمعها وهذا باستخدام البرنامج الإحصائي spss وتمثلت هذه الأساليب في: التكرارات، النسب المئوية، المتوسط الحسابي، الانحراف المعياري، النسبة التائية لدراسة الفرق بين متوسطي عينتين مستقلتين، تحليل التباين البسيط، معادلة شيفيه.

عرض النتائج:

اختبار الفرضية الأولى:

جدول رقم (1) يوضح توزيع عينة الدراسة تبعا لمركز الضبط

مركز الضبط	التكرار	النسبة المئوية
داخلي	57	10
خارجي	514	90
المجموع	571	100

من خلال النتائج المعروضة في الجدول رقم (1) يظهر أن نسبة الطلبة الذين يميلون إلى الاعتقاد في مركز الضبط الداخلي قد بلغت 10 %، فيما كانت النسبة الكبرى 90 % للطلبة الذين يميلون إلى الاعتقاد في مركز الضبط الخارجي، مما يعني الفرضية الأولى قد تحققت.

اختبار الفرضية الثانية

جدول رقم (2) يوضح دلالة الفروق بين الطلاب والطالبات في مركز الضبط

مجموعات المقارنة	م	ع	ت	م. الدلالة
ذكور ن=258	16,54	3,87	1,83	غ. دال
إناث ن=313	15,96	3,70		

يظهر من الجدول أعلاه أنه لا توجد فروق دالة بين الطلبة والطالبات من حيث ميلهم للاعتقاد في مركز ضبط معين. والفرق الملاحظ بين متوسطي درجاتهم لم يرق إلى مستوى الدلالة الإحصائية مما يعني أن الفرضية لم تتحقق.

اختبار الفرضية الثالثة

جدول رقم (3): دلالة الفرق بين طلبة التخصصات من حيث مركز الضبط

المصدر	مجموع المربعات	دح	التباين التقديري	ف	م. الدلالة
بين المجموعات	674,49	7	96,35	7,24	دال 1 %
داخل المجموعات	7486,81	563	13,29		
الكلية	8161,30	570			

يتضح من الجدول رقم (3) أنه يوجد فرق دال إحصائيا بين طلبة التخصصات المختلفة من حيث ميلهم للاعتقاد في مركز ضبط معين ولمعرفة اتجاه الفرق لصالح أي تخصص، تم إجراء اختبار شيفه فجاءت النتائج كالتالي:

جدول رقم (4): يوضح نتائج اختبار شيفيه

التخصصات	الفرق بين المتوسطين	م. الدلالة
صيدلة/هندسة مدنية	2,76	دال 1 %
صيدلة/بيولوجيا	3,48	دال 1 %
صيدلة/آداب	3,80	دال 1 %
صيدلة/حقوق	2,65	دال 1 %

كما هو ظاهر للعيان أن دلالة الفرق كانت بين الصيدلة وأربعة تخصصات أخرى (هندسة مدنية، بيولوجيا، آداب، حقوق)، أما باقي التخصصات، فلم يرق الفرق بينها إلى مستوى الدلالة، حيث أنها كانت قيمها أصغر بكثير من تلك المعروضة في الجدول رقم (4).

اختبار الفرضية الرابعة:

جدول رقم (5): يوضح توزيع عينة الدراسة تبع لتغير الأسلوب المعرفي

الأسلوب المعرفي	التكرار	النسبة المئوية
المعتمد	106	18,6
المستقل	465	81,4
المجموع	571	100

من خلال الجدول رقم (5)، يظهر جليا أن نسبة الطلبة الذين يميلون إلى اعتماد أسلوب الاعتماد على المجال الإدراكي بلغت 18,6 %، في حين بلغت نسبة الذين يميلون إلى اعتماد أسلوب الاستقلال عن المجال الإدراكي 81,4 % وهذا يعني أن الفرضية قد تحققت.

اختبار للفرضية الخامسة:

جدول رقم (6) يوضح دلالة الفرق بين الطلاب والطالبات في الأسلوب المعرفي

مجموعات المقارنة	م	ع	ت	م. الدلالة
ذكور ن=258	12,48	4,45	0,37	غ. دال
إناث ن=313	12,35	3,85		

يظهر من الجدول أعلاه أن الفرق بين متوسطي الجنسين من حيث الأسلوب المعرفي المعتمد، لم يرق إلى مستوى الدلالة مما يعني أن الفرضية لم تتحقق.

اختبار الفرضية السادسة

جدول رقم (7) يوضح دلالة الفرق بين طلبة التخصصات في الأسلوب المعرفي

المصدر	مجموع المربعات	دح	التباين التقديري	ف	م. الدلالة
بين المجموعات	1917,74	7	273,96	19,73	دال 1 %
داخل المجموعات	7813,99	563	13,87		
الكل	9731,73	570			

يظهر من خلال الجدول رقم (7) أن هناك فرقا دالا إحصائيا بين طلبة التخصصات المختلفة من حيث الأساليب المعرفية التي يميلون إلى تبنيها. ولمعرفة اتجاه الفرق لصالح أي تخصص تم إجراء اختبار شيفه:

جدول رقم (8): يوضح نتائج اختبار شيفه

التخصصات	الفرق بين المتوسطين	م. الدلالة
صيدلة/هندسة مدنية	5,07	دال 1 %
بيولوجيا/هندسة مدنية	3,54	دال 1 %
آداب/هندسة مدنية	4,79	دال 1 %
حقوق/هندسة مدنية	5,58	دال 1 %
هندسة ميكانيكية/هندسة مدنية	4,97	دال 1 %
حقوق / بيولوجيا	2,04	دال 1 %

حسب ما هو معروض في الجدول أعلاه فإن معظم التخصصات يوجد بينها فروق ذات دلالة إحصائية.

اختبار الفرضية السابعة

جدول (9) يوضح دلالة الفرق بين داخلي وخارجي الضبط في الأسلوب المعرفي

مجموعات المقارنة	م	ع	ت	م. الدلالة
مركز ضبط داخلي ن=57	11,42	4,04	1,90	غ. دال
مركز ضبط داخلي ن=514	12,52	4,13		

يظهر من خلال الجدول أعلاه يبدو أن الفرق بين متوسطي الفئتين (داخلي الضبط وخارجي الضبط) من حيث تبنيها للأسلوب المعرفي لم يرق إلى مستوى الدلالة المعنوية، مما يعني أن الفرضية لم تتحقق، أي أنه لا يوجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الطلبة الذين يميلون إلى الاعتقاد في الضبط الداخلي والطلبة الذين يميلون إلى الاعتقاد في الضبط الخارجي من حيث الأسلوب المعرفي المعتمد.

اختبار الفرضية الثامنة

جدول رقم (10) نتائج الفرضية الثامنة

الجنس	المتغير	ر	م. الدلالة
ذكور	مركز الضبط	0,01	غير دال
	الأسلوب المعرفي		
إناث	مركز الضبط	0,06	غير دال
	الأسلوب المعرفي		

من خلال الجدول رقم (10) يظهر أن قيمة معامل الارتباط المحسوبة تبدو ضعيفة جدا (0,01) ولا ترقى إلى مستوى الدلالة المعنوية سواء عند الذكور أو عند الإناث مما يعني أن الفرضية لم تتحقق، أي أن العلاقة بين المتغيرين لا يشرطها متغير الجنس.

اختبار الفرضية التاسعة

جدول رقم (11) نتائج الفرضية التاسعة

التخصص	متغير	ر	م. الدلالة
هندسة مدنية	مركز الضبط	0,05 -	غ. دال
	الأسلوب المعرفي		
بيولوجيا	مركز الضبط	0,26	دال 0,01
	الأسلوب المعرفي		
آداب	مركز الضبط	0,07 -	غ. دال
	الأسلوب المعرفي		
حقوق	مركز الضبط	0,19 -	دال 0,05
	الأسلوب المعرفي		
هندسة ميكانيكية	مركز الضبط	0,03	غ. دال
	الأسلوب المعرفي		
صيدلة	مركز الضبط	0,01	غ. دال
	الأسلوب المعرفي		

من خلال الجدول رقم (11) يظهر أن معظم التخصصات كانت العلاقة فيها بين متغيري الدراسة (مركز الضبط والأساليب المعرفية) ضعيفة جدا حيث أن قيمة معامل الارتباط تكاد تنعدم، ما عدا تخصصين كانت قيمة معامل الارتباط فيها ذات دلالة إحصائية، مما يعني في

الإجمال أن هذه الفرضية لم تتحقق، أي أن العلاقة بين مركز الضبط والأسلوب المعرفي لا يشرطها متغير التخصص.

• مناقشة النتائج

- بالنسبة لنتيجة الفرض الأول المعروضة في الجدول رقم (01) فقد بينت أن طلبة الجامعة عينة الدراسة يميلون في معظمهم إلى تبني مركز الضبط الخارجي (90%) لأنهم يعتقدون بأن النجاح أو الفشل يعتمد على الظروف أو رغبات الآخرين وأسباب أخرى خارجة إرادتهم وتحكمهم، ويشعرون بأن الفشل لا يمكن أن يتبدل أو يتغير مما يؤثر في ثقتهم بأنفسهم أو قدراتهم، وعندما يحققون شيئاً من النجاح يعتقدون بأنه حدث بالصدفة أو الحظ دون اعتبار لقدراتهم.

ويوضح وحيد (2001) أن الاعتقاد بمركز التحكم والسيطرة يعتمد بشكل أساسي على مدى إدراك الفرد للعلاقة بين السلوك والاستجابات في البيئة وعلى مدى شعوره بالمسؤولية تجاه الأحداث. فجوهر مركز السيطرة هو الاعتقاد بوجود علاقة بين الفعل والنتيجة حيث ينقسم الأفراد تبعاً للدرجة التي يقبلون المسؤولية الشخصية لما يحدث لهم. فعندما يعتقد الفرد أن الناتج الإيجابي أو السلبي هو نتيجة منطقية للفعل والسلوك الخاص فإن هذا الفرد يوصف بأنه من ذوي مركز السيطرة الداخلي. في حين أن الفرد عندما يعتقد أن الناتج الإيجابي أو السلبي للفعل أو السلوك يعود للأحداث وغير مرتبط بفعله الخاص، بل يرجع إلى قوى خارجة عن ذاته، فإن هذا الفرد يوصف بأنه من ذوي مركز السيطرة الخارجي.

- بالنسبة لنتيجة الفرضية الثانية الموضحة في الجدول رقم (02) فقد بينت أنه لا يوجد فرق ذو دلالة إحصائية بين الجنسين من حيث مركز الضبط الذي يميلون إلى الاعتقاد فيه، مما يعني أن الظروف التي يعيشها الطلبة ويعتقدون أن لها أثر في سلوكهم تتشابه النظرة إليها والاعتقاد فيها بين الذكور والإناث ولا فرق بينهما ويظهر ذلك أيضاً من خلال تقارب متوسطاتهم الحسابية وحتى تباين درجاتهم مما جعل الفرق بينهما لم يرق إلى مستوى الدلالة الإحصائية.

وتتفق هذه النتيجة مع النتيجة التي توصل إليها الباحث زياد أمين بركات (2000) عند مقارنته بين معلمي المدارس الحكومية ومدارس وكالة الغوث الدولية، حيث وجد أن معلمي المدارس الحكومية يتفوقون فيما بينهم ذكورا وإناثا في عزو نتائج أدائهم من نجاح أو فشل إلى عوامل خارجية لا يستطيعون السيطرة عليها كالحظ والصدفة والإدارة، والمنهاج، وعدم توفر اللوازم وغير ذلك من ظروف خارجية تجنبهم تحمل المسؤولية لنتائج عملية التعلم والتعليم.

- بالنسبة لنتيجة الفرضية الثالثة التي عرضت في الجدول رقم (3) والجدول رقم (4) والتي بينت أن هناك فرقا دالا إحصائيا بين طلبة الجامعة حسب تخصصاتهم من حيث تبنيهم لمركز الضبط، حيث أن هذا الفرق كان دالا في غالب الأحيان لصالح طلبة الصيدلة مقارنة بطلبة التخصصات الأخرى (أنظر الجدول رقم 04) وهذا معناه أن هناك إدراك مختلف عند الطلبة للظروف المسؤولة في نظرهم عن تعلمهم ومدى مساهمتها في التأثير على مسار دراستهم والضغط الذي تولده لهم، وهذا يختلف من تخصص إلى آخر ويكون واضح بين بعض التخصصات - كما ذكرنا - ولا يرقى إلى درجة الوضوح بين تخصصات أخرى، وقد تعود هذه النتيجة إلى أن طلبة الصيدلة وبالنظر إلى طبيعة تكوينهم ملزمون بأن يكون لديهم حس عال بالمسؤولية ودرجة مرتفعة من الحرص والحذر، وهامش الخطأ المسموح به لديهم شبه معدوم اعتبارا لتعاملهم مع الجسد والروح، ذلك أن الصيدلة ليس بالعلم الدقيق فحسب بل إنه علم الدقة، بخلاف التخصصات الأخرى التي تتعامل إما مع المادة الجامدة أو مع الأفكار المجردة.

أما بالنسبة لنتيجة الفرضية الرابعة والتي عرضت في الجدول رقم (5) فقد أوضحت أن غالبية طلبة الجامعة، عينة الدراسة يتبنون أسلوب الاستقلال عن المجال الإدراكي (81,4%) وقد يرجع هذا في نظر الباحثين إلى طبيعة تخصصاتهم حيث ماعدا تخصصين أدبيين (حقوق - آداب) فقط، فإن باقي التخصصات علمية (أربع تخصصات) وهذا له علاقة بميول الطلبة، ذوي الملمح العلمي، إلى الدقة والتركيز على التفاصيل. وما يعرف عن الأسلوب المعرفي الاستقلال عن المجال أن صاحبه قادر على إدراك جزء من المجال بشكل مستقل عن الخلفية من خلال القدرة على التحليل الإدراكي بحيث تصبح عناصر الموقف على درجة عالية من الوضوح والتحديد بحيث يسهل تحقيق هذا الاستقلال¹. وترجع هذه الفروق حسب الدراسات السابقة إلى اختلاف التخصصات إذ أن البحث العلمي في هذا المجال أكد ميل الطلبة المعتمدين على المجال إلى التخصصات الأدبية والعلوم الاجتماعية والخدمة الاجتماعية، ويميل المستقلين عن المجال إلى المواد العلمية التي تتميز بالدقة والتجريد. ونظرا لتنوع عينة البحث واحتوائها على تخصصات من كلا الاهتمامين جاءت النتائج مؤكدة لذلك وهذا ما أيده أنور م. الشرقاوي وسليمان الحضري الشيخ في دراستها سنة 1978 على عينة مكونة من

¹ م.م. سعد سابط جابر العطراني، تطوير برنامج حاسوب لقياس مركز الضبط في الشخصية، مركز البحوث النفسية، العراق. <http://psychocenteriraq.com/research/abstract.htm,05/05/2006>

456 طالب وطالبة.¹

كما أكدت دراسة ويتكن WitKein 1952 حيث توصل إلى أن الطلاب الذين حددوا اختياراتهم المهنية في مجال العلوم، كانوا أكثر ميلا إلى الاستقلال عن المجال الإدراكي وأن الطلاب الذين اختاروا المهن التعليمية والإنسانية كانوا أقل استقلالا. أما بحث Distefano 1969 فخلص إلى أن الميل إلى مهنة التدريس بصفة عامة يرتبط بالأسلوب المعرفي الإدراكي لدى الفرد، حيث تبين له أن الأفراد العاملين في مجالات تدريس الرياضيات والهندسة والعمارة والطيران يتميزون بدرجة أكبر من الاستقلال عن المجال الإدراكي في حين أن الأشخاص الاجتماعيين ومدرسي العلوم الاجتماعية (اختصاص المناجحت) يميلون إلى الاعتماد على المجال الإدراكي (أحمد ليسيكي، 1992: 261-264). ولقد توصل ليسيكي أنه توجد علاقة بين اختصاص الميكانيك والأسلوب المعرفي الاستقلالي وأكد ذلك من خلال دراسة بيرسون (1965) وويتكن وزملائه (1976)، وهارن Harn (1980)، وأنور الشرقاوي (1982) بمصر، وأن هناك علاقة أيضا بين هذا الأسلوب المعرفي والرياضيات واستخلص ذلك من بحوث كل من ديبس وكوهن Debis&Cohen 1970 وكوران Koran 1971 وكين Keen 1974 وأنور الشرقاوي (1982) وهانم عبد المقصود (1987) ومسعد ربيع أبو العلا (1988) وجابر عبد الحميد ومحمد جمال الدين (1988). ويميل أصحاب الفيزياء والعلوم التجريبية الأخرى إلى الاستقلال وتم الوصول إلى ذلك من خلال دراسة كلا من ويتكن (1954) وبريسد (1965) اريتوسكي (1969) وكوران (1971) وكلايد كيلان ويلات (1971) وكيندي (1972) وساتر (1976) وويتكن (1977) ونادية محمد شريف (1981) وأنور محمد الشرقاوي (1982) وسامي محمد أبوية (1983) ووفاء عبد الجليل خليفة (1983) وسمية محمد (1994) وجمال محمد علي (1987). (أحمد ليسيكي، 1992: 282)

- وفيما يتعلق بنتيجة الفرض الخامس التي عرضت في الجدول رقم (6) فقد بينت أنه لا يوجد فرق يرقى إلى الدلالة الإحصائية بين الجنسين من أفراد عينة الدراسة من حيث تبنيهم لأسلوب معرفي دون آخر، فقد تقاربت قيم متوسطاتهم الحسابية، مما جعل الفرق بينهما لا يرقى إلى مستوى الدلالة، وقد يعود ذلك إلى تشابه الملحق العلمي لدى الجنسين من

¹ - صلاح الدين محمد أبو ناهية (1992) البنية العاملية لمفهوم الاعتقاد في الضبط الداخلي - الخارجي: دراسة ثقافية مقارنة بين الطلبة الفلسطينيين والمصريين، دراسات تربوية، تصدر عن رابطة التربية الحديثة، القاهرة، المجلد 7 الجزء 44، ص-ص: 209-250.

الطلبة، وهذا يتفق مع ما أشار إليه أنور الشرقاوي في دراسته سنة 1985 حول الفروق بين الجنسين على مستوى الأسلوب المعرفي الإدراكي خلال المراحل العمرية المختلفة (الطفولة، الشباب والشيخوخة) ولم تكشف النتائج عن وجود فروق دالة إحصائية بين الجنسين إلا عند الشباب، وفي نفس السنة قام سامي محمود أبوية بدراسة تأثير كل من وجهة الضبط والاستقلال الإدراكي على عينة من تلاميذ المرحلة الثانوية (ذكور وإناث) وتوصل بعدها إلى عدم وجود تفاعل دال إحصائيا بين الأسلوب المعرفي ووجهة الضبط والجنس¹.

في حين نجد دراسات أخرى أكدت وجود فروق بين الجنسين حيث أظهرت نتائجها أن البنون والرجال يميلون لأن يكونوا أكثر استقلالا من البنات والنساء وقد كشفت هذه الفروق عندما قيس متغير الأسلوب المعرفي الإدراكي باختبار الأشكال المتضمنة أو بأدوات أخرى ومن جملة هذه الدراسات بحوث أندريو Andrieux 1955، بنيت Bennett 1965، فرانكس Franks 1956 في دول أوروبا، ودراسة جونا Goodnow في هونغ كونغ وكاتو Koto في اليابان 1965، ودراسة داوسون Dawson في سيراليون 1967 ودراسة أكونجي Okoniji 1969 في نيجيريا، وويتكن وزملائه 1977²، أما في البيئة البلاد العربية توصل أنور الشرقاوي إلى نفس النتيجة على عينة من الطلبة قوامها 419 تمثل الإناث فيها 155، وأرجع مصدر هذه الفروق إلى التكوينات البيولوجية، وبعضها الآخر إلى عوامل ثقافية ويمثل هذا العامل خاصة في الدور الاجتماعي لكل من الذكر والأنثى. ففي بيئة العربية ينشأ الذكر ليكون أكثر استقلالا وحرية من الأنثى، في حين تبقى الأنثى حبيسة الأسرة وأكثر تقبلا للاعتماد على الآخرين من الذكر³.

أما بالنسبة لنتيجة الفرض السادس التي تضمنها الجدول رقم (7) والجدول رقم (8) فقد بينت أن الأساليب المعرفية التي يعتمدها الطالب الجامعي تختلف باختلاف تخصصه الدراسي، حيث جاءت نتيجة تحليل التباين دالة إحصائية، مما يعني أن هناك فرقا واضحا بين الطلبة التخصصات المختلفة من حيث تبنيهم للأسلوب المعرفي، وهذا يبدو طبيعيا بالنظر للفروق الموجودة بين بعض التخصصات، ويظهر ذلك جليا من خلال دلالة الفروق المعروضة في الجدول رقم (8) التي كانت واضحة، إلا أن هناك من وجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين

¹ - صلاح الدين محمد أبو ناهية (1992) البنية العاملية لمفهوم الاعتقاد في الضبط الداخلي - الخارجي: دراسة ثقافية مقارنة بين الطلبة الفلسطينيين والمصريين. دراسات تربوية، تصدر عن رابطة التربية الحديثة، القاهرة، المجلد 7 الجزء 44، ص-ص: 209-250.

² - حمدي علي الفرماوي (1994) الأساليب المعرفية بين النظرية والتطبيق، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى.

³ - محمد أحمد شلبي (2001) مقدمة في علم النفس المعرفي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

متغير التخصص والأسلوب المعرفي الإدراكي (معتمد، مستقل) مثل ناصر دسوقي محمد موسى 1995 وكذلك نادية عبده أبو دنيا 1997 حيث وجدت تأثير التخصصات على الأسلوب المعرفي الإدراكي¹. ويؤكد أنور محمد الشرقاوي وجود علاقة بين التخصص الدراسي والأسلوب المعرفي الاعتماد والاستقلال عن المجال الإدراكي من خلال دراستين أجريتا في البيئة العربية الأولى سنة 1978 والثانية² 1981.

- وفيما يتعلق بنتيجة الفرضية السابعة التي وردت في الجدول رقم (9) والتي بينت أنه لا يوجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الطلبة الذين يميلون إلى الاعتقاد في الضبط الداخلي والطلبة الذين يميلون إلى الاعتقاد في الضبط الخارجي من حيث الأسلوب المعرفي المعتمد، وهذا ما أيدته دراسة عايس (2003) التي توصلت إلى أنه لا توجد فروق ذات دلالة بين الطلاب ذوي وجهتي الضبط وذلك من حيث الأسلوب المعرفي. وربما يرجع هذا إلى عدم وجود علاقة ارتباطية أصلا بين المتغيرين في هذه الدراسة (أنظر الجدول رقم (10)، وهذا ما تؤيده دراسة جابر عبد الحميد محمود (1988) حيث توصل إلى عدم وجود فروق دالة إحصائية بين التلميذات ذوات وجهة الضبط الداخلي ونظيراتهن ذوات وجهة الضبط الخارجي في الأسلوب المعرفي على عينة من تلميذات الصف الثالث الابتدائي بدولة قطر. وفي المقابل توصلت دراسة عابد عبد الله النفيعي (1999) إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين المعتمدين والمستقلين عن المجال الإدراكي في أسلوب الضبط.

- وبالنسبة لنتيجة الفرضية الثامنة المتضمنة في الجدول رقم (10) التي أثبتت أن العلاقة بين متغيري مركز الضبط والأسلوب المعرفي لا يشرطها متغير الجنس، وذلك من خلال المقارنة بين معاملات الارتباط بين المتغيرين عند الجنسين حيث كانت قيمها متقاربة، ضعيفة وتكاد تنعدم، مما يشير إلى عدم وجود علاقة ارتباطية دالة إحصائية بين المتغيرين عند كلا الجنسين، وهذا ما أكدته دراسة محمد أحمد عايس (2003) التي كشفت عن عدم وجود أثر دال للتفاعل بين وجهة الضبط والجنس من حيث الأسلوب المعرفي.

¹ - Howard, Diane Elizabeth (1996) The Relationship of Internal Locus of control and Female Role Model in female college students, Doctoral dissertation, co-supervisors: Ralph, W. Cain and Lucia McKay, the university of Texas at Austin, <http://www.dianehoward.com/resume.htm>

² - محمد احمد شلبي (2001) مقدمة في علم النفس المعرفي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

- وأخيرا بالنسبة لنتيجة الفرضية التاسعة المعروضة في الجدول رقم (11) والتي بينت أن العلاقة بين مركز الضبط الذي يميل الطالب الجامعي إلى الاعتقاد فيه والأسلوب المعرفي الذي يعتمد عليه لا يشرطها متغير تخصص الطالب في الدراسة، وذلك من خلال إجراء مقارنات بين معاملات الارتباط لمتغيري مركز الضبط والأسلوب المعرفي عند كل التخصصات، والتي تبين أنها ضعيفة وغير دالة مع معظم التخصصات. قد يرجع هذا إلى عدم وجود العلاقة أصلا، وجاءت هذه النتيجة مؤكدة لتلك النتيجة التي وصل إليها أحمد محمد حسن 1993 عندما درس التفاعل بين الاستقلال الإدراكي والتخصص ومتغيرات أخرى¹ ونفس النتيجة توصل إليها محمد كامل عبد الموجود 1998 وأمينه شلبي 1998 وفادية السيد الحسيني عبد القادر 1998 وعابد عبد الله النفيعي 1999.²

• خاتمة

- يمثل الموضوع الحالي أحد المواضيع القليلة التي تناولت بالدراسة مركز الضبط وعلاقته بالأساليب المعرفية لدى طلبة الجامعة الجزائرية، إذ توصلت الدراسة عموما إلى عدم وجود علاقة بين المتغيرين والتي انعكست على باقي الفرضيات الجزئية وتمثلت في النتائج التالية:
- ظهر جليا أن طلبة الجامعة يميلون إلى الاعتقاد في مركز الضبط الخارجي.
- لا يوجد فرق ذو دلالة إحصائية بين الجنسين من حيث مركز الضبط الذي يميلون إلى الاعتقاد فيه.
- حقيقة يختلف مركز الضبط الذي يميل الطالب الجامعي إلى الاعتقاد فيه باختلاف تخصصه الدراسي.
- يبدو أن طلبة الجامعة يميلون إلى اعتماد أسلوب الاستقلال عن المجال الإدراكي.
- لا يوجد فرق دال بين الجنسين من حيث تبنيهم لأسلوب معرفي معين.
- يوجد فرق بين الطلبة التخصصات المختلفة من حيث تبنيهم للأساليب المعرفية.
- لا يوجد فروق دالة إحصائية بين الطلبة داخلي الضبط والطلبة خارجي الضبط من حيث الأساليب المعرفية المتبناة.

¹- بنية الخريطة المعرفية وعلاقتها بالأسلوب المعرفي استقلال/اعتماد على المجال الإدراكي، إشراف العربي بن فقيه، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية علوم التربية، الرباط، المغرب.

²- بنية الخريطة المعرفية وعلاقتها بالأسلوب المعرفي استقلال/اعتماد على المجال الإدراكي، إشراف العربي بن فقيه، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية علوم التربية، الرباط، المغرب.

- فعلا أن العلاقة بين مركز الضبط والأسلوب المعرفي لا يشرطها متغير الجنس.
- كما ثبت أيضا أن العلاقة بين مركز الضبط والأسلوب المعرفي لا يشرطها متغير تخصص الطالب.
- وبناء على هذه النتائج تم تقديم بعض الاقتراحات التي ترى فرقة البحث أن لها علاقة بالموضوع وتساهم في إثرائه ومنها:
- إجراء بحوث موسعة حول مركز الضبط والأساليب المعرفية لما لها من أهمية في نجاح العملية التعليمية والتربوية.
- اقتراح برنامج لتنمية التحكم الداخلي لدى الطلبة الجامعيين لأن ذوي التحكم الداخلي أكثر قدره على الاختيار الدراسي والمهني والتخطيط المستقبلي كما أنهم أكثر استقلاليه ولديهم استعداد لبذل جهد أكثر في أعمالهم، ويستغلون أوقات فراغهم بشكل أفضل.
- توسيع عينة البحث حتى تسمح الدراسة بتمثيل المجتمع الأصلي وإمكانية اعتماد نتائجها.
- محاولة توعية الطلبة وإقناعهم من أجل تحويلهم إلى منضبطين داخليا عن طريق تقوية إيمانهم بأنفسهم وجعلهم يعتمدون عليها وعلى جهودهم وقدراتهم في تحقيق أهدافهم بدل اعتمادهم على الحظ والقدر والقوى الخارجية.

المراجع

- 01- أحمد لسيكي (1992): قياس الأسلوب المعرفي الإدراكي بالميول المهنية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا - رسالة غير منشورة، كلية علوم التربية الرباط، المغرب.
- 02- أكوجكال صبر (2000): بنية الخريطة المعرفية وعلاقتها بالأسلوب المعرفي استقلال/ اعتماد على المجال الإدراكي، تحت إشراف العربي بن فقيه، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، رسالة غير منشورة كلية علوم التربية، الرباط المغرب.
- 03- الدحلوح أسماء سليمان (2010): الأساليب المعرفية وعلاقتها بالتوتر النفسي لدى طلبة الجامعات الفلسطينية، رسالة ماجستير غير منشورة الجامعة الإسلامية، غزة.
- 04- أنور محمد الشرقاوي (1989): الأساليب المعرفية في علم النفس، مجلة علم النفس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، السنة الثالثة، العدد: 11، ص-ص: 6-17.
- 05- أنور محمد الشرقاوي (1990): الأساليب المعرفية في البحوث العربية، بحوث التخصص والاختيار الدراسي والمهني، مجلة علم النفس الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- 06- أنور محمد الشرقاوي (1992): علم النفس المعرفي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى.
- 07- أنور محمد الشرقاوي (1996): الأساليب المعرفية التفسير النظري والتطبيقات، الجمعية المصرية للدراسات النفسية، مكتبة الأنجلو المصرية، المجلد السادس، العدد 15، ص-ص: 57-69.

- 08- أنور محمد الشرفاوي(2006): الأساليب المعرفية في علم النفس والتربية, مكتبة الأنجلو المصرية, القاهرة.
- 09- حمدي علي الفرماوي(1994): الأساليب المعرفية بين النظرية والتطبيق, مكتبة الأنجلو المصرية, القاهرة, الطبعة الأولى.
- 10- يوسف جلال يوسف(1998): علاقة الإستقلال/الإعتماد على المجال الإدراكي بمدى الإنتباه وأثره على التحصيل الأكاديمي, المجلة المصرية للدراسات النفسية, مكتبة الأنجلو المصرية, المجلد الثاني العدد 20, ص- ص: 44-81
- 11- نادية عبده أبو الدنيا(1997): الأساليب المعرفية وعلاقتها ببعض الجوانب المعرفية والوجدانية الشخصية, المجلة المصرية للدراسات النفسية, المجلد السابع, ص- ص: 159-196.
- 12- محمد أحمد علي عايس(2003): التفاعل بين وجهة الضبط والجنس وعلاقته بالتحصيل الدراسي وبعض الأساليب المعرفية لدى عينة من طلاب جامعة التحدي, مجلة الدراسات النفسية, المجلد 13, العدد 3, ص- ص: 487-518.
- 13- محمد احمد شلي(2001): مقدمة في علم النفس المعرفي, دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع, القاهرة.
- 14- سليم محمد سليم الشايب(2001): العلاقة بين الإستقلال/الإعتماد على المجال الإدراكي وبعض المتغيرات الشخصية والبيئية, مجلة علم النفس, الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, السنة 15, العدد 15, ص- ص: 110-127.
- 15- سعد سابط جابر العطراي(2006): تطوير برنامج حاسوب لقياس مركز الضبط في الشخصية, مركز البحوث النفسية, العراق.
- 16- صلاح الدين محمد أبوناية(1992): البنية العاملية لمفهوم الإعتقاد في الضبط الداخلي-الخارجي: دراسة ثقافية مقارنة بين الطلبة الفلسطينيين والمصريين, دراسات تربوية, تصدر عن رابطة التربية الحديثة, القاهرة, المجلد 7 الجزء 44, ص- ص: 209-250.
- 17- علاء الدين كفاني(1982): بعض الدراسات حول وجهة الضبط وعدد من المتغيرات النفسية, الجزء الأول, مكتبة الأنجلو المصرية, القاهرة.

أثر بعض أبعاد البنية المعرفية على عملية حل المشكلات عند الطالب الجامعي الجزائري

د. ركزة سميرة / جامعة البليدة

مقدمة:

في عملية حل المشكلات عمليات التحويل ليست محددة تماما عند الانطلاق، وهي متنوعة، فكل شخص يمكن أن يصل إلى الحل بطريقة مختلفة وباستعمال إستراتيجيات مختلفة. وهناك عدة عوامل تتدخل في حل المشكلات، عوامل مرتبطة بالمهمة كتشابه مشكل مع مشكل حل سابقا، وعوامل خاصة بالشخص الذي يحل المشكل، أي كيفية إدراكه لعناصر المشكلة عن طريق الحواس، وهذا ما يسمى بالمعرفة المباشرة، أو كيفية وصوله إلى الحل من خلال عمليات التحليل وإعادة الصياغة والاستقاق والتوليف، أي المعرفة غير المباشرة، ويقصد بها هنا محتوى البناء المعرفي للفرد.

و في هذا الإطار يرى ستيرنبرج (Sternberg 1983) أن البنية المعرفية والأبعاد المحددة لها تلعب دورا هاما في فهم أسس التغير في الأداء المعرفي من خلال العمليات وعبر المهام المعرفية المختلفة ومنها حل المشكلات. التغير في الأداء.

وهي تمثل الأساس المعرفي للأفراد حسب هيزوسيمون (Hays & Simon, 1974) حيث يمكن بمقتضاها أن نرجع الفروق الفردية بين الأفراد في النجاح في المهام المعرفية المختلفة إلى تميزهم ببنى معرفية متباينة.

* - Summary

The study aims to investigate the effect of some of the dimensions of cognitive structure on the process of solving problems at the university student.

We applied the tool to measure cognitive structure that we have built, and we went through the problem of "Tower of Hanoi" on a random sample of 100 students from the first year of university obtained the baccalaureate Sciences Division.

The results showed:

_ The presence of statistically significant differences between the groups in cognitive structure differentiated public, interdependence, differentiation, regulation on the problem-solving process.

Verify hypotheses of the study demonstrates the validity of the theoretical concept upon which the.

• الإشكالية

تمثل البنية المعرفية للفرد، ماله من ذخيرة معرفية ومن خلالها تشتق مختلف أنماط التفكير التي تؤثر بدورها على فعالية العمليات المعرفية ومن ثم في تجهيز ومعالجة المعلومات.

و يرى كل من راينوتر وشي جليسر (1986، Chict et Glasser, Rabinowtz86) أن التفكير الجيد هو نتاج البنية المعرفية جيدة التنظيم والعمليات المعرفية التي تتعامل بكفاءة مع محتوى هذه البنية لتفرز أنماط من الإستراتيجيات المعرفية، حيث تختلف باختلاف كل من طبيعة البنية المعرفية والمهام أو المشكلات موضوع المعالجة.

ويرى كل من بيزنار وفوس (81، voss et Bisanaz) أن البنية المعرفية تلعب دورا أكبر أهمية من العمليات المعرفية في إحداث التغيرات المعرفية لدى الفرد، فالعمليات المعرفية مما كانت كفاءتها وعمليات المعالجة والتجهيز مما كانت خصائصها تحتاج إلى محتوى معرفي تتعامل معه.

كما أن للبنية المعرفية وفعاليتها أثر في النشاط العقلي المعرفي، إذ يرى أوزوبل (78، Ausubel) أن التطورات الهامة التي حدثت في السنوات الأخيرة في مجال تعليم بعض المواد كالرياضيات والكيمياء والعلوم الطبيعية، قد تم التنبؤ بها، بافتراض أن التعلم الفعال والحفظ الجيد للأفكار والمعلومات التي تشكل أساس قدرة الفرد على حل المشكلات تعتمد بدرجة كبيرة على كفاية البنية المعرفية.

ويعتبر التعليم الفعال والحفظ الجيد للأفكار والمعلومات التي تحدث عنها أوزوبل أساس قدرة الفرد على حل المشكلات. ويمكن القول إن اختلاف نظام تجهيز المعلومات من فرد لآخر من حيث الدقة والسرعة والفاعلية يرجع إلى اختلاف البنية المعرفية من حيث الخصائص أو الأبعاد والمحتوى، بمعنى أن البنية المعرفية من حيث الكم والكيف تنتج استراتيجيات معرفية متنوعة تختلف من فرد لآخر من حيث استقباله وتجهيزه للمعلومات ومن ثم استرجاعه لها لتوظيفها في أداء المهام المعرفية التي يعالجها.¹

وقد توصلت العديد من الدراسات مثل دراسة أنولز وأنسك (92، O'nuls) و (Enssook و92) و (عادل العدل، 99) ودراسة باس (92، Pass) إلى أن هناك فروق فردية في الاستراتيجيات المعرفية بين الأفراد، فبعض هذه الاستراتيجيات التي يمتلكها البعض تكون أفضل منها عند البعض الآخر وهذه الفروق ترجع إلى خصائص البناء المعرفي لكل منهم.

¹- الزيات فتحي مصطفى: سيكولوجية التعلم بين المنظور الارتباطي والمعرفي، دط، دار النشر للجامعات، 1996.

وتتحدد فعالية الإستراتيجية في ضوء اختزالها لعملية البحث عن المعلومات حيث يتجنب الفرد المسارات غير الفعالة في شبكة المعلومات خلال أداء المهمة، ومنه يتم إختزال كثير من أعباء التجهيز وهذا يؤدي إلى إختزال الزمن المستغرق للوصول إلى الهدف (الحل).

كما توصلت دراسة قام بها قولد سميث (Goldsmith) وآخرون أن مرتفعي التحصيل يمتلكون أبنية معرفية أكثر تعقيدا من ذوي التحصيل المنخفض في مجال ما، وهي على تعقدها تختلف اختلافا كينيا عن الأبنية المعرفية لدى أقرانهم العاديين.¹

وقد توصلت بعض الدراسات كدراسة (فتحي الزيات، 1984) إلى أن خصائص البنية المعرفية تؤثر تأثير دال على اختيار الفرد للإستراتيجية المستخدمة في مختلف المهام المعرفية. وعلى الرغم من أن الاستراتيجيات المعرفية مستقلة عن المحتوى البناء المعرفي للفرد إلا أنه لا يمكن أن تكسب أو يتم تعلمها أو تطبيقها بدون محتوى معرفي معين فهذه العمليات العقلية المعرفية يتعين أن تجد محتوى معرفي معين كي تعمل وتمارس فيه وتتفاعل معه.²

ويرى جيلفورد (Guifford، 1979) في نموذج المعرفي بنية العقل أن أسلوب الفرد في حل الموقف المشكل هو دالة لكل من: تكوينه العقلي: من حيث مستواه ومحتواه، أسلوبه المعرفي: في استقبال المعلومات والمحددات الواردة في الموقف المشكل. بنيت المعرفية: محتواها وطبيعة هذا المحتوى.³ فاعلية ترابطات المعاني داخل الذاكرة.

يعتبر الهدف النهائي لأي برنامج تعليمي هو زيادة أو تحسين فعالية قدرة الفرد على حل المشكلات من حيث نواتج الحل واستراتيجياته، وحيث أن الفرد في تعامله مع الموقف المشكل يعتمد على بنائه المعرفي في استقبال ومعالجة وتجهيز المعلومات، إذ يمكن افتراض تبين تأثير البنية المعرفية على حل المشكلات.

وفي ضوء ما تقدم يتضح أن البنية المعرفية تقف خلف إنتاج الفرد لمختلف أنماط الإستراتيجيات الأكثر فاعلية والتي تساهم بدورها في التجهيز والمعالجة الأكثر عمقا لمهمة حل المشكلات وهذه بدورها تؤثر مرة أخرى على الخصائص الكيفية للبناء المعرفي.

¹ - Goldsmith, T.E., Johnson, P.J Acton, W.H.K: Assessing structural knowledge, journal of education , 1991.

² - الزيات فتحي مصطفى: علم النفس المعرفي، ط1، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2001.

³ - Guilford, J.P: Same changes in the structure of intellect model, Educational and psycho local measurement, 1989

• تساؤلات الدراسة

- ومما سبق نشأت فكرة هذه الدراسة والتي تتمثل في الإجابة على التساؤلات التالية:
- 1- هل تختلف القدرة على حل المشكلات باختلاف درجة البنية المعرفية المتمثلة في (التنظيم - التمايز - الترابط) لدى الطلبة؟
- ويتفرع من هذا التساؤل التساؤلات التالية:
- أ- هل تختلف القدرة على حل المشكلات باختلاف درجة تنظيم البنية المعرفية لدى الطلبة؟
 - ب- هل تختلف القدرة على حل المشكلات باختلاف درجة تمايز البنية المعرفية لدى الطلبة؟
 - ج- هل تختلف القدرة على حل المشكلات باختلاف درجة ترابط البنية المعرفية لدى الطلبة؟

• فرضيات الدراسة

- في ضوء مشكلات الدراسة ومبرراتها العلمية والمنطقية وما أسفرت عنه نتائج الدراسات السابقة يمكن صياغة الفرضيات على النحو التالي:
- 1- تؤثر أبعاد البنية المعرفية المتعلقة بالترابط والتمايز والتنظيم على عملية حل المشكلات تأثيرا دالا موجبا.
- أ- تختلف القدرة على حل المشكلات باختلاف درجة ترابط البنية المعرفية.
 - ب- تختلف القدرة على حل المشكلات باختلاف درجة تمايز البنية المعرفية.
 - ت- تختلف القدرة على حل المشكلات باختلاف درجة تنظيم البنية المعرفية.

• المفاهيم والمصطلحات المستعملة في الدراسة

1. البنية المعرفية cognitive structure

- 1.1 تعريف هيلجارد وبارو (Hilgard, bowr): هي تلك النظم والأجهزة التي تحلل المعلومات المتاحة لها والتي تؤدي كل الوظائف مثل الإدراك والتمييز والفهم وحل المشكلات والتحكم في الاستجابة النهائية.
- ويلاحظ على هذا التعريف الخلط بين البنية المعرفية ومفهوم العمليات المعرفية المتعلقة في جزء منها بعمل الذاكرة.

- 2.1 تعريف شافلسون (shavelson 1974): هي تكوين فرضي يشير إلى طريقة تنظيم المفاهيم المعلومات في الذاكرة طويلة المدى ويتبدل على طبيعة البنية من نواتج هذا التنظيم

ويرى شافلسون أن البنية المعرفية تكوين مفترض موجود في الذاكرة ويرتبط بتنظيم المفاهيم والحقائق وعلاقتها (سهير محفوض، 75، درسول Drissoll,85)، بناء على هذا المفهوم أجرى العديد من الباحثين دراساتهم في مجال قياس البنية المعرفية، ومن هؤلاء الباحثين (75، Shavelson et stanton)، (درسول Drissoll,85) والتي يمكن تلخيص نتائجها:

الطريقة التي يمثل بها الفرد وبقدر ما يكون هناك تماثل بين محتوى بنية المعلومات في المهمة وتمثيل هذا المحتوى في البنية المعرفية يكون الأداء في المهام والاختبارات التي تقيس مدى تحصيل معلومات هذا المحتوى، فالفشل في أداء مهمة معرفية ما يرجع إلى عدم قدرة الفرد على إحداث التواء بين بنية معلومات ومحتوى المهمة ومحتوى بنية المعرفة.

تكون معلومات محتوى ما مهمة ذات معنى بالنسبة للفرد إذا كان هناك اتساق بين بنيته المعرفية الراهنة من ناحية وتلك الخاصة بالمعلومات من حيث درجة ارتباطها ببنيته المعرفية

3. 1 تعريف اوزبل وربنسون (Ausubel et Robenson 1969) البنية المعرفية هي المحتوى الشامل للمعرفة البنائية وخواصها التنظيمية المتميزة التي تميز المجال المعرفي للفرد. وهي تتكون من مفاهيم وأفكار شبه ثابتة ومنظمة بدرجة ما في وعي المتعلم أو شعوره. ويفترض أن طبيعة هذا التنظيم طبيعة هرمية متدرجة تكون فيها المفاهيم والأفكار والقضايا الأكثر شمولاً أو عمومية في القمة والمفاهيم الأكثر تخصصاً أو نوعية في القاعدة.

4. 1 التعريف الإجرائي: البنية المعرفية تتكون من خلال تفاعل المحتوى المعرفي للطالب وما ينبج من خصائص معرفية مع العمليات المعرفية التي تتفاعل مع هذا المحتوى وهو الدرجة الكلية التي يتحصل عليها الطالب في مقياس البنية المعرفية.

وإذا كانت متغيرات البنية المعرفية تعكس الخواص المادية والتنظيمية للمعرفة في مجال ما والتي يحتفظ بها المتعلم، فإن الاستعداد يعكس النضج في القدرات المعرفية للمتعلم أو هو وظيفة النضج في القدرات المعرفية ويتحدد بمستوى الوظائف العقلية لدى الفرد. ومن ثم فإن البنية المعرفية تتأثر بالاستعداد المعرفي.

ان أبعاد البنية المعرفية كما حددها (فتحي الزيات 1996) تتمثل فيما يلي.¹

1.2•- الترابط: ويقصد به عدد العلاقات بين المفاهيم والحقائق والقواعد والقوانين التي تشكل محتوى معرفي معين، وقد يكون هذا الترابط قائماً، أي موجود في المعرفة المعطاة أو

¹- الزيات فتحي مصطفى: نفس المرجع السابق، ص 2.

مشتقا من قبل الفرد، وهو الدرجة التي يتحصل عليها الطالب في مقياس البنية المعرفية في بعد الترابط.

التعريف الإجرائي: يقصد من ترابط البنية المعرفية أن تكون بوحداتها ومجموعاتها ومستوياتها مترابطة معرفيا بحيث يؤدي هذا الترابط إلى علاقات بينية عالية... وهو الدرجة التي يتحصل عليها الطالب في مقياس البنية المعرفية في بعد الترابط.

•2•2- التنظيم: وقصد به مدى استخدام الفرد لمفاهيم وقضايا عالية الرتبة (أقل عمومية).
التعريف الإجرائي: أي التنظيم الهرمي للبنية المعرفية من المستوى الأكثر عمومية إلى المستوى الأقل عمومية. وهو الدرجة التي يتحصل عليها الطالب في مقياس البنية المعرفية في بعد التنظيم.

•2•- التمايز: ويقصد به تمايز فئات المعلومات ذات الطبيعة النوعية داخل البناء المعرفي للفرد بمعنى تمايز فئات المعلومات في تصنيفات معينة داخل البنية المعرفية، بحيث تكون هذه الفئات ووحداتها أقل قابلية للفقد أو النسيان وأكثر قابلية للاحتفاظ أو الاسترجاع.
التعريف الإجرائي: تمايز مجموعات المعلومات في مستويات تنظيمها السابقة أي عند كل مستوى معين داخل البنية المعرفية، بحيث تكون هذه المجموعات أقل قابلية للنسيان وأكثر قابلية للاحتفاظ ومن ثم الاسترجاع. وهو الدرجة التي يتحصل عليها الطالب في مقياس البنية المعرفية في بعد التمايز.

ونرى أن أبعاد الترابط التمايز، التنظيم هي أكثر الأبعاد قابلية للقياس لذا فإننا نأخذها في دراستنا، وتركز قياس الأبعاد الأخرى لدراسات أخرى. كما أن الأبعاد التي أخذنا بها في دراستنا تعتبر مؤشر هام وصادق لبقية الأبعاد الأخرى.

2.3 مفهوم القدرة على حل المشكلات

3.1 مفهوم المشكل

مصطلح "مشكل" في علم النفس مفهوم واسع، يستعمله المختصون الذين يدرسون الإدراك، الفهم أو الحكم لتحديد أثر معالجة المعلومات التي يقوم بها الفرد.
والمشكل هو كل وضعية تتميز بـ:

1- مجموعة من المعطيات (أشياء، مادية، تصرفات، أحداث، تمثيلات معنوية، لغوية، أشكال... الخ).

2- مجموعة من الأسئلة التي تحدد الهدف الذي نريد الوصول إليه

3- مجموعة من العوائق التي لا تحدد تصرفات الفرد.¹

بالنسبة لنول وسمون (Newel et simon)² المشكل هو الفرق بين وضعية حالية ووضعية مرجوة الوصول إليها.² أما دافيز (Davis) فقد عرف المشكل كأى مهمة تعليمية شبه معقدة تعرض بشكل لا يطابق بعض المجالات التعليمية المألوفة. (فتحي الزيات، 2001، ص 292) . في حين يعرف جاجن (Gagne) عام 1980 المشكلة بأنها أي موقف يأخذ فيه الدور المعقد للتعلم مكانه.³

2. 3 مفهوم القدرة على حل المشكلات

هي نوع من أنواع النشاط العقلي فيه يتفاعل التمثيل المعرفي للخبرات السابقة مع مكونات الموقف المشكل لإنتاج الحل المستهدف. بينما يرى مير بفيلد (Merrifield) أنه لا يوجد ما يبرز أن القدرة على حل المشكلات كما قيس بعدد من الاختبارات المرجعية المستخدمة في البحث تعتبر قدرة أحادية. وهذا ما يبرز النظرة إلى القدرة على حل المشكلات كمستوى أداء، حيث يرى دونكان (duncan) 1959، أن مستوى الأداء على حل المشكلات يتباين بوضوح كدالة ل:

1. التغير في العلاقات المكونة للمشكلة.

2. مستوى صعوبة المشكلة.

3. الخصائص المميزة للمفحوص.

هذا المفهوم يبين الطرق أو الأساليب التي تمكن الفرد من الوصول إلى الحل، أي أنه لم يوضح العمليات العقلية أو دورها في الوصول إلى الحل. حل مشكل هو وضعية يبحث فيها الشخص الوصول إلى هدف معين، ويتوجب عليه إيجاد الوسائل المناسبة للوصول إلى هذا الهدف.⁴

• أهمية الدراسة

ويوضح سلافن (Salvin، 71) أن حل المشكلة هو المدخل الرئيسي لتشغيل العقل وهو محور النشاط البشري وإن دراسة حل المشكلات هو هدف الدراسة في مجال علم النفس

¹ -Barais-Weil, A: Résolution de problèmes, Paris,1991, p562.

² - Da-silva,R: Psychologie cognitive , Armand colin , Paris,1985,p 85.

³ -الزيات فتحي مصطفى: نفس المرجع السابق، ص 292.

⁴ -Chi,M.R,Classer ,R: Problem _Solving Ability ,Freeman, New York,1985,p 206

المعرفي وإن حل المشكلة يتضمن تطبيق المعرفة والمهارة لتحقيق وإنجاز الأهداف حيث يتم نقل القدرة على التعلم لاستخدام المعلومات والمهارات المكتسبة في حل المشكلة. أهمية الدراسة:

ويعرف فتحي الزيات نشاط حل المشكلات بأنه نمط من التفكير الاستدلالي ينطوي على عمليات معقدة من التحويل والمعالجة والتنظيم والتحليل والتركيب والتقييم للمعلومات الماثلة في الموقف المشكل في تفاعلها مع الخبرات والمعارف والتكوينات المعرفية السابقة التي تشكل محتوى الذاكرة بهدف إنتاج الحل وتقويمه.

ونحن نميل إلى الأخذ بوجهة النظر المعرفية في حل المشكلات، لأن نشاط حل المشكلات هو نمط من التفكير المركب من أنماط التفكير التقاربي، والاستدلالي الناقد وتختلف نسبة هذه الأنماط المكونة لحل المشكلات باختلاف طبيعة الموقف المشكل والمعلومات المكونة له، ويعتمد هذا النشاط على عمليات عقلية معرفية معقدة في تفاعلها مع البنية المعرفية للفرد.

التعريف الإجرائي: المشكل هو موقف يتضمن درجة من الغموض والصعوبة تشكلان عقدة معرفية، وهي بدورها ستشير دافعية الطالب للقيام بعمليات معرفية معينة والاستعانة بمحتوى البنية المعرفية من معلومات وخبرات وطرق واستراتيجيات لإصدار الحل المناسب، وتقاس بزم من حل المشكل وعدد الخطوات للوصول للحل.

تمثل أهمية الدراسة الحالية فيما يلي:

1. يفيد الكشف عن دور البنية المعرفية في حل المشكلات على اعتبار على أن كثير من مواد المناهج مشكلات تحتاج إلى حلول (الرياضيات، الفيزياء، الفلسفة . . .) إلى تغيير عميق في منظومتنا التعليمية محتوى وطريقة: حيث يؤدي تقليص المقررات وتفرغها من محتواها أو اختصارها إلى إنتاج بني معرفية هشة، وسطحية تعكس أنماط من المعرفة تفتقر إلى الفعالية .

2. تؤدي طرق التدريس بأنماطها الحالية التي تعتمد على التلقين دون التحليل والمناقشة والعرض التقليدي دون إدراك العلاقة القائمة أو المشتقة في المحتوى المعرفي، والحفظ الأهم من طرف الطالب دون الإدراك الواعي للترابطات والتمايزات والتنظيمات المستعرضة أفقيا أو رأسيا في هذا المحتوى يؤدي إلى تضائل وتحلل المعرفة، ومن ثم انعدام تأثيرها، ولا يبقى لنا من الخرج الجامعي سوى فرد يحمل الشهادة.

3. إن توليد الحلول والاكتشافات يعتمد على المعرفة، والبنى المعرفية والخصائص المعرفية للفرد وما تفرزه من استراتيجيات فعالة، حيث تشير الدراسات والبحوث (Newel et al, 72, simon, الزيات, 96, 87 Hayes) إلى أن الأنشطة الفكرية ذات المستوى الرفيع،

ومنها حل المشكلات تتطلب البحث القائم على التفكير التباعي، بل أن التفكير التباعي لا يمكن أن يحدث من فراغ أو من خلال ابنية معرفية هشة أو فقيرة المستوى والمحتوى .

4. تسعى هذه الدراسة إلى التأكيد على أهمية تناول الامتحانات الدراسية بمستوياتها التعليمية قياس العمق المعرفي النظري والتطبيقي لدى الطلاب المتمثلة في الطبيعة الكيفية للبناء المعرفي، حتى تكون منظومتنا التعليمية منتجة كيفاً ذا طبيعة نوعية متميزة.

• الدراسات والبحوث السابقة

1. دراسات وبحوث تتعلق بالبنية المعرفية

1.1. دراسة رودنسكي وجارلوك (77 Rudnitskj et Garlock)

كانت تهدف هذه الدراسة إلى محاولة الإجابة عن التساؤلات التالية:

• إلى أي مدى يكون هناك تفاعل بين القدرة على الاسترجاع والمحتوى البنائي للبنية المعرفية.

• هل يختلف تأثير محتوى بنائي معين من المعلومات على كفاءة البنية المعرفية؟

• هل يختلف المحتوى البنائي المعرفي لذوي القدرة العالية على الاستطلاع على المحتوى البنائي المعرفي لذوي القدرة المنخفضة عليه؟

وقد قام الباحثان بقياس البناء المعرفي لـ 116 طاب من كلية الزراعة حيث طلب من كل منهم أن يكون بناء معرفي لعدد من المفاهيم التي توجد بينها علاقات منطقية ترتبط بنمو النبات.

كما قام الباحثان بقياس القدرة على الاسترجاع مع تقسيم العينة على مجموعتين.

1) المجموعة الأولى: تمثل ذوي القدرة العالية على الاسترجاع.

2) المجموعة الثانية: تمثل ذوي القدرة المنخفضة على الاسترجاع.

وقد توصلت هذه الدراسات إلى ما يلي:

• البنية المعرفية لذوي القدرة العالية على الاسترجاع لا تشابه المحتوى البنائي أو التركيبي لها مقارنة بالطلاب ذوي القدرة المنخفضة على الاسترجاع.

• تختلف طريقة تخزين ومعالجة المعلومات بين أفراد المجموعتين.

• يتعلم طلاب المجموعة الأولى بما يتلاءم مع بنيتهم المعرفية بينما يتعلم طلاب المجموعة الثانية بشكل روتيني جامد.

فنستنتج من هذه الدراسة أن للبنية المعرفية تأثير على فعالية التجهيز واستخدام المعلومات سواء في مرحلة التجهيز أو في مرحلة التوظيف.

2. 1- دراسة أمينة إبراهيم شلبي: بعض أبعاد البنية المعرفية وأثرها على الاستراتيجيات المعرفية للمتفوقين العاديين من طلاب المرحلة الجامعية.
- حاولت هذه الدراسة الإجابة عن التساؤلات التالية:
- هل هناك اثر لتفاعل بعض أبعاد البنية المعرفية على الاستراتيجيات المعرفية المتعلقة بالاسترجاع (التسميع/ التنظيم) ؟
 - ويتفرغ من هذا السؤال عدة تساؤلات:
 - هل تختلف الاستراتيجيات المعرفية باختلاف أنماط العلاقة بين أبعاد البنية المعرفية الثلاثة؟
 - هل توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين متوسطات درجات المتفوقين والعاديين من طلاب المرحلة الجامعية على مقياس أبعاد البنية المعرفية (الترباط / التمايز / التنظيم) والدرجة الكلية.
- شملت العينة 400 طالب وطالبة من طلاب السنة الأولى من التعليم الجامعي من كليات التربية، قسم اللغة الانجليزية، تراوحت أعمار العينة بين 17-19 عام طبقت الباحثة مقياس البنية المعرفية: (أبعاد الترباط، التمايز والتنظيم) ومقياس الاستراتيجيات المعرفية.
- وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:
- وجود تأثير كل من بعدي الترباط والتمايز على استراتيجي التسميع في الاسترجاع وتحليل الوسائل مع وجود تفاعل ثنائي بين أبعاد البنية المعرفية الترباط والتمايز على إستراتيجية التنظيم في الاسترجاع، ولم يتحقق فيما يتعلق بتأثير بعد التنظيم على إستراتيجية التسميع.
 - تختلف الاستراتيجيات المعرفية المستخدمة باختلاف درجة ترباط، تمايز تنظيم البنية المعرفية، حيث يميل مرتفعو الترباط التمايز، التنظيم إلى تفضيل إستراتيجية التنظيم (فيما يتعلق بالاسترجاع)، بينما يميل منخفضو الترباط، التمايز، التنظيم إلى تفضيل إستراتيجية التسميع (فيما يتعلق بالاسترجاع) .
 - وجود فروق بين متوسطات درجات المتفوقين والعاديين على مقياس البنية المعرفية (الترباط، التمايز، التنظيم)¹.

¹ - Barais-Weil, A: Résolution de problèmes, Paris, 1991, p562.

2 دراسات وبحوث تتعلق بحل المشكلات

1. 2 دراسة دي جروت (De Groot 1965)

أجرى "دي جدوت" دراسة على مجموعتين من الأفراد تمثل إحداها فئة محترفي الشطرنج والثانية تمثل فئة المبتدئين في هذه اللعبة، وقد ساوى بين المجموعتين في القدرة التذكرية العامة. وكان الهدف من هذه الدراسة هو التعرف على مدى تأثير المعرفة على حل المشكلات، حيث قدمت لكل المجموعتين عدد من قطع الشطرنج مرتبة على لوحة، وكانت مهمة المفحوصين إعادة ترتيب القطع مع بذل أقصى الجهد.

وقد وجد "دي جدوت" أن أداء المحترفين كان أفضل من أداء المبتدئين في إنتاج توزيعات للقطع ذات معنى وهدف، وبناء خطط للحلول على الرغم من وجود فروق بين المجموعتين في القدرة التذكرية العامة.

وتخلص هذه الدراسة إلى أن أداء محترفي الشطرنج أفضل بسبب تكثيف خبراته الماضية بمقتضيات اللعبة في التعرف على مواقع القطع، وترميز مواقعها على اللوحة وإنتاج توزيعها ذات معنى وفقا لاستراتيجيات مخططة¹

3 دراسات وبحوث تناولت البنية المعرفية وحل المشكلات

1. 3 دراسة شيز وسيمون (chase et simon, 1973)

أوضحت الدراسات التي أجريت على لاعبي الشطرنج من ذوي المستويات المختلفة من الخبرة إلى أي مدى يتعاضد تأثير زيادة المعرفة على مستوى الأداء.

ففي إحدى التجارب استطاع الفرد خبير ترتيب من 16-21 قطعة من بين 25 قطعة في الأوضاع الصحيحة في 5 ثوان، بينما كان أداء الفرد المبتدئ صحيحا ل 4-8 قطع خلال نفس الزمن.

ويرى سيمون (simon, 1973) أن هذا الفرق المدهش في حل المشكلة لا يرجع فقط إلى أن الشخص الخبير لديه ذاكرة أفضل ولكن تفوق الخبير راجع إلى سرعته في إدراك العلاقات بين القطع، وهذا ما لا نجده عند المبتدئ.

ويدعم هذه الدراسة ما توصل إليه باشكرا وسيمون (Bhaskar et simon, 1977) من أن المعرفة العامة عن الهندسة الكيميائية تسهل حل المشكلات المتعلقة بهذا المجال.

ومنه يمكن القول أن المحتوى البنائي للبنية المعرفية وكيفية استخدامه يؤثران في قدرة الفرد على

¹ - الزيات فتحي مصطفى: نفس المرجع السابق، ص ص 06، 225.

حل المشكلات.

4. تعليق على الدراسات والبحوث السابقة

1- تناولت معظم هذه الدراسات متغيرات الدراسة من منظور سببي يعطينا تفسيرات مقنعة عن اتجاهات التأثير والتأثر ودلالته.

2- افتقار ميدان حل المشكلات إلى النموذج الذي يشرح العلاقة السببية واتجاهات التأثير بين مستوى الأداء والقدرة على حل المشكلات والمتغيرات التي تؤثر في الأداء على حل المشكلات.

3- الافتقار الواضح إلى دراسات جزائرية، بحيث لم تقع تحت أيدينا دراسة واحدة تتناول هذه المتغيرات.

4- من بين المتغيرات التي أثبتت الدراسات السابقة أثرها على حل المشكلات والتي سوف نراعيها في تحقيق التجانس والتكافؤ بين أفراد العينة وهي السن، والمستوى التعليمي والتدريب والخبرة.

منهج الدراسة

استخدمنا في الدراسة المنهج الوصفي المقارن لأنه المنهج المناسب لإجراءات الدراسة.

عينة الدراسة

تم اختيار العينة بطريقة عشوائية من طلبة سنة أولى جامعي تخصص علوم وتكنولوجيا (S) من جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا للسنة الجامعية (2009-2010) وفقا للخطوات التالية:

- إحصاء عدد الطلبة الموجهين إلى التخصص ممن حصلوا على بكالوريا علوم الطبيعة والحياة.

- تم اختيار مئة (100) طالب وطالبة بطريقة عشوائية.

- تم اختيار العينة من طلبة سنة أولى جامعي لاستقرار ووضوح المفاهيم العلمية المستخدمة في الدراسة ومن ثم ثباتها في البناء المعرفي لأفراد العين لتصبح جزءا دائما مستقرا من محتوى الخبرات المعرفية داخل البيئة المعرفية بعيدا عن الضغوط النفسية إلى يتعرض لها الطالب في مرحلة البكالوريا والتي قد تؤثر في استجاباته على أدوات الدراسة.

- تم التطبيق في بداية الفصل الدراسي الأول (نوفمبر 2012) حتى نضمن عدم تأثير دراسة الطالب للمواد الجامعية في استجاباته على أداة البيئة العرفية فتصبح من المتغيرات الدخيل.

الجدول رقم (01) يبين خصائص العينة

المتغيرات	ذكور	إناث	المجموع
متفوق	19	23	42
عادي	26	32	58
المجموع	45	55	100

ويتضح من الجدول أن عينة الدراسة فيها الذكور والإناث المتفوقين والعاديين بنسب تمثيل مناسبة ومتوسطة عمري (18.8 سنة).

• الأدوات المستخدمة في البحث

1. أداة قياس البنية المعرفية: (أبعاد الترابط، التمايز، التنظيم) لقد تم إعداد هذه الأداة وفقا للخطوات التالية:

- قياس درجة ترابط، تمايز، تنظيم البنية المعرفية لدى أفراد العينة.
- إضافة أداة لقياس البنية المعرفية بأبعادها المتمثلة في الترابط التمايز والتنظيم للمكتبة الجزائرية.

1.1. إجراءات بناء أداة قياس البنية المعرفية

فنا بمساعدة أساتذة في الثانوية المستوى النهائي بتحليل مواد العلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء طبقا لأخر تعديل وزاري للحصول على عينة ممثلة للمفاهيم المتعلقة بالبنية المعرفية العلمية (بنية معرفية نوعية).

وقد اخترنا قياس بنية معرفية نوعية (علمية)، لان قياس البنية المعرفية الشاملة هو قياس أكثر عمومية يشمل عدد غير محدد ولانهائي من المفاهيم، يجعل الوصول إلى بنية معرفية حنكة أمرا صعبا، إن لم يكن مستحيلا، بسبب تعاضد عدد الترابطات والتنظيمات والتمايزات، بحيث يتعذر الإلمام بها أو حصرها، ومن ثم السيطرة عليها، وهو ما يؤدي إلى انخفاض صدق وثبات هذه الأداة. في حين أن القياس النوعي يتيح لنا الوصول إلى البنية المعرفية المحكي التي يمكن على أساسها إجراء عمليات التحليل والمقارنة رغم المدى الضيق الذي تعكسه هذه الأداة. تم عرض هذا العمل على مجموعة من الخبراء في المجال (أساتذة، مفتشون في العلوم، الفيزياء والكيمياء)، وذلك لاختبار مجموعة من المفاهيم المرتبطة بمواد التخصص السابقة بحيث تتوفر فيها الشروط التالية:

1. وجود علاقات ترابط وتمايز وتنظيم بين هذه المفاهيم.
2. الموضوعية: التي لمسناها من الاتفاق بين أحكام المختصين حول هذه المفاهيم.
3. التباين في المستوى الرتبة (مفاهيم عالية الرتبة، مفاهيم متوسطة، مفاهيم منخفضة الرتبة).

- تم تصميم أداة قياس البنية المعرفية (أبعاد الترابط، التمايز، التنظيم) بصورتها الأولية حيث تضمنت:
- مفهومًا لمادة الفيزياء والكيمياء و78 مفهومًا لمادة العلوم الطبيعية.
- تم عرض الأداة في صورتها الأولية على مجموعة من الخبراء في المجال، والذين تم الاستعانة بهم في وضع بنية معرفية معيارية للمفاهيم.
- تم عرض الأداة على مجموعة من أساتذة الجامعة لتصحيح طريقة بناء هذه الأداة.
- تم تطبيق الأداة في صورتها الأولية على عينة من طلبة الثالثة ثانوي في (ماي 2012).
- وتوصلنا في الأخير إلى 68 مفهومًا لمادة الفيزياء والكيمياء و74 مفهومًا للعلوم الطبيعية.

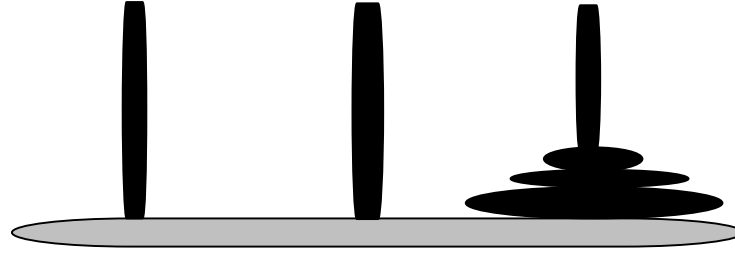
2. الخصائص السيكمترية للأداة

- أ. الصدق (validité): تم إيجاد صدق الأداة بعدة طرق: تمثلت في حساب الصدق المنطقي (صدق المحكمين) والصدق الفارقي وصدق الحكم.
- ب. الثبات: تم تطبيق هذه الأداة على عينة استطلاعية تكونت من 30 طالبًا ثانويًا شعبة العلوم الطبيعية بثانوية الكاليتوس الجديدة "العاصمة" في ماي 2012 وقمنا بعمل الإجراءات التالية للتحقق من ثبات الأداة. حيث تم إيجاد الاتساق الداخلي بين الفقرات وبين الأبعاد بالإضافة إلى التجزئة النصفية.

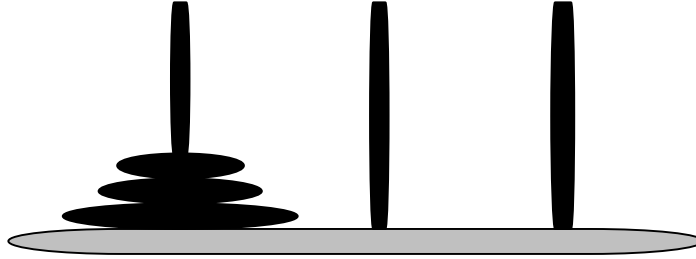
2. مشكل برج هانوي (probleme de la toure de hanoi):

- قد يتساءل البعض، لماذا هذا المشكل؟ فمن منا يصادف هذا المشكل في حياته؟ ومن يقوم بحل هذا مشكل؟
- إن مجال حل المشكلات هو من أحد مجالات علم النفس ابن تكون الوضعيات اصطناعية ظاهريًا فقط، فرغم أننا نحل مشكل برج هانوي يوميًا، إلا أنه وضعية مشكل يركز كل خصائص الوضعيات المشكل التي نصادفها يوميًا. ففي كل مشكل يجب تحقيق هدف من خلال وضعية انطلاق، وللوصول إلى هذا الهدف يمكن استخدام عدة طرق.

في هذا المشكل لدينا ثلاثة سيقان وثلاث حلقات كما هو مبين في الشكل (01).
الشكل رقم (01) يبين مشكل برج هانوي



الحالة الابتدائية

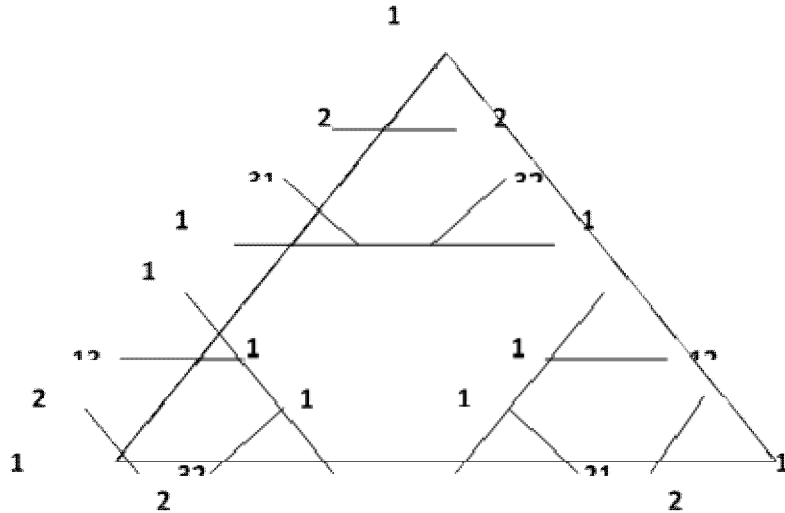


الحالة النهائية (الهدف)

فالحلقات الثلاثة في وضعية الانطلاق موضوعة على احد السيقان وفي وضعية الوصول الحلقات يجب أن توضع على الساق وبنفس الترتيب .
في هذه الوضعية المشكل اختيارات الأشخاص يمكن استنباطها بسهولة، كما يبين الشكل (30)، وكل تنقل جديد يمكن النظر إليه كحالة جديدة للمشكل (مظهر جديد للحلقات، مشكل جديد).

شكل رقم (02): يبين قائمة الحالات في مشكل برج هانوي

عامة مشكل برج هانوي 3^s حالة، (س هو عدد الحلقات).
في حالة 3 حلقات، عدد الحالات الممكنة هي 3^3 أي 27 حالة، ونعلم أن عدد الحالات هذه يسمى مجال شكل (Espace de problème).



عدد الأدنى للتنقلات للنجاح في هذا المشكل هو $(2^3 - 1)$ ، في حالة 3 حلقات للوصل للحل بأقصر الحالة و $7 = (1 - 2^3)$ ، هذا يدل على أن إضافة حلقة في مشكل يضاف مرتين (Triple) عدد الحالات التي يجد فيها الحل، ويضاف تقريبا العدد الأدنى الذي يقودنا للحل سبب هذا الاختلاف المستمد من الطبيعة التكرارية لمشكل "برج هانوي" هو أن الانتاجات الأكثر سهولة محتواة في الانتاجات الأكثر صعوبة، بعبارة أخرى حل مشكل حلقات محتوى في حل مشكل بخمس حلقات.

1.2. المجال المشكل في "مشكل برج هانوي":

اغلب الوضعيات معقدة جدا إذا تعلق الأمر بالمشكلات المحددة جيدا، بصفة عامة مجال المشكل يمثل عدة مسالك تسمح بالوصول من الحالة الابتدائية إلى الحالة النهائية (الحالة الهدف)، وهذه المسالك غير متساوية في المسافة والتكلفة، ويوجد غالبا مسلك أقصر من كل المسالك الذي يمثل الحل الأجود والأحسن.

وقد تم اختيار "برج هانوي" المكون من ثلاثة حلقات في بحثنا وهي تمثل أبسط شكل، مجدد من طرف Eyesnck et Keane سنة 1995.

انطلاقا من الحالة الابتدائية، لنا الاختيار بين حركتين جائزتين: لا يمكن أن نأخذ من "العمود أ" إلى الحلقة الصغرى التي يمكن وضعها أما على العمود ب أو العمود ج

2.3. الخصائص السيكمترية لأداة:

٢- الصدق: تم حساب الصدق بالطرق التالية: بحساب الصدق الفارق وصدق المحك

ب. الثبات: لحساب الثبات اعتمدنا على طريقة الاختبارات المتكافئة حيث أن مشكل برج هانوي له اختبار مكافئ له، وهو اختبار. -المصعد "ascenseur" problem ووجدنا معمل الارتباط في مجال المشكل (0.73) وفي ثبات مشكل برج هانوي.

• كيفية التطبيق

1. كيفية تطبيق أداة البنية المعرفية

تم تطبيق الأداة على جميع أفراد العينة وتم ذلك في جلستين مختلفتين: الأولى لمادة العلوم الطبيعية والثانية لمادة الفيزياء والكيمياء

2. كيفية تمرير مشكل برج هانوي: قمنا بتحميل المشكل على قرص مضغوط تم استخدامه في جهاز حاسوب محمول.

- يستدعي الطالب أو الطالبة إلى غرفة التدريس ويعرض عليه المشكل بصفة فردية.

• المعالجة الإحصائية

1. المتوسط الحسابي: الهدف من استخدامه الحصول على متوسط درجات القدرة على التفكير الابتكاري ومكوناتها المتمثلة في الطلاقة، المرونة والأصالة، وزمن حل المشكل وفضاء المهمة.

2. الانحراف المعياري: يبين مدى تشتت الدرجات (التنظيم، التمايز، الترابط، الدرجة الكلية، زمن حل المشكل، فضاء المهمة) عن النقطة المركزية.

3. مصفوفة الارتباطات بين جميع المكونات لمعرفة قوة العلاقة بينها.

4. اختبار كروسكال واليس (X^2) test de kruskal- wallis: وهو اختبار لا معلمي لقياس الدلالة الإحصائية للفروق والملاحظة بين المجموعات، وقد استعملنا هذا الاختبار اللامعلمي لعدم وجود التجانس بين المجموعات المختلفة في أبعاد البنية المعرفية، وهو مناسب لإجراءات دراستنا حيث يمكننا من حيث الكشف، عن مدى الفروق القائمة بين المجموعات الأربع المختلفة في كل من البنية المعرفية، الترابط، التمايز، التنظيم وبذلك نختبر فرضيات البحث ونتحقق منها.

• نتائج الدراسة

في ضوء إشكالية البحث والأسئلة المطروحة والفرضيات التي قام عليها البحث والأساليب الإحصائية المستخدمة. جاءت النتائج على النحو التالي وذلك بمعالجة البيانات على برنامج الإعلام الآلي (SPSS).

1. النتائج على المستوى الوصفي

1.1. المتوسطات والانحرافات المعيارية

حصلنا على المتوسطات والانحرافات المعيارية لدرجات أدوات البحث على جميع المتغيرات المدروسة حيث كانت على النحو الذي يوضحه الجدول التالي:

جدول رقم (02): يوضح المتوسطات والانحرافات المعيارية لدرجات مقاييس متغيرات الدراسة ن = 100.

المتغيرات	التنظيم	التمايز	الترباط	درجة البنية المعرفية	زمن حل المشكلة	فضاء المهمة
أدنى قيمة	04	5.06	06	20	110	07
أعلى قيمة	41	41	40	121	563	27
المتوسط الحسابي	.25	.25	.25	49.76	41.234	.14
	28	98	24			48
الانحراف المعياري	.12	.11	.11	80.35	33.99	35.6
	40	71	92			

ويتضح من الجدول تناسق متوسطات متغيرات البحث وانحرافاتها المعيارية في ضوء الحدى الكلي لكل من هذه المتغيرات.

2.1. مصفوفة معاملات الارتباط

استخدمنا مصفوفة معاملات الارتباط لكل من درجات أبعاد البنية المعرفية ودرجة البنية المعرفية العامة من جهة أخرى.

جدول رقم (03): يبين معاملات الارتباط بين متغيرات الدراسة.

المتغيرات	التنظيم	التمايز	الترباط	البنية المعرفية	حل المشكلة
التنظيم					
التمايز	98.0				
الترباط	97.0	98.0			
البنية المعرفية العامة	99.0	99.0	99.0		
من حل المشكلة	-85.0	-85.0	-82.0	-84.0	
فضاء المهمة	-91.0	-92.0	-90.0	-92.0	-95.0

يتضح من الجدول رقم (11) أن جميع قيم معاملات الارتباط دالة عند 01.0 مما يشير إلى أن العلاقة بين متغيرات الدراسة دالة، كما يتضح من الجدول أن العلاقة بين

البنية المعرفية بأبعادها الثلاثة المقاسة والقدرة على حل المشكلات هي علاقة جوهرية ذات معنى.

2. نتائج الدراسة على المستوى الاستدلالي
من خلال الأساليب الإحصائية المستخدمة للتأكد من هذه الفرضيات نعرض نتائج الدراسة على النحو التالي:

1. عرض النتائج المتعلقة بالفرضية الرئيسية
تؤثر البنية المعرفية المتعلقة بالترباط والتمايز والتنظيم على عملية حل المشكلات تأثيرا دالا موجبا.

للتحقق من هذه الفرضية قمنا بتقسيم العينة وفق طريقة الربيعيات وفقا للمحددات التالية:
- المجموعة الأولى (G1): تمثل الأفراد الذين تحصلوا على 25 % من العلامات الدنيا من العلامات المتحصل عليها على أداة البنية المعرفية وكان عدد أفراد هذه المجموعة (25 طالبا).
- المجموعة الثانية (G2): وتمثل الأفراد الذين تحصلوا على 25 % من العلامات الأحسن من العلامات التي تحصل عليها أفراد المجموعة السابقة (G1) وكان عدد أفراد هذه المجموعة (25 طالبا).

- المجموعة الثالثة (G3): وتمثل الأفراد الذين تحصلوا على 25 % من العلامات الأحسن من العلامات التي تحصل عليها أفراد المجموعة السابقة (G2) وكان عدد أفراد هذه المجموعة (25 طالبا).

- المجموعة الرابعة (G4): وتمثل الأفراد الذين تحصلوا على أحسن العلامات المتحصل عليها من خلال تطبيق أداة البنية المعرفية وكان عددهم (25 طالبا).

تم استخدام اختبار كروسكال واليس (x^2 test de kruskal - wallis) لقياس الفروق بين المجموعات الأربعة المختلفة في درجة البنية المعرفية العامة على زمن حل المشكل وقضاء المهمة، وكانت النتائج على النحو التالي:

جدول رقم (04) يبين نتائج اختبار (x^2) في البنية المعرفية العامة.

المتغيرات	فضاء المهمة	زمن حل المشكل
x^2	06.85	91.82
درجة الحرية	3	3
مستوى الدلالة	000.0	000.0

ويتضح من الجدول دلالة تأثير البنية المعرفية العامة التي تتسم بالترباط والتمايز والتنظيم على

القدرة على حل المشكلات من حيث قضاء المهمة وزمن حل المشكل، حيث أن الفروق بين المجموعات الأربعة المقسمة على أساس البنية المعرفية العامة هي دالة عند مستوى 01.0 وبنفس الطريقة تم اختبار الفرضيات الجزئية. ونظرا لكبر حجم النتائج نكتفي بمناقشة النتائج.

• مناقشة وتحليل النتائج

تشير نتائج الدراسة إلى صحة التصور النظري الذي قامت عليه من وجود تأثير دال موجب للبنية المعرفية بمكوناتها الترابط، التمايز والتنظيم على القدرة على حل المشكلات، حيث كانت الفروق دالة عند مستوى 01.0، كما جاءت العلاقة الارتباطية بين البنية المعرفية بأبعادها وزمن حل المشكل وقضاء المهمة جوهرية.

- من خلال العلاقة الارتباطية القوية بين أبعاد البنية المعرفية نرى انه يمكن اعتبار أبعاد البنية المعرفية المتمثلة في الترابط، التمايز والتنظيم أوجه متعددة للأبنية أو التراكيب المعرفية التي تشكل رجا حاضنا للقدرة على حل المشكلات.

- من خلال تحقق الفرضية الرئيسية الأولى نرى انه يمكن تقرير أن الفرد ذو الرصيد الأكبر من المعرفة والخبرة يستطيع أن يحقق تقدما ملموس عند حل المشكلات، فالمعرفة التي تميز بالترابط والتنظيم والتمايز تمكن الفرد من اختيار أفضل الأساليب لمعالجة وتجهيز المعلومات المعقدة التي تساعد في تحديد الخصائص الدقيقة للمشكلة وبناء خطط الحلول.

ویدعم هذا ما توصل إليه باشكار وسمون (Baskar et Simon)

ومنه يمكن القول إن المحتوى البنائي للبنية المعرفية وفعالية استخداماته يؤثران في قدرة الفرد على حل المشكلات.

ونحن نرى انه من المنطقي نظريا ومنه المقبل علميا أن تؤثر خصائص البنية المعرفية من حيث المحتوى والمستوى على اختلاف القدرة على حل المشكلات المتمثلة في زمن حل المشكل وعدد الخطوات للوصول إلى ذلك. وان ارتفاع درجة البنية المعرفية بأبعادها تمكن الفرد من إحداث نوع من التمثيل والتكيف أو المواءمة بين التراكيب أو الأبنية المعرفية والإستراتيجيات الماثلة في الموقف المشكل، واستحضار المعلومات المتعلقة به واشتقاق الحلول متطلباته وتهيئة البنية المعرفية لإنتاج الحل الملائم، وان البنية المعرفية تقف خلف قدرة الفرد على حل المشكلات أيا كان محتوى المشكلات موضوع الحل، وتتفق هذه النتائج مع نتائج دراسات كل من (فتحي الزيات 1982، Holtzman, 1983, Merrifield, 1960).

• الفرضية الجزئية الأولى

تختلف القدرة على حل المشكلات باختلاف درجة ترابط البنية المعرفية، أن ثراء البنية المعرفية من حيث الكم يؤدي إلى زيادة العلاقات البيئية القائمة بين المفاهيم والحقائق والقواعد المرتبطة بمحتوى معرفي معين تمكن المتعلم من اشتقاق واستنتاج أنماط من العلاقات الفعالة التي تعبر عن ترابط البنية المعرفية التي تمكنه (المتعلم) من اختيار أو انتقاء الاستراتيجيات التي يمكن من خلالها التعامل بكفاءة مع متطلبات الموقف المشكل.

ويؤيد هذا الطرح الدراسة التي قام بها شيز وسميون Simon & Chase والتي اشرنا إليها في الفصل الأول، والتي ترى أن الاستراتيجيات المعرفية لدى الخبراء تختلف كيفيا عن الاستراتيجيات لدى المبتدئين ويمثل هذا الاختلاف النوعي في اختصار الوقت والمسار، حيث يمكنهم ترابط بنيتهم المعرفية من تجنب البحث في المسارات غير الفعالة التي يستعملها المبتدئون.

ونحن نرى أن ترابط البنية المعرفية يشير إلى إمكانية توظيف كافة المفاهيم في اشتقاق الاستراتيجيات الأكثر ملائمة والتي تسهم إسهاما فعالا في حل المشكلات المطروحة حيث ينطوي ترابط البنية المعرفية على إمكانية تقديم فرصا أعظم للاشتقاقات والتفسيرات اللازمة لإيجاد حل المشكل.

• الفرضية الجزئية الثانية

تختلف القدرة على حل المشكلات باختلاف درجة تمايز البنية المعرفية. يؤدي تمايز البنية المعرفية إلى إدراك التنافر أو التعارض أو الغموض بين عناصر مكونات البناء المعرفي ووحداته المعرفية، وهذا غالبا ما يشجع على استطلاع أكثر للكشف عن معاني وعلاقات أكثر عمقا من أجل حل التناقض والتنافر الذي يصادفه الفرد وهو يحل المشكل ومن ثم فإن عمليات الاكتشاف تنجح فرصا أعظم لإيجاد الحل المناسب للمشكل بأقل وقت وأقصر الطرق.

نحن نرى أن تمايز البنية المعرفية يبيئ أنماط من البزوغ أو الإشراق والتي ترجع إلى المدى الذي من خلاله تنشأ مؤشرات وعلاقات في الوحدات المعرفية والمفاهيم التي تشكل محتوى البنية المعرفية ومن ثم التوصل الى حل المشكل بأقل زمن ومسار.

• الفرضية الجزئية الثالثة

تختلف القدرة على حل المشكلات باختلاف تنظيم البنية المعرفية. إن تنظيم البنية المعرفية يتيح التعرف على مناطق الغموض وهذا يرتبط بالتنوع الذي يدفع إلى إيجاد استخدامات أو تفسيرات متعددة ومتنوعة للعناصر أو الوحدات المعرفية جيدة التنظيم

تنطوي على مستويات تمايز بين الأعلى عمومية والأقل عمومية مما يسمح للفرد سهولة التعامل مع هذه المستويات.

ونحن نرى أن مرتفعو البنية المعرفية يعملون بفعالية لفهم المواد المتعلمة عن طريق إيجاد روابط بين عناصرها المختلفة، كذلك يحاولون ربط المعرفة الجديدة بالسابقة عن طريق اشتقاق علاقات خاصة بهم بالإضافة إلى العلاقات القائمة بالفعل، مما يسهل تعاملهم مع المواقف المشكل. وتعمل المفردات المشفرة في صورة مجموعات تنظيمية على اختزال القيود على مصدر سعة التجهيز المحدودة للأفراد، ويزيد هذا من كم المفردات التي تم تشفيرها، كذلك عندما تحدد عدة مفردات في مجموعات، فإن استرجاع أحد أعضاء المجموعة يجعل من السهل الوصول إلى بقيتها، وعندما تنظم المفردات في بنية ما، تصبح هذه المفردات جزءا من البناء المعرفي للفرد، بينما يقتصر منخفضو البنية المعرفية على مجرد الحفظ الأصم والتجهيز السطحي، فيلجئون إلى إنتاج الملومات كما عرضت عليهم ولا يقيمون علاقات بين المادة المتعلمة ومعرفتهم السابقة، وهذا ما يتفق مع نتائج دراسة (Wenstin, 1986).

• الخلاصة العامة

-البنية المعرفية بأبعادها الثلاثة المتعلقة بالترابط والتمايز والتنظيم تؤثر على عملية حل المشكلات حيث كانت فروق كل من هذه الأبعاد مصحوبا بفروق ذات دلالة إحصائية عند مستوى 0,01 في عملية حل المشكلات (فضاء المهمة، زمن حل المشكل)

-يمكن قياس البنية المعرفية باستخدام التمثيل الهرمي الشجري للمفاهيم والعلاقات البينية بينها سواء كانت القائمة أو المشتقة وصولا إلى الترابطات والتمايزات والتنظيمات التي تعكس الطبيعة المتداخلة لهذه الأبعاد.

-يضيف ترابط البنية المعرفية وتمايزها وتنظيمها رحما صحيا تنشط خلاله عمليات حل المشكلات، حيث ينطوي ترابط البنية المعرفية على إمكانية تقديم فرصا للاشتقاقات والتفسيرات من خلال الموالفات التصورية أو الإدراكية، كما يعمل ترابط البنية المعرفية على استقراء المعاني الكامنة أو الضمنية فيها مما يهيئ حلول للمشكلات المختلفة.

-يؤدي تمايز البنية المعرفية وتنظيمها إلى إدراك التنافر أو التعارض أو الغموض بين عناصر مكونات البناء المعرفي ووحداته المعرفية، وهذا غالبا ما يشجع استطلاع أكثر للكشف عن حلول المشكلات المختلفة.

-أبعاد البنية المعرفية المتمثلة في الترابط، التمايز، التنظيم ترتبط ببعضها البعض إلى درجة يمكن اعتبارها أوجه متعددة للأبنية المعرفية التي تشكل رحما حاضنا لعملية حل المشكلات.

• آفاق الدراسة

- من خلال نتائج الدراسة نقتراح المواضيع التالية للبحث:
- مدى ترابط وتمايز وتنظيم البنية المعرفية لدى طلبة القسم العلمي والقسم الأدبي.
- إجراء بحوث على حل المشكلات من النوع "غير المحدد جيدا"، هذه المشكلات التي تعترض الإنسان أكثر، أين يكون الهدف المراد الوصول إليه غير واضح وغير محدد.
- إجراء المزيد من الدراسات التي تأخذ بعين الاعتبار جميع المحددات في هذه الدراسة، وذلك لإمكانية تعميمها، وإجراء المزيد من الدراسات على عينات أكبر من الطلبة في جميع المستويات الدراسية.

المراجع العربية

- 1- جروان فتحي عبد الرحمان (1999) "تعليم التفكير" مفاهيم وتطبيقات"، عمان، دار الكتاب الجامعي.
- 2- الزغلول رافع نصير، عماد الزغل (2003): علم النفس المعرفي، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع.
- 3- الزيات فتحي مصطفى (1996): سيكولوجية التعلم بين المنظور الارتباطي والمعرفي، دار النشر للجامعات.
- 4- الزيات فتحي مصطفى (1998): الأسس البيولوجية والنفسية للنشاط العقلي والمعرفي، القاهرة، دار النشر للجامعات.
- 5- الزيات فتحي مصطفى (2001): علم النفس المعرفي، ط1، القاهرة، دار النشر للجامعات.
- 6- الزيات فتحي مصطفى (2006): الأسس المعرفية للتكوين العقلي وتجهيز المعلومات، ط2، القاهرة، دار النشر للجامعات.
- 7- زيتون كمال عبد الحميد (2003): "التدريس" نماذجه ومماراته"، القاهرة، دار علم الكتب.
- 8- زين الدين امتثال (2007): "علم النفس المعرفي" وصف ودراسة الهندسة المعرفية والوظائف العقلية"، دار المنهل اللبناني.
- 10- سويد عبد المعطي (2001)، مهارات التفكير ومواجهة الحياة، العين، دار الكتاب الجامعي.
- 11- الشقيرات محمد عبد الرحمان (2004): مقدمة في علم النفس العصبي، الإسكندرية، دار الشروق للنشر والتوزيع.
- 12- الشقيرات محمد عبد الرحمان (2005): مقدمة في علم النفس العصبي الإكلينيكي، جامعة مؤتة.
- 13- المليحي حليم (2004): علم النفس المعرفي، بيروت دار النهضة العربية.
- 14- الفرحاني السيد محمود (2005): سيكولوجية تحصيل الأطفال ضد العجز المتعلم "رؤى معرفية"، سلسلة علم النفس الإيجابي، القاهرة، دار السحاب للنشر.
- 15- الفرحاني السيد محمود، أحلام البار حسن (2008): التكوين العقلي المعرفي للمتعلم "المعايير وتحقيق الجودة"، الإسكندرية، دار الجامعة الجديدة للنشر.

المراجع الأجنبية:

- 16-Barais-Weil, A(1991):Résolution de problèmes, Paris,Dunod: J. PROssi
- Boden, M (1991): The creative mind, Myths and mechanisms, -28
- Newyork,Basic Books
- 17- Chi,M. R;Glasser, R(1985):problem-solving ability, Newyork Freeman
- 18- Costerman, J(1998):les activités cognitives, paris,Bruxelles,de Boeck
- 19- Da-Silva,R (1999): psychologie cognitive,paris, Armand colin
- 20- Denis, M (1998): les images mentales,Paris PUF
- 21-Delacour,Y(1998): une introduction aux neuroscience
- cognitive,Belgique,de Boeck

- 22 -Duran, J;E (1992):Attribution for achievement Outams Among
behavioural Sub-Grades of children With the learning
Disabilities;The;J;Ofspec. Educa. V(127)N3,306-320.
- 23- Dwek, C. S (2000): Self-theories: their role in motivation, personality and
development, Essayes in social psycho, Newyork;
- 24- Ellis, A (1994): Reason an Emotion, Abirch lane press Book, Newyork
- 25- Fortin, C Rousseau, R (1989): Psychologie cognitive, une approche de
.traitement de l'information, Montréal, presses universitaires du Québec
- 26- Frensh, P. Funk, J (1995): Complex problem solving, the European
.perspective, Hillsdale, Nj, laurance Erlbaum associates
- 27- Galohi,K. m (1999) cognitive psychology, in and out of the laboratory,
.2nd edition, Belmont
- 28- Gik,M. L. Holyok K. J (1980): Analogy problem solving, cognitive
psychology, 12 (03),160-207
- 29- Goldsmith, T. E ; Johnson,P. J z Acton,W. H (1991): Assessing structural
.Knowledge, journal of education psychology, 83(1),88-96
- 30- Greeno, J. F (1978): Natures of problem-solving abilities, Erlbaum
- 31- Greeno, J. G (1980): Trends in the theory of Knowledge problem for
.problem solving, Hillsdal, N. J, Erlbaum
- 32- Guilford, J. P (1989): same changes in the structure of intellect model,
.Educational and psycholocal Measurement
- 33- Hoc, J. M (1999): supervision et contrôle de processus la cognition
dynamique, Grenoble, PUF
- 34- Janelle, A. Beatrice,Richard (1995): Critical thinking, Irwing Inc, UA
- 35- Lamus,Z. F (1996): la psychologie cognitive de l'attention, paris,
.Armand colin
- 36-Le maire, P (1999): psychologie cognitive, Paris, Bruxelles, De Boeck
.université
- 37- Newell,A. Simon, H. A (1972): Human problem solving, Englewood
.Boeck university
- 38- OCDE (2002): comprendre le cerveau, Paris, organisation de coopération
.et de développement économique
- 39- Rabarel, P (1995): Les hommes et les technologie, approche cognitive
.des instruments contemporains, paris, Armand colin
- 40- Richard,J. F (1993): les modèles de la cognition, In liberg hien
.Encyclopédie des sciences cognitive, paris
- 41- Roulin,J. L (1998): psychologie cognitive, paris, Breal
- 42- Sebillote, S. weil-barais,A(1997): Recherche et traitement de
.l'information, Premier cycle
- 43- Tizus,C (2001): Introduction à la psychologie cognitive, paris,Nathan
- 44- Yanger,R. E (2000): the constructivist learning model. Science teching,
67(1),10-44

التنمية السياحية المستدامة في الجزائر

أ. وهيبة بوريعين/جامعة تلمسان-الجزائر-

مقدمة*:

تتجه دول العالم كافة إلى تطوير السياحة وتمييزها نظرا لآثارها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فقد اكتسبت التنمية السياحية أهمية متزايدة نظرا لدورها البارز والهام الذي تلعبه في نمو اقتصاديات معظم دول العالم؛ كونها تمثل إحدى الصادرات الهامة غير المنظورة وعنصرا أساسيا من عناصر النشاط الاقتصادي، وترتبط ارتباطا كبيرا بالتنمية، علاوة على دورها في تطوير المناطق والمدن التي تتمتع بإمكانات سياحية من خلال توفير مرافق البنى الأساسية لخدمة المواطنين والسائحين على السواء.

إن هدفنا من هذا المقال هو إبراز ما مدى أهمية السياحة في تطوير جوانب الخطط العامة للتنمية وارتباط السياحة بهاته الأخيرة إرتباطا وثيقا¹. فما هو واقع السياحة في الجزائر؟

*أهمية الموضوع

- 1- جعل الجزائر وجهة سياحية رائدة في البحر الأبيض المتوسط.
- 2- أهمية الموارد السياحية التي تزخر بها الجزائر والمبادرة إلى استغلالها مبكرا.

* - Sommaire:

L'objectif principal de cet article est de mettre en évidence le sujet que est le rôle du tourisme dans le développement comme une activité nécessaire à la vie des peuples et de leur impact direct sur les différent secteurs.

L'intérêt international dans le tourisme n'est pas par hasard ou de la spéculation, mais il est basé sur la conviction de communauté international et aux institutions concernées qui travers ce qui à été causé par le contact direct et spontané, qui est affecté par les media de masse, entre les hommes et les femmes qui appartiennent à des cultures différents, et qui suivent des modes de vie représente une force vitale pour la paix et le travail pour promouvoir l'amitié et la compréhension entre les peuples du monde et un autre facteur pour concilier la protection de l'environnement et le développement économique et la lutte contre la pauvreté.

Mots clés: tourisme, le développement du tourisme, les arts du tourisme, la durabilité environnementale.

¹ - "la grandeur de l'homme, c'est d'avoir des pieds dans la glaise et la tête dans les étoiles" Confucius.

- 3- أهمية القطاع السياحي في استقطاب وجذب السياح.
- 4- تفعيل مشاركة المجتمعات المحلية ودمجها في عملية التنمية السياحية.
- 5- إقرار ونظام خاص يتم بموجبه إنشاء اتحاد غرف سياحية عربية يوكل إليها وضع سياسات واستراتيجيات السياحة العربية.

1- مفهوم التنمية

إن المرونة البنائية للمجتمع ¹ *structural flexibilité* هي جوهر التنمية ومنطلقها الأساسي، فالتنمية قيم ومعايير ² لتحقيق العدالة والمساواة وتوسيع الفرص، هي انبثاق ونمو كل الإمكانيات والطاقات الكامنة، في كيان معين بشكل كامل وشامل ومتوازن، سواء كان هذا الكيان فردا أو جماعة أو مجتمعا.

التنمية هي السياسية محرك التغيير الارتقائي الجذري المستمر المخطط ³ في بناء محام الأجهزة أو النظم الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية والريفية.

*تعريف البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة (1990) للتنمية ⁴: عملية توسيع نطاق الخيارات المتاحة أمام الفرد؛ وأهم هذه الخيارات المتشعبة، هي أن يحيا الناس حياة طويلة، وخالية من العلل وأن يتعلموا، وأن يكون بوسعهم الحصول على المواد التي تكفل مستوى معيشة كريمة".

2- السياحة:

يعرفها جوير فلور (E. Gugerfreuler): "هي ظاهرة طبيعية من ظواهر العصر الحديث والأساسي فيها الحاجة المتزايدة للحصول على عمليات الاستجمام وتغيير الجو والوعي الثقافي المنبثق لتذوق جمال المشاهد الطبيعية، ونشوة الاستمتاع بمجال الطبيعة" ⁵.

يعرفها العالم النمساوي (Herman von Schuller) ⁶: "أن السياحة هي الاصطلاح الذي يطلق على كل العمليات التالية: وخصوصا العمليات الاقتصادية التي تتعلق بدخول وانتشار الأجانب داخل وخارج منطقة معينة".

وقد أوجزت منظمة السياحة العالمية (UNW To) تعريف السياحة بأنها نشاط الأشخاص الذي يسافرون إلى أماكن تقع خارج بيئتهم المعتادة ويقيمون هناك لمدة لا تزيد عن سنة واحدة

¹-kyang, dong kin 1973, toward a sociological theory of development: A structural perspective", rural sociology, vol. 38.n° 1, winter, p 372.

² - أحمد فوزي ملوخية، التنمية السياحية، ط2، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2007، ص17.

³ - Hans L. Zetteberg, 1995 on the theory and verification in sociology, new York, the Bedminsterpress, p 41.

⁴ - PNUD (1990), "defining and measuring of development, new York, p 11.

⁵ - محمد أحمد العمري، الأمن السياحي، المفهوم والتطبيق، ط1، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2010، ص26.

⁶ - المرجع نفسه، ص27.

بغير انقطاع طلبا للراحة، أو أغراض أخرى¹.

3- أشكال السياحة²:

تقسم منظمة السياحة العالمية السياحة إلى بلد معين على النحو التالي:

3-1 السياحة المحلية: (Domestic tourism) وتشمل الأشخاص الذين يقيمون في بلد معين ويسافرون ضمن حدود هذا البلد.

3-2 السياحة الوافدة: (Inbound tourism) وتشمل الأشخاص غير المقيمين الذين يسافرون ضمن حدود ذلك البلد.

3-3 السياحة المغادرة: (outbound Tourism) وتشمل الأشخاص الذين يسافرون إلى بلد آخر.

3-4 السياحة الدولية: (international tourism) وتشمل السياحة الوافدة مع السياحة المغادرة.

4- التنمية السياحية: يمتد معنى التنمية السياحية المستدامة ليشمل كلا من العرض والطلب³ لتحقيق التلاقي بينهم لإشباع رغبات السائحين والوصول إلى أهداف محددة قومية وقطاعية وإقليمية، لتكون معيار لقياس درجات التنمية السياحية. كما يرتبط هذا المحور بالنظرة المستقبلية لضمان استدامة الموارد بما يؤهل لاستدامة السياحة في إطار تنمية مستدامة عامة.

التنمية السياحية هي بؤرة الاهتمام في صناعة السياحة على مستوى كافة دول العالم السياحية، فالتنمية السياحية هي خلق وتطوير المنتج السياحي، أو هي العمل المنظم المستمر لإنعاش صناعة السياحة⁴، وهي ترتبط بنحو وسلوك الأفراد والجماعات لأنها هي حراك التغيير في المجتمع.

5- أهمية التنمية السياحية

على صعيد النشاط الاقتصادي الدولي أصبح النشاط السياحي من أكثر الأنشطة الخدمية إدرازا للدخل وتوليدا لفرص العمل، وذلك لارتباطه وتأثيره في عدد كبير من الأنشطة ضمن

¹ – World Tourism Organization (WTO), Global code of ethics for tourism.

² – محمد أحمد العمري، مرجع سابق، ص 27.

³ – جليل حسن حسنين، دراسات في التنمية السياحية، الدار الجامعية للنشر، 2006، ص 09.

⁴ – Douglas peace 1989), Tourism development, 2nd edition, new York, Longman, p: 10.

الجانب الاقتصادي¹، تساهم التنمية السياحية في:

*- تحقيق الانتعاش الاقتصادي لدولة المقصد السياحي عن طريق تنمية حصيلة، العملات الأجنبية مما يساهم في تغطية احتياجات التنمية الاقتصادية للبلد من المكونات الإنتاجية اللازمة للنشاط الإنتاجي الحديث.

*- توليد فرص التوظيف، من خلال خلق فرص جديدة للعمل في القطاع السياحي والقطاعات المرتبطة به.

*- المساهمة في التنمية المحلية والعمرانية، وذلك عن طريق تنمية مناطق جديدة للجذب السياحي في محليات مختلفة، ويساهم هذا في تحقيق نمو متوازن على مستوى الاقتصاد الكلي وفي تحقيق العدالة في توزيع الدخل القومي بين الأقاليم السياحية الأخرى، وحقيقة فإنه لا يمكن إغفال الدور الذي لعلته السياحة ولا تزال في تعمير عدد من المناطق غير المأهولة التي يمكن تحويلها إلى مراكز جذب سياحي وما يرتبط بها من تطوير المطارات ومد شبكات الطرق وهي بلا شك بنية أساسية تمتد تأثيرها إلى تحفيز إقامة مجتمعات عمرانية جديدة ومشروعات صناعية، وزراعية، تضاف منتجاتها إلى الناتج القومي.

أما من حيث الجانب الاجتماعي والثقافي²، تؤدي التنمية السياحية إلى زيادة درجة الترابط الاجتماعي والثقافي بين السكان وزيادة المعرفة، بينما تعمل التنمية السياحية الدولية على تشجيع التبادل الثقافي والحضاري بين الشعوب، بحيث يتعرف أبناء الشعوب المضيضة على عادات وسلوكيات الزائرين، ولذلك تتقارب المسافات الاجتماعية بينهم، وهذا ما يعمل على دعم التراث الإنساني واتساع الحلقة الحضارية على مستوى العالم.

أما من حيث الجانب البيئي³ فقد ازداد الاهتمام العالمي منذ السبعينات من القرن العشرين بسلامة البيئة، الطبيعية وضرورة المحافظة عليها وتمييزها خاصة بعد مؤتمر ستوكهولم بالسويد عام 1992، والتنمية السياحية تظهر أهمية البيئة وبيان كيفية الحفاظ على مكوناتها والارتقاء بها ومنع تدهورها أو تلوثها، الآن البيئة النظيفة، والجميلة هي المادة الأولية للنشاط السياحي، أو هي عامل رئيسي في قيام النشاط السياحي، تساعد التنمية السياحية على إنشاء المنتزهات والمحافظة على البيئة وحمايتها وتحقيق إدارة جيدة للنفايات للتخلص منها بشكل علمي سليم من خلال زيادة الوعي⁴ البيئي لدى أفراد المجتمع المضيف.

¹ - جلييلة حسن حسنين، مرجع سابق، ص 14.

² - عبد الإله أبو عياش، التخطيط السياحي، مدخل استراتيجي، ط1، الوراق للنشر والتوزيع، 2004، ص 124.

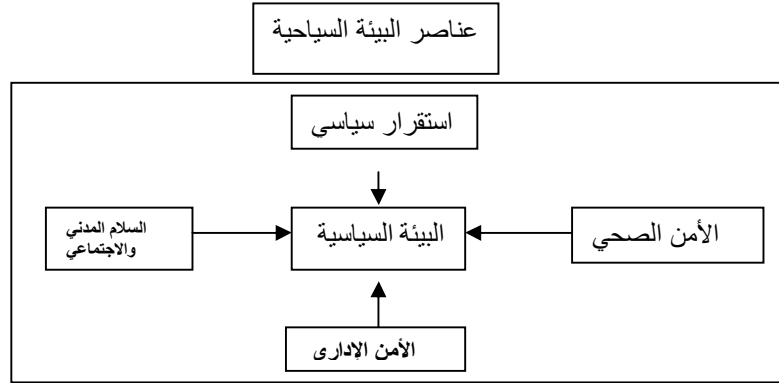
³ - sustainable Tourism management planning is biosphere Reserves a methodology-guide- united nation environment program global environment facility medium sized project ecological Tourism in Europe (ETE), April 2005-2008, p: 30.

⁴ - زيد منير عيوي، السياحة في الوطن العربي، ط1، الراية للنشر والتوزيع عمان، الأردن، 2008، ص 48.

إن التنمية السياحية تساهم أكثر في التنمية الاقتصادية من خلال مبدئين هما:

- 1- تكييف مبادئ التنمية المستدامة في إطار التنمية السياحية¹.
- 2- تنظيم قطاع الخدمات السياحية في إطار واسع، عن طريق توفير النقل الجوي، وإعداد نموذج منظم مخصص للمناطق النائية، وهذا من خلال تعاون دولي يساهم في إرسال وإنشاء مختلف الأقسام السياحية، تمثل المبادئ السابقة للتنمية السياحية المحور الأساسي الذي يمكن الاستناد عليه عند وضع الإطار العام لأهداف التنمية، التي هي كالآتي:
- 1- تحقيق الريادة المستمرة والمتوازنة في المواد السياحية للدولة وذلك برفع إنتاجية الموارد البشرية وغير البشرية الموظفة فيها وبالسياسات التسويقية الخارجية الكفء.
- 2- تدعيم الارتباط الإنتاجي بين القطاع السياحي والقطاعات الأخرى.
- 3- المساهمة في تنمية البيئة والمحافظة عليها من خلال الاهتمام بمناطق الجذب السياحي وما يحيط بها في المدن والأماكن المختلفة.
- 4- التوعية بالآثار الإيجابية للسياحة في النواحي الاجتماعية، والثقافية مع التخلص قدر الإمكان من الآثار السلبية لهذه النواحي، ولابد أن توضع هذه الأهداف في ظل إطار زمني بمعنى أن تتحقق أهداف التنمية السياحية خلال فترة زمنية معينة، محددة سابقا، ويفضل أن تترجم أهداف التنمية السياحية في النهاية إلى أهداف تنمية محددة بحيث يسهل متابعتها في الواقع العملي، وقياس معدلات الأداء خلال التنفيذ لأجل وصول السياحة إلى العالم بأكمله².

شكل 1: عناصر البيئة السياحية.



Source: Anil makamdy, Tourism and Sustainable development: Lessons from recent, world bank experience university of bath. U. Kanfeen, Italy

¹-Jean Louis Coceomo, (2007) Fondements d'économie du tourisme, (Actues, marchés, stratégies) édition de Boeck université, p:

²-Jean pierre Lozoto, Giotart (2003), géographie du tourisme de l'espace consommé à l'espace maîtrisé, Pearson éducation France, p: 2.

من خلال الشكل التالي يتضح لنا بأن السياحة تتطلب منا تكامل مجموعة من الخدمات: الاستقرار السياسي، الأمن الإداري، الأمن الصحي، السلام الاجتماعي والمدني وهذا لأجل إنجاح خدمة السياحة.

ولكن التطبيق العملي لهاته السياحة يمر بعدة مراحل من أهمها:

- 1- نموذج ميوسك Miossec¹: تنقسم مراحل التنمية وفق هذا النموذج إلى:
 - أ- مرحلة الاكتشاف: حيث يتم اكتشاف القدرات السياحية للمنطقة السياحية.
 - ب- مرحلة النمو: وفيها يبدأ تطوير الموارد السياحية للمنطقة بشكل تدريجي.
 - ج- مرحلة الانطلاق: وفيها تأخذ الدولة بمبدأ التخطيط والتوسع السياحي.
 - د- مرحلة النضوج: حيث تظهر المنطقة على الخريطة السياحية وفي تلك المرحلة يتكامل النشاط السياحي في المنطقة من خلال توافر عناصر الجذب السياحي والتسهيلات، وقد حدد ميوسك تلك المراحل بناء على دراسات لمناطق سياحية متعددة أهمها منطقة Longuedo&provence.

2- نموذج بتلر Butler (1980): حدد هذا النموذج ست مراحل للتنمية:

- أ- الاكتشاف exploration
 - ب- المشاركة Involvement
 - ج- التطور development
 - د- النضوج Consolidation
 - هـ- الثبات أو الركود Stagnation
 - و- التجدد أو التدهور Innovation et decline
- فالمرحلة الأولى تبدأ باكتشاف مجموعة من السائحين لمنطقة سياحية جديدة، ومع تزايد إقبال السائحين على المنطقة تبدأ مرحلة المشاركة وتظهر مجموعة من الخدمات والتسهيلات، ثم بعد ذلك تبدأ عملية الانطلاق حيث يتم توفير الخدمات والتسهيلات بشكل مكثف للسائحين لخدمة أعدادهم المتزايدة ويطلق على هذه المرحلة مرحلة النمو وتعتبر أخطر المراحل من حيث تأثير السياحة على المنطقة وخاصة التأثير البيئي وما يمكن أن ينج عنه من تدمير لعناصر الجذب السياحي بالمنطقة سواء كانت طبيعية أو من صنع الإنسان أو أن يصيب التدهور المرافق الأساسية أو السياحية.
- وإذا استمر النمو مع تحقيق مبدأ التوازن تصل المنطقة لمرحلة النضوج، وتلي هذه المرحلة مرحلة التجمد، وهي المرحلة التي لا تشهد فيها المنطقة أعدادا متزايدة من السائحين حيث يتوقف

¹-Peace.D, op, cité, p 8.

النمو والتدفق السياحي إليها عند حد معين لا يزيد عنه، وفي هذا النموذج هناك احتمال لما أسماه مرحلة الانحدار وهذا ما أغفله نموذج ميوسك وتبدأ حينما تدخل المنطقة في مرحلة التدهور أو الانحدار نتيجة لتوجه السائحين إلى مناطق سياحية منافسة، تتوافر فيها كل المقومات السياحية التي تشبع رغباتهم ودوافعهم، وهكذا يلفت النموذج النظر إلى أن توافر سياسة تسويقية ناجحة يمنع المنطقة من الوصول لمرحلة الانحدار، فالتعرف على السوق واحتياجاته يؤدي لإعادة اكتشاف وتجديد النشاط بالمنطقة السياحية وهذا ما يسمح للمنطقة بالدخول في مرحلة جديدة من التنمية المتواصلة أو المستدامة.

6- التنمية السياحية المستدامة¹: يبين تقرير عام 1987 "المستقبل بشكل عام الذي أعدته الهيئة العامة للبيئة والتنمية للأمم المتحدة ومنظمة العمل الدولية أنها عرفت التنمية السياحية المستدامة بأنها: "تلي الاحتياجات الحالية، دون المساس في الصلاحية لمستقبل من الأجيال وتأمين احتياجاتهم" وتبلور مفهومها في مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة والتنمية، الذي عرف بقمة الأرض انعقد في ريوديجانيرو عام 1996 ومنذ ذلك الوقت تبنت المنظمة العالمية قواعد الاستدامة والاستثمار في السياحة، وقد عرّفت هذه الأخيرة التنمية السياحية المستدامة كما يلي: "التنمية السياحية المستدامة هي التي تلي احتياجات السياح والمواقع الحساسة إلى جانب حماية وتوفير فرص المستقبل."

إنها القواعد المرشدة في مجال إدارة الموارد بطريقة تتحقق فيها متطلبات المسائل الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، ويتحقق معها التكامل الثقافي والعوامل البيئية، والتنوع الحيوي ودعم نظم الحياة"، ويتحقق هذا التعريف من خلال التركيز على عامل الاستثمار في السياحة.

الاستثمار: يقتضي المحافظة على الموارد الطبيعية والتاريخية والثقافية والموارد الأخرى المتعلقة بالسياحة، بهدف ضمان الاستمرار بصلاحية استخدامها في المستقبل لأن أهمية الاستثمار في السياحة مرتبط باعتماد السياحة على تلك الموارد كسلع لجذب السياح، فمعالم البيئة الطبيعية والمواقع التاريخية والتراثية والأثرية في المكان هي رأس المال الثابت، فإذا كانت تلك الموارد بعيدة أو مشوهة تبقى تلك السياحة بعيدة ومتعدرة، لهذا فإن تحقيق الاستثمار لتلك الموارد يبدأ من حمايتها وصيانتها بشكل يمهّد لتطويرها وتقديمها بالشكل المناسب.

إن معايير ومستويات الجودة في البيئة من ناحية مهمة في عملية اتخاذ قرار الزيادة من قبل السائح، والسياحة تكون الحافز للسكان والزوار لتحسين شروط البيئة في المقاصد

¹ - عبد المجيد العاني، الاستثمار والتسويق السياحي، ط1، دار تنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2008، ص20

السياحية، كما أن انطباع السائح عن المكان قبل وأثناء الزيارة عامل مهم في مدى إقبال السياح والزوار على الزيارة، فالمنتجات القديمة كمثل والمنشآت السياحية تتطلب دوما تحديثا دوريا لتبقى مستمرة في مواكبة متطلبات السائح وتحقيق أهدافها التسويقية، والجدير بالذكر أن الإطار السياسي لتنفيذ الاستثمار ضروري وحيوي لما يحويه من توجيهات وتعليمات وضوابط تشرف السلطات المحلية على تطبيقها بمراقبة، وتتبع مستمر وشامل وباختصار فإنه وما سبق ذكره يمكننا تحديد أهم مبادئ التنمية السياحية المستدامة:¹

1- مراعاة قواعد البيئة.

2- ترشيد استخدام الموارد السياحية لتبقى صالحة للأجيال المستقبلية القادمة.

ففي سنة 1975 قدرت المنظمة العالمية للسياحة عدد السياح بـ 222 مليون سائح في العام ليتزايد إلى 808 مليون سنة 2005² وبمعدل دخل 102 مليار دولار، والجدول التالي يبين لنا تطور السياحة العالمية من سنة 1990-2008:

Tableau N°1: Evolution des arrivées touristique par grandes régions 1990/2008

Régions	1990(million)	2008 (million)	Pourcentage total en 2008
Monde	456,8	808,3	100
Europe	282,2	443,9	54,9
Asie et pacifique	57,2	156,2	19,3
Amériques	92,9	133,2	16,5
Afrique	15,0	36,7	4,5
Moyen-Orient	9,0	38,4	4,8

Source: O. M. T Organisation Mondiale du Tourisme 2006

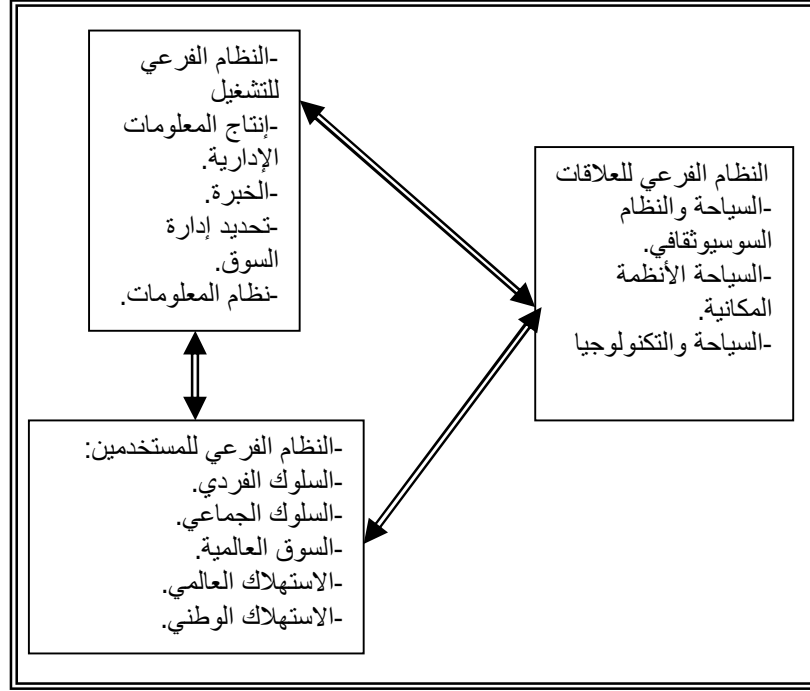
حققت الدول الأوروبية نجاحا في النمو السياحي بنسبة 54,9% والدول الأمريكية بنسبة 16,5% وبدخل إجمالي قدره 193,2 مليون دولار تليها أفريقيا بمعدل نمو 4,5% وبدخل إجمالي يقدر بـ 96,7 مليون دولار.

¹ - المرجع السابق، ص 23.

² - Francois Vellas, Economie et politique du tourisme international, 2^{ème} édition, Economica, paris, 2007, p17.

النظام السياحي:

شكل رقم 2:



Source: Jean pierre (2007), *Management du tourisme*, 2^{ème} édition Pearson éducation, France, p17

الشكل المبين أعلاه يبين لنا أن الشراكة العالمية وإقامة علاقات متوازنة بين مشاريع الدول المولدة والمستقبلية يساهم في التنمية السياحية، وفي توزيع منافع نموها توزيعاً عادلاً وذلك من خلال التقيد بالآداب التالية¹:

- 1- ينبغي على أصحاب المصلحة في التنمية السياحية، سواء من القطاع العام أو القطاع الخاص، التعاون على العمل بمبادئ التنمية السياحية، ومراقبة تطبيقها الفعال.
- 2- الاعتراف بدور المؤسسات الدولية وعلى رأسها "منظمة السياحة العالمية" وكذلك المنظمات الغير حكومية ذات الصلة بالترويج والتنمية السياحيين وحماية حقوق الإنسان والبيئة والصحة مع مراعاة المبادئ العامة للقانون الدولي.

¹ - مبادئ المدونة العالمية لآداب السياحة في العالم.

3- ينبغي على أصحاب المصالح المذكورين أن يبرهنوا على عزمهم إحالة أية منازعات تنشأ عن تطبيق أو تفسير المدونة العالمية لآداب السياحة إلى هيئة محايدة تمثل في (اللجنة العالمية لآداب السياحة) للتوفيق بينهم.

4- ينبغي للشركات متعددة الجنسيات ألا تستغل مراكز القوة التي توجد فيها أحيانا وذلك تحقيقا للتضامن اللازم لتطوير المبادلات الدولية ونموها الديناميكي.

5- ينبغي السماح لأي شخص طبيعي أو اعتباري لديه الإمكانيات والمهارات الضرورية القيام بنشاط مهني في مجال السياحة ووفقا للقوانين الوطنية القائمة، وينبغي أن يسمح للمقاولين والمستثمرين، وبخاصة الذين يعملون في مجال المشاريع الصغيرة ومتوسطة الحجم بالدخول إلى القطاع السياحي بأقل قدر من القيود القانونية، أو الإدارية.

7- التنمية السياحية في الجزائر

بإمكاننا حصر المناطق التي تتوفر عليها الجزائر كالاتي:

1- المناطق السياحية في الجزائر:

1-1- منطقة السواحل والسهول الشمالية وهضاب الأطلس الشمالي: تتميز بطول شواطئها 200 كلم وبعدد كبير من المواقع الأثرية التي تعود إلى عهد الرومان العرب المسلمين.

1-2- منطقة السلسلة الأطلسية: التي توجد بها أكبر قمة جبلية في الشمال "لالة خديجة 2038" كلم كما نجد جبال الأوراس ، الونش ريس، سلسلة موازية للسواحل تتميز بإمكانيات كبيرة لتنمية أنواع سياحية عديدة

1-3- منطقة الهضاب العليا: والتي تتميز بمناخها القاري وبصناعتها الحرفية والتقليدية المتنوعة.

1-4- منطقة الأطلس الصحراوي: وهي المناطق الواقعة بين الهضاب العليا والصحراء الكبرى والتي يمكن فيها تنمية السياحة المناخية.

1-5- منطقة واحات شمال الصحراء: والتي تتميز باعتدال درجات الحرارة ، تتمركز بها الواحات بنخيلها وتتوفر صناعات تقليدية.

جدول رقم 2: تطور توافد السياح في الجزائر 1991-2000

السنة	المجموع	الأجانب	مقيمون في الخارج
1990	1336918	685815	51103
1991	1193210	722682	470528
1992	1119548	624086	495452
1993	127545	571993	555552
1994	804713	336226	468487
1995	519576	97648	421916
1996	604968	93491	511477
1997	934752	94832	539920
1998	678448	107213	571234
1999	755286	174611	607675
2000	865994	175538	690446

المصدر: وزارة السياحة والصناعات التقليدية

من خلال الجدول يتبين لنا أن نسبة كبيرة من السياح الوافدين هم المقيمون بالخارج وعموماً فإن الحركة السياحية في الجزائر عرفت تراجعاً منذ سنة 1992 نظراً للظروف التي مرت بها الجزائر في تلك الفترة ومع تحسن الظروف الأمنية بدأت الجزائر تستعيد السياح بداية من سنة 1997 حيث وصل عدد السياح إلى نحو 755286 سائح.

8- إستراتيجيات التنمية السياحية في الجزائر (Structure plan):

- بناء خطة لتوضيح توزيع أنواع السياحة على المواقع السياحية المختلفة، والمناطق والأقاليم السياحية الداخلية، وشبكات النقل المختلفة الجوية والبرية والبحرية.
- تحديد مراحل التنمية السياحية من خلال فترات زمنية متعاقبة.
- تحديد أنماط وبرامج الرحلات السياحية بما فيها طرق وخطوط النقل والمواصلات والحلقات السياحية (arciuts).
- تحليل الآثار الاقتصادية الحالية والمتوقعة للسياحة وإسهامها في الناتج المحلي الإجمالي (GDP) أو الناتج القومي الإجمالي (GNP) وإجمالي وصافي الإيرادات السياحية والعملات الصعبة، والتأثيرات المضاعفة وفرص العمل المتاحة، والعوائد المتحققة لخزينة الدولة من الضرائب والجمارك والرسوم المختلفة.
- تحليل وبناء توقعات للإنفاقات التي يقوم بها السياح بأشكالها وأنواعها.
- تحديد أهداف ومواصفات وإستراتيجية التسويق والترويج السياحي.
- تحديد برامج محددة للتسويق السياحي مع تقديرات التكاليف المترتبة عن تنفيذها وتحديد

مصادر التحويل اللازم لذلك.¹

تحديد الأدوار المترتبة على القطاعين العام والخاص في عمليات التسويق والترويج السياحي.

9- نتائج وتوصيات المقال

- التوجه نحو تطبيق تنمية سياحية مستدامة من خلال المخطط التوجيهي للتهيئة السياحية.
- الاستجابة للمعايير الدولية للتنمية السياحية.
- يجب القيام بدعم وكالات الأسفار الموجهة أنشطتها نحو السياحة.
- يجب القيام بدعم وتأهيل المؤسسات السياحية ومستخدميها.
- القيام بوضع سياسة مؤسسية تقوم على التأهيل وإدخال تجهيزات عصرية تنسجم مع المعايير الدولية.
- العمل على صيانة المنتج السياحي بجودة أكثر من حيث التأهيل وإدخال تجهيزات عصرية تنسجم مع المعايير الدولية للسياحة.
- بلوغ أهداف التنمية السياحية المنشودة في الجزائر.
- الحفاظ على الهوية والعادات والتقاليد الخاصة بالمناطق التي تعتبر إرثا ثقافيا هاما.
- حماية وتطوير المواقع الأثرية التاريخية والدينية لتنمية السياحة المستدامة من خلال شركات التنمية السياحية.
- إعداد الدراسات والأبحاث الاجتماعية والاقتصادية للحفاظ على ثقافة المجتمعات المحلية ورصد الأثر الاقتصادي والبيئي للتنمية السياحية.
- إنشاء صندوق لدعم السياحة في الأزمات والكوارث.

خاتمة:

وختاماً يمكننا القول بأن دعم التنمية السياحية يتطلب دعم الجودة، وهذا يشمل الموارد والتسهيلات والخدمات والبنية التحتية السياحية، فالتطوير للشروط الطبيعية لها يضمن بأن مستوياتها ستكون ملائمة لأغراضها، والإدارة الجيدة لها ستكفل بأن الخدمات يتم تأديتها بشكل مرض للزوار، وبشكل عام فإن تحقيق الجودة في جميع المجالات السياحية بالمنطقة تعزز مستوى التنمية السياحية فيان ورفع المنتج السياحي وقوته التنافسية، وهذا يؤدي بدوره إلى بقاء وتزايد حجم الإقبال واستثمار الأسواق السياحية وتنوعها فيه.

¹ - جلييلة حسن حسنين، مرجع سابق، ص 40.

ثورة التحرير الجزائرية وترسيخ آليات ارتباط الديني بالسياسي

د. براني كنثوم/ جامعة وهران

مقدمة:

لأن السلطة السياسية لا تقوم خارج الفضاء الرمزي في ثقافة الجماعة ولا تشيد إلا في إطار منظومة فكرية تحدد وتبرز طبيعتها، فكذا لا تسترجع في حالي اغتصابها إلا من خلال هذا الفضاء الرمزي أي بالعودة إلى الذات الطبيعية والاجتماعية. وكل من الطبيعة والاجتماع مرهون بديناميكية التطور الفكري نفسه ابتداء من السلطة كفكرة تجسدها جدلية الصراع بين المعايير السياسية والقيم الاجتماعية كذلك يتضح عن صورة النضال الوطني الذي قادته النخب الجزائرية في حملتها لاسترجاع السيادة حيث حُزبت الأفكار وتحركت في عدة اتجاهات اندماجية، استقلالية، إصلاحية تسعى كلها إلى استثمار العبقرية الشعبية أي الذات الثقافية بأسلوب التعامل مع العلم والتجديد، فجعلت من حركة التحرير الوطنية وقد اختلفت اتجاهاتها " ذات أفكار غير متألّفة، أدخلت الجماعات الاجتماعية والعائلات السياسية التي تكونها في علاقات خلافية تقدم كل منها (الراдикаلية والإصلاحية) نفسها على أنها تملك الحقيقة، فلجأت إلى الأسلوب الإقصائي بدلا من الحوار الفكري.¹

إلا أن الحوار سيفرض نفسه في خضم النزاعات الداخلية للحركة الوطنية المتنافسة على امتلاك الشرعية السياسية للمعارضة بشكل أو بآخر للسياسة الكولونيالية التي كانت تغذي هذا النزاع كطرف مباشر في المنافسة السياسية وهي تملك القوة المادية لقهر وردع كل

*- Résumé: Devant le conflit interne du Mouvement national concurrent d'acquérir une légitimité politique, il était nécessaire de se référer à l'espace des principes symboliques et islamiques qui portent sur la liberté, la justice et l'égalité en termes de religion, revendiqués par les algériens et transformés comme valeurs culturelles, ethniques et religieuses contre la présence coloniale, à travers une tendance populiste qui a reconstruit le concept du pouvoir politique à partir des convictions militantes conditionnées par une conscience religieuse et linguistique sous la pression des rapports de classe capitalistes coloniales de la production qui ont mené à la souffrance, la pauvreté et la misère des classes ouvrière et des paysans Algériens. Après avoir ravagé les fondements de l'économie traditionnelle, basée principalement sur l'agriculture.

Il s'agissait donc d'un discours politique qui confrontait les pauvres et les riches dans une vision fondée sur la profondeur du nationalisme arabe spirituelle manifesté à travers les valeurs arabes et l'engagement à la religion, et en inculquant les valeurs nationales observées comme création supérieure et morale des non-instruits (tendance du populisme) qui guidait le mouvement des libertés démocratiques après être reconduit en idéologie communautaire adaptée par la violence révolutionnaire pour s'exprimer, et comme une continuation des résistances guidées par un charismatique populiste qui déclencherà la guerre de révolution en Novembre 1954, qui a rétablie l'ordre de la pensée nationale algérienne, et produit les normes nouvelles du concept du pouvoir politique dont l'islam a été l'un de ces principes

. Mots clés: Pouvoir, Religion, Politique, Islam, Idiologie, Révolution

La révolution de libération algérienne (mécanismes de lien entre religion et politique)

¹- Mohamed Harbi, 1954 la guerre commence en Algérie, Ed: complexe 1998, p 7 « Le 93roups93i de 93roups93ion national n'était pas monolithique, a l'image des 93roups sociaux, les familles politiques qui le composaient étaient dans des rapports conflictuels. Chacune d'elles, réformatrice ou radicale, se présentaient comme la détentrice par excellence de la vérité et recourait plus volontiers à l'exclusion qu'à la discussion. »

الأفكار التحريرية حتى وإن كانت مثل هذه الأفكار من إنتاج ثورتها التاريخية. فكان إذن لابد من الرجوع إلى الفضاء الرمزي والمبادئ الإسلامية المتضمنة للحرية والعدالة والمساواة بلغة دينية وجدت استجابة شعبية حوّلت الانتفاضات والنضال إلى حرب مقدسة.

1. الاتجاهات الثورية بين الوطنية والشعبوية

تعني الثورة اصطلاحاً في اللغة اللاتينية "العودة إلى الذات" أو "الرجوع إلى ما كان من قبل"¹ وتعني الثورة في العربية "الهیجان، الغضب، النهوض"² فإذا أخذنا بهذين المعنيين اللاتيني والعربي في تعريف الثورة، نجد أنها لم تكن في الجزائر وليدة نوفمبر 1954 لأن التمرد والهیجان كانا دائماً نهج الجزائريين لاسترجاع الهوية الاجتماعية والعودة إلى الذات الجزائرية بالانتفاضات المتتالية ضد مجرد الوجود الفرنسي باعتباره خطراً يهدد الكيان الاجتماعي، ثم التمرد والعصيان على السياسة الاستيطانية التي فرضتها الحكومة الكولونيالية بالقهر والتعسف أي رفض الاستعمار بأسلوب أو بآخر، نقصد بذلك الاختلاف الإيديولوجي في الحركة الوطنية الجزائرية والذي عكسته تلك التنظيمات المختلفة والمنبثقة عن طبيعة الصراع القائم، ليس فقط على المستوى الداخلي للمجتمع الجزائري وإنما أيضاً على المستوى العالمي بحريه الأولى والثانية، وكذلك ما أفرزته الحرب الباردة بين قوى القطبي الشرق والغرب من قيم واعتبارات كان لها انعكاساتها على العلاقة بين الحكومة الفرنسية والجزائريين (النخبة) من جهة، وبين النخب الجزائرية أي بين الوطنيين والاشتراكيين (الشيوعية)، لأن الحرب الباردة أو الحرب السياسية نقلت الصراع والمنافسة على الهيمنة نحو بعد معياري اقتصادي حوّلت تجاهه الشرعية السياسية، وتصبح الثورة مفهوماً تتقاذفه المصالح الدولية ولا تكون السلطة إلا الإدارة التي تحقق بها الهيمنة يراها القطب الاشتراكي (الشيوعي) مركزية شمولية تحكم سيطرتها على كافة الأجهزة الحكومية ويراها الرأسماليون نزعة توسعية امبريالية التي تعني ممارسة السلطة أو السيطرة خارج مناطق حدودها. فكان لابد لهذا الصراع من أن ينتج رموزه ومبادئه التي تناقضت في محتوياتها بين الاتجاهين الرئيسيين (الشيوعي والرأسمالي) وكان لها انعكاساتها على العمل الثوري في الجزائر باعتبارها مستعمرة فرنسية حيث:

أ. في موقفهم ضدّ الاتجاه الشيوعي زعم الفرنسيون أن الثورة في الجزائر إنما هي من صنع قواعد النظرية الشيوعية التي تقوم على توظيف المعارضة الإثنية والاجتماعية والإيديولوجية

¹ -Encyclopédie universelle, Paris 1972 Vol 14 p 106 – 208.

² -ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، باب الرءاء مادة ثورة ص 108.

المتواجدة، واستغلالها لمقاومة النظام القائم بأسلوب الارهاب والدعاية¹ ومن ثم كان شعار الحرية وتحرير الجزائر من اختراع الشيوعية العالمية وأن الحركة الوطنية الجزائرية كانت هي نفسها من صنع الشيوعية الفرنسية (الحزب الشيوعي الفرنسي) ابتداء بتأسيس نجم شمال إفريقيا كأول منظمة ثم استفحلت إلى حزب الشعب الجزائري الذي أنشأ حركة انتصار الحريات الديمقراطية والتي تفرعت عنها الحركة الوطنية الجزائرية MNA وجهة التحرير الوطني FLN.

إذن هي المرجعية الشيوعية للعمل الثوري حسب الطرح الفرنسي، محملا المطالب الليبرالية التي رفعتها النخبة المثقفة ابتداء من العام 1919 مع حركة الشبان الجزائريين وكذلك حركة الأمير خالد مطالبا بالاستقلال الذاتي، ولم يكن هؤلاء من المعجبين بالفكر الشيوعي بل كانوا من أنصار الليبرالية الاندماجية التي احتفظت بأوفياءها من المواطنين إلى يومنا هذا.

ب. تحت ضغط المعيارية الاقتصادية والاجتماعية بين قوى الشرق وقوى الغرب، تم ترسيخ الإيديولوجية الثورية في الجزائر لحوض الصراع نفسه والمنافسة على الشرعية بين ما هو تحديتي اجتماعي وسياسي مع أحباب البيان والحرية، وما هو إصلاحي ثقافي ديني مع جمعية العلماء المسلمين وما راديكالي مع حزب الشعب وما تفرع عنه من تنظيمات سياسية كحركة انتصار الحريات الديمقراطية ثم الحركة الوطنية وجهة التحرير الوطني، عبرت عن الاختلافات التأسيسية في صفوف الحركة الثورية بين المراكز والمصاليين في حزب الشعب وبين هؤلاء الراديكاليين والليبراليين، أعطت طابع الصراع بين التجمعات " La lutte des clans"² حسب تعبير محمد حربي حيث غُيب التأطير الشعبي على أساس القنوات الإيديولوجية وانحرف نحو القنوات الشخصية.

ولم يعد الاختلاف بين الحركتين FLN - MNA بسبب انعدام الائتلاف الفكري فقط بل كان أيضا بسبب الطموح إلى امتلاك السلطة الشرعية بعد استقلال الجزائر وبعد أن أصبحت الثورة ضرورة عسكرية اجتماعية وسياسية وموعدا تاريخيا لاختبار القيم النضالية تحت تأثير ردة فعل الشعب الجزائري الذي تبقى قيمه الثقافية هي المرجعية الرئيسية لأية شرعية سياسية، تقطن لها رواد الحركة الثورية خاصة منهم الشعيون بأن أعادوا توظيفها لاختبار قدراتهم على قيادة شعب كان يعاني آنذاك القهر الاقتصادي والاجتماعي كما فعل مصالي الحاج الذي حوّل هذه القيم الثقافية إلى رؤية ثورية معادية للوجود الفرنسي كأولوية يتأكد من خلالها البعد العربي والإسلامي للشعب الجزائري " ساعيا إلى حكومة وطنية ثورية

¹ -Guy Pervillé, La Révolution algérienne (1954-1962) et la guerre froide (1985), Érudit, PDF.

² -Mohamed Harbi, Le FLN mirage et réalité, des origines à la prise du pouvoir (1954-1962), Ed: j.a, 1980.

وجيش وطني واسترجاع العربية كلغة رسمية¹ هو إذن ميلاد النزعة الشعبوية بأبعادها الثقافية الدينية والاثنية، ستعيد بناء مفهوم السلطة السياسية في جزائر الثورة انطلاقاً من قناعات مصلي الحاج في اعتبار "أي برنامج سياسي والتدخل المباشر مفتاح حل الإشكالية الوطنية، وأن التجاهل على مستوى الوعي الجماهيري والاتحاد قد يقود إلى المغامرة"² ولأن السلوك الاجتماعي والسياسي أصبح مشروط "بالوعي العقائدي الديني واللغوي، تبنت المقاومة من أجل الاستقلال مفهوم المقدس والتضحية في سبيل الله"³ تحت ضغط العلاقات الطبقية لنمط الإنتاج الكولونيالي الرأسمالي، بعد أن خربت قواعد النظام الاقتصادي التقليدي القائم أساساً على الفلاحة والزراعة، وحوّلت الجزائريين المسلمين إلى طبقة عمالية وفلاحين أقتان وأجرا يعانون الفقر والبؤس، فتعلق الأمر بخطاب سياسي يواجه بين الفقراء المعوزين والأغنياء الخاضعين للتأثيرات الخارجية، مستمداً دعائمه من عمق القومية العربية في بعدها الروحي الذي تجلّى من خلال تكريس القيم العربية والالتزام بالدين، ومن خلال ترسيخ قيم الوطنية الشعبية كان يراها مصالي الحاج في "إبداعية الشعب وفي التفوق الأخلاقي لغير المتعلمين وغير المثقفين"⁴ وتلك هي الشعبوية التي جعلت حركة انتصار الحريات الديمقراطية وحزب الشعب تتماهى "بعد أن انتقلت إلى الفضاء الإيديولوجي في عمق المجتمع"⁵ وبالتالي المرجعية الدينية، ومنه تأسست المقاومة كضرورة تتبنى العنف الثوري كنطق للتعبير عن نفسها وكاستمرار للمقاومات الشعبية السابقة، أي الجهاد بقيادة زعاماتية شعبية ستكون متغيراً انقلابياً لقياس الشرعية السياسية حول مفهوم السلطة في الجزائر بدأت ملامحه مع أزمة حزب الشعب الجزائري وحركات انتصار الحريات التي كشفت عن البوادر المرجعية في صناعة الزعامات، عندما انقسمت كحركة إلى مصاليين ومركزيين قيادة وزعامية، وجريهم وراء الشرعية السياسية — التي لم يكن لديها أي معنى في ظل الاحتلال الفرنسي — مما جعل صورة هذا الحزب تهتز وتضطرب في نظر القاعدة من المناضلين المتوسطين اجتماعياً وثقافياً خاصة وأن اليساريين في انشقاق الحركة بدأوا يشككون في عروبة الجزائر والإسلام وقرر هؤلاء اليساريون كأعضاء في اللجنة الفيدرالية الفرنسية بأغلبية 28 صوت من جملة 32 صوت

¹- Ibid., p 16 « l'indépendance totale de l'Algérie, le retrait total des troupes d'occupation, la constitution d'une armée nationale, d'un gouvernement national révolutionnaire, d'une assemblée constituante élue au suffrage Universel, que la langue arabe soit donnée comme officielle,.... »

²- Mohamed Harbi, 1954 La guerre commence en Algérie, Op.cit. p 52 « Pour Messali qui considère le programme politique et l'intervention directe du peuple comme les clés de la solution à la question nationale, l'indifférence au niveau de conscience des masses et à la question des alliances risque de mener à l'aventure. »

³- Ibid. p52 »La 96ème pour l'indépendance s'apparente, dès l'ord, à une suite d'actes sacrés, des sacrifices au service d'une cause mystique."

⁴- Mohamed Harbi, L'Algérie et son destin, croyants ou citoyens, Paris L'Arcantère, 1992 p 50.

⁵-Ibid. p 83.

استعمال القوة ضد اللجنة المركزية لرفض هذه الفكرة (العروبة والإسلام)¹

ولأن العروبة والإسلام ليسا مجرد فكرة، بل هي من ثوابت الأمة الجزائرية ومبدأ من مبادئ النزعة الشعبوية الجماهيرية، لم يتمكن هؤلاء اليساريون من استدراك الشعبوية وانتزاع الشرعية السياسية بل وطفدوا الصراع داخل الحركة، الأمر الذي دفع شبابه من القاعدة النضالية من خلال صحف الحزب ومنظماته أن يؤسسوا جناحا ثوريا سريا أُنْشِئَ أمره سنة 1950 من طرف السلطات الفرنسية، ثم أعادوا بناءه تحت مسمى الجبهة الثورية للوحدة والعمل، تمكنوا بواسطتها من الوصول إلى تفجير ثورة نوفمبر 1954 التي أعادت ترتيب الفكر الوطني الجزائري، وأنتجت قيا ومعايير لضبط مفهوم السلطة السياسية كان الدين الاسلامي إحدى المتغيرات القيمة فيها وليس كلها طالما أن فكرة الوطنية تتقاسمها التصورات الاشتراكية والاغراءات الليبرالية كل منها تشد الفتوى الدينية والاجتماعية والسياسية لى جانبها.

2. نوفمبر 1954 سلطة الزعامة والعقيدة

ارتبطت ثورة التحرير الجزائرية بتاريخ أول نوفمبر 1954 وجبهة التحرير الوطني بجناحه العسكري جيش التحرير الوطني على أساس أن فاتح نوفمبر كان مرجعية لإحداث القطيعة على مستوى الاختلافات الإيديولوجية في سياسة المقاومة و"وقت حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص والتأثيرات"² وموعدا لتغيير كل ملامح التنافس على الشرعية السياسية و"وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوبة لقضية الأشخاص والسمعة، ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار"³ وكان الأمر كذلك نظرا للموقف الاحتلالي الذي اتخذته فرنسا تجاه العمل السياسي للأحزاب الجزائرية باختلاف توجهاتها من خلال رفضها لأي عمل يعيد للجزائريين مكانتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أو "منحهم أدنى حرية"⁴

فإزاء هذا الموقف الاحتلالي اقترب البعض من الشبان الجزائريين أعضاء النخبة والمناضلين في الحركة الوطنية، من القاعدة الشعبية لتكثيف الضغط وتفجير الثورة بغرض تصفية النظام الاستعماري و"بناء دولة جزائرية ذات سيادة ديمقراطية اجتماعية في إطار المبادئ الإسلامية"⁵.

¹ - Mohamed Harbi, Le FLN mirage et réalité, Op.cit. p 65.

² - بيان أول نوفمبر 1954.

³ - المرجع نفسه.

⁴ - المرجع نفسه.

⁵ - المرجع نفسه.

وكان يكفي مثل هذا لجعل الثورة تحتضن كل الاختلافات الأيديولوجية التي بقي مشروع السلطة السياسية في الجزائر مرهون بها أكثر مما كان مرهون ببرنامج الثورة وخطاها الجهادي الاستقلالي الذي رفعته جبهة التحرير الوطني كحركة تجديدية وتنظيم بديل، قدم نفسه مستقلا عن أطراف النزاع على السلطة ليضع المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات. أما ممارسة السلطة فقد احتوتها الضرورة الاجتماعية والسياسية للثورة، فجعلتها سلطة عسكرية تتقلدها قيادات الحرب التحريرية ويشعرنها مبدأ الجهاد في سبيل الله والوطن، أين ظهرت قداسة الفعل الثوري لكل من القائد والجندي. فاتخذ مفهوم السلطة بعدا وطنيا ودينيا حرصت كل النصوص الثورية على تجديده وتجسيده لما كان له من دور استراتيجي في تسيير الثورة التحريرية واستمرارها، كما سيكون له مدا في تسيير النزاع والمنافسة على مقاليد السلطة بعد استقلال الجزائر.

أ. جبهة التحرير الوطني مشروع السلطة الوطنية في الجزائر

يبني أي مشروع على التنظير الفكري والتخطيط والدراسة خاصة إذا ما تعلق الأمر بمشروع ثوري انقلابي يهدف إلى التغيير الجذري في حجم تحقيق الاستقلال واسترجاع السلطة والسيادة، وقد يرى البعض من المنظرين والمحللين لثورة نوفمبر 1954 بأنها لم تحتكم على أسس نظرية فكرية خاصة بها "فغيب كل تنظير وتنظيم... وقد تم التحضير لها في عجلة".¹ أي غياب المشروع الثوري. ربما كان ذلك صوابا إذا ما قورنت الثورة الجزائرية بالثورة الفرنسية التي استشهد بها هؤلاء والتي فجرتها أفكار العقد الاجتماعي وفلسفة الحق والحرية والعدالة والمساواة، وكذلك الثورة الروسية التي حققتها النظرية الماركسية بمبدأ الملكية. تلك هي القواعد التي رفعت عليها فرنسا أركان جمهوريتها وتلك هي الثوابت التاريخية في النظرية المادية التي حوّلت النظام الروسي (الشرقي) إلى اتحادية وقبست على أساسها طبيعة السلطة بمفهوم العقد الاجتماعي في الثورة الفرنسية وبمفهوم الصراع الطبقي في الثورة الروسية. أما الثورة نوفمبر 1954 الجزائرية وإن كانت قد افتقدت إلى نظريته الخاصة لعدم وجود منظرين جزائريين لها، فإنها كذلك لم تقم في فراغ فكري بل صنعتها قناعات منها ما هو من الثوابت الاجتماعية والثقافية لأمة إسلامية ذات سيادة، ومنها ما هو إيديولوجيات مستعارة خدمت المهمة الوطنية وثمنت الحركة النضالية مستلهمة عن كل من نظرية العقد الاجتماعي والنظرية الماركسية. وهذا ما يجعلنا نقول بوجود مشروع سياسي حول السلطة نقرأه من خلال الحركة الثورية وما أنتجتته جبهة التحرير الوطني من قيم عبّرت عن الضرورة الاجتماعية للهيمنة العسكرية والالتزام أمام سلطة القائد الزعيم.

¹ -Mohamed Harbi, Le FLN mirage et réalité, Op.cit. p115-165.

و إذا كانت ثورة نوفمبر 1954 غيّبت الأسماء الوطنية كما ادّعاء البعض من المؤرخين الفرنسيين بزعمهم أنها " ثورة بدون وجوه " ¹ "une révolution sans visages" فإنها لم تغيب الأفكار الوطنية التي جسدتها موائيقها ونصوصها ابتداء من بيان أول نوفمبر 1954 الذي كان خطابا مرجعيا تأسس بلغة صريحة فشرت بعدا رئيسيا في مشروع السلطة السياسية وقد حاول التجزّد من كل انتماء إيديولوجي، مستعينا بالعقيدة الإسلامية كأحكام وقواعد تؤكد الهوية القومية للجزائريين وتؤيد الشرعية الثورية. ولم يكن حكم الإمامة أو الخلافة أي ذلك الإرث السياسي للسلطة في دولة الإسلام مطلبا ثوريا، نظرا لتطور مفهوم السلطة منذ أن بدأت الجزائر كغيرها من البلاد المغاربية والإسلامية عامة تواجه الوجود الخارجي الغربي أي ذلك الآخر الذي استلم المواقع الاستراتيجية في تسيير القوى العالمية والعلمية، فاتحا أبواب الجدل الفكري والنقدي لنظام الحكم ودساتيره بعيدا عن أي حق إلهي أو شرعية دينية أو نسبية، ولسنا نقصد بذلك الطرح العلماني بالضرورة بل أن نشير إلى الطرح العقلاني في فهم السلطة والذي لم يطرح إشكالا في الجزائر على مستوى تنظيمات الحركة الوطنية وكانت على اختلاف توجهاتها الإيديولوجية لا تقصي العامل الديني (الإسلام) كمتغير ثابت في دعم الشرعية النضالية، مطالبة كلّها بحماية المعتقد الإسلامي من التعسف الاحتلالي. ولم تكن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كتيار عربي إسلامي في مواجهة التيار الشيوعي اللاتني تتبنى أي صراع علني قد يكون من شأنه خلق اشتباك ديني بالسياسي بل تبنت الإصلاح ونشر التعليم العربي كما سبقت الإشارة إلى ذلك، حتى وإن لم يكن ذلك في حياد سياسي — نظرا لطبيعة الظروف الاستعمارية — فإنها لم تخوض الجدل السياسي حول السلطة ولم تنافس كتنظيم ديني في الحركة الوطنية على الشرعية الشعبية، ولم يشارك أعضاؤها في أي تمثيل نيابي أو انتخابي شعبي. وبالرغم من أنها أسست للالتزام الإسلامي لم تغامر بأي قيادة عسكرية جهادية بل اتخذت موقفا متخوفا من اندلاع ثورة نوفمبر 1954 قبل أن تنظم إليها (1956) معتبرة ذلك حدث مفاجئ، ولكنها لم تعاديه بل فقط لم تكن تريد أن تتورط في مأساة قد تشبه تلك التي عرفها الشعب الجزائري في 8/ ماي/ 1945 كما جاء على لسان الشيخ محمد خير الدين ردا على طلب انضمام جمعية العلماء المسلمين إلى جبهة التحرير الوطني قائلا: "إننا لا نريد أن نكون أعداء غير أننا تحالفنا في ماي 1945 مع حزب الشعب وأحباب البيان ودفعنا ثمن ذلك، إن الموقف مختلف هذه المرة . . . لسنا مورطين . . . لقد تصرفتم لوحكم وستدفعون الثمن وحكمكم". ²

¹ - Benjamin Stora, La gangrène et l'oubli, la mémoire de la guerre d'Algérie, Paris la découverte 1998 p8.

² - جريدة البصائر رقم 302، 1955.

ولعلّ المقصود هنا بالتصرف هو بيان أول نوفمبر الذي لم يشارك علماء جمعية المسلمين الجزائريين في مضمونه ولا حتى في صياغته، فكان هذا الغياب هو المؤشر الذي يفسر طبيعة العلاقة بين الديني والسياسي حول مشروع السلطة وبناء الدولة الجزائرية، تلك العلاقة التي حدّدت ملامحها أزمة حزب الشعب وحركة انتصار الحريات الديمقراطية تماماً كما ستحدّد ملامح السلطة السياسية المتمثلة في النزاعات الشخصية وأدلجة المواقف النخبوية بين يساريين وغيرهم، كل منهم سيملك الشرعية في ظل كل المواثيق الثورية ومؤسّساتها السياسية والعسكرية التي احتوت القاعدة الشعبية منذ بيان أول نوفمبر عن ميلاد جبهة التحرير الوطني بديلاً عن كل الانقسامات الحزبية بما في ذلك جمعية العلماء المسلمين كاتجاه ديني، ووجه نداءه إلى كل الجزائريين بانطباقهم الاجتماعية تحت قيادة جماعية تمثلها اللجنة الثورية للوحدة والعمل، هم أعضاء من المناضلين في حركة انتصار الحريات الديمقراطية المنبثقة عن حزب الشعب. نريد بهذه الالتفاتة الإشارة إلى المرجعية السياسية أي الفكر الاشتراكي الذي سيتزعم مشروع السلطة لإقامة دولة ديمقراطية بمبادئ إسلامية لم تُحدّد ولم تُعرّف ربما لأن مبادئ الإسلام واضحة ومحددة في دستور الشريعة الإسلامية، إلا أنها لم تكن كذلك في الحياة الاجتماعية والسياسية للشعب الجزائري، نظراً لما آلت إليه المعرفة بالدين من تفهقر وتراجع نحو البدع والخرافات والجهل بالتعاليم الحقيقية، لم تتمكن نخبة العلماء من استدراكها رغم جهود الإصلاح التي بذلتها بسبب ما واجهته من تحولات.

وهكذا غيب كل طرح أو نظرية دينية في مشروع بناء السلطة السياسية، وباتت العقيدة الإسلامية مجرد مطلب متضمن في إلزام فرنسا¹ بالاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية رسمية وإلغاء القوانين التي تجعل الجزائر أرضاً فرنسية رغم التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري¹ واستبدلت العصية الدينية بالعصية الوطنية والقومية تحت تأثير:

– سوء المعاناة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشها الجزائريون شعباً ونخباً بأسلوب الظلم والقهر الاستعماري، تسبّب في تشريد الجزائريين وتفكيك الروابط القبلية والعشائرية في الأرياف والقرى واغتراب سكان المدن أمام معالم المدينة والمشاريع الاستيطانية التي هدّدت المؤسسات الوقفية الدينية وأماكن العبادة والمدارس القرآنية، فقلصت من مهامها اليومية وتراجع نشاطها الفقهي، مما أدى إلى انحراف الكثير من القيم الإسلامية.

– تحديات الفكر الليبرالي والشيوعي واختراقه الفضاء الثقافي على مستوى النخب الجزائرية المحدثة التي بدأت تعبّر عن قناعاتها باللغة الفرنسية فاختلّت وتقدمت عن النخبة المثقفة

¹ - بيان أول نوفمبر 1954.

التقليدية الناطقة باللغة العربية والتي بدأت تتراجع كتاباتها وخطابها السياسي وبالتالي الديني. أما الذي ظل ينشط منها فقد ساهم في خلق أساليب جديدة في الكتابة وخطاب "حل" بسرعة محل المعارف الموروثة عن الثقافة العربية الإسلامية".¹

— تلاشي نظرية الإمامة والإمارة وسلطة الخلافة أمام التنوير الحديث الذي بدأ يتبناه الاصلاحيون الدينيون أنفسهم وهم يقاومون المعتقدات القديمة الحاضرة في جزائر العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، وبدأ كاتجاه سلفي يقضي بالعودة إلى أصول الإسلام ومنابعه، يحاربون الرباطات والأفكار الصوفية ويخضون خطابا تجديديا يكرس الحداثة في إطار التمسك بالهوية الإسلامية، ابتداء مع الشيخ محمد رحال الذي عبّر جيدا عن هذا الاتجاه التأسيسي لاستيراد الحداثة الغربية قائلا: "إن ما يشوّه المجتمع الإسلامي هو جملة التام ليس فقط بالفنون والعلوم الحديثة وإنما أيضا جملة دينه وتمسكه بمذهب منحلة ومنظومة خاطئة من الأحكام والخرافات جعلته يحذر ويتخوف من كل ما يأتي من الخارج دون تفكير... حقا أنه لا يمكننا تقبل كل ما تقدمه لنا الحداثة... ولكن هناك الكثير منا يؤخذ عنها دون خطر كالعلوم الدقيقة والتنظيم الداخلي والسياسي، ونظام الأشغال العمومية والتعليم وما يتعلق بالتجارة والفلاحة والصناعة، نستطيع اقتباسه دون تعديل".²

و إذا لم يكن هناك أي داع لأي تعديل خاصة فيما يتعلق بالنظام السياسي والمقصود به نظام الحكم الحديث بمؤسساته البرلمانية والانتخابية والقضائية، فلا شك أن ذلك سيمنحه الشرعية الاجتماعية ويقضي بالتالي على أي إشكال سياسي ديني، طالما أن هذا الأخير لا يملك البديل في حل أزمة المجتمع الجزائري وتحلقه، باعتراف جمعية العلماء المسلمين عبر جريدة المنتقد في عددها الأول 1925 "إن الأمة الجزائرية أمة ضعيفة ومتأخرة، فترى من ضرورتها الحيوية أن تكون في كنف أمة قوية وعادلة متمرنة، لترقيها في سلم المدينة وال عمران، وترى هذا في فرنسا التي ربطتها بها روابط المصلحة. فنحن نخدم للتفاهم بين الأمنين ونشرح للحكومة رغائب الشعب ومطالبها بصدق وصراحة حقوقه... ولا نرفع مطالبنا أبدا إلا لها".³ معجبين بمبادئ التنويرية مسترسلين "فإذا نظرنا إلى الثورة الفرنسية نراها علّمت الإنسان

¹ - Abdelkader Djeghloul, La fonction des intellectuels algériens modernes 1830-1930, in Lettrés, intellectuels, et militants en Algérie, 1880-1950 Op.cit. p 11 «... un nouveau monde de présentation et d'organisation des discours qui va supplanter rapidement l'ancienne division des savoirs héritée de la culture arabo-islamique classique ».

² - Op.cit. p 14 « ce qui dépare la société musulmane aujourd'hui c'est se profonde ignorance, non seulement l'ignorance des Arts et des sciences actuels, mais encore et autant choses de sa religion sauf certains pratiques extérieures...le culte dégénéré en une foule d'erreurs...c'est ainsi que tout ce qui vient de l'étranger est objet de méfiance...certes, nous ne pouvons pas accepter les yeux fermés ce que nous offre la civilisation...mais un grand nombre pourrait lui être empruntés sans danger.... ».

³ -جريدة المنتقد العدد 1-18-1344-11925 دار الغرب الإسلامي ط 1 2008.

وكتبت بدماء شهدائها حقوق الإنسان الخالدة في الحرية والمساواة والإخاء...¹ إلى آخر ما وظفه هؤلاء الاصطلاحيون الدينيون في بناء اتجاههم التجديدي وتبرير موقفهم الحيادي في مشروع السلطة السياسية الجزائرية، وهو ما ميّزهم عن الإصلاحيين الليبراليين من الوطنيين الذين عبّروا عن ذلك بفكر الاندماج مباشر بخطاب علماني مطالبين من وراءه بحقوقهم المدني ومشاركتهم إلى جانب الفرنسيين في نظام الحكم السياسي في الجزائر كمسلمين.

ولم يجعل هؤلاء الاصطلاحيون الدينيون والليبراليون من الإسلام مبدءا ثوريا انقلابيا ضدّ الحكم الفرنسي في الجزائر بل فقط خاصية من خصائص الشعب الجزائري، يجب على الإدارة الاحتلالية الانتباه إليها. ينازعون بتصوراتهم الإصلاحية والاندماجية الاتجاه الاستقلالي الذي لم يبتعد ولم يناقض الموقف السلفي من الإسلام، ولم يجادل الليبراليين في ذلك، ولكنهم اجتهدوا في توظيف مبدأ الجهاد لتحريك الأمة الجزائرية الإسلامية.

فلم يكن إذن نزاعا دينيا سياسيا بل هو النزاع على السلطة الذي سيبنى مشروعا تضمنته موثيق الثورة التحريرية، رأينا كيف انطلق منها بيان أول نوفمبر 1954 وقد أكد خطابه على "وجود محترفي السياسة الانتهازية... ووجود الطرفين الذين يتنازعان السلطة"² موجها نداءه إلى "جميع المواطنين الجزائريين وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية أن تنضم إلى الكفاح التحريري بدون أدنى اعتبار آخر"³ وسوف يكون هذا النداء فاصلة تاريخية لإعادة صياغة النزاع حول السلطة السياسية وليس انقلابا عليه، لأنه وبانضمام جميع الأحزاب الوطنية والدينية ستقاس الشرعية الشعبية أي بمقياس العمل المسلح ودرجات القيادة العسكرية أي بالشرعية الثورية.

ب. جيش التحرير الوطني وشرعية السلطة العسكرية

لم يكن انضمام أحزاب الحركة الوطنية إلى ثورة نوفمبر 1954 أمرا يقضي بانضمامهم إلى حزب جبهة التحرير الوطني، وإنما ما تمّ هو الالتحاق بجيش التحرير الوطني بمعنى الأخذ بمبدأ الكفاح المسلح الذي لم يكن يعني بالضرورة توحيد الأيديولوجيات السياسية بل فقط الاشتراك في العمل المسلح لأنه سيصبح المتغير الأساسي في استحقاق الشرعية السياسية وتبقى القنوات المتباينة تنشط على مستوى الأشخاص والزعامات القيادية وبدون إحقاق الدين الإسلامي في النزاع بينهم بالرغم من وجود عناصر التيار السلفي من جمعية العلماء المسلمين في صفوف الكفاح المسلح، وهو مؤشر مرجعي لتصحيح صورة الالتزام الإسلامي في الجزائر

¹ - المرجع نفسه.

² - بيان أول نوفمبر 1954.

³ - المرجع نفسه.

ليظهر كموقف خال من أي بناء نظري تجاه الاحتلال الفرنسي، بل كمتغير يميز هوية الشعب وانتائه التاريخي.

أما مشروع السلطة السياسية وإن كان الجهاد كمفهوم ديني من أول بنوده، فإن التخطيط له كان نتيجة لأزمة حزب الشعب وحركة الحريات الديمقراطية، ومن صنع الحركة الثورية لحركة التحرير الوطني التي أعادت ترتيب المراكز والأدوار بين زعماء الحركة الوطنية بقيادة مركزية ابتداء من مطلع العام 1955 بزعامة جديدة تمت إلى حزب الشعب الجزائري على رأسهم كريم بلقاسم وعبان رمضان وعمر أعمارن ويوسف بن خدة¹ ثم تدعيم الجبهة بقيادة حزب البيان أمثال فرحات عباس وأحمد فرنسيس وقادة جمعية العلماء المسلمين أمثال إبراهيم مزهودي وتفيق المدني والعربي تبسي² فتمثل هؤلاء القيادة الجماعية للثورة داخل الجزائر واستدراك الفراغ السياسي الذي تركه استشهاد بعض القادة الأوائل، ووجود بعضهم في الخارج لقيادة الثورة مثل أحمد بن بلة ومحمد بوضياف.

وبين الداخل والخارج في زعامة الثورة تجلّت ملامح التنافس على القيادة بين العمل السياسي والعمل العسكري حول السلطة وبناء مشروع الحكومة الجزائرية والذي سيبدأ مع الدعوة إلى مؤتمر وطني للثورة³ يعود الفضل في عقده إلى العربي بن مهيدي، حيث كان له شرف رئاسة أشغاله² فقد كانت هذه المبادرة في عقد مؤتمر الصومام 1956 محطة تاريخية رئيسية ليس فقط في التنسيق للثورة وتخطيط العمل العسكري، وإنما أيضا مناسبة وطنية لقلب تنظيم وهيكل العمل القيادي الزعاماتي بعد توسيع النواة الداخلية ومحاولات إقصاء الزعامات الأصلية كبن بلة وآيت أحمد وبوضياف وخيضر و³ إجبارهم على العمل في إطار القيادة الجماعية الجديدة التي يترجمها كريم بلقاسم وعبان رمضان وعمر أعمارن³ الذين انضمت إليهم معظم القيادات والمنظمات الجماهيرية الطلابية والعمالية وكان يعني ذلك الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني وتأسيس جهاز قيادي مركزي، أراد من خلاله عبان رمضان إعطاء الأولوية للعمل الداخلي للثورة على العمل الخارجي في اتخاذ القرارات السياسية بمساعدة رفاقه المركزيين من حزب الشعب والحزب الشيوعي الذي ساهم في إعداد وثائق مؤتمر الصومام 20 أوت 1956، فانعكست توجهاتهم الأيديولوجية على قراراته المصيرية على المدى القريب والبعيد⁴ تجاهلوا فيها البعد الإسلامي والعربي للثورة الجزائرية وحرصوا على الإشادة بالماركسية والنضال

¹ - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، مرجع سابق ص 387.

² - المرجع نفسه، ص 389.

³ - المرجع نفسه، ص 390.

ضد الامبريالية والاستعمار.¹ إنه الموقف الذي سيخدم الصراع بين قادة الثورة في الداخل والموجودين منهم في الخارج المدعومين من طرف الدول العربية والإسلامية. كما شكل هذا الموقف صيغة جديدة في تحديد علاقة الدين الإسلامي بالسياسة، أكدتها نتائج مؤتمر الصومام المتمثلة في إنشاء تنظيم إداري ولائي قائم على سلطة عسكرية " برئاسة عقيد وأربعة ضباط برتبة رائد في الجيش"² كما تم تأسيس المجلس الوطني للثورة والذي يعتبر أول برلمان أو السلطة التشريعية في الجزائر أحق بداخله كل القيادات الثورية برتها السياسية والعسكرية منهم الأعضاء الدائمون ومنهم الإضافيون أغلبهم من حزب الشعب ولا يتجاوز عدد الأعضاء من جمعية العلماء المسلمين عنصرين اثنين من مجموع 35 عضو أي ما يقارب 6% فقط وتغيب عضويتهم تماما في لجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عن هذا المجلس أي إقصائهم من السلطة التنفيذية التي كانت تتولى تطبيق القرارات السياسية والعسكرية المشكّلة من القادة البارزين في داخل الجزائر الذين يملكون السلطة الحقيقية خاصة بعد أن تقرر إعادة النظر في قرارات مؤتمر الصومام التي كانت تعكس توجهات عبان رمضان أو القيادة الجديدة في جبهة التحرير الوطني، فألغيت الفكرة أولوية رجال السياسة على العسكريين وتعززت لجنة التنسيق والتنفيذ بمكتب يتكوّن من القادة الخمسة، وبذلك انتقلت السلطة إلى جيش التحرير الوطني والقادة العسكريين في الولايات الستة بالقطر الجزائري.

فإذا كان مؤتمر الصومام 1956 ظرفا ثوريا تطلبه ضرورة التنسيق السياسي والعسكري فإنه أيضا ومن نفس الضرورة كان مناسبة أعلن فيها عن مشروع السلطة بطابعها التنفيذي والتشريعي كما حملته وثائقه ورمّت إليه أهدافه التي لا تقرأ من خلالها أية إشارة إلى دور الإسلام في إقامة المؤسسات السياسية والإدارية للدولة الجزائرية رغم الإشادة به.

و لم يكن ذلك التغيب لي طرح إشكالا في مشروع السلطة السياسية حينها لأن مفهوم الشعب قد تضمّن كل المتغيرات الثقافية والاجتماعية بما في ذلك المعتقد الديني، فكان يكفي شرط " الاعتراف بالشعب الجزائري شعبا واحدا لا يتجزأ " الذي رفعه مؤتمر الصومام مقابل وقف إطلاق النار، ليفهم الجميع قيادة وقاعدة موقف الثورة من الدين الإسلامي، ولم يكن يحمل هذا الفهم أي قطيعة مع الإسلام وهو من ثوابت الأمة، فتحوّل إلى عنصر من عناصر الشعبوية ومتغير من متغيرات الوطنية والهوية الثقافية التي وجد مكانه من خلالها عندما تحولت لجنة التنسيق والتنفيذ إلى أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية في

¹ - المرجع نفسه، ص 393.

² - المرجع نفسه، ص 394.

1958/9/19 ضمت 18 عضوا¹ منهم أحمد توفيق المدني من جمعية العلماء المسلمين ووزيرا للثقافة. أما وزارة الدولة فكانت لكل من محمد بوضياف، حسين آيت أحمد، محمد خيضر، ووزارة الداخلية لأحمد بن طوبال والشؤون الخارجية لأمين دباغين، وتولى وزارة القوات المسلحة كريم بلقاسم ووزارة المالية لأحمد فرانسيس ونيابة الرئاسة لأحمد بن بلة كلهم من حزب الشعب ما عدا رئيس الحكومة المؤقتة فرحات عباس الذي كان ينتمي إلى حركة أحباب البيان.

وكان هؤلاء هم الذين سيختلفون فيما بينهم حول الهيكلية الحكومية التي شكلوها وإن كانت مؤقتة، فأدخلوها أزمة الزعامة الفردية والاستئثار بالسلطة التي أثرت سلبا على أعمال هذه الحكومة والعمل المسلح عامة خاصة وقد استشهد " نصف قادة الولايات في داخل الجزائر مثل العقيد بن حواس ثم محمود بوقرة. " ² وانشقاق وزرائها " الذين أحاط كل منهم نفسه ببطانة من رجال حزبه القديم . . . وتجديد المنظمات القديمة كما جاء على لسان قائد القوات المسلحة آنذاك السيد كريم بلقاسم الذي طالب بتدارك الأمر وإنشاء سلطة جديدة متجانسة، وبعد أن اتفق معه أغلبية الأعضاء أقيمت حكومة فرحات عباس سنة 1959 من طرف المجلس الوطني للثورة نفسه وعزل رئيسها " لأنه لم يستطع لعب الدور المنوط به فاستبدل برئيس كان في المعمة. " ⁴ كما صرح المجاهد الطيب الثعالبي لجريدة الجزائر نيوز. ولعل المقصود هنا " بمن كان في المعمة " هو السيد يوسف بن خدة الذي حل محله على رأس حكومة عسكرية بعد اجتماع طرابلس 1961 ذلك الاجتماع التاريخي الذي كشف عن التوجهات الحقيقية في مشروع السلطة السياسية في الجزائر، لا تمت إلى بيان نوفمبر بقدر ما كانت تنتمي إلى المرجعيات الحزبية وإيديولوجياتها الوطنية، كان من نتائج ذلك أن اضطرت هيئة الأركان — التي دخلت في خلاف مع رئيس الحكومة المؤقتة — إلى إنشاء سلطة موازية " ⁵ تحالفت مع بعض زعماء الثورة إثر خروجهم من السجن كأحمد بن بلة الذي استطاع أن ينقل السلطة إلى " مكتب سياسي لجبهة التحرير الوطني تخضع له الحكومة المؤقتة " ⁶ التي كان يترعها المركزيون من حزب الشعب، سيمشون أمام تحالف قيادة الأركان مع أحمد بن بلة وعزمهم على عقد مؤتمر طرابلس 1962 أين سيتم تعيين القيادات الجديدة في الهيئة التنفيذية مما أثار الخلافات التي لا تُقرأ إلا كصراع على السلطة السياسية جسده الاختلاف على الأشخاص والأسماء، وأسلوب الاقتصاءات والتصفيات الجسدية قبل وبعد هذا الاجتماع

¹ - عمورة عمار، موجز في تاريخ الجزائر، مرجع سابق ص 193-194.

² - عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر، مرجع سابق ص 487.

³ - المرجع نفسه، ص 488.

⁴ - الجزائر نيوز، بتاريخ 3 يوليو 2009 www.djazairnews.info.

⁵ - عمار بوحوش، المرجع السابق ص 503.

⁶ - Mohamed Harbi, Le FLN mirage et réalité, Op.cit p 326.

الذي لم يخرج بقيادة متفق عليها فوصف بالأزمة، إلى غاية الاعلان الرسمي على بعد نتائج الاستفتاء وقرار الشعب على استقلال الدولة الجزائرية، ثم تأسيس هيئة سياسية ذات سيادة تامة يشرف عليها السيد بن بلة كسلطة تنفيذية لم تنهي الخلاف والصراع بين أعضاء الحكومة الجديدة بل انتقل في صيف 1962 إلى مواجهة دامية بسبب قوائم الترشيح للانتخابات البرلمانية التي وضعها المكتب السياسي ورفضها البعض¹ فاشتبك جيش هيئة الأركان لإسكات الأصوات المعارضة وتبسط نفوذ الحكومة التي تتقاسم فيها المناصب الحساسة في الدولة إلى هوارى يومدين لقيادة الأركان وإلى أحمد بن بلة الذي تسلم مقاليد السلطة السياسية.

فإذا ما التفتنا إلى كل هذه الديناميكية والتنافس الثوري والقيادي الزعماني، سنجد أنه لم يكن هناك أي أدلة للإسلام أو إدخاله طرفا في صراع الزعامات، بل كان موقف أعضاء جمعية العلماء تراجعي حيادي تستخلصه من تدخل توفيق المدني وزير الشؤون الثقافية يوم 1958/06/29 عندما قال بأنه: " يرى حكومة مجلس الوزراء صالحة للبقاء . . . وما يجب فعله هو إدخال تعديلات على نظامها لا على أشخاصها."² بالرغم من أن كل أعضاء الاجتماع رأوا أنها حكومة لم تؤدي دورها وأزمت المصير الثوري. فلا يفهم إذن هذا الموقف لوزير الشؤون الثقافية عضو جمعية العلماء المسلمين إلا كرد فعل عن غياب مشروع ديني أو تصور إيديولوجية للتنافس على السلطة السياسية، وظل الإسلام مجرد لغة تحمل المعنى الديني لمفهوم الجهاد والاستشهاد في سبيل الوطن، وغابت الأسماء من مشايخ جمعية العلماء المسلمين في كل الخلافات الشخصية بين أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ بجانبها السياسي والعسكري أي جهاز السلطة.

هكذا تمكن حزب الشعب الجزائري باختلاف توجهاته من تأسيس نموذجاً للسلطة بطابع عسكري تطلبه المشروع الثوري ضد الاحتلال الفرنسي بعد أن تراجعت في الزمن والمكان المقاومات الدينية التي تزعمتها سلطة الإمارة، واستبدلت العباءات والعائم بالبدلات العسكرية التي ستحمل بعدا قداسيا وتتحول إلى رموز لفرض الشرعية لأنها ستحقق ما لم تحققه العباءات والعائم، وهو استقلال الجزائر. وهذا لا يعني إحداث القطيعة التاريخية وإنما هي فاصلة زمنية ستعطي قراءة جديدة لعلاقة الدين بالسياسي في الجزائر.

¹ - أنظر في ذلك: عمار بوحوش التاريخ السياسي للجزائر، مرجع سابق p و Mohamed Harbi, Le FLN mirage et réalité,

² - عمار بوحوش، المرجع نفسه، ص 490.

سيمائية العلامة التراثية في الخطاب الإشهاري المغربي

د. جلال خشاب*

توطئة

تعد انطلاقة العمل للإشهار في المغرب مبكرة نتيجة عوامل تاريخية وسياسية واقتصادية بدءا بالاستقلال وبالتوجه الإيديولوجي مما ترتب عنه نظام اقتصادي شبه حر سايره تيار إشهاري محتشم أرجع الباحث المغربي أحمد إدريس مدغري ظهوره إلى « عامل التأثير بما هو جاري في الغرب، وعلى وجه الخصوص في فرنسا، نتج عنه ظهور وكالات إشهارية بمثابة امتداد للمراكز الإشهارية الكبرى انطلاقا من الستينيات »¹.

إن هذا الظهور المبكر للإشهار في المغرب ترتبت عنه انعكاسات تمثلت في « المنطلقات مرورا بالتسويق والإعلانات في الراديو ثم التلفزيون وصولا إلى الانترنت »². كل هذه الآليات وجدت متنفسا لها في ظل نظام اقتصادي يستمد أسسه من توجه يقر الملكية الفردية والانفتاح الاقتصادي، مما فصح مجال المنافسة أمام المؤسسات الداخلية والأجنبية، وأعطى نفسا وانتعاشا للعديد من الأشكال الإشهارية، وإن كان الترويج موجها في الأساس إلى البضاعة الأجنبية كسائر البلدان العربية. وهي مرحلة باتت شبه ضرورية أمام غياب عنصر المنافسة والميل إلى الاستيراد ما جعل فضاء الإبداع الإشهاري محدودا طالما أن منشأ الرسالة غربي المنطلقات وحتى التطلعات، في انتظار إنتاج محلي يبعث في نفسية المشهور روح الإبداع تستحضر الذات وتعريف بها، من خلال خطابات إشهارية متعددة الأبعاد.

خطا الإشهار في المغرب خطوات محمودة بدءا بالثابت ثم المتحرك في مراحل لاحقة، حيث كانت الانطلاقة من الإعلانات القصيرة على صفحات الجرائد والمجلات المتعلقة بمنتجات موجهة للاستهلاك « كالسجائر حازت الحائزة على القسم الأكبر إلى جانب العطور وبعض المستلزمات المنزلية »³. وقد اعتمد هذا النوع من الإشهار على الخطاب اللساني ممثلا في اللغة

* - أستاذ جامعة محمد الشريف مساعدي سوق أهراس.

¹ - Ahmed Idris M'DAGHRI. De La réclame à la publicité. Ed les deux rives. Casablanca. Maroc. P9.

² - Ibid. p 12.

³ - Ibid. p 12.

العربية العامية وكذلك الفرنسية. كما استند إلى صور باللونين الأبيض والأسود. في الوقت الذي اهتمت فيه المرحلة الثانية ببعض المواد الغذائية كالبسكويت والشكولاته. وهو لون إشهاري يحاكي الخطابات الفرنسية يعلّله الباحث مدغري « بغياب الثقافة الإشهارية في تلك الفترة مما تطلب انتاج المحاكاة قصد التطلع إلى المستجندات الإشهارية، والاستفادة من التقنيات والأساليب المنتهجة »¹.

ويظهر التلفزيون في المجتمع المغربي، خلال الستينيات، أصبح الإشهار حلقة من البرنامج المرئي ككل ولكن في خطوات متناقلة لحداثة هذه الخاصية الإعلامية وكذلك ضعف المنتج المغربي، حيث اقتصر الأمر على منتجات جُلّها أجنبي « يكتفي الخطاب الإشهاري بعرض المنتج في شكل تعريفي يكون في الأغلب الأحيان مغرقا في الطول »².

ومع بداية الثمانينيات شهد الخطاب الإشهاري المرئي المغربي قفزة نوعية بعد التحكم في آليات الخطاب والعمل على تطويره اعتمادا على منطلقات تستند إلى الذات المغربية في شتى أبعادها ومظاهرها، حرصا على تشكيل فضاء ثقافي انطلاقا من تلك الخطابات المتعلقة بالاتصالات وبالمواد الاستهلاكية، على وجه الخصوص.

* من الحركة إلى الرقصة:

كثيرة هي العلامات غير اللسانية الموطّفة في المجال التواصلية والمتبادلة ما بين المتخاطبين، بيد أن مثل هذه العلامات تتغير بحسب الوضع التخاطبي وتختلف من مجتمع إلى آخر نتيجة الفعل التواصلي السائد لدى كل مجموعة. ومن بين العلامات غير اللسانية الحركة التي تعد علامة تواصلية صادرة عن وعي المرسل قصد تحقيق غاية منطلقها الجسد، إذ يشير الباحث (أوبر كمي) (Aubert Gambie) إلى أننا « نتكلم بأعضائنا الصوتية، وإنما في حقيقة الأمر نتخاطب بالجسد كله »

« Nous Parlons avec nos Organes vocaux, mais c'est avec tout le corps que nous conversons »³

وهي إشارة تبرز أن مجموع الحركات التي يؤديها الجسد يمكن اعتبارها علامات كونها حركات إرادية صادرة من المرسل، و ذات منطلقات عاطفية ونفسية مختلفة. وفي حديثه عن الحركة يشير (قيرو) (P. Guiraud) إلى أنها « تنتمي إلى فضاء الإشارة kinésique المهتم بالحركات والعلامات الوجهية mimique وكذلك الرقصات المتفاعلة مع النبرات الصوتية، والمتممة للكلام »⁴.

¹ - Ibid. p 27.

² - Ibid. p12.

³ - Aubert COMBIE. Voir, Catherine KERBART ORECCIONI. La Conversation. p 27.

⁴ - Pierre GUIRAUD. La Sémiologie. p 103.

وإذا كانت علامات الخطاب اللساني خاضعة لأنظمة وضوابط تضمن اتساقها وانسجامها، فإن العلامات الحركية تحتكم إلى نظام تواصلي مركزه العقل ومنطلقه الجسد «لأنه الأقدر في النيابة عن أحاسيسنا وغاياتنا التواصلية»¹. كما يعمل الجسد على إرسال مجموعة من الحركات في إطار منظم سرعان ما تجد طريقها إلى المشاهد بعد فك دلالاتها مما يعني أن «كل مجتمع يتوفر على مفاهيم ودلالات خاصة بالعلامات الإشارية»².

لقد شكّلت الإشارات الواردة في خطاب «ميديتال المغربي» رسالة تسعى إلى التعريف بالمنتج من خلال وضعيات جسدية مختلفة تتحد في الغاية التعريفية (Faire Savoir)، غير أن تلك الحركات تتغير بحسب الظروف والأوضاع فضلا عن ارتباطها بالنبرة الصوتية. Ton de La voix «وهي من أبرز الطرق للتدليل على العلاقة ما بين المرسل والمتلقي حيث تكون النبرة عادية، تقديرية، أمرية... إلخ»³ لذا نجد أن الإشارات الواردة تهتم بالمتلقي وتدفعه إلى الشراء (Faire Faire) من خلال وضعيات مختلفة يتخللها فاصل موسيقي ما بين اللقطة والأخرى، مما يجعل هذا النوع من الخطاب متواصلا ومنسجما، لأن «المستمع أو المشاهد يستوعب مجموعة من العلامات الدالة انطلاقا من وضعيات الجسد وحركته بالنسبة للمتكلم»⁴.

إن الحركات الصادرة عن جميع الأجساد المشاهدة في الصورة تكاد تكون موحدة مما يجعلها إلى فضاء أوسع يعرف بالرقصة نتيجة توفر العامل الموسيقي أين تخرج الحركات من المستوى الأول والذي يعرف بالمستوى الكلامي. وفي هذا المستوى يكون للجسد الدور البارز في التواصل فيرسم متطلباته من خلال الجمع تواصلية تجمع بين المنطلق الفردي والغايات الجمعية، ذلك أن الرقصة البدائية تحمل في طياتها فكرة المحاكاة وفي الوقت نفسه رسالة صريحة إلى الآخر تجسد الرغبة في التواصل، لذا نجد أن الرقصة المعتمدة قد عملت على التعريف بإرث ثقافي تقاطعت في فضاءه الحركة والموسيقى وكذلك الملبس، لكن هذا الموروث البعيد حاول أن يفتح على الحاضر تعريفا وعلى المستقبل بيعا محققا بذلك بعدا تواصليا.

إن التعامل مع الرقصة لا يقتضي البحث في ماهيتها وعوامل ظهورها بقدر ما يمكن من الكشف عن وظيفتها وتطورها وعلاقتها بالأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية وغيرها. فبنية الرقصة تمثل امتدادها وتواصلها، مما يبرز حضورها كخاصية تواصلية منذ فترة بعيدة، وتشير الدراسات المهمة بالرقص إلى «وجود تقارب في طريقة التصنيف، حيث قابل اللسانيون

¹ - Christian BAYLON, Xavier MIGNOT, La communication, Nathan, Paris, p144.

² - ibid, p143.

³ - Pierre GUIRAUD, La Sémiologie, p 103.

⁴ - Dominique MAINGUENEAU, Analyser les textes de communication, p 81.

البنويون اللغة بالكلام، كما وجدوا أن الأمر نفسه ينسحب على مقابلة اللغة الكورغرافية بالرقص خاصة وأن هذه الأولى تتطلب التجربة والدراسة».¹

وتحمل الرقصة في جوهرها بعدين هما الرقصة الشعبية والرقصة الثقافية حيث إن المسار التواصلية المتعلقة بالعلامات الموظفة قد جاء محدودا في الرقصة الشعبية وكذلك الأمر بالنسبة للأفراد، مما يبرز نوعية هذا النظام واختلافه من مجتمع إلى آخر. كما أن التفرقة ما بين العلامات التي تنتجها الرقصة الشعبية وتمفصلات الجسد تتجلى في «كيفية تشكيل الطلبات والأوامر البيوميكانيكية للحركة ولجسم الإنسان، وتكون الأوامر بدورها خاضعة إلى عوامل مختلفة كالمظاهر النفسية الفيزيائية (Psychophysique) والفكرية والفنية للمجموعة».²

انتظمت العلامات الواردة في الرقصة وفق نظام خاص جعل منها بناء موحدا يحتكم إلى ضوابط متخذة لنفسها أبعادا ودلالات جديدة وبعيدة من خلال ارتباطها بفضاء الرقصة العام، حيث لم تعد المشاهدة مقصورة على انتظام العلامات، وإنما افتتحتها على العوالم الأخرى الخفية أين تتجلى العلامات والرقصة في مظاهرها الفنية والاجتماعية والثقافية، فنلمس نظاما حيا يبرز مكانة الآخر في الوظيفتين التعبيرية والانفعالية واللذان تستندان إلى العناصر غير الشفوية. كما يرى قريماس (A. J. Greimas) أن «الاهتمام بالعلامات الجسدية لا يحيل على تعدد ثقافات المجتمعات أو الأجناس وتنوعها، بل يؤكد على وجود بعد سيميائي مستقل يسعى إلى خلق الثقافات والأجناس وكذلك التجمعات الإنسانية الدالة».³

فكرات الجسد بالنسبة لقريماس في «في استقبالتها أو إرسالها شبيهة بتلك الأنظمة السيميائية الأخرى، والتي هي عبارة عن ظاهرة اجتماعية».⁴ فالرقصة بعلاماتها الإشارية المختلفة نسيج سيميائي يمارس من خلاله الراقص أفعالا كلامية انطلاقا من تلك العلامات المعبأة بالدلالات والعواطف الرامية إلى تجسيد أفعال تتراوح ما بين التعريف والبيع (Faire Savoir) (Faire F) لأن المجموعة المشاهدة في الخطاب عملت من خلال إشارات منتظمة إلى التعريف بالمنتج الجديد، ومن ثمة الدعوة إلى الشراء لتصبح الرقصة أداة تعبيرية خاضعة لقوانين أهمها الإيقاع فضلا عن ضوابط أخرى.

وإذا كانت الرقصة تواصلا ما بين أفراد الفرقة، ثم ما بين أفراد المجتمع الواحد، ومنه تنفتح على المجتمعات الأخرى، فإنها في الوقت نفسه اختارت لها لون الرسالة وأبعادها الاجتماعية والنفسية والثقافية. لأنها تحولت إلى كلام محكي يشكل جوهر الاتصال الذي يراه قريماس عبارة عن «فعل بمثابة الاختيار تم انطلاقته من داخل العالم الدال. فهو يختار كل مرة بعض

¹ - ibid. 112.

² - Aljirdas Julien GREIMAS. Du Sens. Seuil. Paris. 1990. P60.

³ - Aljirdas Julien GREIMAS. Du Sens. p60.

⁴ - A.J. GREIMAS. Sémiotique Structurale. P36.

الدلالات ويقضي أخرى. فالاتصال ممارسة لبعض الحرية ولكن حرية محدودة»¹. لذا نجد أن الرقصة تستمد ضوابط تواصلها من منطلقات متباعدة المنشأ، من جسد وموسيقى وكلام لتتفاعل منفتحة على كل من الحدث والفضاء والزمن، لكن المنطلق يظل دوما موكلا إلى الجسد الذي جاء « مستجمعا للشروط التي يمكن أن يكون من خلالها مسندا لرمز العبارة code de l'expression »². حيث يرى أن كل إشارة مبرمجة تعدت أبعاد السيم في استعمالها التواصلي تتخذ شكلها الدلالي النهائي مستندلا على ذلك بالرقصة الفولكلورية وبالباي³. فيتحقق فعل الرقصة من خلال تمفصل العلامات الإشارية أسماها (جاك كوزنييه) (jaques Cosnier) " تحليل الإشارة " " Kinesique " مستندا إلى أبحاث روبرت وسيتال (R. L. Birdwhistall) منطلقها « المبدأ البنوي للتمفصل المزدوج لدى مارتي A. Martinet، معتبرا الإشارة بمثابة العلامة اللسانية، تتمفصل إلى قسمين، تسمى وحدات التمفصل الأول

Kinemorphèmes المقابلة للمونيمات. أما وحدات التمفصل الثاني فتدعى (Le Kineme) وتقابل الفونيمات. يؤدي الأول (Le Kineme) دور الدال بينما يمثل الثاني (Le Kinemorphèmes) المدلول⁴. كما يمثل تعدد الإشارات وتنوعها حركية الفرد وحاجته إلى التواصل. ومثلا تختلف لغة المجتمعات فإن الإشارات تكسب بدورها دلالات وفق ما تقتضيه الغايات التي يرسمها المجتمع. وفي هذا الصدد يشير قريماس إلى أننا « سنجد كيف أن هذه الإشارات وضعت في مسار تواصلي وفي أي حالات يمكنها أن تشكل رموزا مستقلة أو كلاما إشاريا⁵. لكن المنطلق يظل دوما الجسد كونه « الخطاطة التي تحدد قبل كل شيء وعي الذات بوجودها السيميائي الأول⁶ ». ثم يعمل بعد ذلك على استكشاف محيطه والتفاعل معه « لأن الإنسان كجسم شكل من هذا الكون. فهو عبارة عن ميكانيزم مركب يتمتع بحركية الشروط الملائمة لإنتاج الفوارق الخاصة بالدال ».

إن تشاكل العلامات الإشارية في الرقصة المشاهدة يبرز ارتباطا وثيقا ما بين الجسم والحدث والفضاء والزمن. فصورة الانحناء المرتبط بالأداء الصوتي والموسيقى، هو حث على الإيضاح والشرح، وكذلك باقي الإشارات المسيرة للخطاب الشفوي والمنظمة في بادئ الأمر وفق بناء يجعلها منفتحة على بعضها بعض آدائيا في اتجاهها التأليفي بما في ذلك تواصلها مع

¹ - A.J. GREIMAS. Du Sens. P63.

² - ibid. P 79.

³ - Jaque COSNIER. La Communication. Dunod. Paris. p 259.

⁴ - A.J. GREIMAS. Du Sens. P71.

⁵ - ibid. P 63.

⁶ - Catherine KERBART ORRECCIONI. La Conversation. P05.

⁷ - ibid. P 05.

الملفوظات الشفوية والإيقاعات الموسيقية، لتأخذ تلك العلامات الإشارية دلالات جديدة من خلال ارتباطها بفضاءات جديدة، كالتاريخية منها والثقافية. فهي لم تعد مجرد رقصة بقدر ما تحولت إلى إستراتيجية تواصلية تحمل في طياتها العديد من الأبعاد مما يكفل لها حياة وحركة من خلال تحول علاماتها إلى دلالات تبرز حركية الرقصة النابعة من حركة الجسد، والعاملة على إسقاط الحدود وتقريب المسافات.

وإذا كانت العلامات الإشارية هي المكون الأساس للرقصة، فإن هذه الدوال قد أحالت بدورها على دلالات مختلفة نتيجة انتظامها في مسار تواصلية اتضحت دلالاته الأولى في شكل إفرادي وفق ما يعرف بالمحور التأليفي، والخاضع إلى قانون البناء القائم على قوانين تركيبية، تجعل الإشارة متكاملة مع مثيلاتها مشكّلة في نهاية المطاف الدال الأكبر المتمثل في الرقصة. فتحليل بدورها على دلالات متنوعة تبدأ بالفنية وتنتهي بالاجتماعية لأنّ انسجام الأداء يفرز دلالات فنية بين الجسد الواحد وحركته، وكذلك ما بين الجسد والأجساد الأخرى، فضلا عن ذلك فإنّ الرقصة تحيل في الوقت نفسه على دلالات خاصة كأن تكون تواصلية. كما تكشف عن أبعاد ثقافية، لأنها ليست مجرد حركات منتظمة ومتناسقة، وإنما هي صورة مقطوعة من الواقع الاجتماعي والثقافي المغربي حملت في طياتها رواسب حضارية للبعد التراثي المتوارث من خلال الانسجام الحاصل ما بين الإيقاع والحركة، فضلا عن التصفيق الفاعل والدال على المرجعية التراثية للرقصة التي لم يكتب لها الحضور الفعلي أمام هيمنة الرغبة الإشهارية المحففة الحاجة للعديد من أبعاد الرقصة التراثية المغربية، مكثفة ببعض المشاهد وفق ما يخدم الرسالة الإشهارية. فقد تحولت الرقصة من علامة كبرى مكتملة ومعبأة بجميع الدلالات الفاعلة إلى علامة ثقافية مختزلة إلى أبعد الحدود، مغتربة للرسالة الفعلية من تواصل يضمن الأبعاد المعرفية والثقافية والفكرية. لا يستحضرها المشهّر إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، طالما أنّ التوجه البراغماتي للخطاب الإشهاري يصبح في هذا الشأن حاجزا حاجبا للموروث وللأنا الواجب توفرها في الإبداع الموسيقي.

الخطاب الشفوي إنجاز وتفاعل

يشكل الخطاب الشفوي القسم البارز من تواصلنا اليومي والحياتي كون الممارسة الكلامية تستوجب « تبادلا كلاميا منتظما ما بين المتخاطبين، مما يخلق تفاعلا كلاميا إذ يسعى بموجبه كل طرف إلى التأثير في الآخر¹ ». فيستند المرسل إلى حركات الجسد وملامح الوجه فضلا عن إشراك حاسة النظر وبعض الملفوظات الصوتية المفرغة مثل، أم . . . آه . . . أو أخرى ذات دلالات إيضاحية مثل - أليس كذلك، نعم، ترى. والمساعدة على رأب صدع التواصل.

¹ - L. DIOULDE, de la tradition orale. Problématique et méthodologie des sources de l'histoire africaine. Edition Karthala. 1991. P 101.

وبالمقابل يسعى المستمع إلى إبداء مجموعة من الردود تجمع الحركي باللساني « كهز الرأس أو الابتسامة، أو إرساله لأصوات. هذه كلها تتضمن تواصلا فعليًا. كما يعمل الاثنان على ضمان التواصل والمحافظة على المخاطبة وتزامنها»¹.

ويعكس الخطاب الشفوي انتماء واضحًا إلى مجتمع بعينه من خلال خاصية التلقظ الكاشفة عن العادات الشفوية المتوارثة عبر الأجيال. والتي هي بمثابة شهادة حيّة على تواصل حضاري وأدبي يعتز به (ديولد) (L. DIOULDE) « مجموع الشهادات المنقولة شفويًا من شعب حول ماضيه »². فيصبح بمثابة حالة حضارية يتم انتقالها عن طريق المشافهة. كما يتسم الخطاب الشفوي بالآنية الخطابية وارتباطه بالذات المتلقية من باب تلقائيتها وتطلعها اللامتناهي إلى كل ما يعرض من وجهة المشافهة كونها « خاصية تواصلية أنجزت على قاعدة مفضلة للاستقبال السمي للرسالة »³.

وحول عدد التخاطب الشفوي تشير الباحثة (أوريكيوني) (Orecchioni) إلى أنه « لا يمكن إحصاء التخاطب الشفوي لكثرتة، كونه ينطلق من التخاطب الأسري، واللقاءات بمختلف أنواعها، وكذلك الحوارات والمناقشات والتعاملات الاقتصادية، فضلا عن التبادلات العلمية واللقاءات والمرافعات والمحاضرات. يتم ذلك وفق الإطار الفضائي الزمني، وكذلك عدد المتخاطبين »⁴. وقد فسح هذا التنوع الخطابي المجال أمام دراسات اهتمت بتحليل الخطاب من زوايا مختلفة.

ارتبط الخطاب الشفوي بالصورة مفرزا خطابا مركبا حيث لم تخرج « الصورة، بكل معطياتها، عن الهدف المرسوم لها »⁵. كونه انصهر في فضاء الرقصة نتيجة الإيقاع الذي ميّزه مما يوحي بمدى التفاعل الحاصل ما بين عناصر الرسالة الإشهارية ذات الملفوظات الموزعة بانتظام على مراحل الخطاب المرئي مجسدة مشاريع تعبيرية تتعلق بالمنتوج تارة، وبخصائصه التجارية تارة أخرى، فكانت كالآتي:

- ظهور المرأة على الشاشة تحمل جوالا

المجموعة: Favor لا تاتي، آرها ما تهدر آرها ما تهدر

- صورة الشاب وهو جالس:

المجموعة: شارجي charger 50 درهم، 50 دقيقة زايد الفايدة لا تسكت.

¹ - M. H'OUIS. Oralité et Scriptualité. In élément de recherche sur les langues africaines. AGECCOOP. 1980. p. 12.

² - Catherine KERBART ORRECCIONI. La Conversation. P07.

³ - سعيد بركاد: سيميائيات الصورة الإشهارية. ص 67.

⁴ - René CHARLES. Christine WILLIAME. La Communication orale. P 07.

⁵ - ibid. P 07.

- الرجل النائم:

المجموعة: فافور Favor، والليل والنهار، والنهار والليل تتبرع بالهدور (تكلم بلا حدود)
شارجيتو chargedto لـ 50 درهم عندكم 50 دقيقة
100 درهم، 100 دقيقة، 300 درهم 300 دقيقة وزيد.
لتشغيل الخدمة اتصلوا بـ 555.

ينطلق الخطاب الشفوي من المشاهدة كي يشعر المستمع بأنه معني بكل ما يستقبله من كلام، كما يخلق عنصر مشاهدة الآخر أو المستمع تهيئة نفسية وقابلية الأخذ، لأن طريقة المشاهدة هي جزء لا يتجزأ من الذات المتكلمة، ومن ثمة يصبح الكلام المنجز عاملاً مهماً في التأثير، فاعتمد أعضاء الفرقة المشاهدة قصد إشعار المتلقي بمكانته وحضوره.
كما اتحد الكلام الشفوي بالإشارة تأكيداً « على أنه لا يأخذ دوماً الريادة، لأن الإشارة في استطاعتها نقل ذلك من خلال مصاحبتها للكلام. كما تشكل في الوقت نفسه سنداً قوياً للخطاب أثناء الإقناع¹ ». وهي الميزة المتوفرة في

خطاب "ميديتال" حيث ترددت الإشارة طيلة المراحل الخطائية المنجزة حرصاً على تحقيق غايتين أولاهما التعريف بالمنتوج، وثانيهما البيع.
لقد بات من الصعب الفصل ما بين الخطاب الشفوي والإشارة كونها أساساً في العملية التواصلية « تزدحم بمواقف نفسية وأحاسيس يجد المرسل راحة في توظيفها للتخلص من تلك الشحنات العاطفية من خلال طرحها في المجال التخاطبي² ». وهو تواصل تغيب فيه علامات الترقيم « أمام علامات تنحدر من روح المشافهة، والمتثلة في مجموعات تنفسية متتابعة يتكفل الصوت بإرسالها، مراعيًا في ذلك التدفقات الصوتية والنبات. فيصبح في الإمكان رسم مثل هذه الخاصيات الكلامية، مثل ارتفاع صوتي/ انخفاض، وقفة قصيرة/ وقفة طويلة سريعة/ بطيئة... الخ³ ».

عمل أعضاء الفرقة على جعل الخطاب الشفوي خطاباً جاعياً مترامناً مع الفعل الإشاري. ينطلق في رحلة توضيحية تؤكد في مستهل الأمر على فعل الشراء، مع الإيضاح المتتالي على مدى الخطاب، واستغلال وقفات Pauses حلت محل علامات الترقيم، لأن التوقف الكلامي يخلق دلالة متناهية تنطلق من المهم إلى الأهم اعتماداً على الإيضاح الذي اتخذ شيئاً من الخصوصية. فقد عمل على تصوير الحدث وتقريبه من المتلقي. وفي هذا المجال جاءت الدلالة

¹ - ibid. P 08.

² - ibid. P 08.

³ - ibid. P 08.

الزمنية، وحتى التركيبية مختلفتين عن تلك الواردة في الخطاب اللساني لأن الخطاب الشفوي لا يعتمد المترادفات بقدر ما يؤكد على « ملفوظات مفرغة تصبح عاملا مسندا أثناء المشافهة »¹. وتتضح هذه الملفوظات في كل من "آ، آه،" مما يجعل البناء متينا محافظا على تماسك الجمل وتواصلها في مسار يقرّ بالعلاقة السببية التي حرص أعضاء الفرقة على تجسيدها دفاعا عن المنتج الجديد. أما اعتماد الملفوظات العاطفية فمرتبطة بنفسية المتلقي باعتبارها ملفوظات أساسية مثل (فافور، آرا ما تهر، تتبرّع...). وهي ملفوظات منفتحة على المستقبل جاعلة من ضمير المخاطب "أنت" محور العملية التواصلية. وتعد طريقة بارزة في الإستراتيجية الإشهارية « تستحضر المتلقي وتجعله معنيا، يتوقف عليه الفعل التواصل، ومنه يتحقق فعل الشراء Faire Faire »².

إنّ الملفوظات الموظفة في هذا الخطاب الإشهاري، تمثل الواقع الكلامي اليومي للفرد المغربي لكن تشكّلها في هذه الصورة ارتبط بوضع استعمالي جديد يوحي بفكرة التطوير الناشئة في ذات المجتمع حيث « تعمل اللغة على الأخذ من اللغات الأخرى من خلال إسناد العملية إلى البعد الصوتي (الفونولوجي) ليجد الملفوظ طريقه إلى اللغة أو اللهجة المستقبلية، ويصبح من أحد مكوناتها بعد تطويعه مفردة ونطقا »³. لقد استند الخطاب إلى ملفوظات تنحدر من الفضاء الكلامي اليومي مثل (تتبرّع، فافور) وغيرها من الملفوظات الأخرى. انتظمت جميعها في فضاء جديد أو كلت إليه وظيفة التعريف والبيع.

فالخاصية النطقية الواردة في الخطاب شكّلت إنجازا كلاميا يحيل على فضاء جغرافي يتمتع بتركيبته الاجتماعية والتاريخية، واللذان لهما « الأثر الواضح في خلق نمط لغوي جديد مع المحافظة على اللغة الإنسانية. يأتي ذلك لحاجات مستجدة في المجتمع »⁴. لذا، تصبح الخاصية النطقية علامة مميزة للمجتمع تتحدد من خلالها صورته في أبعادها المختلفة محدثة وضعا حضاريا يحيل على الفئة الاجتماعية المنجزة للخطاب قبل أن يحيل على المنتج، لأنّ حضور اللهجة المغربية يمثل صورة الانتماء التاريخي والاجتماعي، ومن ثمة « تحافظ اللهجة على خاصيتها النطقية دون الكناية نتيجة ارتباطها بالمخاطبة المباشرة »⁵.

¹ - Josiane BOUTET. Langage et Société. P 22.

² - ibid. P 28.

³ - ibid. P 24.

⁴ - M. H'OUIS. Oralité et Script alité. P12.

⁵ - J. C. KAUFMAN. L'invention de Soi . Une théorie de L'identité. ed. Armand Collin. 2004. P 159.

ويتسم الخطاب الشفوي بالآنية الخطائية لارتباطه الوثيق بالذات المتلقية من باب تلقائيتها وتطلعها اللائمتناهي إلى كل ما يعرض في وجهة المشاهدة كونها « خاصية تواصلية أنجزت على قاعدة مفضلة للاستقبال السمعي للرسالة »¹.

لم يتوجه الخطاب الإشهاري إلى وصف المنتج والتعريف به فحسب، بل كشف عن ملمح من ملامح الهوية نتيجة عرضه لجانب من موروث المجتمع المغربي. يتمثل في المخاطبة وما تتمتع به من خصائص تلفظية. كما يختص الخطاب الشفوي بالرؤية الآنية حيث يتحول إلى هوية سردية تلازم الخطاب المصور. ومنها يرى كوفمان (Kaufman) أن « الهوية السردية في شكلها الخالص، وفي مظهرها رصيد للحياة التي نحيها عادة »².

لقد استند الخطاب الشفوي إلى الصورة حرصا على الإيفاء بدقائق الرسالة وإشراك المشاهد من خلال التوافق الحاصل في المجالين السمعي البصري، بما في ذلك الوقفات التي تتخلل الخطاب. والتي تحمل المشاهد على المتابعة فكرا وعاطفة ميسرة الرسالة، في شكلها الكتابي المختزل للملفوظات، ذلك أن رقم 50 أو 100 أو 300 يكون لدى المشاهد أبلغ وأكثر تأثيرا منه مكتوبا. أما عن طريقة التشغيل والواردة بالفصحى فيمكن اعتبارها بالأمر الضروري لأن الإيضاح يستوجب ذلك لمخاطبته العين والفكر على خلاف الشفوي الذي يختص بالسمع. سيميائية الملبس.

إن تميز مجتمع من آخر لا يتمثل في عامل اللغة فحسب، وإنما يتعداه إلى مجموعة من المكونات الحياتية تؤلف جميعها نظاما خاصا ومستقلا لدى كل فئة كالملبس والمأكل والعمران. والتي تحمل في طياتها خصوصيات المجتمع وأبعاده الدينية والثقافية والفكرية والاجتماعية. وعن الأسباب الداعية إلى ارتداء اللباس يشير الباحث (مارك ألان ديكامب) (M. A. Descampes) إلى أن الأمر مرتبط بالوظائف المنوطة به والمتمثلة في كل من « الوقاية والحماية والزخرفة والكلام ». فخصوصية الملبس تحيل على مجموعة من المدلولات تبدأ بتعيين الوضع الاجتماعي للفرد وأبعاده الثقافية وحتى الدينية لنا يعتبر (أندري لوروا جورهان) (André Leroi Gourhan) اللباس « أداة اقتدار لدى الرجل ورمز وظيفته الإنسانية، مما جعله مجال حديث دراسي الفولكلور وكذلك الإثنولوجيين وعلماء الاجتماع »⁴.

¹ - Marc Alain DESCAMPS. Psychologie de la mode, PUF, Paris. 1979, P 98.

² - Yves DELAPORTE. Pour une Anthropologie du vêtements . Laboratoires d'ethnologie, Paris. 1981. P 31.

³ - ibid. P 33.

⁴ - ibid. P 33.

ولأجل معرفة آليات التخاطب في نظام اللباس لا بدّ من التوقف عند الدلالات المختلفة التي يحملها أو يعبر عنها كالدلالات النفسية والاجتماعية على وجه الخصوص، فضلا عن الثقافية والاقتصادية. كما يحدد الملبس جنس صاحبه، رجلا كان أو امرأة، صغيرا أو كبيرا وكذلك سنّه. «فهو يعكس الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، كارتداء قبعة الفلاح التي تختلف عن قبعة الحدّاد والحرفي»¹.

إن الملبس والصورة لم يكونا في يوم من الأيام منفصلين بل اتحدا في صورة دال مرئي نستوحي منه دلالات متنوعة، حيث جسدت اللقطات في مستهل الأمر عتبة تعريفية بالفرقة دون غيرها من خلال ملبسها التراثي وألوانه المتممة للديكور العام للمشهد² مما يخلق تداخلا وتفاعلا في الأفكار، تعمل بدورها على تعميق الإيحاءات³.

فاستقبالنا للخطاب الإشهاري هو استقبالنا لعالم افتراضي لكنّه مشدود إلى الواقع من خلال علامات تبرز البعد المعرفي للمشاهد، لها من الاستطاعة ما يمكنها أن تصبح مرجعية معرفية متعددة المشارب. إن الملبس المشاهد لا يمثل علامة عادية بقدر ما يترجم رؤية وفلسفة خاصة. فهو في مستهل الأمر «يتمتع بشيء من الاستقلالية في علاقته بالجسد كي يعمل على رسم ملامح ذات خصوصية سيميائية». فالملبس بالنسبة (لجاك فوتاني) (Jaques Fontanille) يجب أن يختص ببعض النقاط الثابتة أساسها التواصل المستمر مع الجسد والأعضاء المشكلة له من رقبة ومقاس وخصر... الخ. والتي تجعل منه دوما ملبسا⁴. لقد ربط الباحث منطلقات الملبس الأولية بالجسد معتمدا في ذلك على رأي (ديدي أنزيان) (Didier Anzien) الذي يعتبره العتبة الثانية بعد الجلد. كون هذا الأخير المصقّي والمرشّح لكل ما يرد من خارج الجسد على أن تتوجه الدراسة إلى الحقل السيميائي الذي يضم الشكل والعبارة.

فالخطاب الإشهاري، وإن كان يقوم على الإيهام واختراق الواقع وتمثل الأفضل، يظل مرتبطا بعلاقات خفية تتجسد داخلها العديد من الرؤى والمواقف كشكل الملبس ولونه ذي الدلالة الثقافية والاجتماعية نتيجة إحالته على صورة المجتمع المغربي كونه ينطلق من دلالة أولية تعرف بالثوب الواقي للجسد لكنها تأخذ طابع الخصوصية من حيث الاستعمال، لأن استقبالنا للملبس هو استقبالنا للمجتمع له من خصائص الملبس ما يجعله مجتمعا متميزا في إبداعه. إن مفهوم المودا أصبح مرتبطا بتصورات وإبداعات المجتمع وفق الواقع المعيشي إذ يرى بارت أن المودا

¹ - Jaques FONTANILLE. Soma et Sema. Figures du Corps. P 150.

² - ibid. P 150.

³ - Roland BARTHES. Système de la mode. Paris. Seuil. 1967. P 136.

⁴ - ibid. P 112.

تحمل أبعادا ثقافية غير تلك النفسية. ومن باب التمثيل أشار إلى « أنّ التغطية أو الستر "voilant" عبارة عن رؤية ثقافية، بينما هي من منظور نفسي تعني القناع»¹. وإذا كان الخطاب اللساني يتمتع بتمفصله، فإنّ الملبس بدوره لم يشذ عن هذه القاعدة نتيجة العلامات الجزئية المشكّلة له، والمتمثلة في كل من الحذاء والجبة والقبعة. وهي علامات تحيل على دلالات مغايرة في وضعها للأفراد لتتصهر في بناء اختياري يجعلها تتواصل مع بعضها، مفرزة ما يعرف بالكلام المعبر عن الذات المبدعة وما تتمتع به من خصوصيات اجتماعية وثقافية وفكرية وإيديولوجية، مما يعرّس على الباحث حصر وظائف الملبس ودلالاته. إنّ العلامات الممثلة للملبس انتظمت في محورين، الأول تألّيفي والذي يضم العلامات من حيث انسجامها وتناسقها وفق خصائص فنية، لتنتفح على فضاءات مختلفة في محورها الاختياري حيث لا يتعلق الأمر بالارتباط والانتظام في العلامات المشار إليها، وإنما تتوجه الدراسة إلى الفضاءات التي يفتتح عليها الملبس والتي تنطلق في بادئ الأمر بعلاقته بالجسد، ومن ثمة علاقة كل فرد من المجموعة بالآخرين. فيرتسم تواصل جديد ما بين المجموعة والمجموعات الأخرى مفرزا ملامح اجتماعية جنسية وإيديولوجية للذات المغربية وسعت إلى تصديرها إلى الآخر.

ويعد اللون عاملا بارزا في تشكيل اللباس حيث طغى اللون الأحمر في الوقت الذي ظهر فرد واحد من المجموعة باللون الأخضر، مما يجعل دلالة الملبس تنفتح على البعدين الإيديولوجي والفني. ذلك أن العلامتين اللونيتين تحيلان على العلم المغربي. وفي هذا النوع من الإحالات يضيق فضاء التأويل نتيجة اعتماد أعلام الألوان على فكرة التواضع أو الاتفاق. ومن منظور موازي نجد أنّ اللون الأحمر يتوفر في " اللوغو " مجسّدا التطابق خاصة وأنّ اللون الأحمر من أقوى الألوان الحارة، تتمتع بدلالاته النفسية التقنية من قوة وحيوية، مع حمله لدلالات رمزية تتجلى في الطموح والسودد. غير أنّ سيطرة اللون الأحمر فسحت مجال التعبير للونين الأخضر والأبيض ليحدث ما يعرف بالتمفصل اللوني. وهي تقنية مهمة في عملية المخاطبة المرئية كون اللون الأحمر جذاب ومؤثر يشد العين. فقد تعدد في لباس الفرق في حين توفر اللون الأخضر في ملبس واحد ليمثل فترة استراحة لعين المشاهد المشدودة إلى الأحمر.

* يعد الاهتمام بدراسة الحركة قديما حيث ارتبط بأبحاث داروين في كتابه « التعبير عن

المشاعر لدى الإنسان والحيوان » سنة 1873. L'expression

أما الباحث راي « Des émotions chez l'homme et l'animal »

¹ - M. DERIBERE, La Couleur dans la publicité. Et la vente. P 91.

برويستال Ray BIDWISTHELL فقد استطاع أن يرسي دعائم هذا النوع من الدراسة سنة 1952 معتبرا الحركات مظاهر تواصلية منتظمة لتصرفات الإنسان حيث يقول «إننا نلاحظ تنوعا من الحركات منها الاسمية المتصلة بالتضاد الحاصل ما بين الأسماء، هو/ أنا، هذا / ذاك. كما أن الحركة نفسها تعمل على توسيع العلامة الحركية الاسمية فنحصل على علامات متعددة نحن أتم، هم. وبالمقابل نجد علامات فعلية ترتبط بالزمن فضلا عن علامات حركية أخرى مرتبطة بالوضعيات، مثل فوق/تحت، أمام/وراء»¹.
تم تصنيف دراسات تحليل الخطاب إلى أربعة تيارات كبرى:

أ - المقاربة النفسية العصبية. Approche Psychologie Psychiatrique. ويزعم هذا الاتجاه مدرسة (Paolo ALTO) حيث اهتمت بمعالجة الجوانب النفسية انطلاقا من ألوان التخاطب وما يصاحبه من اضطرابات وغيرها.

ب - المقاربة الأنثوسوسيولوجية. Approche Ethnosociologique ويمثل هذا الاتجاه كل من (هيس وجامبرس) D. HYMES. J. GUMPERS إذ يريان أن أمر المخاطبة لا يتوقف على القدرة والكفاءة اللغوية حسب ما ذهب إليه شومسكي، وإنما تتطلب أيضا القدرة على تسيير الاستعمال السليم للإمكانات التي تنتجها اللغة. فالقدرة اللسانية يجب أن تؤخذ في فضاء أوسع يستجمع المعرفة اللغوية الاجتماعية والثقافية. وهي عوامل تمكن الفرد من التواصل السوي، فضلا عن مقاربات اجتماعية أخرى ممثلة في أعمال (لابوف) (W. LABOV) (وفيشهان وتريب) (J. FISHMAM. S. E. TRIAB) وعلى وجه الخصوص (قوفمان) (G. COFFAMAN) الذي أكد على ما يعرف بالأدب التفاعلي.

ج - المقاربة اللسانية: L'Approche Linguistique

وفي هذه المقاربة اهتمت اللسانيات بالتخاطب في مرحلة متأخرة أرجعتها الباحثة أوريوني إلى اللانينيات، نتيجة اتجاه اللسانيات في بادئ الأمر إلى المكتوب لتستدرك ذلك مع مدرسة جينيف (l'école de Genève). وكذلك الدراسات القائمة في الجامعات الفرنسية.

د - المقاربة الفلسفية: L'Approche philosophique

يتزعم هذا الاتجاه سيرل وأوستن (SERLE et OSTEN) رائد الفلسفة التحليلية الأنجلوسكسونية. واللذان أعادا التشكيل الكلامي من خلال التصور "القول هو الفعل" Dire c'est Faire، كما ظهرت دراسات أخرى متعلقة بالتخاطب لكل من (وتيهانشتاين) (L. WITTHENSTEIN) مؤسس لعبة الكلام JEU DE LANGAGE وكذلك (فريس) (H. P. GRISE) صاحب مؤلف (Maximes Conversationnelles). كما برز في هذا النوع

¹ - ينظر: Pierre GUIRAUD. La Sémiologie. p 103

من التحليل (ف جاك) (F. JAKES) الذي درس الشروط الممكنة للتواصل في شكله العام، وهي ذات انعكاس بياني حيث تقترح¹ عددا معينا من الآليات المستعارة من علم الدلالة ونظرية الألعاب الملائمة للوصف التخطي.

¹ ينظر: Catherine KERBART ORECCIONI, La Conversation, P 13,14.

قراءة في ماهية إرادة الاقتدار عند نيتشه

د. فوزية ضيف الله/جامعة تونس المنار

1- تمهيد:

هل إنَّ إرادة الاقتدار في حاجة حقًا إلى أن تعرّف¹؟ ألا يبدو أنَّ هذه "الكلمة" على غاية من البدهة؟ كيف سيعرّف هيدغر ما يقرّ بامتناعه عن التعريف؟

يذكر هيدغر ضمن «كلمة نيتشه "لقد مات الإله"» (1943) أنَّ عبارة "إرادة الاقتدار" اسم يطلق على كلمة أساسية في فلسفة نيتشه، بل هي التي تدفعنا إلى تسمية فلسفته "ميتافيزيقا إرادة الاقتدار". يذكر نيتشه هذه العبارة لأول مرة ضمن القسم الثاني من هكذا تحدّث زرادشت (*Also sprach Zarathustra*) الذي نشر في السنة التي تلي نشر المعرفة المرحّة (*Die Föhrliche Wissenschaft*)، أي سنة 1883، ويؤكد هيدغر أنَّ السياق الذي ذكرت فيه عبارة "إرادة الاقتدار" هو السياق الذي يمكن فهمها.

*- الملخص:

كيف يمكن أن نعرّف إرادة الاقتدار النيتشوية إذا كانت على غاية من البدهة؟ هي "كلمة أساسية" في فلسفته اعتملتها البدهة إلى أن صارت كـ "المضغة" على كلّ لسان، تتناقلها الألسن والكتب والقراءات غير عابئة بما يمكن أن تدلّ عليه دون أن تعنيه حقًا، وما يمكن أن تعنيه دون أن تصرّح به علنا. من المعلوم أنَّ "إرادة الاقتدار" هي عنوان أثر متخلف لنيتشه، تجادل الفلاسفة أيما جدل بشأن نسبته إلى الفيلسوف، فكان ثمة من يقرّبونه مؤلفًا مركزيًا في مؤلفاته (هيدغر) ومن ينفي ذلك ويعتبره أثرًا محرّفًا من صنع أياد دبرت حياكته وتحريفه (شليشته). فماهي سمات إرادة الاقتدار عند نيتشه من جهة ماهي "كلمة أساسية" أولًا، ومن جهة ماهي "أثر" ثانيًا؟ كيف تناول هيدغر هذه "الكلمة"؟ وأي علاقة يمكن أن تشدّ الإرادة إلى الاقتدار؟ هل يعنينا حقًا الأمر نفسه؟

إنَّ غاية البحث في "سمات" إرادة الاقتدار هو إبعادها عن القراءات الأيديولوجية التي جعلتها في علاقة بالأنظمة النازية، بدعوى أنَّها تشرّع للقوّة، والعنف، وانتقائية العناصر. لذلك يعترض هيدغر على محاولة تحويل إرادة الاقتدار مدعاة لقيام القراءات الأيديولوجية لنيتشه والتي قد تصل إلى حدّ الإقرار بمناهضته للنظام النازي. أي أنّه يواجه قيام القراءات التي استغلّت عدم استكمال نيتشه لأثره المشروع وعدم إشرافه على طبعه بنفسه.

الكلمات المفتاحية: إرادة الاقتدار، القوّة، نيتشه، هيدغر، النازية، الأيديولوجيا، الميتافيزيقا، الوجود، الماهية.

¹- لقد ترجمنا العبارة الألمانية (Macht) بـ "الاقتدار" بالنظر إلى العيوب الممكنة الأخرى في الترجمات المختلفة لهذه العبارة. إذ لا يمكن أن تترجم بـ "القوّة" مثلاً لأنَّ القوّة هي "Kraft" في الألمانية، والمعاني التي تحيل عليها "Macht" غير المعاني الواردة في "Kraft".

"حيثما ثمة حياة، ثمة إرادة اقتدار. . ."¹. يعني ذلك أنّ إرادة الاقتدار تتعلق في مستوى أول بالحياة في حد ذاتها. فكيف يمكن لنيته أن يعترف إرادة الاقتدار في حد ذاتها؟

لقد أشار هيدغر في كتابه اكتمال الميتافيزيقا والشعر (*Einleitung in die Philosophie*. *Denken und Dichten*, 1990) إلى أنّ إرادة الاقتدار ليست في حاجة إلى أن تعترف، فهي على غاية من الوضوح والبداهة، ونظرا لكونها بديهية، لا يرى أنّ تعريفها أمرا ضروريا. إنها لا تطلب حدّا ولا تطلب تفسيراً²، غير أنّ هيدغر حاول إعطاءها الحدّ التالي: إنّ إرادة الاقتدار هي بكلّ وضوح النزوع نحو إمكانية مباشرة القدرة، إنها تتمثل في أن نأمل في اكتساب القوة³.

أمّا في نيته الأول (*Nietzsche I*, 1961)، فيبين هيدغر أنّ في عبارة "إرادة الاقتدار" ما يشير إلى كونها تتكفل بوظيفة مزدوجة: أولاً، ترمز إلى عنوان الأثر النيتشوي الهامّ إرادة الاقتدار (*Der Wille zur Macht*)، وهو الأثر الذي يشهد الكلّ بكونه أثرا لاحقا على نيته، أي مات قبل نشره (*Nachlass*)⁴. ثانياً، تكون إرادة الاقتدار الخاصية الأساسية لكلّ موجود. فتشير إلى ما هو أساسيّ ضمن أيّ شيء موجود، بل تتكفل وحدها بالإجابة عن كلّ الأسئلة التي تبحث في ماهية الوجود⁵. إذن، كلّ موجود هو «إرادة مقتدرة» أو يشير إلى "إرادة الاقتدار".

إنّ هذا التعريف الذي يقدمه هيدغر في نيته¹، هو نفسه الذي يقترحه في نيته الثاني (1961)، وكذلك في اكتمال الميتافيزيقا والشعر. إذ يشير في نيته² إلى أنّ إرادة الاقتدار ترمز إلى وجود الموجود من جهة ما هو كذلك، أي إلى ما تتقوم به ماهيته⁶، كما يؤكّد في اكتمال الميتافيزيقا والشعر على أنّ "ما هو أساسيّ في إرادة الاقتدار، لا يمكن مساءلته ولا يمكن التفكير بأمره إلا ضمن منظورية الموجود من جهة ما هو كذلك، أي ميتافيزيقياً"⁷. لكأنّ هيدغر يهيئ الأرضية التي سوف تقوم عليها قراءته "لكلمة" نيته الأساسية: فإذا أردنا أن

¹- Heidegger, « Le mot de Nietzsche " Dieu est mort " », Chemins qui ne mènent nulle part, Paris, Gallimard, 1962, pp.281-282.

²- انظر، هيدغر، اكتمال الميتافيزيقا والشعر، الترجمة الفرنسية أدلين فرواد كور (Adeline Froidecourt)، باريس، غاليمار، 2005، ص. 15. لا نشير إلى ترجمة عربية بل نحن بصدد الاعتماد على الترجمة الفرنسية. ينبغي الإشارة إلى أنّ هيدغر عندما يتحدّث عن بداهة إرادة الاقتدار، يذكرنا بحديثه عن بداهة مفهوم "الوجود" في الوجود والزمان، حيث يشير في مقدّمة هذا الكتاب إلى أنّ مفهوم الوجود هو المفهوم الأكثر عموميّة، الأكثر بداهة، لذلك يرى أنّه لا يعرف.

³- Volonté de puissance est sans ambiguïté le fait de tendre vers la possibilité d'exercer un pouvoir, le fait d'aspirer à la possession de la puissance » - المصدر نفسه، ص. 15.

⁴- هيدغر، نيته¹، ترجمة بيار كلوسفسكي، باريس، غاليمار، 1971، ص. 13-14.

⁵- المصدر نفسه، ص. 13-14.

⁶- هيدغر، نيته²، ص. 209.

⁷- هيدغر، اكتمال الميتافيزيقا والشعر، ص. 18. (الترجمة الفرنسية)

نفهم ما هو أساسي في إرادة الاقتدار، علينا أن نتحسب من كون أن ما هو أساسي فيها يقع على أرض الميتافيزيقا، أي لا يمكن مساءلته إلا من جهة الموجود الذي هو نفسه "إرادة اقتدار".

لا يمكن أن يكون نظرنا إلى الموجود خارجا عن الميتافيزيقا، فما تحدده هذه المنظورية هو الموجود نفسه. فتبين إذن أن إرادة الاقتدار هي "الماهية الأكثر حمية للوجود"¹. لذلك يعتمد نيتشه ضمن الشذرة 693 من كتابه إرادة الاقتدار إلى الإقرار بأن "الإرادة هي ماهية الوجود الأكثر عمقا"².

إن إرادة الاقتدار هي "إرادة موجهة نحو الاقتدار"³، بمعنى أنها تسعى إلى بلوغ الاقتدار وإلى امتلاكه. وعندما كانت إرادة الاقتدار ساعية إلى إدراك الاقتدار إدراكا على سبيل امتلاكه، كانت تنشده وتنزع إليه نزوعا يجعلها تنهيا في كل مرة أكثر لتكتسب القدرة اللازمة لبلوغه. لذلك تبدو في حالة الترقب والانتظار لما ليس لها بعد، وتكون على غاية من الشوق لما تنشده. إنها "تأهيل لاكتساب الاقتدار المكمل الذي يسمح لها بتجاوز الاقتدار الذي تمارسه من قبل"⁴. غير أن الاقتدار الذي هي عليه غير الاقتدار الذي تصبو إليه، فهي اقتدار متجه نحو اقتدار آخر على غاية من الاكتمال. ألا يبدو أن إرادة الاقتدار هي "اقتدار الاقتدار"⁵؟

أن تكون إرادة الاقتدار "اقتدار الاقتدار" هو أن تكون اقتدارا أوليا ينزع إلى الاكتمال. لذلك يكون الاقتدار الأول مختلفا عن الاقتدار الثاني، بمعنى أن الأول متجه نحو الثاني، فالأول هو المتحكم والثاني هو المتحكم فيه.⁶ لذلك يلج هيدغر على جعل ماهية الإرادة التي تقم على أرضية الاقتدار متمثلة في كونها "أمرا مكتفا"⁷. إن في التحكم (Befehl) ما يحيل على الأمر والنهي أي على مباشرة القدرة. عندئذ، يرى هيدغر أن الإرادة يمكن أن تفهم في هذا السياق من جهة كونها "إرادة الإرادة" (Der Wille zur Wille)، أي "إرادة موجهة نحو الإرادة"⁸.

¹- Nietzsche, Volonté de puissance, Trad. G. Bianquis, Paris, Gallimard, 1948, Chap. 2, §54, p.217.

²- المصدر نفسه، الموضع نفسه.

³- هيدغر، اكتمال الميتافيزيقا والشعر، ص. 15. (الترجمة الفرنسية)

⁴- المصدر نفسه، ص. 21. الترجمة من عندنا la puissance qui permet de dépasser la puissance déjà exercée (...).

⁵- عبارة "اقتدار الاقتدار" يذكرها هيدغر في كتابه اكتمال الميتافيزيقا والشعر في الصفحة الحادية والعشرين.

⁶- المصدر نفسه، الموضع نفسه.

⁷ - Heidegger, Achèvement de la métaphysique et philosophie, p. 21: «...au sein de ce foyer de la puissance, l'essentiel de la volonté reste bien fixé en sa consistance comme commandement».

⁸- المصدر نفسه، الموضع نفسه: «volonté orientée vers la volonté».

ينبغي الإشارة إلى أن هيدغر تعرض إلى عبارة "إرادة الإرادة" في محاضرة "تجاوز الميتافيزيقا".¹ فما المقصود "إرادة الإرادة"؟ ما معنى "اقتدار الاقتدار" (Macht zur Macht)؟ تعني إرادة الإرادة، "التجلي الممكن لوجود الموجود"². إنها تقاوم كل شيء وتقوده نحو اكتمال الإرادة في غياب أي تدخل للقدر. لذلك تفرض كل الأشكال الأساسية التي تسمح لها بالتجلي، بحيث إن الشكل الأساسي الذي يراه هيدغر مناسباً لإرادة الإرادة هو التقنية (technique)، لأن التقنية هي التي تمكن الإرادة من احتساب آليات التجلي والظهور وتنظيمه. ففي عمليات الاحتمال تتقوم لا تاريخية العالم ولا تاريخية الميتافيزيقا المكتملة³. كما يعين إرادة الإرادة أفقا ملائماً لانبجاس ميتافيزيقا نيتشه. فهي تمثل المرحلة المتأخرة التي تجعل من موجودية (seindheit) الموجود قادرة على بعث إرادتها ومباشرتها من جهة كونها إرادة الإرادة⁴.

لا تقبل إرادة الإرادة أي شكل من أشكال الغايات وإن كانت غاية في ذاتها، فهي لا تسمح بأن تجعل لنفسها غاية إلا إذا أخذت شكل الوسيلة. فهذه الإرادة هي غاية في حد ذاتها، وهي اكتمال الجهد وتحقيق الغاية المنشودة. لذلك لا يتصور هيدغر إرادة غير واعية، فالإرادة الواعية بذاتها وعيا مطلقا هي التي تكون غاية ذاتها، فتحقق الغاية يكون مبطناً ضمن المفهوم⁵.

أما "اقتدار الاقتدار" فهو اقتدار ينزع إلى اقتدار أكمل وأعمق. يظل الاقتدار دوماً "اقتدار الاقتدار" وتظل الإرادة دوماً "إرادة الإرادة"⁶. بيد أن هيدغر يتساءل عن الكيفية التي نتكنا من فهم إرادة الاقتدار على الصورة التي تجعل هذا الفهم يتلاءم مع مقصد نيتشه⁷.

يلاحظ هيدغر أن نيتشه لم يطالب في التحدث عن إرادة الاقتدار في آثاره التي نشرها بنفسه، بحيث إن هذه "الكلمة الأساسية" لم تظهر إلا في الكتابات المنشورة بعد وفاته وإن كان أول ما تحدث عنها كان في الجزء الثاني من هكذا تحدث زرادشت (1883)⁸. غير أن

¹ - هيدغر، «تجاوز الميتافيزيقا»، محاولات ومحاضرات، باريس، غاليمار، 1958، ص. 91. (الترجمة الفرنسية)

² - المصدر نفسه، ص. 91.

³ - المصدر نفسه، ص. 93. (Étantité) هي العبارة الفرنسية ونقترح ترجمتها بـ "موجودية".

⁴ - المصدر نفسه، ص. 92.

⁵ - المصدر نفسه، ص. 103. «La volonté de puissance nie toute fin en soi et ne tolère aucune fin si ce n'est comme moyen, afin de vaincre elle-même au jeu, délibérément, et d'organiser un espace pour ce jeu.»

⁶ - المصدر نفسه، ص. 102.

⁷ - هيدغر، اكتمال الميتافيزيقا والشعر، ص. 21.

⁸ - المصدر نفسه، ص. 18.

⁹ - لقد وردت عبارة "إرادة الاقتدار" غير مكتملة ضمن نص "الصنم الجديد" (De la nouvelle idole) من هكذا تحدث زرادشت (القسم الأول). فوردت العبارة الدالة على "الإرادة" في صيغة الفعل المسند إلى ضمير الجمع الغائب (هم) فيقول زرادشت: «Ils veulent la puissance et avant tout le levier de la puissance, beaucoup d'argent, - ces impuissants !» ثم وردت عبارة "إرادة الاقتدار" مكتملة في نص "ألف هدف وهدف" (Mille et un buts) دون أن يحاول نيتشه تعريفها أو تقديمها على أنها "كلمته

نيتشه في هذا الأثر لم يعلن بعد إرادة الاقتدار "كلمة أساسية" (Der Grundgedanke)، إذ تعني في هذا المستوى "الخاصية الأساسية للحياة"، فهي إذن "إرادة من أجل الحياة"¹. كل ما هو حياة هو إرادة اقتدار²، وفي نص "الانتصار على الذات" من هكذا تحدث زرادشت، يكتب نيتشه: "حيثما وجدت شيئاً ما حياً، عثرت على إرادة الاقتدار، وحتى في إرادة من هو خاضع، تعثر أيضاً على إرادة من يريد أن يكون سيّداً"³. فإذا كان ثمة من يريد، فهو يريد أن يكون مهيماً أي سيّداً، فتكون إرادة الاقتدار إرادة التحكم (Befehl)⁴. لذلك يتصور هيدغر أنّ من يتحكم هو في الحقيقة أرفع من نفسه لأنه يخاطر بها، إذ في التحكم ما يدلّ على تجاوز الذات وإن كان فعل التجاوز أشدّ عسراً من فعل الخضوع نفسه، إنّ الذي يكون قادراً على التحكم في نفسه بنفسه حريّ بأن يكون متحكماً في غيره. لا يزال نيتشه في هذه المرحلة متأثراً بشوبنهاور (Schopenhauer)، إذ يكتب هو الآخر في كتابه العالم كإرادة وكمثل (Die Welt als Wille und Vorstellung, 1819): "(...) حيثما ثمة الإرادة، ستكون هناك حياة (...) "⁶. غير أنّ نيتشه تجاوز شوبنهاور فيما بعد، وهو ما يدعم أهمية قراءة نيتشه من خلال آثاره المتخلّفة التي تؤكد هذا التجاوز.

الأساسية". حيث يقول زرادشت: "a. qu'il a". (التشديد من عندنا). أما ضمن نص "الانتصار على الذات" (De la victoire sur soi-même) المتني إلى القسم الثاني من هكذا تحدث زرادشت، فقد وردت عبارة "إرادة الاقتدار" ثلاث مرات على التوالي: أ- "لقد أقيمت إرادتكم وقيمكم في غير الصبرورة، غير أنّ إرادة اقتدار قديمة كشفت لي ما يعتقد الشعب من خير وشر". (الترجمة من عندنا) ب- "أنها الحكماء، ليس التهر هو الخطر وليس نهاية لخيركم وشركم. (...): بل [يكمن الخطر] في هذه الإرادة نفسها، إرادة الاقتدار، - الإرادة الحية، الدائمة والخالقة". (الترجمة من عندنا) ج- "لا توجد الإرادة إلّا حيثما وجدت الحياة: على الرغم من أنّه لا وجود لإرادة حياة، لكن- ما أعلمه- [هو] إرادة الاقتدار". (الترجمة من عندنا) نلاحظ في هذا المستوى الثالث أنّ نيتشه يوضّح ارتباط إرادة الاقتدار بالحياة، فهي لا يمكن أن تعني إرادة للحياة كما هو الحال عند شوبنهاور وإن كانت على ارتباط وثيق بالحياة فعلاً.

¹ - هيدغر، اكتمال الميتافيزيقا والشعر، ص. 19.

² - هيدغر، نيتشه 2، ص. 215.

³ - Nietzsche, Œuvres complètes, Tome VI, Ainsi parlait Zarathoustra, Un livre pour tous et pour personne, Textes et variantes établis par Giorgio Colli et Mazzino Montinari, Traduit de l'allemand par Maurice Gandillac, Paris, Gallimard, 1984, § De la victoire sur soi-même, p. 106: « Partout où j'ai trouvé quelque chose de vivant, j'ai trouvé de la volonté de puissance ; et même dans la volonté de celui qui obéit, j'ai trouvé la volonté d'être maître ».

⁴ - هيدغر، اكتمال الميتافيزيقا والشعر، ص. 19. "التحكم" هو المقابل العربي الذي نترجم به العبارة الفرنسية (commandement)، والأصل في الألمانية هو "Befehl"، راجع، هيدغر، Nietzsche, Erster Band، ص. 35.

⁵ - المصدر نفسه، ص- ص. 19-20

⁶ - Schopenhauer, Le monde comme Volonté et comme représentation, Traduit en français par A. Burdeau, Paris, Librairie Félix , Alcan, 1966, Tome I, Livre IV, § 54, p.287: « (...) partout où il y a de la volonté, il y aura de la vie (...) ».

يصرح هيدغر في نيتشه² أن إرادة الاقتدار تعني إرادة الماهية (Wille wesen) ويعترض على إمكانية أن تكون الإرادة جانباً ما من الواقع، لأنها تتعلق بالوجود وبماهية الموجود (Seinde)، إنها الماهية نفسها¹. فيفهم إرادة الاقتدار على أنها ماهية الاقتدار نفسه². إذ ليست الإرادة في علاقة تخارج مع الاقتدار ولا تتعلق بأمر يخرج عن ذاتها، بل تحمل في ذاتها ماهية الاقتدار دوماً وتكون في علاقة حميمة معها³. لذلك تظل غاية الإرادة بلوغ ماهية الاقتدار نفسها، فلا تكون الإرادة إرادة إلا ضمن ماهية الاقتدار⁴. إن هذه الحميمة التي تشد الإرادة إلى الاقتدار، هي نفسها التي تشد الإرادة إلى الوجود، فهي الماهية الأكثر حميمة⁵.

عندما كانت إرادة الاقتدار في حالة نزوع دائم نحو الاقتدار، صارت في موقف المنتظر لما ليس له بعد، أي إنها تبذل ما بوسعها لاكتساب الاقتدار المكتمل. بيد أن ذلك يشترط امتلاكها الأولي والتدريجي لقدر من القوة (Kraft)، أي ينبغي أن تكون مستعدة لمباشرة العنف وتجاوز حالة العوز والحرمان. فشعورها بنقص في الاقتدار أو حرمانها منه يجعلها مندفعة ومتحمسة لامتلاك ما ليس لها بعد. لذلك تكاد تكون الإرادة "تمرنا على العنف" (Gewahlt) إذا تمسكت بنيل مبتغاها⁶. يفرق هيدغر بين "إرادة نحو..." ("Der Wille « zur »") من جهة و"الاقتدار" من جهة ثانية لأن "إرادة نحو..." تأمل في اكتساب الاقتدار دون أن تمتلكه بعد. إذ ليست الإرادة اقتداراً ما دامت لم تستطع امتلاكه⁷. وبالتالي لا تعدو إرادة الاقتدار أن تكون "اقتداراً قادراً على الاقتدار"⁸، فالإرادة هي تجاوز (Überwindung) للاقتدار الذي هي عليه نحو الاقتدار الذي ترغب في أن تصيره.

يبدو هيدغر دائماً السؤال والبحث عن الطريقة التي ينبغي أن نفهم وفقها إرادة الاقتدار عند نيتشه. وفي هذا السياق، لا ينصحنا بأن نعول على مختلف الشروح التي حاولت فهم فلسفة نيتشه لأنها ستكون حائلاً دون إمكانية التوصل إلى الفهم الأصيل. فمن له الجرأة الفكرية والتحسس الفلسفي هو القادر على خوض غمار القراءة بنفسه دون الاستئناس بما كتبه الشارحون لنيتشه¹. لذلك ينصحنا هيدغر بقراءة آثار نيتشه كما هي دون أن نفكر في التوجه

¹- هيدغر، نيتشه 1، ص. 62.

²- هيدغر، نيتشه 2، ص. 11.

³- المصدر نفسه، الموضع نفسه.

⁴- المصدر نفسه، ص. 212.

⁵- المصدر نفسه، الموضع نفسه.

⁶-Heidegger, Nietzsche II, p. 212: « La Volonté de Puissance est sans équivoque une aspiration à la possibilité d'exercer la violence ».

⁷- المصدر نفسه، الموضع نفسه.

⁸- المصدر نفسه، ص. 214.

إلى طلب المساعدة ممن يدعون أنهم قد توصلوا إلى الفهم الذي يغني عن غيره من القراءات، غير أنّ ما يجعل فهم إرادة الاقتدار مستعصيا هو كون نيتشه لم يتحدث مليّا عن هذه "الكلمة الأساسية" في الآثار التي نشرها بنفسه. أي أنّ نيتشه في هذه الآثار، لم يتحدث بعد عن إرادة الاقتدار من جهة ماهي "كلمة أساسية"، فهو لم يتجاوز تسميتها فحسب². كما يرى أنّ نيتشه يؤوّل إرادة الاقتدار بـ"سيكولوجيا من جهة كونها ملكة (Faculté) من ملكات النفس". غير أنّ نيتشه يجعل من ماهية علم النفس متلازمة مع ماهية إرادة الاقتدار³. إذ يعتبر علم النفس مذهباً أو مورفولوجيا تدرس تطوّر إرادة الاقتدار⁴.

لقد اعتمد هيدغر في قراءته لإرادة الاقتدار على الأثر الرئيسي⁵ الذي يحمل عنوان إرادة الاقتدار، ويذكر منذ البدء أنّه سيحيل قراءته على هذا الأثر أساساً⁶. يرفض كارل يسبرس (Karl Jaspers) فكرة الحديث عن أثر أساسي عند نيتشه، بل إنّه لا يرى أيّ أثر من آثاره يمكن أن يكون مركزياً. كما يشير يسبرس أنّ ما يتصوّره نيتشه أساسياً إنّما يتجلى في ماهو عرضي وغير أساسي⁷. سيتعيّن على هيدغر أن يقرأ هذا الأثر حتّى يتتبع المراحل التي انتهجها نيتشه عندما قاده فكره إلى اكتشاف إرادة الاقتدار⁸. بيد أنّ المشكل يكمن في كون هذا الأثر المعتمد أثراً ساهم نيتشه في إعداده دون أن يعايش عملية نشره أو يأذن بها. لذلك ظلّ الأثر متكوّناً من شذرات منفردة ومنعزلة لم يعطه نيتشه بنية ثابتة، إضافة إلى أنّه أثر كان قد تعدّدت تخطيطاته (من 1884 إلى 1888)⁹.

يشير هيدغر نفسه إلى أنّ نيتشه كان قد غيّر تخطيط سنة 1888 تغييراً كلياً¹⁰. لذلك هذا الأثر مدعاة للشكوك، فالبعض يقرّ بنسبته إلى نيتشه والبعض الآخر يشكّك في ذلك ويعتبره من اختلاق أخت الفيلسوف وأحد أصدقائه وهذا الموقف يمثله خاصّة شليشته

¹ -Heidegger, Nietzsche I, p. 19: « Qui n'a le courage ni l'endurance de la pensée pour s'absorber dans les œuvres mêmes de Nietzsche n'a pas besoin non plus de rien lire sur Nietzsche ».

² - هيدغر، نيتشه 2، ص. 212.

³ - المصدر نفسه، الموضع نفسه.

⁴ - المصدر نفسه، ص. 237.

⁵ - في بعض المواضع يعتبر هيدغر هكذا تحدّث زرادشت الأثر الرئيسي لنيتشه. (نيتشه 1، ص. 375).

⁶ - يشير هيدغر في بعض المواضع إلى أنّ أثر "إرادة الاقتدار" هو الأثر الرئيسي عند نيتشه. (نيتشه 1، ص ص 18-20-21-321).

⁷ - Karl Jaspers, Nietzsche introduction à sa philosophie, Paris, Gallimard, Trad. Henri Niel, Lettre préface de J. Wahl, 1950, p. 13.

⁸ - هيدغر، نيتشه 1، ص ص 379-380.

⁹ - المصدر نفسه، 321-327.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص. 22.

(Schlechta). أما هيدغر فإنه يعتبر ذلك مجرد ادعاء لا أساس له من الصحة خاصة وأن هذا الموقف الذي يشكك في وجود أثر لنيتشه عنوانه "إرادة الاقتدار"، هو موقف يتعارض مع الأشغال التحضيرية التي أعدها نيتشه نفسه لهذا الأثر وتتعارض كذلك مع ما تشهد به آثاره التي نشرها بنفسه وبعض رسائله. ينبغي علينا إذن أن نعين ولادة هذا الأثر ونستوضح ظروف ظهوره.

2- إرادة الاقتدار: الأثر.

لقد نشرت الطبعة الأولى من هذا الأثر سنة (1901) إثر الموت المفاجئ الذي وافي نيتشه سنة (1900) وترجمه إلى الفرنسية هنري ألبار (Henri Albert) سنة (1903) ونشرت الطبعة الثانية سنة (1906). لقد مثلت الطبعة الأولى المجلد الخامس عشر من الطبعة الضخمة غروس-أوكناف (Gross-Oktav-Ausgabe)، وكان قد نشرها كلٌّ من بيتر غاست (Peter Gast) وإرنست وأوغوست هورنفر (August Ernst Horneffer)¹، واحتوت هذه الطبعة على 483 شذرة مرقمة منها اثني عشر شذرة كان قد أعاد طبعها كولي ومازينو منتيناري (Giorgio Colli, Mazzino Montinari) ضمن المجلد الثاني عشر من الآثار الكاملة لنيتشه. أما الطبعة الثانية فإنها تتوافق مع الطبعة النهائية لإرادة الاقتدار وقد استقرّ نشرها ضمن المجلد الخامس عشر (من الصفحة 129 إلى الصفحة 489) وكذلك ضمن المجلد السادس عشر (من الصفحة 1 إلى الصفحة 402). كما أعاد أوتو فايس (Otto Weiss) نشر هذين المجلدين سنة 1911 ضمن الطبعة الضخمة غروس-أوكناف² وأوسغاب³.

يشير هيدغر نفسه إلى أنّ الطبعة الأولى لإرادة الاقتدار احتوت على 483 شذرة مرقمة وأنّ الطبعة الثانية التي حافظت على نفس التخطيط (تخطيط 17 مارس 1887)، احتوت على 1067 شذرة مرقمة أي ضعف ما احتوته الطبعة الأولى³. ما ينبغي الإشارة إليه هو أنّ هذا الأثر ظلّ على حاله شتاتاً من الشذرات، إذ لم يكتمل أيّ قسم من أقسامه الأربعة. لذلك يجد الناشر نفسه أمام مهمة على غاية من العسر، إذ لا تتوفّر لديه إلاّ تخطيطات متعدّدة

¹ - Elle est parut sous le titre suivant: Der Wille zur Macht, Versuch einer Umwertung aller Werthe (Studien und fragmente), Leipzig, C.G. Naumann, 1901, édition de Peter Gast, Ernst et August Honeffer.

² - Nietzsche, Œuvres philosophiques complètes, XII, Fragments Posthumes Automne 1885-Automne 1887, Textes établis et notés par Giorgio Colli et Mazzino Montinari, Traduit de l'allemand par Julien Hervier, Paris, Gallimard, 1979, Table de concordance, p. 375-376.

³ - هيدغر، نيتشه 1، ص. 18.

ومختلفة عن بعضها البعض وشذرات متناثرة وملاحظات متداخلة عثر عليها بين طيات أوراقه ومخطوطاته¹. لم يحدد نيتشه منهاجاً ينظم وفقه نشر شذراته ولم يوص قارئيه وشراحه بالكيفية التي ينبغي أن يتناولوا وفقها ما ترك من شذرات². لذلك صار هذا الأثر عرضة للشكوك والانتقادات وشاع القول بكونه من اختلاق أخت الفيلسوف المسماة إليزابيث فورستر-نيتشه (E. Förster-Nietzsche) وصديقه بيتر غاست³. إذ لا يعتقد شليشته في وجود أثر لنيتشه عنوانه "إرادة الاقتدار" ويرجع ذلك إلى اختلاق الناشرين لهذا الأثر. كما أنه يلقي كل اللوم على أخت الفيلسوف التي تعاونت في نظره مع صديق لنيتشه لإنشاء هذا الأثر. يرى شليشته أن الفلسفة الحقيقية للفيلسوف توجد في الآثار التي نشرها بنفسه⁴. إن الآثار المنشورة بعد وفاة نيتشه (Nachlass) هي التي تمثل عائقاً أمام قراءه، فمنهم من يرى فيها الفلسفة الحقيقية (Die eigentliche Philosophie) ومنهم من يعترض على هذا الرأي معتبراً أن وجود هذا الأثر أمر مشكوك فيه. فإذا تأملنا الظروف الحاققة بظهور الأثر النيتشوي لإرادة الاقتدار، تبين أن نيتشه يتحدث بنفسه عن إعداد هذا الأثر ما بين سنتي 1887 و1888 وكان قد أراد عنوانه "إرادة الاقتدار، محاولة لقلب كل القيم" (Der Wille zur Macht Versuch einer umwertung aller werte). أخضع نيتشه هذا الأثر- المشروع لمنهج رباعي، لكن لم يستقر عنده الأمر على تخطيط نهائي، فتعددت التخطيطات وتباينت بدءاً بتخطيط (1884) وصولاً إلى تخطيط (1888) الذي تخلّى عنه هو الآخر⁵.

يدافع هيدغر عن الرأي القائل بكون إرادة الاقتدار أثراً ألفه نيتشه وأن أمر وجوده هو حقيقة تاريخية لا غبار عليها ويؤكد أن ما يتضمنه هذا الأثر من شذرات وما يحتويه من مادة مبنية هو من تأليف نيتشه فحسب⁶. كذلك، يقر أن النشرة الأولى لهذا الأثر تمثل المجلد الخامس عشر من الأعمال الكاملة لنيتشه. كما يبرهن على حقيقة نسبة الأثر لصاحبه بالاستناد على شواهد مختلفة. إذ يذكر بعضاً من رسائله التي تشير إلى انشغاله بالعمل التحضيرية للأثر-المشروع. ففي رسالته إلى أخته بتاريخ جوان 1884 يكتب نيتشه

¹ - نيتشه، إرادة الاقتدار، الطبعة الوحيدة المكتملة في فرنسا، ترجمة ج. بيانكيس، باريس، غاليمار، 1947، التصدير، ص.

5. (الترجمة الفرنسية)

² - المصدر نفسه، ص. 59.

³ - المصدر نفسه، ص. 60.

⁴ - Karl Schlechta, Le cas Nietzsche, Trad. André Cœuroy, Paris, Gallimard, 1960, p. 84.

⁵ - انظر مقال مارك دي لوناي: Marc B. de Launay, « Œuvres philosophiques complètes », Dossier Nietzsche, Allemagne

d'aujourd'hui, Revue française d'information sur les deux Allemagnes, Nouvelle série N° 48, Mai-Juin 1975. ص. 59-60.

⁶ - هيدغر، نيتشه 1، ص. 387.

متحدثًا عن سعيه إلى إنهاء أثره الضخم في غضون صيف تلك السنة وأنه يطمح خلال الأشهر المتبقية من السنة إلى إتمام التخطيط النهائي لهذا العمل إذا لم تتعكر أحواله الصحية¹. أما رسالته إلى أمه وأخته بتاريخ 2 سبتمبر 1886 فإنها تتضمن تصريحًا مكتوبًا باستعداده لكتابة ونشر أثر ضخم يكون عنوانه "إرادة الاقتدار، محاولة لقلب كل القيم"².

كما يمكننا أن نشير إلى أن كتاب نيتشه ما أبعد من الخير والشر (*Jenseits von Gut und Böse*) الذي نشر سنة 1886 يحتوي على عنوان فرعي ("ما أبعد من الخير والشر، استهلال لفلسفة المستقبل") يشير إلى الأثر المشروع³. كذلك، يذكر هيدغر أن كتاب *جينالوجيا الأخلاق* (*Zur Genealogie der Moral*) الذي نشر سنة 1887 يتحدث فيه نيتشه ضمن الاستطراد الثالث، فقرة 27 عن هذا الأثر المنتظر، بل إنه يكتب عنوانه بأحرف غليظة⁴. إتنا نلاحظ مع الباحثة أنجال كريم-ماريتي أن نيتشه أتى على ذكر عنوان هذا الأثر مرّات عديدة في هكنا تحدث زرادشت، فقد تكررت عبارة "إرادة الاقتدار" ما يقارب التسع مرّات، كما ورد ذكر الجزء الثاني من العبارة منفردا في مواضع أخرى⁵.

لقد وضع نيتشه لهذا الأثر المشروع تخطيطات متباعدة، أولها تخطيط 1882 الذي يظهر في المجلد السادس عشر (فقرة 413)، يتوافق هذا التخطيط الأولي توافقًا كليًا مع سنوات إعداد المعرفة المرحلة⁶. أما التخطيط الثاني الذي يعود إلى السنتين 1884-1885، فإنه يتوافق مع فترة إعداد هكنا تحدث زرادشت، وقد تميّزت هذه الفترة بالحدس الفلسفي والطابع الميتافيزيقي. ظهر سنة 1885 رسماً تحضيرياً لهذا الأثر: "إرادة الاقتدار، محاولة لتأويل كل حدث" (*Der Wille zur Macht. Versuch der Auslegung alles Geschehens*). ويذكر هيدغر تخطيطاً لسنة 1884 يقع في الفقرة السادسة من المجلد الخامس عشر، ويحمل عنوان "فلسفة العود الأبدي، محاولة لقلب كل القيم"⁷. أما في تخطيط 1886، فقد كتب

¹ - Heidegger, Nietzsche I, p. 20-21: « Ainsi, l'échafaudage de mon gros œuvre devra être érigé au cours de cet été: autrement dit au cours de ces prochains mois je veux esquisser le schème propre à ma philosophie et le plan à exécuter dans les six prochaines années. Puisse ma santé s'y prêter ! ».

² - المصدر نفسه، ص. 21.

³ - Nietzsche, Œuvres philosophiques complètes, VII, Par delà bien et mal, Prélude d'une philosophie de l'avenir, textes et variantes établis par Giorgio Colli et Mazzino Montinari, Trad. Cornelius heim, Isabelle Hildenbrand et Jean Gratien, Paris, Gallimard, 2002, p. 15.

⁴ - انظر هيدغر، نيتشه 1، ص. 21. ونيتشه، جينالوجيا الأخلاق، الاستطراد الثالث فقرة 27، ص. 344 من الترجمة الفرنسية.

⁵ - A. Kremer-Marietti, « Unités et masques », Bulletin de la Société Française d'Etudes Nietzscheennes, N°2, Nouvelle série, Mars, 1963, Publié aussi in Carnets Philosophiques, Paris, L'Harmattan, 2002, pp. 127-137.

⁶ - هيدغر، نيتشه 1، ص. 21.

⁷ - المصدر نفسه، ص. 325.

عنوان الأثر-المشروع بأحرف غليظة¹. يرى هيدغر أنّ الكتابين الأول والثاني يمثلان لبّ الكتاب، إذ يلخصان جملة ما كتبه في هذا الأثر-المشروع². عنوان الكتاب الأول "خطر الأخطار" (Die Gefahr der Gefahren)، أما الكتاب الثاني فيطرح مشكل القيم سواء في المنطق أو في الأخلاق، ويتناول الكتاب الثالث مشكل المشرع. أما الكتاب الرابع فيحمل العنوان التالي: "المطرقة" (Der Hammer)، كما عنوانه ضمن التخطيط الثاني لسنة 1884 "مذهب العود الأبديّ من جهة ماهو مطرقة في يد الإنسان الأكثر اقتداراً"³.

يوضح هيدغر أنّ التخطيطات التي تعود إلى سنتي 1887 و1888، تعرض بنية موحدة لهذا الأثر. كما يلاحظ أنّ العمل المفهومي لنييتشه خلال هذه الفترة، كان متّجها اتجاها كلياً نحو "إرادة الاقتدار" بل إنّه كان قد بلغ أوجه⁴. بيد أنّه يعثر على طريقة مفضلة لتخطيط 17 مارس 1887، ضمن الفقرة 424 من المجلّد الخامس عشر من الأعمال الكاملة لنييتشه، يحمل عنواناً مختلفاً: "العود الأبديّ". ويفهم من ذلك أنّ مشروع إرادة الاقتدار غير مستقلّ عن نظرية العود الأبديّ⁵. أما التخطيطات التي تعود إلى ربيع وصيف 1888، فإنّها تحمل نفس البنية وإن كان كلّ تخطيط يجد صده في فكرة العود الأبديّ⁶. كما يلاحظ هيدغر أنّ عنوان "إرادة الاقتدار" تلاشى من التخطيطات الأولى التي تعود إلى خريف سنة 1888 ليحلّ محله عنوان آخر كان في السابق عنواناً فرعياً فحسب: "قلب كلّ القيم"⁷.

ما نخلص إليه هو أنّ جلّ التخطيطات تقريباً تخضع لبنية رباعية، حيث يختص الكتاب الأول بتناول مفهوم العدميّة (Nihilismus)، ويكون الكتاب الثاني نقداً للقيم (المسيحية،

¹ -Nietzsche, Œuvres Philosophiques complètes, Tome XII, Fragments Posthumes, Automne 1885-automne 1887, Textes établis et annotés par Giorgio Colli et Mazzino Montinari, Trad. Julien Hervier, Paris, Gallimard, 1979, § 2 [100], p. 115.

نعثر في هذه الشذرات (فقرة 2 ص. 102-103) رسماً تحضيرياً يعود إلى سنة 1886 كان نييتشه قد صرح ضمنه بالكتب العشر التي يطمح إلى كتابتها ونشرها. وقد ذكر في الأثناء أثره المشروع في المقام الثاني ويضع له العنوان التالي: "إرادة الاقتدار. محاولة لتأويل مستحدث للعالم".

² -المصدر نفسه، ص. 375.

³ -راجع هيدغر، نييتشه 1، ص. 325.

⁴ -المصدر نفسه، ص. 325-326.

⁵ -المصدر نفسه، ص. 325.

⁶ -المصدر نفسه، ص. 327.

⁷ -المصدر نفسه، ص. 327.

الشفقة، الميتافيزيقا)، في حين يكون الكتاب الثالث إيدانا بقيم جديدة. أما الكتاب الرابع فإنه يقترح حلاً عملياً ومعالجة ضرورية لفكرة العود الأبدي¹.

ينصحنا هيدغر في قراءته لهذه "الكلمة الأساسية" بالاعتماد على نشرة بوملار (Baeumler) ضمن سلسلة كرونر (Kröner) لأنها تعيد نشر المجلدين الخامس عشر والسادس عشر دون أن تحيد عما هي عليه الأعمال الكاملة². لكننا لا نعرف تحديداً أي النشرات أسلم ولا نعرف البنية الحقيقية لهذا الأثر المشروع. فإذا كان نيتشه فيلسوفاً لا يحبذ النسقية، فكيف سيرضى لآثاره أن تكون على بنية ثابتة وموحدة؟ ألا يبدو أن النسق يحرم الفكر من أن يجا بجرية؟ ألا يبدو أن نيتشه يمتنع عن إعطاء أفكاره و"كلماته" بنية ثابتة خوفاً عليها من أن تذبذب ويهت بريقها وتحرم من الحيوية التي نشأت فيها؟ ألا يريد نيتشه أن تظل أفكاره ناعمة بالحرية وأن تسبح بان دفاع في سحاب هذه الفوضى الجميلة ككوكب راقص³؟ أم أن قدر الآثار المتميزة أن تظل غير مكتملة (اميدوكليس، هولدرلين، شذرة الطبيعة لغوته)، أو أن الكتابة كما فهم أفلاطون في الفايديروس (Phèdre) لعنة من السماء، فالنص المكتوب تنزل عليه اللعنة فيصبح مجهول النسب أو متعدّد الآباء؟ فكيف ننتظر من أثر يكتب لإرادة الحياة ويشترع لفلسفة العود الأبدي أن يكون له اكتمال الكواكب الثابتة⁴؟

3- هل إن "الإرادة" و"الاقتدار" يعنيان حقاً نفس الشيء⁵؟

تتضمن إجابة هيدغر عن هذا السؤال اقتراحين اثنين: فمن جهة أولى، يرى أن "الاقتدار" و"الإرادة" هما الأمر نفسه لأنهما ينتميان أساساً إلى نفس المقام الذي يجعلهما متحدين ومتعاونين. فهما يقومان "الموطن" نفسه وينتشران منه نحو نفس الوجهة، لذلك يعبران نفس المسلك ويتلحقان بنفس اللون. إنهما يملآن المشهد نفسه لذلك يترأى لنا أنهما الأمر نفسه. ومن جهة ثانية، لا يبدو أنهما متماهين لأنهما لا يمثلان نفس المعنى داخل هذه الوحدة. إذ نعر دائماً على "بعض من الإرادة" تكون "إرادة في ذاتها" أي مستقلة عن الاقتدار، كما نعر في

¹-A. Kremer-Marietti, « Unité et masques », Bulletin de la société Française d'Etudes Nietzscheennes, N° 2 Nouvelle série, Mars 1963, Publié aussi in Carnets Philosophiques, Paris, L'Harmattan, 2002, pp. 127-137.

²- هيدغر، نيتشه 1، ص. 19. يشير هيدغر هنا إلى أن بوملار كان قد نشر في نفس السلسلة التي نشرت فيها الأعمال الكاملة نيتشه (كرونر)، مجلداً عنوانه نيتشه من خلال رسائله وشهادات معاصريه (Nietzsche dans ses lettres et les témoignages de ses contemporains).

³- نيتشه، إرادة الاقتدار، النشرة الوحيدة المكتملة في فرنسا، ترجمة بيانكيس، باريس، غاليمار، التصدير، ص. 27. (الترجمة الفرنسية)

⁴- المصدر نفسه، ص. 22.

⁵- يطرح هيدغر هذا السؤال في اكتمال الميتافيزيقا والشعر، التصدير، ص. 22.

المقابل على "بعض من الاقتدار" يكون هو الآخر مستقلاً عن الإرادة لأنه "اقتدار في ذاته"¹، فالإرادة معدنها الاقتدار. فما الذي يمكن أن تعنيه "الإرادة" (Der Wille) إذن؟ ما الذي يفهمه هيدغر من "الاقتدار" (Macht)؟

يشير هيدغر في نيتشه¹ إلى أن هذين السؤالين هما في الواقع سؤال واحد في تقدير نيتشه نفسه: فكل إرادة هي إرادة اقتدار لأن كل اقتدار هو ماهية². غير أنه لا يقتر بالتأهي المطلق بين "الإرادة" و"الاقتدار"، إذ ليست الإرادة اقتداراً فحسب وليس الاقتدار مجرد إرادة، فهما ليسا متماهين. لذلك يعيد النظر في ضروب العلاقة التي تشد الإرادة إلى الاقتدار والاقتدار إلى الإرادة³. فما هو أساسي بالنسبة إلى الاقتدار هو أن تتجه نحوها الإرادة، وما هو أساسي بالنسبة إلى الإرادة هو أن يتجه نحوها الاقتدار. إذ لا يكون الاقتدار اقتداراً إلا إذا ظلّ تزايداً في الاقتدار أي إذا كان تمرّناً على ممارسة مزيد من الاقتدار⁴. لكن هيدغر لا يجعل إرادة الاقتدار تمرّناً على مزيد من الاقتدار فحسب، فهي أيضاً تتجاوز لهذا التمرن على الاقتدار، أي أنها تتأهل لحوض هذا التمرن لكي تتجاوزه وتظلّ متمسكة به⁵. لا تستطيع إرادة الاقتدار تتجاوز التمرن على الاقتدار إلا إذا ظلّت دوماً في تزايد وحافظت على ما بلغته من التزايد في الاقتدار. لذلك يرى هيدغر أن التزايد (Wachstum) والحفظ هما الشرطان الضروريان لإرادة الاقتدار⁶.

4- ما معنى "إرادة"؟

يلاحظ هيدغر أن لمفهوم الإرادة معاني متعددة، لذلك لا يتحدث عن ماهية واحدة بل عن ماهيات متباينة⁷. فهي إرادة للعقل أو للفكر، إرادة للحب وإرادة للاقتدار⁸. لذلك تظلّ ماهية الإرادة أمراً مبحثاً عنه وعسير التحصيل. يتعين موقف نيتشه هاهنا في مقابل موقف شوبنهاور⁹ الذي يقرّ أن الإرادة هي من أكثر الأشياء وضوحاً وتميّزاً¹، إذ نقرأ في إرادة الاقتدار

¹- هيدغر، اكتمال الميتافيزيقا والشعر، ص. 21.

²- هيدغر، نيتشه 1، ص. 40.

³- هيدغر، اكتمال الميتافيزيقا والشعر، ص. 20.

⁴- المصدر نفسه، ص. 20.

⁵- المصدر نفسه، ص. 23.

⁶- المصدر نفسه، ص. 24.

⁷- هيدغر، نيتشه 1، ص. 43.

⁸- هيدغر، نيتشه 2، ص. 362.

⁹ -Nietzsche, Par delà Bien et Mal, pp.35-36, § 19: « les philosophes ont coutume de parler de la volonté comme si c'était la chose la mieux connue au monde ; Schopenhauer nous a même appris que nous ne connaissons au fond que la volonté, que nous la connaissons de part en part, sans y ajouter ni retrancher quoi que ce soit. Mais j'ai l'impression que dans ce cas aussi Schopenhauer n'a fait que suivre les habitudes des philosophes: qu'ils a repris et exagéré un préjugé populaire. Avant tout, il me

1ما يلي: «(. .) هل سنعتقد أنّ كلّ المنطقة مازالوا يعلمون الثالث "الإحساس"، "التفكير" و"الرّيدة"، كما لو أنّ الرّيدة لا تتضمن أيّ إحساس وأيّ فكر؟- ذلك هو الخطأ الكبير [الذي اقترفه] شوبنهاور في اعتباره الرّيدة أفضل معروف (connu) في العالم، أو هو المعروف الوحيد حقًا (. .)» (شذرة 202، 1885)². لنلك يضع نيتشه عبارة "vouloir" موضع تساؤل، فيتنبّئ لديه أنّها تتضمن إحساسات مختلفة، تتضمن الفكر وكذلك "عاطفة التحكّم" (émotion du commandement)³. فما المقصود بذلك؟

يؤكد هيدغر أنّ "من يرغب" (désirer) ليست تحديدا "من يريد" (vouloir)، إذ ليست العبارتين مترادفتين. فمن يرغب في "شيء ما" لا يعني أنّه يريده، بل إنّّه يأمل أن يحصل عليه وألاّ يحرم في وجوده ممّا رغب فيه⁴. لكن كيف نتميّز بين "Der Wille" و"Wollen"؟ العبارة الأولى هي "الإرادة"، وهي المصدر المشتقّ من أراد، كما يمكن أن تترجم العبارة الثانية هي الأخرى "إرادة"، فالفرق يكمن في اللّغة الأصل خاصّة، كما يمكن أن ندركه كذلك في اللّغة الفرنسية (volonté وvouloir) والإنجليزية (will وvolition)⁵.

تشير العبارة الألمانية (Wollen) إلى الفعل قبل تصريفه (infinitif)، ونحن نقترح ترجمتها بالعبارة التالية: "الرّيدة"، و"الرّيدة" اسم يوضع موضع الارتياح والإرادة، وأراد الشيء: أحبّه وعني به، والإسم الرّيد". لقد عثرنا على هذه العبارة في لسان العرب لابن منظور، وهي لعمرى العبارة الأكثر ملائمة وتوافقا مع الأصل الألماني والمقابل الفرنسي وإن كان الأصل الألماني يشير إلى أنّ هذه العبارة هي فعل غير منتظم (irrégulier) وهو في الصيغة المصدرية، أي

semble que la volonté est quelque chose de complexe, dont l'unité est purement verbale et c'est effectivement dans l'unicité du mot que se dissimule le préjugé populaire qui a trompé la vigilance toujours médiocre des philosophes ».

¹- هيدغر، نيتشه 1، ص. 43.

² Nietzsche, La Volonté de puissance I, Seule édition complète en France, Traduction de G. Bianquis, Paris, Gallimard, 1947, § 202, p.261: « (...) Croirait-on que tous, les logiciens enseignent encore la trinité du "sentir", du "penser" et du "vouloir", comme si le vouloir ne contenait ni sentir ni penser ? _ Cela dit, la grande erreur de Schopenhauer, considérant le vouloir comme la chose du monde la mieux connue, voire la seule véritablement connue (...) » . الترجمة من عندنا.

³- المصدر نفسه، ص. 260-261.

⁴- المصدر نفسه، ص. 44.

⁵- إنّ الناظر في كتابات دايفد هيوم مثلا (An Enquiry Concerning Human Understanding)، يلاحظ أنّه يفرق بين "volition" و"will" اللّتين يقابلهما في الفرنسيّة "volonté" و"vouloir". لكنّ المعاجم لا يمكن أن تعيننا على التفريق بين هاتين العبارتين في مختلف اللّسن. لذلك لابدّ من خلق "سياق فلسفيّ" يتساوق مع "السياق اللّغوي" على حدّ تعبير الأستاذ محمّد محجوب في تقديمه لترجمة لكتاب هيوم، An Enquiry Concerning Human Understanding. تجدر الإشارة إلى أنّ الأستاذ محمّد محجوب ترجم (volition) "المشيئة" ليميّزها عن (will) "الإرادة". انظر، دايفد هيوم، تحقيق في الدّهن البشريّ، ترجمة د. محمّد محجوب، بيروت، المنظمة العربيّة للترجمة، الطبعة الثانية، 2010، ص. 97.

مشتق من المصدر ولم يقع تصريفه¹. لا يمكن أن نجعل "الرود" مقابلا عربيا لـ "Wollen" في الألمانية لأن "الرود" يعني في لسان العرب، "المهلة في الشيء أو التحرك الخفيف". لكننا نقرأ تعريفه للإرادة إذ يقول: "الإرادة المشيئة وأصلها الواو، كقولك راوده أي أراده على أن يفعل كذا، إلا أن الواو سكنت فنقلت حركتها إلى ما قبلها فانقلبت في الماضي ألفا (أراد) وفي المستقبل ياء (يريد)، وسقطت في المصدر لمجاورتها الألف الساكنة وعوض منها الهاء في آخره"².

إن عبارة "الرغبة" (Wollen) هي في فهم هيدغر "نزوع إلى شيء ما"، أو هي العزم (résolution) على التحكم في الذات وزعامتها، إنه إحساس ملح ومرغوب فيه. لكن ما الإحساس (Gefühl)؟ هل هو حالة محدّدة من الحالات التي يكون عليها مزاجنا؟ هل ثمة فرق بين الإحساس والشعور أم يعنيان الأمر نفسه؟

إذ يميّز هيدغر بين "الإرادة" (Der Wille) و"الرغبة" (Wollen)، ويرفض اختزال الإرادة إلى مجرد فعل من الأفعال التي تشير إليها على جهة منفردة كما لو أنّها كلّ لا يمكن تجزئته. لذلك تظلّ الإرادة بالنسبة إلى هيدغر افتراضا لا يعني شيئا لأنه لا يفسّر شيئا ولا يفسّر بشيء⁴. فلا تفسّر الإرادة شيئا لأنّها تحتوي على فراغ أراد نيتشه ملأه بالشطر الثاني من هذه الكلمة الأساسية أي "الاقتدار"⁵. لذلك فكلّ إرادة تريد أن تتزايد في الاقتدار. لكنّ ماهية الإرادة تظلّ مبحوثا عنها مادامت المعاني التي تعنيها مختلفة وما دامت التحديدات السابقة على هيدغر متباينة هي الأخرى ولا تشفي الغليل⁶. أمّا عبارة "الرغبة" فإنّها تعني "الحركة نحو شيء ما" أو "أن يتجه نحو شيئا ما" (un se diriger sur quelque chose). يتعيّن علينا أن نتبين ماهية الإرادة في خصوصيتها وأن نميّزها عما يمكن أن تشته به من المعاني والعبارات الأخرى مثل "الرغبة" أو "الرغبة" (Wunsch)⁸.

- إنّي لا أترجم بل أحاول أن أفكر بالطريقة نفسها في لغتنا العربية بحثا عن العناصر المشتركة بين الأصل الألماني والمقابل العربي في مستوى الفكر. فهذا العنصر المشترك هو عنصر فكري وليس عنصرا حضاريا. نحاول أن نوّدي المقابل العربي للاختلاف ما بين (Wille) و(Wollen).

²- ابن منظور، لسان العرب، مادة "رود".

³- هيدغر، نيتشه 1، ص. 53-54.

⁴- المصدر نفسه، ص. 60-61.

⁵- المصدر نفسه، ص. 61.

⁶- المصدر نفسه، ص. 43.

⁷- المصدر نفسه، الموضوع نفسه.

⁸- المصدر نفسه، الموضوع نفسه.

يرى هيدغر أنَّ الإحساس "هو الكيفية التي نكون عليها في علاقتنا بالموجود، وفق الطبع¹ (Stimmung) الذي نحن عليه والذي ينشأ مراعاة للموجود الذي هو "نحن" (Wir) ومراعاة للموجود الذي لا نكون"². وبالتالي فإن عبارة "الرغبة" تتضمن إحساسات متنوعة ومتباينة، وفي هذا السياق يذكر هيدغر شاهداً لنيشيه اقتطفه من ما أبعد من الخير والشر (Jenseits von Gut und Böse)، (VII، 28): "تتضمن كل رغبة أحاسيس متعددة، وخصوصاً الإحساس بالحال الذي إليه نتجه، الإحساس بهذا البعد نفسه وبهذا القرب أيضاً، وبلغة أخرى يتضمن حسنا (Sinn) عضلياً ملازماً، إنه يبدأ بالظهور حالماً "أردنا"، وإن لم نحرك ساكناً وذلك بضرب من التعود"³. فهو فتحة على الوجود الذي هو بدوره "رغبة"⁴، ينفج لنفسه وعلى نفسه، إنه "رغبة" تريد فيما أبعد من نفسها (vouloir par delà soi-même) فتعود الإرادة إليه عن طواعية⁵.

تعني الإرادة "أن يكون المرء سيّد نفسه"، فيعزم على الانتشار داخل الوجود لكي يعزّزه في نطاق سلوكياته التي تتحدّد انطلاقاً من نمط العلاقة التي تشدّه إلى الوجود⁶. فما يميّز إذن إرادة "الرغبة" هي الكيفية المتبصرة التي تجعله قادراً على الإمساك بالماهية وإن كانت هذه الماهية متباعدة عنه ومرتحلة لتشارف عتبة نزوع ما. لذلك ينبغي على الإرادة أن تكون على قدر من الجرأة والإقدام لتمكّن من الإمساك بماهيتها التي تبحث عنها وهي منشدة إلى الموجود، فكلّ موجود إرادة بل إنّ ماهية الإرادة هي الموجود نفسه⁷.

تغامر الإرادة فتتوجّه بحثاً عن ماهيتها المرتحلة دوماً، لذلك يتوجّب عليها أن تكون مقتدرة، فكلّ إرادة هي إرادة اقتدار. بيد أنّها مرغمة على تطوير اقتدارها في كلّ مرّة، فالأقتدار هو اقتدار في طور التزايد كما أنّ الإرادة نفسها هي إرادة تريد ما بعد نفسها، أي تقي في نفسها القدرة على إرادة ماهو خارج عنها وما يتجاوز اقتدارها الأولي. لذلك يدرك هيدغر أنّ الإرادة

¹ - انظر، ابن منظور، لسان العرب. مادة طبع: "الطبع، السجية التي جبل عليها الإنسان وهو في الأصل مصدر، والطبيعة مثله، وكذلك الطباع.

² - هيدغر، نيتشه 1، ص. 53-54.

³ - sentiment de l'état: 55. المصدر نفسه. « Dans chaque vouloir il ya d'abord une pluralité de sensations, notamment le duquel s'éloigner et le sentiment de l'état vers lequel aller, le sentiment même de cet éloignement et de cette approche, on outre une sensation musculaire concomitante, laquelle, quand même nous ne bougerions pas "bras et jambes", commence son jeu, par une sorte d'habitude, sitôt que nous "voulons" »

⁴ - المصدر نفسه، ص. 59.

⁵ - المصدر نفسه، ص. 54-55.

⁶ - المصدر نفسه، ص. 54.

⁷ - المصدر نفسه، ص. 45.

في حد ذاتها اقتدار، فالتحدث عن الإرادة يستوجب التحدث عن الاقتدار أيضا¹.

5- الإرادة والاقتدار، ماهية الاقتدار:

يعود هيدغر إلى الأصل الإغريقي لكلمة "الاقتدار" وهي "الانتليخيا" (εντελέχεια)²، التي تعني الكمال، التمام والتميز. يعزب الفلاسفة العرب (الكندي والفارابي وابن سينا) العبارة الإغريقية "εντελέχεια" بـ "كمال أول"، إذ يعرف ابن سينا النفس على أنها "كمال أول لجسم طبيعي فان" بناء على الحدّ الأرسطي للنفس. معنى ذلك أنّ "الكمال على وجهين: كمال أول، وكمال ثان، إذ يكتب التهانوي: "يسمى ما يخرج من الشيء بالقوة إلى الفعل قبل خروج تمامه كمالا أولا، وكمال الذي يتوخاه ويقصده بعد تقدير خروجه إلى الفعل كمالا ثانيا. وبهذا الاعتبار تعرف الحركة بأنها كمال أول لما هو بالقوة من حيث هو بالقوة. الثاني أن يكون الشيء الذي يخرج إلى الفعل من شأنه أن يخرج بتمامه دفعة فإن كان حصوله لذلك الشيء يجعله نوعا غير ما كان قبل الحصول يسمى كمالا أولا، وما يصدر عنه بعد تنوعه من حيث هو ذلك النوع كمالا ثانيا. وبهذا الاعتبار تعرف النفس بأنها كمال أول لجسم طبيعي فان"³. لقد وضح ابن سينا الفرق بين "الكمال الأول" "الكمال الثاني" من جهة أنّ "(. .) الأول هو الذي يصير به النوع نوعا بالفعل كالشكل للسيف. والكمال الثاني هو أمر من الأمور التي تتبع نوع الشيء من أفعاله

وافعالاته، كالقطع للسيف، والتمييز والروية والإحساس والحركة للإنسان"⁴.

نتبين ضمن النص النيتشوي نفسه تعريفا وجيزا للاقتدار، يعود إلى الفترة الممتدة من 1887 إلى 1888، حيث يقر نيتشه أنّ ماهية "الاقتدار" هي نفسها مما كان هذا الاقتدار "اقتدارا للإله" أو اقتدارا للإنسان، بل إنّ المعنى يظلّ "هو هو" (le même) سواء عند العرب، عند العبريين أو حتى عند الأجناس القويّة الأخرى: فهو يعني "القدرة" (Fähigkeit, capacité) على النفع وعلى الضرر في الآن نفسه⁵.

¹ المصدر نفسه، الموضوع نفسه.

² المصدر نفسه، ص. 65.

³ انظر، التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة، رفيق العجم، لبنان، مكتبة لبنان

ناشرون، سلسلة موسوعات المصطلحات العربية والإسلامية، 1996، الجزء الثاني، مادة كمال. (التشديد من عندنا)

⁴ ابن سينا، كتاب الشفاء، الفن السادس من الطبيعيات (علم النفس)، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر

والتوزيع، 1988، المقالة الأولى، ص. 14. تعني "εντελέχεια" تمام الشيء عند بلوغه الغاية المقصودة. فالفلاسفة العرب

(الكندي في رسالة الحدود) يستون العلة الغائية (la cause finale) "علة تامة" وهي "ما لأجله الشيء وليس منه". فالعلة

التامة التي تكون للكريمي مثلا هي الجلوس.

⁵ Nietzsche, La Volonté de puissance I, § 274, p.127: « La notion de puissance, que ce soit celle d'un Dieu ou d'un homme, implique toujours la capacité d'être utile, en même temps que celle de nuire. Ainsi chez les Arabes, ainsi chez les Hebreux. Ainsi chez toutes les races vigoureuses ».

يلاحظ هيدغر أنّ نيتشه يقصد بـ "الاقتدار" ما يمكن أن تعنيه كلّ هذه الألفاظ الإغريقية: $\deltaύναμις$ ، $ἐνέργεια$ ، $ἐντελέχεια$ ، في الآن نفسه.¹ يعتبر أرسطو "الانتيليكيا" ($ἐντελέχεια$) "وجودا بالفعل" في مقابل الوجود بالقوة، أي هي الوجود التام.² لكن بأيّ معنى يعرف نيتشه "الاقتدار" على أنّه "القوة" ($\deltaύναμις$)؟ فالتعريف الذي يعطيه للقوة هو المعنى الذي يقصده الإغريق بعبارة " $\deltaύναμις$ " التي تعني "الوجود بالقوة" في مقابل "الوجود بالفعل".³ يماهي نيتشه أحيانا بين "الاقتدار" ($Macht$) و "القوة" ($Kraft$) دون أن يقدم لنا تعريفا محددا للقوة، فإذا كانت "القوة" ($potentia$) و "الفعل" ($actus$) هما المحددان الأساسيان للوجود، فهل يمكن للاقتدار أن يدلّ عليها في الآن نفسه؟ وكيف نميّز "القوة" ($kraft$) عن "الاقتدار" ($Macht$)؟

لقد عمد بيار كلوسوفسكي (Pierre Klossowski) ضمن الترجمة الفرنسية لروس هيدغر حول نيتشه إلى ترجمة اللفظ الألماني ($kraft$) بـ "force" أي "القوة". بيد أنّ "القوة" لا تؤخذ في معنى فيزيقي، فلا يقصد بها القوة المادية بل "القوة من جهة ماهي ملكة" ($Faculté$).⁴

يكشف باتريك فوتلينغ (Patrick Wotling) عن ثلاثة استعمالات مختلفة للفظ القوة داخل النصّ النيتشوي:

أوّلا، يلاحظ أنّ نيتشه يستعمل لفظ "القوة" في سياق مجازي فهو لا يقصد به أن يفهم فيها علميا بل يرغب في إصلاحه وإخراجه من وطأة النظريات الفيزيائية التي كرستها النيوتنية. إذ يصرّح نيتشه بأنّه ابتدع "إرادة الاقتدار" حتّى يتمكّن من إضفاء بعد باطني على مفهوم "القوة"، أي نمطا من الزرع ($appétit$) الذي لا يكفّ عن إثباته الاقتدار وإبرازه أو أنّه تمرّن دائم على مباشرة الاقتدار وتعاطيه على شاكّة دفع خلاق.⁵

¹ - هيدغر، نيتشه 1، ص. 65.

² - Aristote, La Métaphysique, Trad. J. Tricot, Paris, J.Vrin, 1991, Tome I, Livre Δ, 7, p.272, 1017 b: « Enfin, Être et l'Être signifient aussi, tantôt l'Être en puissance, tantôt l'Être en entéléchie des différentes sortes d'êtres dont nous avons parlé (...) ».

³ - هيدغر، نيتشه 1، ص. 64.

⁴ - انظر الفارابي (أبونصر)، كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، تقديم وتعليق ألبير نصري نادر، لبنان، دار المشرق، 1996، الطبعة السابعة، الفصل العشرون، "القول في أجزاء النفس الانسانية وقواها"، ص. 87: "فإذا حدث الانسان. فأول ما يحدث فيه القوة التي بها تغذى، وهي القوة الغذائية، ثم من بعد ذلك القوة التي بها يحسّ (...). ثم يحدث فيه بعد ذلك قوة أخرى يحفظ بها ما ارتسم في نفسه من المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس لها، وهذه هي القوة المتخيلة. ثم من بعد ذلك يحدث فيه القوة الناطقة التي بها يمكن أن يعقل المعقولات (...). (التشديد من عندنا)

⁵ - Nietzsche, Fragments Posthumes XI, 36, [31]: « Ce victorieux concept de « force », grâce auquel nos physiciens ont créé Dieu et le monde, a encore besoin d'un complément: il faut lui attribuer une dimension intérieure (eine innerWelt) que j'appellerai « volonté de puissance », c'est-à-dire appétit insatiable de démonstration de puissance ; ou d'usage et d'exercice de puissance, sous forme de pulsion créatrice, etc. », in Patrick Wotling, le vocabulaire de Nietzsche, Paris, Ellipses, 2001, p. 30.

ثانياً، عندما يتحدث نيتشه عن إرادة الاقتدار من زاوية مخصوصة، أي عندما يقع ردّ مفهوم القوة إلى إرادة الاقتدار نفسها فإنّ القوة تتأهّى مع الغريزة أو مع الاندفاع (pulsion). "فقدّر معيّن من القوة يتأهّى مع قدر من الدفع ويتأهّى مع قدر من الإرادة (...)".¹ لذلك يلاحظ فولتلينغ أنّ كلّ قوّة متحرّكة هي إرادة اقتدار وأنّه لا وجود لأيّ قوّة فيزيقيّة أو ديناميكيّة خارجها.² فإرادة الاقتدار هي القوة التي نشعر وهي القوة التي نرى ونحسّ، فالقوّة المقصودة هنا هي القوّة في بعدها الباطنّ، الزوعم لا القوّة الفزيقيّة.

ثالثاً، يرى فوتلينغ أنّ مفهوم القوة عند نيتشه يردّ كذلك إلى مشكل التواصل النزوعي والاندفاعي أي إلى بيسيولوجيا التحكّم. وبالتالي، لا تردّ القوة عند نيتشه إلى العنف بل إنّها تشير إلى انتظام القوى النزوعية وتواصلها مع جملة من الغرائز في تأويلها للواقع.³ فالقوة الوحيدة التي توجد في نظر نيتشه هي الإرادة.⁴

يرى هيدغر أنّ الاقتدار هو حالة من التواجد المقتدر الذي يتعلّق مباشرة بالنفوذ أو السيادة (Herrschaft)، فتكون القوّة في موضع اشتغال. يستمى الاقتدار في اللغة الإغريقية (ἐνέργεια)،⁵ ويلاحظ هيدغر أنّ المفهوم النيتشوي للاقتدار يجد صده في النظرية الأرسطية للوجود،⁶ إذ يميّز أرسطو بين "الوجود بالقوّة" (être en puissance) و"الوجود بالفعل" (être en acte).⁷ ثمة ضرب من التقارب بين النظريتين يشدّ الواحدة منها إلى الأخرى، وإن كان نيتشه نفسه لا يلحظ في اعتقاد هيدغر هذا التقارب بينه وبين أرسطو. فكيف تتعلّق إرادة الاقتدار بنظرية الوجود الأرسطية؟

يقول هيدغر "إرادة الاقتدار" لنيته ويردّها إلى أرسطو تحديداً، ليؤكد في كلّ مرّة أنّ الفلسفة المعاصرة والفلسفة الحديثة مشتقتان من الأصول اليونانية، تتعلق إرادة الاقتدار

¹ - Nietzsche, *La généalogie de la morale*, I, § 13: « Un quantum de force est un quantum identique de pulsion, de volonté, de production d'effets-bien plus, ce n'est absolument rien d'autre que justement ce pousser ce vouloir, cet exercer des effets lui-même (...) », in par Patrick Wotling in *Le vocabulaire de Nietzsche*, Paris, Ellipses, 2001, p. 30.

² - Patrick Wotling, le vocabulaire de Nietzsche, p. 30-31.

3- المصدر نفسه، ص 31.

⁴ - Nietzsche, *Fragments Posthumes* XI, 40, [42]: « La seule force qui existe est de même que celle de la volonté ; un ordre donné à d'autres sujets et suivant lequel ils se transforment », in, Patrick Wotling, *Op. Cit.* p. 31.

5- المصدر نفسه، ص 64.

⁶ "Die Grundbegriffe - المصدر نفسه، ص. 65، يذكر هيدغر ضمن الفقرة 64 من كتابه مفاهيم أساسية للفلسفة القديمة - "ἐνέργεια" ((الوجود بالقوة)) و"(δύναμις" إلى وجود ترابط ضروري بين العبارتين اليونانيتين "Antiken Philosophie, 1993".
 (.)être effectif (أو أن "يكون فعلا") être-prêt ((الوجود بالفعل)، فيما ضربان أساسيان للوجود الذي إما أن "يكون متأهلاً إلى"
 "هي التي تمثل خاصيته الأساسية. ἐντελέχεια، غير أنّ "αὐτοῖσι" الوجود من جهة ماهو جوهر "ἐνέργεια" و"(δύναμις" تتحدّد"

Karl Blust, Traduit de l'allemand par Alain Boutot, Paris, Gallimard, 2003. 199, 6 €.

⁷ - Aristote, *La Métaphysique*, Livre E, 2, « Les sens de l'Être. L'être par accident », 1028 b, p.335: « Enfin il y a, en dehors de toutes ces sortes d'êtres, l'Être en puissance et l'Être en acte ».

بنظرية الوجود الأرسطية تعلقا كبيرا وإن كانت نظرية الوجود في تقدير هيدغر مجرد امتداد للبدايات الأولى في الفلسفة كما مثلها كل من أناكسياندرس (Anaximandre)، هرقليطس (Héraclite) وبارمينيدس (Parménide)¹. يقترح هيدغر تناولا أصيلا لنظرية الوجود الأرسطية في علاقتها بكلمة نيتشه الأساسية "إرادة الاقتدار"². بيد أن ذلك لا يقصد منه تأويل نظرية الوجود عند نيتشه بالاستعانة بنظيرتها عند أرسطو³. فالغاية من ذلك هو ردّ إرادة الاقتدار إلى المشروع الفلسفي الذي هو هاجس الفلسفة، قدرها "موطنها" الأول والأخير: مشروع الوجود. لكن لماذا يصرّ هيدغر على ردّ نيتشه إلى الإغريق وإلى أرسطو تحديدا؟ ألا يعني ذلك أن الإغريق هم قدر الفلسفة بإطلاق؟

يبين هيدغر أن لفظ "الاقتدار" ليس مجرد لفظ تكميلي للإرادة، فهو لا يؤخذ في معنى "المحمول" (prédicat) أي لا يحمل على الإرادة، وتمثل وظيفته في استيضاح الماهية الخاصة بالإرادة⁴. كذلك لا يبدو الاقتدار غاية تنشدها الإرادة، فهو ليس أمرا خارجا عنها، إذ الاقتدار في حدّ ذاته "ريذة" دائم ومتواصل. لذلك فالتكلم عن الإرادة هو تكلم عن الاقتدار أيضا، فلا تخارج يذكر بين المفهومين لأنهما يحيلان إلى الأمر نفسه أي إلى إرادة الاقتدار⁵. إن هذا النمط من العلاقة الذي يشدّ الإرادة إلى الاقتدار والاقتدار إلى الإرادة يدفع بهيدغر إلى التحدّث عن التماهي بينهما، أي أن الإرادة والاقتدار هما الأمر نفسه⁶. فالإرادة في حدّ ذاتها تكون اقتدارا في تقدير نيتشه⁷. فهي ريذة يتجاوز نفسه، وهي القدرة على الاقتدار الذي يسمح به هذا الاقتدار نفسه⁸. غير أن الاقتدار ليس أقلّ غموضا من الإرادة، فهو يعني الإرادة من جهة كونها ريذة يتجاوز نفسه⁹. بل إن الاقتدار يصبح محققا (vérifiant) يتحقق من واقعته الإرادة في كلّ مرة¹⁰. لكن ماذا يعني هيدغر بواقعية الإرادة؟ هل يعني بذلك أن الاقتدار هو الذي يعطي للإرادة القدرة على مباشرة الاقتدار والنفوذ فعليًا؟ ألا يبدو أن اقتران الاقتدار بالإرادة هو اقتران يرمي من وراءه نيتشه إلى خلق مفهوم آخر

¹- المصدر نفسه، ص. 65، ينصحنا هيدغر بالعودة إلى كتاب الطاء من ميتافيزيقا أرسطو.

²- المصدر نفسه، ص. 65.

³- المصدر نفسه، ص. 46.

⁴- المصدر نفسه، ص. 45.

⁵- المصدر نفسه، ص. 64.

⁶- المصدر نفسه، ص. 45.

⁷- المصدر نفسه، ص. 46.

⁸- هيدغر، نيتشه 1، ص. 64-65.

⁹- المصدر نفسه، ص. 64.

للإرادة غير المفاهيم التقليدية التي تتعلق بالفعل الحرّ أو بالمشيئة وبعيدا عما اقترحه شوبنهاور تحديدا؟

يتحدث شوبنهاور عن إرادة موحدة وكونية، فتعم على كلّ من في الكون وتشمل كلّ الموجودات، غير أنّ هذا التعميم لم يقع تبريره. في مقابل ذلك، لا يعتقد نيتشه في إرادة كونية تنطبق على كلّ الأشياء التي يحويها الكون. فالإرادة توجد حيثما وجدت الحياة (Leben)، فكلّ ظاهرة واقعية هي إرادة اقتدار ما. كما لا تتعلق إرادة الاقتدار بواقع معقول أو مثالي (Idealität) وإنما هي متعلّقة دوما بالحياة الفعلية بكلّ ما فيها من مشاعر وميولات. لذلك يلوم نيتشه شوبنهاور لأنّه لم يجعل الإرادة مرتبطة بالأحاسيس وبالانفعالات وبالفكر أيضا، بل جعلها أمرا مثاليا يقع تمثله أي خاليا من الحياة. لا يقول نيتشه "إرادة الحياة" بل "إرادة الاقتدار"، إذ لا وجود لإرادة للوجود لأنّ من لم يوجد بعد لا يستطيع أن يريد شيئا ومن وجد لا يستطيع هو الآخر أن يريد الوجود والحال أنّه موجود. فحيثما ثمة حياة، ثمة أيضا إرادة اقتدار لا إرادة حياة، فمن يريد هو دوما من يحيا¹. يدافع هيدغر عن الفكرة القائلة بأنّ نيتشه ابتدع عبارة "إرادة الاقتدار" تجاوزا للعبارة السائدة "الإرادة"²، أي أنّه يريد الإطاحة بالتصورات التي جعلت من الإرادة مجرد كلمة خالية (شوبنهاور)، لذلك فإنّ الاقتدار هو وحده القادر على ملء هذا الخلاء الذي يحتاج الإرادة لأنّه يجعلها وليدة واقعها الحيّ والناض.

نستنتج ممّا تقدّم أنّ هيدغر يعيّن لحظتين أساسيتين في تعريفه للاقتدار: **أوّلا**، يماهي بين القوة (Kraft) والاقتدار (Macht). **ثانيا**، يعرّف الاقتدار بكونه التواجد المقتدر الذي يتعلّق بمباشرة النفوذ أو السيادة³. فكيف يمكن أن نفهم هاتين اللحظتين؟

إذا كانت ماهية الاقتدار رهينة دوام التزايد في هذا الاقتدار، فإنّ الاقتدار نفسه مرغم على تجاوز القدر الذي له من الاقتدار في كلّ مرة، أي أنّه مطالب بأن يقاوم حتى لا يتراجع إلى الخلف. لذلك يتعيّن عليه أن يكتسب النفوذ والسيادة ويباشرها مباشرة فعلية لكي يحافظ على مكانته ويقاوم كلّ خطر في التراجع. يفهم من ذلك أنّ الاقتدار إذا بلغ هذا الحدّ من الصراع مع نفسه ومع غيره أي مع من يحول دون تقدّمه، يصبح ماميا للقوة من جهة كونه تمرنا على مغالبة كلّ لحظة من لحظات التراجع في الاقتدار⁴. لذلك يلاحظ هيدغر أنّ الاقتدار

¹-Pierre Chassard, Nietzsche Finalisme et Histoire, Copernic, L'or du Rhin, Paris, 1997, Chapitre premier, Le fondement réel de l'histoire, pp. 79-89.

²-هيدغر، نيتشه 1، ص. 45.

³-المصدر نفسه، ص. 64.

⁴-هيدغر، نيتشه 2، ص. 215-214-217.

قد يفهم ضمن التجربة اليومية "ممارسة العنف" (l'exercice de la violence)¹.

يتطور الاقتدار تدريجياً ويزداد دوماً ليلعب ماهيته المحضة، لكنه يحتاج في سعيه إلى هذه الماهية إلى أن يكون قوة لا ترتد عن مقصودها. غير أن ذلك قد يكون محالاً لقيام بعض القراءات التي تنزل إرادة الاقتدار في مثل هذا المقام ضمن سمالات إيديولوجية غرضها تحويل النص النيتشوي لغايات سياسية أساساً. وفي هذا الإطار، تكون قراءة هيدغر لنيتشه ردّاً على هذه القراءات السياسية التي تجعل من نيتشه مناهضاً للنازية. أي أنه يكشف عن حقيقة النص النيتشوي وعن أن إرادة الاقتدار تنزل في مقام ميتافيزيقي مخصوص، فإرادة الاقتدار لا تشترع للعنف أو للقوة لأن السياق الذي يتحدث فيه نيتشه في تقدير هيدغر هو سياق ميتافيزيقي لا سياسي. إذ ليست إرادة الاقتدار نفوذاً على الآخرين بل نفوذ الذات على نفسها أي قدرتها على تجاوز عجزها ومجاهاتها لكل ما يحول دون تطورها². لذلك لا يفهم هيدغر إرادة الاقتدار على أنها رغبة في الهيمنة بل يراها "وجود الموجود في ذاته"، فهي الخاصية الأساسية للموجود من جهة ما هو موجود³.

6- اعتراض هيدغر على القراءات الإيديولوجية لإرادة الاقتدار

يعترض هيدغر على محاولة تحويل إرادة الاقتدار مدعاة لقيام القراءات الإيديولوجية لنيتشه والتي قد تصل إلى حد الإقرار بمناهضته للنظام النازي. أي أنه يواجه قيام القراءات التي استغلت عدم استكمال نيتشه لأثره المشروع وعدم إشرافه على طبعه بنفسه لكي تحاول في كل مرة الإيدان بعثورها على شذرات أخرى تدعي أنها تنتمي لهذا الأثر أو ذاك. نحن نعلم أن نيتشه لم يشرف فعلاً على نشر أثره المشروع وبعض آخر من آثاره. إذ أن أخته إيزاباث هي التي تعاونت مع صديق لنيتشه يدعي بيتر غاست على تجميع الشذرات ونشرها. غير أننا لا نملك اليقين حول صحة انتماء كل ما نشر إلى نيتشه، فتمّة العديد من الوقائع التي تشكك في ذلك وتشير إلى أن أخت الفيلسوف كانت قد حوّرت مضمون بعض الشذرات كما حذفت البعض الآخر استجابة لمطامع هتلر وطمعاً في تكوين ثروة. إذ يذكر أنه في الرابع من نوفمبر سنة 1933 قام قائد الحركة النازية بزيارة الأرشيف فايمار (Weimar) ليطلع على المخطوطات الخاصة بنيتشه وليتقّق مع أخت الفيلسوف التي كانت من بين المستقبلين له على نشر آثار نيتشه. لقد كان زوج إيزاباث منخرطاً في النازية، وكان يقاوم بشدة هجرة اليهود

¹ المصدر نفسه، ص. 211-212.

² -Safranski, Nietzsche biographie d'une pensée, Tard. Nicole Casanova, Paris, Solin Actes Sud, 2000, p. 312-318.

³ -هيدغر، نيتشه 2، ص. 212.

إلى ألمانيا. كما يذكر أنه في السادس والعشرين من ماي 1934، قام موسيليني (Mussolini) بإلقاء خطاب يُذكر فيه بقول لنيته على لسان زرادشت "إنما الحرب تصنع الإنسان"، بل صار يدعو إلى بلوغ ما كان نيته يتكلم عنه في شذراته وكتبه كما لو أن نيته يشترع فعلا للعنصرية ويدعو إلى طرد اليهود وسحقهم من الأرض. إذًا صار نيته رمزا من الرموز التي تستشهد بها حركة هتلر، بل إن القراءات الإيديولوجية تعددت وكان همتها الوحيد جعل النص النيتشوي يستجيب إيدولوجيا لمواقف النظام النازي¹.

لقد تم التركيز في هذه القراءات الإيديولوجية على "كلمات نيته الأساسية"، إذ تم تأويل إرادة الاقتدار في سياق الدعوة إلى العنف والحروب بدعوى أن هذه "النظرية" تشرع للنفوذ وللهيمنة. لذا تتعين قراءة هيدغر لنيته في مثل هذا المقام وعيا بضرورة إنقاذ صورة الفيلسوف والانتصار له في مقابل ردّ كلّ القراءات الإيديولوجية إلى ظروف سياسية معتمدة عاشتها ألمانيا في الثلاثينات. إن التأويل هاهنا هو بحث عن المعنى الأولي والمقصود الأولي للفيلسوف. فالمعنى الأولي هو المعنى الذي عناه صاحبه وعانى من أجل إيصاله، وفي رحلة البحث عن المعنى يرتحل الفيلسوف من مقام إلى آخر. إذ لا يبدو أن "المعاني على الطريق" دوما بل هي تسكن طبيّاته و"شعابه". إن في لفظ المعنى ما يحيل على الاعتناء به والعناء به ولأجله. لذلك لا يبدو أن التفطن إلى المعنى والحرص على امتلاكه من الأمور اليسيرة على كلّ قارئ لنيته. فالفيلسوف يقنّ بالمعنى ولا يوجد به، لذا وجب الارتحال بحثا عنه، يراوغنا نيته بقدرته الفائقة على إخفاء المعنى المقصود وفي غياب المعنى تظلّ كلماته مثيرة للحيرة. فصارت قراءة هيدغر لكلمات نيته أمرا لا يقبل التأجيل منذ أن أصبح النصّ النيتشوي عرضة للتحويلات ومدعاة لأن يقرأ لا كما ينبغي له أن يقرأ، بل إنّه يقرأ ليصير كما أرادوا له أن يكون. إن هيدغر لا ينتقد هذه القراءات الإيديولوجية فحسب، بل يرهن على تهاونها. إذ يبدو أن هؤلاء القراء لم يفهموا ما يمكن أن تعنيه إرادة الاقتدار عند نيته. لقد اعتبرها بوملار في كتابه نيته الفيلسوف والسياسي (1931)² متعلّقة بسياق الحثّ على الحرب، أي تردّ إلى فكرة الصراع عند هرقليطس. لذلك يردّ الوجود عند نيته إلى الصراع

¹ - Münster, Nietzsche et le nazisme, Paris, Kimé, 1995, pp. 1- 14 – 15 – 17: « L'histoire de la réception de la pensée de Nietzsche est marquée par plusieurs paradoxes qui attestent tous que l'œuvre nietzschéenne a été l'objet de très nombreux malentendus que ce livre se propose de déconstruire. (...) les nazis ont non seulement tenté de récupérer – frauduleusement – un penseur « noble », européen, antinationaliste et défenseur des juifs, mais ils ont aussi réussi à noircir, auprès des générations post-fascistes, l'image du philosophe, en lui vouant un culte officiel et en le rangeant abusivement du côté de Gobineau, de P. de La garde, de Chamberlain, de Stocker et de Hitler. »

² - l'ouvrage d'Alfred Baeumler sur Nietzsche intitulé: Nietzsche, der Philosoph und politiker, est publié pendant l'entre-deux-guerres et paru en 1931. Après 1933, Baeumler « fera concurrence à Rosenberg comme leader idéologique dans la parti national-socialiste, place au premier plan le Nietzsche philosophe de la puissance, qui existe certes lui aussi ». (Safranski, Nietzsche, biographie d'une pensée, Paris, Solin Actes Sud, 2000, pp. 309-310.)

الدائم بين الإرادات، فكلّ إرادة ترمز إلى عرق من العروق الخاصة بشعب معيّن أو بطبقة معيّنة.

يؤكد هيدغر أنّ باوملار "لا يفهم نيتشه ميتافيزيقيا بل إته يؤوله في معنى سياسي"¹. كما تجدر الإشارة إلى أنّ البعض الآخر من هؤلاء القراء هم المنتمون إلى "اليمن الجديد"²، وهم من أرادوا قراءة إرادة الاقتدار بردها إلى نزعة الانتقاء البيولوجي أو "البيولوجيزم" (Biologismus)، أي يقرّون بأنّ إرادة الاقتدار عندما تفهم من جهة كونها حياة، تشرع لانتقاء (Züchtung) العناصر (Rasse)، كما تدعو إلى منع الضعفاء والمرضى من التناسل والتكاثر³. غير أنّ هذه الفكرة أرهقت نيتشه فعلا نظرا لكونها تتعارض مع القول بإرادة الاقتدار ومع فكرة الصراع من أجل البقاء وحفظ النوع. قد يتبادر للأذهان أنّ نيتشه يتناقض في قوله لكنّ هذا التعارض ظاهريّ فحسب. إذ يرى أنّ في منع المرضى من التكاثر حفظا للنسل المقبل وحماية له من إمكانية توارث المرض. ففي هذا الأمر حرص على الحياة لا إلغاء لها، فهي لا تتعارض إذا مع إرادة الاقتدار لأنّ نيتشه كان ينصح منذ سنة 1883 بضرورة تأويل إرادة الاقتدار في علاقتها بالجانب الفيزيولوجي للإنسان: الجسد (Leib) من جهة كونه المحيط الناظم للكائن الحي⁴. فإن كان نيتشه مطلعا على بيولوجيا عصره ومساهما فيها، فإنّ ذلك لا يعني أنّه يرمي إلى تأسيس نزعة بيولوجية. لذلك يعمد هيدغر إلى رفض كلّ قراءة إيديولوجية تنطلق أساسا من فكرة انتقاء نيتشه إلى النزعات البيولوجية التي تشرع لمبدأ الانتقاء الطبيعي. إذ أنّ نيتشه لا يعارض فكرة الانتقاء الطبيعي الداروينية، لذلك يتحدث في المقابل عن الانتقاء المصطنع (sélection artificielle) التي يسمّيها نيتشه "السياسة الكبرى للكائن الحي" (la grande politique du vivant). بيد أنّ معيار الانتقاء هو معيار يتعلق بنجاح الكائن الحي نفسه في المحافظة على حياته، فالإنسان الذي يوفق في حياته هو الذي يعتبره نيتشه مبدأ للانتقاء⁵.

يعود هيدغر إلى الكتاب الرابع من إرادة الاقتدار والذي عنوان "التقويم والانتقاء" (Zucht und Züchtung) ليبين أنّ الغرض من هذا الكتاب يكمن في التشريع الانتقاء فعلا بل إنّما يشير إلى أهمية فكرة التنظيم والترتيب في حياة الكائن وأنّ معنى الحياة يندرج في سياق التخطيط لها تخطيطا صارما وواعيا⁶. ناهيك وأنّ نيتشه يصف الإنسان عامّة بالخشع

¹ - Heidegger, Nietzsche II, p. 28: «...il ne comprend point métaphysiquement mais interprète dans un sens politique».

² - Safranski cite Karl Bindung et Alfred Hoch, Safranski, Op. Cit. p. 312.

³ - Stigler Barbara, Nietzsche et la biologie, Paris, P.U.F, 2001, p.87.

⁴ - المصدر نفسه، ص. 44.

⁵ - Nietzsche, Ecce homo, « pourquoi je suis si sage », § 8, in, Stigler Barbara, Op. Cit. pp. 88.

⁶ - هيدغر، نيتشه 1، ص. 402.

(rapace)، أي أنه لا يقصد عرقا معينا بل كل إنسان مهما كان عرقه. لكن ينبغي الإشارة إلى أن نيتشه يتصور الموجود في كليته ويتصور الوجود من جهة كونه حياة. أن يكون الإنسان جسعا (Das Rautier) فذلك لا يعني أنه يفكر بيولوجيا، بل يفكر ميتافيزيقيا، ويرسم صورة العالم البيولوجية في سياق ميتافيزيقي أيضا¹. لكن ماذا يقصد بعبارة "بيولوجيزم"؟ هل ثمة فرق بين البيولوجيا و"البيولوجيزم" (Biologisme)؟

عالم هيدغر إدعاءات نزعة الانتقاء البيولوجي (البيولوجيزم) الموجهة إلى فلسفة نيتشه والتي تركز أساسا على الطعن في "كلماته الأساسية" في الصفحات الممتدة من 402 إلى 410 من نيتشه الأول، أي أنه سخر لهذا الأمر حيزا لا بأس به نظرا لكون "نزعة الانتقاء البيولوجي" هو خطر ينهش "كلمة نيتشه الأساسية" لإرادة الاقتدار من الداخل، كما يهدد وحدة فلسفته ككل. ويرى أنه ينبغي أن نبحث أولا عما تعنيه هذه العبارة وكيف يتوجب علينا تعريفها في علاقتها بمفهوم آخر هو "البيولوجيا". إذ يلحظ أننا "اعتدنا على تسمية" ما هو بيولوجي "طريقة في التفكير تؤول كل الظواهر من جهة كونها تعبيراً عن الحياة"². أما "البيولوجيا" فهي مذهب في الحياة، من جهة المعنى النباتي، الحيواني أو الإنساني³. بيد أننا لا نستطيع أن نتحدث عن "بيولوجيا" عند نيتشه دون الوقوع في الخلط، إذ ليس الأمر سيئاً. ينبغي إذن أن نكون على حذر إذا تحدثنا عن البيولوجيا عند نيتشه. إن هذه "البيولوجيا" التي قد تشمل نيتشه في حاجة إلى التعريف لأنها لو وجدت حقاً فإنها ستكون ذات معنى مغاير تماماً⁴. فماذا نقصد بقولنا "إن صورة العالم التي يرسمها نيتشه هي صورة بيولوجية"؟ ألا يبدو أن اللفظين الأساسيين "العالم" و"الحياة" هما الأمر نفسه، أي يستميان الموجود في كليته⁵؟ بمعنى كيف يمكن لفلسفة تتصور الوجود في كليته من جهة كونه "حياة" ألا تكون منتظمة انتظاماً بيولوجياً⁶؟

لا يوافق هيدغر على قراءة فلسفة نيتشه من جهة كونها "فلسفة حياة"، لأن هذه القراءة هي التي تشرع لقيام الإدعاءات البيولوجية حول "كلماته الأساسية". فمن هو المسؤول عن هذه القراءة؟

¹- المصدر نفسه، ص. 409.

²- المصدر نفسه، ص. 402.

³- المصدر نفسه، ص. 402.

⁴- المصدر نفسه، الموضع نفسه.

⁵- المصدر نفسه، الموضع نفسه.

⁶- المصدر نفسه، الموضع نفسه.

يرى فانيو أنّ هيدغر يلوم ويليام ديلتاي (Wilhem Dilthey) عن وصفه فلسفة الشطر الثاني من القرن التاسع عشر بكونها "فلسفة حياة"، إذ أنّ ديلتاي يصنّف نيتشه في كتابه **عالم الروح (Die Geistige Welt)**¹ ضمن فلاسفة الحياة الآخرين بدعوى أنّه كان منشغلا انشغالا كليًا بالتفكير في أمر الحياة بالاعتماد على نظرية وحدة العالم. يفهم ديلتاي أنّ نيتشه انزاح عن كلّ تفكير ميتافيزيقي ليستعير عنه بدراسة وصفية للحياة وهمومها وأغازها ومستجداتها².

يعترض هيدغر على هذه القراءة لأنّها مجرد قراءة "أدبية" (littéraire) للنص النيتشوي، والحال أنّه آخر مفكر في تاريخ الميتافيزيقا. إذا كان يمكننا التحدّث عن بيولوجيا عند نيتشه فإنّها ستكون لا محالة مختلفة في معناها عمّا هو متداول، إذ تسمّى "الحياة" عند نيتشه الوجود في كليته. لذلك يرى هيدغر أنّ "كلمات نيتشه الأساسية" تعوق كلّ قراءة بيولوجية لأنّه من طبيعة هذه "الكلمات" أن تتعلّق بالوجود في كليته أي أنّها لا تقرّ في سياق بيولوجي بل في سياق ميتافيزيقي³.

لا يرى هيدغر عيبا في أن يهتم نيتشه بالحياة، ولا يرى عيبا في أن يكون فكره فكرا بيولوجيا لكنّ ذلك يكون دائما على نحو من الأنحاء. فاهتمام نيتشه بالحياة هو اهتمام ينطوي أساسا ضمن تفكيره في أمر الوجود، فلا يستغرب هيدغر أن نسّم فكره بكونه بيولوجيا والحال أنّه يتصوّر كلّ شيء من جهة كونه حياة⁴. ألا يبدو أنّ "لفظ الحياة نفس الزين الذي للفظ الوجود"؟ بمعنى أنّ نيتشه نفسه يلاحظ "أنّا لا نملك تمثلا آخر للوجود" غير "الحياة"، فكيف يمكن لشيء ميت أن يكون⁵؟ "بيد أنّ هيدغر يسأل: "ماذا نعني بالحياة؟"، "أيّ معنى لوجود مؤوّل من جهة كونه حياة؟"، "أين وكيف يتقرّر هذا التأويل؟"⁶

أمّا الحياة، فيعرّفها هيدغر بكونها تصلح أن تكون معيارا أساسيا لتقييم الأشياء من جهة وجودها أو عدم وجودها، فكلّ من يحيا وكلّ ما يحيا هو موجود. فالحياة تخصّ إذن تجربتنا اليومية والمباشرة أي ماهو يويّ ومعاش⁷، كما تلتصق الحياة بالوجود أو هما الأمر نفسه. لكن لا يمكن أن نعتبر ذلك من الأمور البيولوجية بل هو في تقدير هيدغر أمر ميتافيزيقي أساسا. غير أنّ هيدغر يرى أنّه بات من الضروري أن نبحث في طيات مفهوم "البيولوجي"

¹ - W. Dilthey, Le monde de l'esprit, Trad. M. Remy, Paris, Aubier-Montaigne, 1947, pp. 370-371.

² - Gianni Vattimo, Introduction à Nietzsche, Trad. Fabienne Zanussi, Belgique, Le point Philosophique, 1999.

³ - هيدغر، المصدر نفسه، ص. 402.

⁴ - هيدغر، نيتشه 1، ص. 403.

⁵ - Nietzsche, La Volonté de puissance, n° 582, 1885-1886, Cité par Heidegger, Nietzsche I, p. 403: « L'être_ nous n'en avons d'autre représentation, que "vivre"_ Comment alors quelque chose de mort pourrait-il "être" ? ».

⁶ - هيدغر، نيتشه 1، ص. 403.

⁷ - المصدر نفسه، الموضوع نفسه.

(biologiste) وأن نغريه لنتمكن من تحصيل معناه الباطن لأنّ هذا "المظهر البيولوجي" الذي قد يظهر به نيتشه هو العائق الأساسي أمام تأويل "كلمات نيتشه الأساسية"¹.

تعرّف البيولوجيا عادة بكونها مذهباً في الحياة (Lehre von leben)، علم الحياة أو بالأحرى هي علم الوجود الحي². لكنّها تعني اليوم في تقدير هيدغر، "البحث العلمي حول ظواهر ومسارات وقوانين الحياة عند النبات، الحيوان والإنسان"³. غير أنّ ما يلفت انتباهنا في مثل هذا المقام هو إقرار هيدغر بأنّ كلّ علم لا بدّ له أن يتأسس على قضايا ميتافيزيقية، أي قضايا متعلّقة بجانب من جوانب الوجود، ويتعلّق بباطنه تعلّقاً يمكنه من مواصلة بحثه ومساره⁴. لذلك يرى هيدغر أنّ البحث العلمي لا بدّ له أن يرتبط بالتأمّل الميتافيزيقي، فالبيولوجيا الأصلية في نظره هي التي تعي بقضاياها الميتافيزيقية⁵. كما لا يرى أنّ فلسفة نيتشه قائمة على نزعة الانتقاء البيولوجي، فذلك هو ما يوحي به الظاهر فحسب. إذ أنّ نيتشه يأخذ من بيولوجيا عصره المفاهيم والقضايا المفتاح ليطوّرها دون أن يكون على وعي بكونها تتضمن جملة من القرارات الميتافيزيقية⁶. وبالتالي فكلّ من انساقوا إلى قراءة نيتشه قراءة بيولوجية هم اللذين لم يتعمّقوا في فهم فلسفته واكتفوا بما يشير إليه الظاهر أي ركّزوا على الملح الأول لنيتشه⁷. لذلك يقول هيدغر: "أنّ نيتشه أو نرفض إدعاء نزعة الانتقاء البيولوجي عند نيتشه فالأمر سيّان، ففي الحالتين نحن نكتفي بالملح الأول لفكر نيتشه خاصة وأنّ طبيعة منشوراته تشجّع على الميل إلى مثل هذه الإدعاءات"⁸.

لا يوافق هيدغر على قراءة نيتشه انطلاقاً من آثاره التي وقع تحريفها لغايات سياسية، لذلك يؤكّد في كلّ مرّة على اتّناء نيتشه إلى الميتافيزيقا وأنّ "كلماته الأساسية" لا تقرأ ولا تفهم إلّا في سياق ماهو ميتافيزيقي. فإذا كانت إرادة الاقتدار تحيل على فكرة الصراع، فإنّه صراع من

¹ - Heidegger, Nietzsche I, p. 404: « Rien ne serait plus forcé ni plus vain que de chercher à voiler ou seulement édulcorer la terminologie « biologiste » évidente de Nietzsche, comme aussi de vouloir ignorer que pareils termes, loin d'être une pure enveloppe, toute superficielle, renferment nécessairement une façon biologique de penser. Tout de même, l'habituelle caractérisation de la pensée nietzschéenne comme biologisme, justifié à certains égards, constitue le principal obstacle à une pénétration de ses pensées fondamentales ».

² - المصدر نفسه، الموضوع نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص. 404-405.

⁴ - المصدر نفسه، الموضوع نفسه.

⁵ - المصدر نفسه، ص. 407-408.

⁶ - المصدر نفسه، ص. 408-409.

⁷ - المصدر نفسه، ص. 409.

⁸ - المصدر نفسه، ص. 410.

« Que l'on se comporte par un oui ou par un non à l'égard du prétendu biologique de Nietzsche, dans l'un comme dans l'autre cas on ne fait que stationner devant le « premier plan » de sa pensée. Le genre des publications de Nietzsche contribue à soutenir cette attitude, encourage la propension à pareil comportement ».

أجل التعلق بالأرض والتغلب على السوء أي "لقتل الإله". لذلك لا يرى هيدغر أنّ إرادة الاقتدار تشترع للعنف، فإن كانت دوماً "الريدة لأن نكون أسياداً"¹ فإن الغاية التي تنشدها الريدة ليست المهينة على الآخرين بل سيادة الذات على ذاتها. بمعنى أنّ ماهية إرادة الاقتدار لا تفهم إلا في سياق ميتافيزيقي، أي من جهة كونها متعلقة بالوجود بما هو كذلك ومشرّبة نحوه دوماً². إنّ ذلك يدفع بسافرنسكي إلى الإفراج بأنّ الدروس التي ألقاها هيدغر حول نيتشه من سنة 1936 إلى سنة 1940 هي دروس أعدت خصيصاً لإيقاظ نيتشه من تواتر القراءات الأيديولوجية التي عمدت آنذاك إلى رسم صورة سيئة حوله، خاصة أنّ هيدغر كان قد انسحب فترة هذه الدروس من الحركة النازية³.

¹ - « un vouloir-être-maître ».

(، المصدر المذكور، ص. 102. Münster Arno - مونستار أرنو)²

³ Francis Guibal, ...et combien de dieux nouveaux, approaches contemporaines, 1. Heidegger, Paris, Aubier-Montaigne, philosophie de l'esprit, 1980, Avant-propos. ص. 9-10. لقد قبل هيدغر رئاسة الجامعة في 21 أبريل 1933، لكن على مضض مراعاة لمصلحة الجامعة. ثم انضم إلى الحركة 1966 ونشر "سنة Spiegel)، لكن هذا الانضمام لم يكن نتيجة اقتناع كلي. (انظر، الحوار الذي قام به "النازية NSDAP) "، ص. 12 و 17 يقول هيدغر Réponses et Questions sur l'histoire et la politique سنة 1976 بمناسبة وفاة هيدغر ضمن " Je ne voyais pas d'autre alternative à l'époque. Au milieu de la confusion générale des opinions et des tendances politiques représentées par 22 partis, il s'agissait de trouver une position nationale et surtout sociale (...) (...) en face de l'organisation uniquement technique de l'université, (il s'agissait de) regagner un nouveau sens à partir d'une réflexion sur la tradition de la pensée occidentale européenne ». لقد انسحب هيدغر من رئاسة الجامعة بعد عشرة أشهر (فيفري 1934). كما انسحب من الحزب النازي بعد أن تبين له أنّه ارتكب خطأ قد لا يغفر له البتة. لذلك تتعين قراءته لنيتشه محاسبة للنازية لانفاذه من التأويلات الأيديولوجية المختلفة، إذ يقول فرنسيس غيبال (Francis Guibal) ص. 10. ...et combien de dieux nouveaux. في تقديمه لكتابه (Francis Guibal) 1934 et devient ensuite vite suspect aux autorités qui le font surveiller. Son enseignement d'abord (sur Nietzsche notamment) est une "explication" critique implicite, parfois explicite, avec le nazisme ».

موانع التجديد الحضاري في فكر مالك بن نبي

د. جيلالي بوكري / جامعة الشلف

مقدمة*:

من الواضح أن التجديد الحضاري تصنعه جملة من الشروط ويتجلى في جملة من الميادين تمثل مظاهر الحضارة ومعالمها، ويمثل هو ذاته عامل البناء الحضاري لكل مجتمع دخل التاريخ فهو يمثل الديناميكا الحضارية لكونه استراتيجية شعب يريد التحضر وينفر من التخلف ويرغب في التطور الروحي والمادي، ولكونه نظاما يُنتج وخطة تُتبع لتطوير منتجات الحضارة الفكرية والمادية وللمحافظة على منتجات الحضارة القائمة واستمرارها من خلال الإبداع في مختلف المجالات فيتحقق التقدم والازدهار، ولكونه أسلوبا ينتجه المجتمع في كل إصلاح ينجزه لرد المفاسد والأضرار ومن أجل إعادة البناء، ويحتاج أي مجتمع إلى التجديد الحضاري حينما يحرص على بعث وإحياء قيم وأعمال وعادات طيبة نافعة يكون قد تخلف عنها في وقت سابق، لكن في هذه الحالات التي يكون فيها التجديد الحضاري جوهر كل العمليات الحضارية وأساس "الديناميكا الحضارية" عند ميلاد الحضارة أو عند تطورها أو عند إصلاح ما تم إفساده، وحتى في عملية البعث والإحياء وإعادة البناء تقف أمامه جملة من الأسباب تمنع حركته وتقضي على بواده وعلى الشروط التي تصنعه فيبقى التخلف وتثبت أسباب الجمود

* - **Résumé:** Le renouveau en matière de civilisation en constitue l'élément moteur et le facteur de sa continuité. C'est un mouvement de développement ascendant qui aspire toujours vers le meilleur. Ce mouvement, avec ses dimensions humaines multiples et complémentaires, est déterminé par certaines conditions qui lui permettent de se réaliser, mais se heurte parfois à des obstacles qui entravent sa concrétisation.

Les entraves du renouveau sont liées à l'individu et son milieu, et entrent en relation avec sa personnalité dans toutes ses dimensions ; des entraves à caractère vital, psychique et social. Certaines d'entre elles sont subjectives, d'autres sont objectives, certaines sont inhérentes à la société, d'autres en sont externes. L'individu et la société ne peuvent aspirer à la civilisation qu'en surpassant tout ce qui entrave le renouveau et la créativité pour atteindre le point à partir duquel commence le processus de mettre l'histoire en mouvement.

والتحجر، هذه الأسباب المانعة لقيام الحضارة ولقيام التطور الحضاري أو لإبعاد الإصلاح الحضاري وإبعاد أي فعل لأجل البعث وإعادة البناء هو ما نتعرف عليه في هذا المطلب.

إنّ موانع التجديد الحضاري تدخل في النسق الفكري لفلسفة الحضارة عند "مالك بن نبي"، استقالتها من بحوث في التاريخ وتاريخ المجتمع الإسلامي وواقع الشعوب المتخلفة والشعوب المتقدمة، لأنّ الصراع قائم بين التضرر والتخلف وكلما قامت أسباب التضرر زالت معها موانع التجديد الحضاري والعلاقة عكسية بين شروط الحضارة وأسباب ضعفها وانهارها وأفولها، بين موانع النهضة وشروط النهضة.

لقد حدد "مالك بن نبي" في أكثر من بحث وفي أكثر من كتاب وفي أكثر من محاضرة شروط نهضة أي شعب وهي شروط الحضارة معتبرا المشكلة الأم في حياة الإنسان هي مشكلة حضارته، والحضارة مرتبطة بعوامل بناء كما ترتبط بعوامل هدم للبناء، وأسباب تقتضي البناء في مرحلة ما قبل الحضارة هذه الأسباب التي تقتضي شروط البناء أو تهدمه ترتبط بحياة الفرد والمجتمع في جميع مجالاتها الروحية والفكرية والاجتماعية.

إنّ غياب الفكرة الدينية في حياة الفرد والمجتمع الروحية والتي تمثل الشرارة التي تنبعث منها أضواء التجديد الحضاري وأنوار الحضارة يؤدي بالضرورة إلى عجز الإنسان عن السيطرة على مكونات العدة الدائمة والتركيب بينها في وحدة عضوية تسمى الحضارة، ومما يعود إليه غياب الفكرة وعجز الإنسان عن التركيب بين العناصر الأولية للحضارة، الجهل والوثنية، "وإذا كانت الوثنية في نظر الإسلام جاهلية، فإن الجهل في حقيقته وثنية لأنه لا يغرس أفكارا بل ينصب أنصبا وهذا هو شأن الجاهلية".¹ فالفترة التي كانت قبل مجيء الإسلام سبها القرآن الكريم بالجاهلية ولم يقر فيها ذلك التراث الأدبي، "لأن التراث الثقافي لم يكن يحتوي سوى الديباجة المشرقة الحالية من كل عنصر "خلاق" أو فكر عميق".²

إنّ غياب الأفكار وسيطرة الأوثان وانتشارها يمنع كل محاولة تجديد في المجال الثقافي الروحي والأخلاقي وهو الأمر في المجتمعات البدائية والمجتمع العربي الجاهلي الذي لم تكن علاقاته "المقدسة مع أفكار وإنما كانت مع أوثان الكعبة. فالكلام العربي آنذاك لم يكن يتضمن سوى كلمات براقة وخالية من كل بذور خلاقة. وإذا كانت الوثنية جهالة فالجهالة بالمقابل وثنية".³ والثابت في السنن الإلهية أنه كلما غابت الفكرة ساد الوثن والصم لكن العكس صحيح في

¹ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص36.

² - المرجع السابق: ص36.

³ - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 96.

بعض الأحيان، ففي الجزائر مثلاً وحتى سنة 1925 كان شعبها لا يعرف الأفكار بل يدين بالوثنية التي أقامت "نصها في الزوايا، هنالك كانت تذهب الأرواح الكاسدة للتماس البركات ولاقتناء الحروز ذات الخوارق والمعجزات".¹

ظل هذا الشعب الجزائري يلتمس رضا الأوثان ويدفع عن نفسه حمى الدراويش ويحترق بنيران أهل الزردة "الفتنة" غارقاً في الأوثان الخرافية الوهمية، حتى فعل الإصلاح في الجزائر فعله وأوشك الحال بالعودة إلى الروح الإسلامية حتى وجد الشعب نفسه أمام وثن جديد يغذيه الجهل ويزكيه والعزوف عن الفكرة الدينية التي كادت تخلصه من الوثن الخرافي.

إن احتلال الوثن مكان الفكرة في الحياة السياسية وسيطرة سلطة الصم على مقاليد الحكم في الدولة يؤدي إلى اتساع نفس الشعب لإهانة المستعمر وتتكون فيه الروح التي تقبل الاستعمار فتنشأ فيه القابلية للاستعمار، والوثن السياسي جمل وجاهلية بما يجب أن تقوم الحياة السياسية، «فجمل أو تجاهل القوانين الأساسية التي تقوم عليها الظاهرة السياسية والتي تقتضينا أن ندخل في اعتبارنا دائماً صلة الحكومة بالوسط الاجتماعي كآلة مُسيّرة له وتتناثر به في وقت واحد وفي هذا دلالة على ما بين تغيير النفس وتغيير الوسط الاجتماعي من علاقات متينة ولقد قال الكاتب الاجتماعي "بورك": "إن الدولة التي لا تملك الوسائل لمسيرة التغيرات الاجتماعية لا تستطيع أن تحتفظ ببقائها".²

عندما عرف الإنسان الوثن الخرافي ومعه الوثن السياسي ولم يعرف ذلك القانون السياسي أصبح في أمس الحاجة إلى شعار «غير نفسك فأنت تغير التاريخ». ³ ولم يدرك بأن الحق يشترط الواجب، "وأن الشعب هو الذي يخلق ميثاقه ونظامه الاجتماعي والسياسي الجديد عندما يغير ما في نفسه".⁴

غرق في التخلف واختفت عنده بوادر التقدم والنهضة وتلاشت مطالبه وحاجاته في "السراب السياسي" وكان ذلك بفعل جمل العوام وتجاهل البعض الذين طالبوا بالحقوق ولو مع الجهل والعري والوسخ، "ألا قاتل الله الجهل، الجهل الذي يلبسه أصحابه ثوب العلم فإن هذا النوع أخطر على المجتمع من جمل العوام لأن جمل العوام بين ظاهر يسهل علاجه، أما الأول فهو متخف في غرور المتعلمين".⁵ فالجاهل يبيت الأفكار وينشأ الوثن الخرافي كما يظلل

¹- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 37.

²- المرجع السابق: ص 42.

³- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 100.

⁴- المرجع السابق: ص 100.

⁵- مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 50.

الشعوب ويخادعها بفعل غرور المتعلمين وفي الحالتين معا لا يقوم مقام لشروط التجديد الحضاري لتعمل عملها.

ترتبط أية حضارة في ميلادها بفكرة واضحة مضبوطة تحمل المبدأ وتحدد الغايات قريبة كانت أو بعيدة التي يعيش لأجلها الفرد والمجتمع، فالحضارة هي "نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ".¹ لكن هذه الفكرة لا تقوم بوظيفتها الاجتماعية والحضارية إلا بتوفير جملة من الشروط النفسية والأخلاقية وعمل هذه الشروط وتوفيرها أمر ممكن في غياب الجمود الفكري الذي يملأ الحياة العقلية والفكرية لأفراد المجتمع، وهذا الركود في عالم الأفكار وهو ركود في عالم الأشخاص والأشياء يكون في حالات عديدة أولها حالة ما قبل الحضارة التي تفتقر إلى الفكرة الواضحة محرك عملية التاريخ، بحيث يقوم الجمود الفكري بمنع قيام شروط التجديد والبناء الاجتماعيين من خلال رد أية محاولة تغيير في المنظومة الفكرية الفردية والجماعية، وهو شأن كل الشعوب البدائية سواء تلك التي شهدت الحضارة أو تلك التي لم تشهدها.

أما الحالة الثانية فتخص مرحلة الحضارة، بحيث يكتسب المجتمع عادات فكرية تترسخ في نظامه الاجتماعي وتبقى حالة في ذهنيات أفراد ومنجزات حضارته، وهذه العادات الفكرية تقف في وجه كل جديد وتمنع التغيير ويصبح الركود الحضاري معول هدم للتجديد يقتل روح الإبداع الفردية والاجتماعية التي هي جوهر التجديد الحضاري وتطوير الحضارة وتحسينها بالتقدم الفكري والحفاظ على استمرارها وبقائها، وينتج عن هذا القتل سقوط الحضارة وأفولها مما يوسع في مجال الجمود الفكري فيزداد تخلف المجتمع وانحطاطه ويفقد معنى وجوده.

إنّ طريق الخروج من حالة الجمود الفكري للوصول إلى حالة يتطور فيها عالم الأفكار هو التغيير في حالة البداوة أو الحضارة أو ما بعد الحضارة، هذا التغيير يبدأ في نفس الفرد ثم يمتد نحو الخارج أي محيط الفرد وهو الطبيعة والمجتمع، فالفكرة الإسلامية هي التي ملئت عالم الأفكار عند المسلمين الأوائل تدل على تغيير جذري في المفاهيم والتصورات والعلاقات، هذا التغيير يخص نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى الآخرين وإلى الله والوجود وغير ذلك، وهي التي أخرجت عرب الجاهلية إلى مسرح التاريخ، وهو حال الفكرة المسيحية والفكرة البوذية والفكرة البراهمية، والنهضة الأوروبية الحديثة نتاج انقلاب فكري وحاصل تفاعل جملة من التغيرات التي دخلت عالم الأفكار في المجال المعرفي والعلمي والسياسي والاقتصادي وغيرها من المجالات الأخرى، إنّ التخلف والتراجع والانحطاط ظواهر تُنزل أي مجتمع من فوق وتمنع

¹ - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 41.

فيه أي مبادرة أو محاولة بناء أو تجديد أو إصلاح فهي ظواهر من إنتاج الجمود الفكري، وسبيل القضاء على الجمود الفكري الالتزام بالمبدأ القرآني الوارد في قوله تعالى: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".¹

لا يندمج أي مجتمع في التاريخ ما لم يتخطى عقبة الجمود الفكري، ويشهد نهوضا فكريا على مستوى الأفراد، و"يكون للأفكار دور وظيفي، لأن الحضارة هي القدرة على القيام بوظيفة أو مهمة معينة".² إن ظاهرة الجمود الفكري التي تمنع النهضة تعود إلى غياب الإرادة الحضارية، وانعدام الإرادة الحضارية يعني انعدام القدرة على التغيير لغياب النزوع أو القصد المشحون بالعزم والإصرار وغياب الشعور بأهمية التحول وضرورته لدى الفرد والمجتمع، وقد يتحرك بعض الأفراد نحو ذلك مثلما تحرك بعض الأبطال في التاريخ في عهد الأوديسة والإلياذة وهي عهود لم توجّه فيها الطاقة الاجتماعية نحو الأهداف الحضارية وكانت ملائمتهم لأجل اكتساب المجد الذي هو قريب من الأساطير وليس لأجل صنع التاريخ.

فالإرادة الحضارية هي تحول في ذات الفرد في صلته بالمجتمع، من خلال تحقيق ذاته والمعنى من وجوده، وهي إنتاج اجتماعي ذي وظيفة اجتماعية، وانعزال الفرد عن اتصاله بالجماعة يفقده الإرادة الحضارية ويضعفه ويتركه حبيس ظروف وأوضاع ليس فيها الإرادة في تقديم العون والمساعدة له، "إنه حينئذ يشبه الفرد الذي يبقى حيا بعدما يندثر جنسه في كارثة أرضية مأساته شبيهة بمأساة آخر ماموث من العصر الجليدي، يتيه في الفيا في الجمدة القاسية حيث لا يجد القوت".³ وهنا تبرز "أهمية الإرادة الحضارية وقبيلتها الاجتماعية وتصبح ضرورة حضارية لكونها تمثل إرادة المجتمع التي تجعل الحضاري ذات طابع موضوعي باعتبارها "جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتنمية الفرد".⁴

فغياب الإرادة الحضارية في حياة الفرد والمجتمع يعني فقدان المجتمع لوظيفته تجاه الأفكار وعجزه عن توفير الشروط الاجتماعية والمادية التي تضمن العون والمساعدة للفرد الذي هو جزء منه، وعجز المجتمع عن تقديم العون والمساعدة لأفراده بحيث لا يمنحهم القدرة والعزم والإصرار على التغيير، ولا يخلق فيهم القلق والتوتر والاضطراب لأجل التحرك في التاريخ فإن ذلك يمنع كل مبادرة تحول أو محاولة تغيير أو حالة تجديد في حياة الأفراد الفكرية والاجتماعية.

¹ - قرآن كريم: سورة الرعد، الآية 11.

² - مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 42.

³ - المرجع السابق: ص 43.

⁴ - المرجع السابق: ص 43.

إن جوهر الإرادة الحضارية هو التوتر الذي يمثل قوة للإقلاع والانطلاق، "والتوتر هذا فكرة دافعة، لا يمكن بثها عبر نظرية أو بأي إرشاد تعليمي".¹ تظهر هذه الفكرة حسب "توينبي" حينما يظهر المجتمع للرد على التحديات بأعمال منظمة وناجحة، وهي الفكرة التي كانت وراء "إقلاع الاتحاد السوفيتي مع التجربة "الستاخونوفية" وأوضح للصين الشعبية ثبات إقلاعها خصوصا منذ الثورة الثقافية قد سجل هو أيضا المرحلة الأكثر تفجرا في سياق تكوين واندماج المجتمعات الوليدة".²

فالإرادة الحضارية هي وراء المعجزات الكبرى التي صنعها الإنسان في التاريخ وترتبط دوما بالتوتر والأفكار الدافعة، فهي ضرورة كقوة إقلاع وانطلاق لبناء المعجزة وبناء الحضارة، "إن هذه القوة هي جعلت تلك المجتمعات تنبثق من العدم ونثرتها على مسرح التاريخ حيث بقيت قائمة بقدر ما بقيت هذه القوى تدعمها".³

إن الإرادة الحضارية تكون دوما وراء إنسان الحضارة ورجل التاريخ وهي إرادة إنسانية اجتماعية تنبع الفعالية في السلوك الإنساني وتفضي إليها باعتبار هذه الأخيرة شرطا ضروريا لقيام نهضة، أما اللافعالية فهي تمثل أحد العوائق أمام سير الإنسان نحو التجديد، وتعني غياب منطق عملي داخل المجتمع، هذا المنطق جزء من عالم الأفكار، وهو عجز في الأفكار "يخلق أو ينجح في المجال النفسي عجزا في "المراقبة الذاتية" وفي مراجعة النتائج".⁴ بحيث لا تقم الأفكار وزنا للعلاقات بين الأعمال والمجهودات والوسائل والسبل من جهة وبين النتائج المحققة من جهة ثانية ولا تحدد مفاهيم كفهوم العمل ووسائل العمل ومحاصيله بدقة في التربية الأولى فأفكار الإنسان عن العمل وعن نتائجه وشؤون العمل وكل ما يرتبط به في المجتمع متروك للصدفة والعفوية.

إذا كان المنطق العملي يعني ارتباط العمل بوسائله ومدلولاته ونتائجه وهي معطيات تكون مستحيلة في عالم الأفكار فإن اللافعالية تعني انعدام هذا المنطق، ويؤكد "مالك بن نبي" على أن المنطق العملي منعدم في جوانب كثيرة ومختلفة من حياتنا في البلاد العربية والإسلامية، "ونحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق، لأن العقل متوفر في بلادنا غير أن العقل الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه، فهو شيء يكاد يكون معدوما".⁵

¹- المرجع السابق: ص 46.

²- المرجع السابق: ص 45-46.

³- المرجع السابق: ص 48.

⁴- مالك بن نبي: فكرة كومنولث إسلامي، ص 59.

⁵- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 123.

فغياب الشعور بالمسؤولية وانعدام الشعور بضرورة التغيير وضعف الإرادة والانتباه كل هذا يجعل الأفكار راكدة ساكنة خالية من الفعالية عاجزة تماما عن توجيه الطاقات والمجهودات وعن استخدام الوسائل، "هذا العجز يخلق مفعولا اجتماعيا معيناً وسبباً نفسياً مصطنعاً ويمدد هذا المفعول ويمنحه تبريراً ومغالطة".¹ بحيث يبرز العجز ومعه التخلّف بالفقر أو الجهل أو المسافة وهي جميعاً نتائج ترتبت عن اللافعالية باعتبارها عجز في الأفكار وغياب اتصال عالم الأفكار بعالم الأشياء، هذه الوضعية جعلت التبدد يغلب على كل نشاط يمارسه الأفراد ويستشهد "مالك بن نبي" على ظاهري التبدد والتبذير الناتجين عن اللافعالية بمظاهر اللافعالية في واقع المجتمع الإسلامي إذ يقول: "نلاحظ أن التبدد هو الغالب بكثير في معظم الأحيان على الحصول وعلى خطتنا لبعض النشاطات النموذجية في الجزائر، تمكنت في دراسة ظهرت لي منذ بضعة سنين من الإشارة بالأرقام إلى تبدد مفرط لطاقتنا الاجتماعية وتبذير مسرف وغير محسوب في وسائلنا. وهذا مظهر من مظاهر اللافعالية التي تعزى إلى العجز في أفكارنا".²

فاللافعالية تمنع التجديد الحضاري وتنتج التخلّف الذي "هو نتيجة أو حاصل ضروب اللافعالية الفردية فهو فقدان للفعالية على مستوى مجتمع معين".³ وتصبح الفعالية هي الشرط الوحيد وراء كل نهضة ووراء تجديد هذه الفعالية، يحدد "مالك بن نبي" مفهومها على أساس قرآني في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾.⁴ فينبغي تسجيل الأحداث والأفعال في الأنفس لا على أنها قضاء محتوم وقدر مكتوب بل يجب تحديد المسؤولية منها وأدراك أسبابها وشروطها وقياسها بالميزان الصحيح وتوجيهها، عندئذ يعرف الإنسان بأنه هو مصدر هذه الأسباب التاريخية كلها، فهي تصدر عن سلوكه ونابعة من ذاته أي صادرة من إرادته "في تغيير الأشياء تغييراً يحدد بالضبط وظيفتنا الاجتماعية كما رسمها القرآن".⁵

إنّ نظرة الإنسان إلى الأحداث التي تحل به على أنها من صنيع القدر والقضاء تقتل فيه الفعالية فيصبح مسالماً مستسلماً للانتظار والتوقع العفوي بعيداً تماماً عن "الديناميكا" في

¹ - مالك بن نبي: فكرة كومنولث إسلامي، ص 61.

² - المرجع السابق: ص 61.

³ - مالك بن نبي: آفاق جزائرية، ص 121.

⁴ - قرآن كريم: سورة آل عمران، الآية 110.

⁵ - مالك بن نبي: تأملات، ص 126.

الفكر والحياة الاجتماعية عامة، وهو وضع ينطبق على جميع الشعوب المتخلفة المعاصرة، فهي شعوب لا فعالة حضاريا اختارت طريق الاستيراد والتكديس لا سبيل الإنتاج والبناء.

فشراء منتجات حضارة الغير وتكديسها يخلق مشاكل خطيرة بحيث تنمو اللافعالية وتموت الفعالية فيعيش الإنسان في تبعة حضارية لغيره ويكون عالة وليس هناك أخطر من التبعية الحضارية على حياة المجتمع وقيمه وهويته، فالتكديس مظهر من مظاهر التخلف والتبعية يعيق التنمية ويمنع التجديد الحضاري، فشراء منتجات حضارة ما وتكديسها "الحضارة الشيئية" لا يبني الحضارة إذ أن أكوام من الأشياء المستوردة لا تساوي حضارة، فالحضارة حاصل تفاعل جملة من الشروط في التاريخ نفسية واجتماعية، وتخضع عملية البناء الحضاري لجملة من القوانين مثل قانون المبدأ الروحي وقانون التركيب بين عناصر العدة الدائمة وقوانين التوجيه وغيرها، "فإن العودة إلى الريادة في المجال الحضاري تكون بالبناء المخطط المدروس المحكوم بفكر متحرر من إرادة الأجنبي وتأثيراته وليس بدفع الأموال لشراء مواد الاستهلاك المادي"¹.

في ظاهرة التكديس يقول "مالك بن نبي": "إن علينا أن نكون حضارة أي أن نبني لا أن نكدس فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس ولنا في الأمم المعاصرة أسوة حسنة بالحضارة هي التي تكون منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكون حضارة إذا من البديهي أن الأسباب هي التي تكون النتائج وليس العكس، فالغلط منطقي ثم هو تاريخي لأننا لو حاولنا هذه المحاولة فإننا سنبقى ألف سنة ونحن نكدس ثم لا نخرج بشيء"².

إن محاولة بناء الحضارة على الشيئية بشراء أشياء ومنتجات حضارة أخرى والحرص على تكديسها أمر ميؤوس منه ومستحيل والاستحالة كيفية وكمية معا، كما أوضح "مالك بن نبي" في كتابه شروط النهضة في "مبحث من التكديس إلى البناء"، كما أن للحضارة روح وشخصية تحدها جملة من الخصوصيات الفكرية والتقنية والاجتماعية للإنسان الذي شيدها، وإذا كان الإنسان يبيع أشياء حضارته فعندما تشتري منتجات هذه الحضارة "فإنها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها"³.

فالحضارة بناء يجري في المجتمع عندما يتحرك أفرادها في التاريخ فينتجون الجديد في عالم الأفكار وعالم الأشياء، ومن ذلك يتشكل التجديد الحضاري وتكون الحضارة، أما استيراد منتجات الغير وتكديسها فلا ينفع في أية محاولة للتحرر.

¹ - أحمد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص 103.

² - مالك بن نبي: تأملات، ص 167.

³ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 63.

إنّ ما خُصّت به الطبيعة البشرية ما يسميه "مالك بن نبي" "الطاقة الحيوية"، وهي من طبيعتها البهيمية لا تندمج مع الحياة في المجتمع بحيث أن اندماج الفرد الاجتماعي يراعي احتياجاته من ناحية واحتياجات المجتمع الذي يندمج فيه من ناحية أخرى¹. وتمثل الطاقة الحيوية جملة الدوافع الغريزية الحالة في كل فرد بالطبيعة، فالحاجات التي تتطلبها هذه الدوافع الفطرية لا يمكن تعطيلها، عليها تقوم حياة الفرد ووجود المجتمع، لأن انصهار الفرد في المجتمع يقوم تدريجياً من خلال الاستجابة لطبيعته من جهة ولجملة القواعد التي تكوّن النسق الاجتماعي.

المعروف أنّ التجديد الحضاري لا تقوم له قائمة إن لم يحصل انسجام وتكامل من الطبيعة الغريزية الخاصة بالفرد والنظام الاجتماعي السائد في المجتمع الذي يعيش فيه الفرد، فإلغاء واحد من الدوافع البيولوجية مثل دافع الغذاء أو دافع الجنس أو دافع التملك فإن ذلك يؤدي إلى سيطرة قانون الغاب الذي ينظم الحياة على أساس الأقوى لا الأفضل، ومن جهة أخرى فإن تحرير الدوافع الغريزية البيولوجية من كل ما يقيدها فإنها تهدم الحياة الاجتماعية وتحول المجتمع البشري إلى تجمع بهيمي تحكمه شريعة الغاب التي تقصر الحياة على مبدأ البقاء للأقوى والأشرس.

كثيراً ما ينشغل الإنسان بالدوافع البيولوجية ومطالبها على حساب حاجاته الإنسانية الاجتماعية والحضارية وهو حال الشعوب البدائية التي قضت حياتها في تلبية حاجياتها الحيوية ولم تعرف أبسط شروط النهضة وعوامل التجديد في نمط التفكير والسلوك، وهو حال أي جماعة بشرية تكون في مرحلة ما قبل الحضارة، بحيث أن انشغالها المتزايد بالحاجيات البيولوجية الحيوية يجعلها حبسة نمط معين من التفكير وأشكال محددة من السلوك، هذه الوضعية تمنع فيها كل محاولة لتجديد الفكر أو لتطوير العمل، أي تمنع كل مبادرة لتطوير الحاجيات ونقلها من المستوى الفردي إلى المستوى الاجتماعي وبالتالي تمنع تطوير الأعمال ووسائلها ونتاجها.

إنّ وضعية الإنسان في مرحلة ما قبل الحضارة حيث تسيطر الدوافع والمطالب الحيوية على حياة الناس وتمنع كل تجديد أو نهضة هي وضعية يعيشها حتى الإنسان المتحضر ولكن بصورة مغايرة للصورة السابقة من حيث النتائج لا من حيث الظروف والأسباب، فالحضارة تنتقل من المجال الروحي الأولي إلى مجال العقل حيث النماء والازدهار في جميع المجالات وهي مرحلة ينصرف فيها الناس إلى تلبية الشهوات والغرائز التي تسترجع سيادتها الغائبة أمام انحدار الروح ومطالبها ويغرق الجميع في حياة البذخ والترف واللهو فيؤذن لميلاد مرحلة جديدة هي

¹- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص49.

مرحلة ما بعد الحضارة فيها تتحرر الغرائز تماما من ريقه المجتمع هذا المجتمع الذي يتهدم وتهدم حضارته وتصبح في خبر كان.

إن تفضيل الغرائز والشهوات على الأفكار والقيم الروحية السامية والمثل العليا يضع الإنسان في مستوى هيمي لا يعرف النهضة ولا يصل إلى الحضارة، لأن الحضارة تكون حيث يكون الإنسان القادر على تحقيق توازن بين طبيعته الغريزية وطبيعته ككائن روحي يملك الروح والعقل ويتمتع بقدرات شتى تجعله مؤهلا ليسود في هذا الوجود.

إن موانع التجديد الحضاري المحددة في هذه الدراسة وهي كثيرة ومختلفة ومتداخلة فيما بينها أدت إلى نتيجة وضعت الإنسان في حالة لا يعرف فيها التحدي الفكري أو الاقتصادي أو السياسي بل حالة من التبعية اللامشروطة والانقياد الأعمى للآخرين في الفكر والسلوك وأنماط العيش عامة فتعرض للاستعمار بمختلف أشكاله بقسوته ومرارته وصار يملك "القابلية للاستعمار".

إن الكثير من أبناء الشعوب المتخلفة والمستعمرة تبرر التخلف والانحطاط في بلادها بالجهل والفقر والاستعمار، "وقام هذا الدّهان الأخير في الجزائر على قواعد ثلاث من اللازم أن نذكرها هي:

- لسنا بقادرين على شيء لأننا جاهلون.
 - لسنا بقادرين على أداء هذا العمل لأننا فقراء.
 - لسنا بقادرين على تصور هذا الأمر لأن الاستعمار في بلادنا".¹
- إن سبب التخلف والانحطاط لدى الشعوب المتخلفة عامة والشعوب العربية والإسلامية خاصة ليس خارجيا بل داخليا في نفس كل فرد من أفراد هذه الشعوب وفي الإطار الاجتماعي لكل مجتمع من هذه المجتمعات المتخلفة، "لا يأتي عامل الكف من خارج الذات بل هو سبب داخلي ناتج عن نفسية الناس وأذواقهم وأفكارهم وعاداتهم وفي كلمة واحدة ناتج عن قابليتهم للاستعمار".

إن المستعمر - بكسر الميم - يبعث المستعمر - بفتح الميم - بالكائن المغلوب على أمره ويريد منه عاطلا عن العمل ليسخره في الأعمال الشاقة بثمر زهيد ويريد منه جاهلا ليستغله ويريد منه متدنيا في الأخلاق لكي تنتشر الرذائل لتشتيت المجتمع وتفريق أفرادها حتى يحل بهم الضياع في

¹ - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي 80.

² - المرجع السابق: ص 83.

الناحية الأخلاقية مثلما هو حال الناحية الاجتماعية، كما يريد منه كائنا تغمره الأوساخ يظهر في سلوكه الذوق السيئ ليتعرض للذل والاحتقار، "وبذلك تكون العلة مزدوجة، فكلما شعر بدء المعامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج فإننا نرى في الوقت نفسه معاملا باطنيا للمعامل الخارجي ونخط من كرامتنا بأيدينا".¹

تمثل "القابلية الاستعماري" عائقا حضاريا داخليا ويمثل "الاستعمار" عائقا حضاريا خارجيا، لما لهما من تأثير سلبي، "وهو لا يظهر هنا في صورة أسطورة تكف العالم الإسلامي عن التطور وذهان يشله عن التغلب على مصاعبه النفسية والاجتماعية فحسب، بل يظهر أيضا في صورة محسنة وأعمال سلبية تهدف إلى طمس قيم الفرد وإمكانيات تطوره، ويكون هذا الجانب أكثر ظهورا حينما يكون الاستعمار استبدادي، كما كانت حاله في إندونيسيا وطرابلس الغرب، وكما هو الآن في شمال إفريقيا".²

يحرص الاستعمار كل الحرص على التمكن لاستقراره في البلاد المستعمرة مستهدفا الفرد والمجتمع يؤثر فيها لتقوية معامل "القابلية للاستعمار" فيزيد ذلك في السيطرة على المستعمر، فهو "يؤثر في حياة الفرد في جميع أطوارها يؤثر فيه وهو طفل، إذ لا يمدد المجتمع بما يقوي جسده وبنى فكره، أو يهيئ له مدرسة أو توجيهها، هذا إذ كان له أب يحنوا عليه أما إذا فقد من نشأته الأب فسيكون الأمر أدهى وأمر ولسوف يؤول صاغرا إلى ماسح الأحذية أو سائل يتخلى عن كل عزة وكرامة، بإراقة ماء وجهه".³

يؤثر الاستعمار في المجتمع تأثيرا سلبيا بحيث يهدمه ويزيف قيمه ويمنع فيه قيام أي شرط من شروط النهضة والإصلاح وأي عامل من عوامل البعث والإحياء وإعادة البناء مستعملا وسائل وأساليب عديدة مباشرة وغير مباشرة محلية ودخيلة، "كذلك نجده يحول بين الشعب وإصلاحه نفسه، فيضع نظاما للإفساد والإذلال والتخريب، يحو به كل كرامة أو شرف أو حياة هكذا يجد الشعب المستعمر نفسه محاصرا داخل دائرة مصطنعة، يساعد كل تفصيل فيها على تزييف وجود الأفراد".⁴

فلا سبيل إلى الحضارة أمام مجتمع تغمر أفراد "القابلية الاستعماري" أو خاضعا للدوائر الاستعمارية، فالحضارة من نصيب مجتمع يدرك أفراد معنى وجودهم ويتحررون من رقة الوثن الخرافي والوثن السياسي والوثن لاستعماري وتكون حركة بناء تدخل التاريخ لتسقر فيه.

¹ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 131.

² - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 99.

³ - مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 221.

⁴ - مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 101.

نستخلص مما سبق أن التجديد الحضاري له عوامل وشروط تحدته كما له موانع تقف في وجهه، هذه الموانع ترتبط بالفرد وبمحيطه، وترتبط بالفرد ككائن طبيعي ونفسي وعقل واجتماعي فهي موانع ذات طابع حيوي ونفسي واجتماعي وهي كذلك ذات طابع فكري ومنهجي، بعضها ذاتي في الفرد وبعضها موضوعي، بعضها داخلي في المجتمع وبعضها خارجي، وسبيل الفرد والمجتمع إلى الحضارة هو القفز فوق موانع النهضة والتجديد للوصول إلى نقطة منها تنطلق وتقلع عملية البناء التاريخي بعدما تتوفر كافة شروط هذا الإقلاع.

سؤال الحداثة في فكر طه عبد الرحمن من النقد إلى الإبداع

أ. بن سعيد محمد، قسم العلوم الإنسانية / المركز الجامعي البتيت

استهلال*:

إن الاستعداد للقيام بقراءة لمشروع الإبداع الفكري للأستاذ طه عبد الرحمن¹، هي مهمة ليست باليسيرة. والحقيقة أن من لا يملك عدة لغوية ومنطقية كافية لا يستطيع التعامل مع

* The question of Modernity in TAHA ABDURRAHMAN'S thoughts: From criticism to creativity Abstract The Preparing oneself to read the project of the intellectual creativity realized by professor TAHA ABDURRAHMAN is not an easy task. In fact, the reader who does not have rich linguistic competencies and enough philosophical background Especially in the logic notions, will be unable to deal with Taha writings. We perceive very much that dealing with his thoughts needs much patience, knowledge, and concentration. The said professor, is in fact a professor in the field of logic and the philosophy of language, and very acquainted with foreign languages, he is better known of good knowledge of the ugly reality of the Arab and Islamic nation. Throughout his project, we can deduce his ability of construction and expressing through structures with a good respect to an exact methodological chronology in his products. His issue "the question of ethics" published in 2000, followed by "the spirit of Modernity" published in 2006, are real witness for what was said. In these issues, professor Taha Abdurrahman analysed the problematic of "Modernity" from a quality approach. This, in fact reflects a distinct intellectual experiences, he approached the notion of "Modernity" differently from the way it was approached in the occidental philosophy. So, the problematic we are going to approach is: how did professor Taha Abdurrahman reformulate the foundation of the notion of modernity on the light of differentiating between its spiritual side and reality? And is there any side of authentic creativity in this reformulation or it is a simple imitation for what was brought up by his predecessors? Throughout this problematic, we are going to analyse the following three essential themes: _ No modernity with an existing imitation. _ The spirit of modernity and the principles of its application. - Modernity is a project of ethics.

¹ المفكر المغربي طه عبد الرحمن من مواليد عام 1944 بمدينة الجديدة، نشأ في بيت علم وفقه. التحق بالمدرسة العليا للأساتذة بالرباط، فتحصل منها على الإجازة في الفلسفة، وانخرط في سلك التدريس دون أن يقطع الصلة بالبحث العلمي منذ عام 1970. تمكن من متابعة دراساته العليا خارج المملكة المغربية حيث انتسب إلى جامعة السوربون وقدم أطروحة لنيل شهادة الماجستير في فلسفة اللغة عنوانها: language et philosophie: essai sur les structures linguistiques de l'ontologie (اللغة والفلسفة: رسالة في البنى اللغوية لمبحث الوجود). وكان ذلك عام 1972. ومن الجامعة نفسها، تحصل على دبلوم دكتوراه دولة في الفلسفة عام 1985. في المنطق والمنهجية الأصولية برسالة عنوانها: Essai sur les logiques de raisonnements argumentatif et naturels (رسالة في منطقيات الاستدلال الحجاجي والطبيعي ونماذجه). اشتغل الأستاذ طه بالتدريس. ولا يزال من الناحية الرسمية إلى غاية كتابة هذه السطور، لولا أن المرض ما يفتأ يمنعه عن ذلك أحيانا. فهو أستاذ للمنطق وفلسفة اللغة بجامعة محمد الخامس بالرباط. دافع بكل ما أوتي من جرأة على إدخال الدرس المنطقي واللغوي للجامعة المغربية. عمل الأستاذ طه عبد الرحمن، أستاذا زائرا في بعض الجامعات العربية، كجامعة قسنطينة بالجزائر وجامعة صفاقس بتونس، وجامعة آل البيت بعمان بالمملكة الأردنية، وصار خبيرا بالأكاديمية الملكية المغربية وعضوا بالجمعية الفلسفية العربية بعمان بالأردن وممثلا لجمعية الفلسفة وتواصل الثقافات والتي تتخذ من ألمانيا مقرا لها. عين عضوا بجمعية عالمية تعنى بالحجاج ومنطقه، اسمها الجمعية العالمية للدراسات الحجاجية والتي مقرها مدينة أمستردام بهولندا. ومع مطلع هذه الألفية الثالثة، صار عضوا في المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية الذي مقره طرابلس العاصمة الليبية، والاتحاد العالمي للعلماء المسلمين الذي

المتن الطهائي، ونحن ندرك جيدا أن تناول فكره يتطلب الكثير من المعرفة، والصبر والتركيز. فالرجل أستاذ للمنطق وفلسفة اللغة، وعلى معرفة دقيقة بالكثير من اللغات الأجنبية الحية (يتقن اللاتينية أيضا)، وهو يفهم جيدا الواقع العصيب الذي تمر به الأمة العربية الإسلامية. . كل هذا يعني أن القول الطهائي يتمتع بلياقة لغوية ومنطقية وفكرية عالية.

يرى طه عبد الرحمن، أنه صار من الواجب إعادة النظر في المفاهيم الفلسفية خاصة باعتبارها المدخل الطبيعي والرئيسي للمعرفة، وهذا تفاديا - كما يقول - لـ "قيام ازدواجية في الفكر الإسلامي العربي لم تورث أهلها لحد الآن إلا الجمود على ما نقلوه، فحرموا أيما حرمان من ممارستهم حقهم في الإبداع الفلسفي المختلف"¹.

في المشروع الفكري لطه عبد الرحمن، نقف على مقدرة صاحبه على البناء والصياغة وفق ترابط منهجي دقيق، واتساق محكم لمختلف الإشكاليات التي كانت محور اهتمامه. إننا ندرك ذلك بكل وضوح عندما نجد ذلك التناسق المنهجي والترابط العضوي ناطما لمختلف أعماله.

إن مؤلفه "سؤال الأخلاق (مساهمة في النقد الأخلاقي للحدثة)" الصادر عام 2000، المتبوع بمؤلفه الآخر "روح الحدثة (المدخل إلى تأسيس الحدثة الإسلامية)" الصادر عام 2006، من الشواهد الحية على ذلك. فلقد عالج الأستاذ طه عبد الرحمن في هذين العملين إشكالية الحدثة معالجة نوعية، تعكس تجربة فكرية مميزة. حيث تعامل مع المفهوم المنقول "الحدثة" تعاملًا مغايرًا ومخالفاً لمعناه المتداول في الفلسفة الغربية. لذلك فإن الإشكالية التي تتحور

يتواجد مقره بالمدينة المنورة بالملكة العربية السعودية. تمكن من نيل الكثير من الجوائز والتشجيعات والتكريمات داخل المغرب وخارجه، جراء ذبوع صيته من خلال مؤلفاته، فلقد حاز على جائزة المغرب في العلوم الإنسانية عن كتابه "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" الذي صدرت أول طبعة منه عام 1987. ونال التقدير نفسه عام 1995 بعد مرور سنة على صدور كتابه "تجديد المنهج في تقويم التراث". كما نال جائزة الدراسات الإسلامية من المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (الاسيسكو) للعام 2000 بمناسبة صدور أولى طبعات كتابه "سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحدثة الغربية".

عمل الأستاذ طه عبد الرحمن أيضا مستشارا وعشوا في الهيئة التحكيمية للعديد من الدوريات والمجلات العربية المحلية والعالمية. كمجلة "الواضحة" التي تصدر بالمغرب، ومجلة "النبراس العربي" التي تصدر بالملكة الأردنية ومجلة "التجديد" التي تصدر بكوالامبور بماليزيا، ومجلة "الكلمة" التي مقر صدرها بيروت ببلن... وعلى المستوى الويغرافي، تمكن الأستاذ طه عبد الرحمن من الوصول إلى قطاع عريض من جمهور القراء المهتمين بقضايا الفكر العربي والإسلامي وذلك عن طريق تداول الكثير من أفكاره عبر مواقع الكترونية كثيرة. مما حدا به إلى تأسيس موقع الكتروني رفقة بعض زملائه وطلابه اسماء "منتدى الحكمة للمفكرين والباحثين" وكان ذلك عام 2000. أثرى طه عبد الرحمن المكتبة العربية بمؤلفات منها: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام (1987) العمل الديني وتجديد العقل (1989). تجديد المنهج في تقويم التراث (1994). اللسان والميزان (1998). فقه الفلسفة 1-2 (1995-1999)، سؤال الأخلاق (2000) الحق العربي في الاختلاف الفلسفي (2002)، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري (2005) روح الحدثة (2006) سؤال العمل (2012) روح الدين (ط2. 2012) الحوار أفقا للفكر (2013).

¹ طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق (مساهمة في النقد الأخلاقي للحدثة الغربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط3، 2006، ص30.

حولها مداخلتنا هي: كيف أعاد الأستاذ طه عبد الرحمن تأسيس مفهوم الحداثة على ضوء التفريق بين "روحهما" و "واقعها"؟. وهل في هذه الإعادة إبداع أصيل أم تقليد لإبداع دخيل؟

1- لا حداثة مع وجود التقليد.

ينطلق الأستاذ طه عبد الرحمن من معارضة ذلك الرأي السائد عند الكثير من المفكرين والباحثين، القائل بأن الأخذ بقيم الماضي لا يؤدي إلى أي إبداع أو تجديد، ولا يزيد إلا من تكريس التقليد وترسيخه. معتقدا أن في التراث قيم منتجة، وفي الحاضر قيم لا تنتج، ومن الحكمة والتبصر أن نسعى إلى العمل بالقيم المنتجة، وترك القيم العقيمة بغض النظر عن الأبعاد الزمنية.

يندهش الأستاذ طه عبد الرحمن كثيرا إلى تعاظم واتساع آفة "التقليد" التي هيمت على الفكر والسلوك في المجتمع العربي والإسلامي المعاصر، وباستثناء هذا التقليد، أصيبت عقول مفكرينا بتيه فكري مافئ يحول بيننا وبين إبداع حداثة عربية وإسلامية أصيلة. لذلك يقرر أن تكون حملته على التقليد لا هوادة فيها، سواء كان هذا التقليد سلفيا أو حداثيا. بل يعتبره أشنع عند الحداثيين منه عند السلفيين. فهؤلاء الحداثيين يقلدون تراث غيرهم رغم اعتقادهم أن الحداثة والتقليد ضدان لا يجتمعان.¹ إن الفتنة المقلدة عند الأستاذ طه عبد الرحمن نوعان:

أ- مقلدة المتقدمين: هم أولئك الذين يقلدون المتقدمين من المسلمين، حيث يعتمدون إلى إسقاط المفاهيم المحلية التي يحتويها المجال التداولي الإسلامي أو المفاهيم "المأصولة" بتعبيره، على المفاهيم الوافدة من الخارج (الغرب الحالي)، أي المفاهيم "المنقولة" كما يدعوها. وهؤلاء المقلدين لا يجدون حرجا في إسقاط مفهوم الشورى مثلا، على مفهوم الديمقراطية، أو مفهوم الأمة على الدولة، وهكذا... إن غايتهم كما يبدو هي رد المنقول إلى المأصول، وهي عملية لا تعدو أن تكون إلا إيغالا في التقليد، بحيث تكون نتيجة تلك الجهود، هي سحق خصوصيات وروح المفاهيم المنقولة وإرغامها على التماثل والتماهي بالقوة مع المفاهيم المأصولة، في ذهول كبير عن المقاصد التي تحتويها هذه المفاهيم، وفي عدم من الوعي بمقتضيات المجال التداولي. ومن ثم تكون النتيجة الكبرى هي ترسيخ التقليد، والتوهم من أن ذلك هو "إستراتيجية" في الإبداع والتجديد. وهذه الطائفة من المقلدة، وبالرغم من عيها بالوفاء للمحافظة على الأصول، إلا أنها تجهل - أو تتجاهل - قانون أساسي في الوجود، هو قانون الاختلاف، هو ما يترتب عليه

¹ - طه عبد الرحمن: روح الحداثة (المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، لبنان- بيروت، ط1، 2006، ص ص 11-12.

إنكار ما في حضارات الآخرين من تجارب ونظريات وأنساق فكرية ومشاريع معرفية. . . من الجودة والثراء والتنوع والأصالة والتميز. . .

ب - مقلدة المتأخرين: هم أولئك الذين يقلدون المتأخرين من الغربيين، حيث يعتمدون إلى تبني إستراتيجية مخالفة لمقلدة المتقدمين، فيعملون على إسقاط المفاهيم المنقولة على المأصولة، فيستقون مفهوم العلمانية مثلا، على العلم بالدين، والحرب الدينية على الفتح، وهكذا. . . معتقدين أن ما تم تحقيقه من إنجازات منهجية، ومكاسب معرفية في مجالات المعرفة والعلوم، لاسيما في حقل العلوم الإنسانية، يشفع لمصادقية ومشروعية العمل بهذه الإستراتيجية، وهم بهذا السلوك الفكري والمنهجي في رد المأصول إلى المنقول، ليسوا أقل خطرا عن سابقيهم من طائفة مقلدة المتقدمين، فيصرون في اتجاه يفضي بهم إلى محو خصوصية المأصول، وإنكار ما فيه من جدة وأصالة، محاولين تطويعه وإرغامه على مطابقة المنقول ومماثلته، بل والنوبان فيه، يقول طه عبد الرحمن: "ظاهر أن كلا النوعين من المقلدة لا إبداع عنده، إذ مقلدة المتقدمين يتبعون ما أبدعه السلف من غير تحصيل الأسباب التي جعلتهم يبدعون ما أبدعوه، ومقلدة المتأخرين يتبعون ما أبدعه الغرب من غير تحصيل الأسباب التي جعلتهم يبدعون ما أبدعوه".¹ إن التقليد إذن، يقف حاجزا، يمنع التجديد النظري والفكري في العالم العربي والإسلامي منذ زمن ابن رشد، فهذا الأخير "وضع أصول التقليد في الفلسفة، وبدا أبرز مشرع له، . . .

أمد المحدثين بمشروعية هذا التقليد، وسهل عليهم طريق ممارسته"². والمعاصرون من المتفلسفة العرب لم يزدادوا إلا شغفا بتقليد المقلدين، واقتفاء آثار خطواتهم، فلا نجد في أفكارهم أو أقوالهم معالم إبداع أو تجديد، فهم "يؤولون إذا أول غيرهم، ويحفرون إذا حفر، ويفككون إذا فكك، سواء أصاب في ذلك أم أخطأ، وقد كانوا منذ زمن غير بعيد توماويين أو وجوديين أو شخصانيين أو ماديين جدليين . . . كما لو أن أرض الفكر لم تكن واسعة فيتفسحوا فيها، وقد ينقلب الواحد منهم بين هذه المنازع المتباينة، من غير أن يجد غضاضة في ذلك، ولا أن يستحي من نفسه، بل مع وجود الاعتزاز بفعله، وحصول الاعتزاز بعلمه، كل ذلك بحجة أن ينهض بواجب الانخراط في الحداثة العالمية أو أن ينهض بواجب الاستجابة للشمولية الفلسفية"³. لقد بدا لطله عبد الرحمن أن تقليد الفلسفة المنقولة، قد تمكن من نفوس

¹ - طه عبد الرحمن: المصدر السابق، ص12.

² - طه عبد الرحمن: حوارات من أجل المستقبل، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2003، ص115.

³ - طه عبد الرحمن: فقه الفلسفة، كتاب المفهوم والتأثيل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، لبنان- بيروت، ط3، 2008، ص12.

وعقول المتفلسفة العرب المعاصرين، وبلغ مبلغا لم يعودوا قادرين معه على تصور تقيض لما يقدون، أو ابتكار مثيل له¹. فلا مطمع للمتفلسفة العرب من الخروج الى التجديد، أو إلى تحصيل اليقين النافع - ومن ثم اجتثاث هذا المشهد السائد في الفكر العربي المعاصر - إلا بالوعي بأهمية بناء مقومات وتهئية شروط الإبداع والتجديد، التي لا تكون إلا بالتححرر من قيود التقليد، والتحرر أيضا من جاذبية الحداثة الغربية. وهذا كله لا يتحقق في نظر الأستاذ طه عبد الرحمن إلا بالالتزام بمقتضيات وقواعد المجال التداولي العربي الإسلامي، ومن ثم تمكن من "خرق حجاب التقليد الذي ظل مستبدا بالعقل الفلسفي العرب بما ينيف عن ألف سنة، وتمكين المتفلسف العربي من القدرة على التصرف في المنقول الفلسفي على الوجه الذي يوافق مجاله العربي أو اختياره الفكري...".²

ومفهوم "المجال التداولي" مفهوم مركزي في التأويل الطهائي، إذ أن مشروعه في الإبداع الفلسفي العربي يتأسس ويقوم عليه، بحيث أن ضوابطه التي هي عبارة عن المبادئ والقواعد العامة التي تضبط الثالوث اللغة والعقيدة والمعرفة، ضوابط يسلم ويعمل بها جميع المنتسبين إلى ذلك المجال³. كما وأن مفهوم "التقريب التداولي" ذو مكانة محورية في تحليلاته، باعتباره يمكن من تيسير مسالك تناول الشيء، وهي آلية اعتمدها طه عبد الرحمن كمسلك منهجي ونقدي في الاشتغال بعلوم من خارج المجال التداولي الأصلي، وتقريبها إلى مقاصد ومعاني مجالات التداول الأصلي، إن من جهة الاستعمال أو من جهة الاستفادة، وسنرى ذلك مع مفهومنا المحوري في هذه الورقة، مفهوم الحداثة باعتباره مفهوما وافدا من خارج مجالنا التداولي، ومن الأقوال الشهيرة لطله عبد الرحمن "ألا أنه لا يكون لنا من الحداثة والمعاصرة، إلا ما لنا من القدرة على الإبداع والمبادرة"⁴.

فكيف يتم التحرر من الحداثة المقلدة، وتحقيق الحداثة المبدعة؟ أي كيف السبيل إلى الخروج

¹ - يستشعر الأستاذ طه هذه الحرجة أيضا عندما يجد أن المتفلسف العربي قد يبقى أصما أبكما، لا يسمع ما يقوله غيره ولا يستطيع التواصل معه، كما هو حال المتفلسف المغربي مثلا. فهو "لا يقع في تقليد المنقول الفلسفي فحسب، بل يقع في تقليد التقليد، ذلك أنه لا يأخذ المذاهب الفلسفية من أصولها ومصادرها الأصلية في الغرب، إنما يعول فيها تعويلا على الكتابات والفهوم الفرنسية لهذه المذاهب، لا لاختيار مدروس، وإنما لاضطرار معلوم، يحكم القصور عن معرفة لغات غير اللغة الفرنسية." انظر: طه عبد الرحمن: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، ط2، 2006، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت، ص139-140.

² - طه عبد الرحمن: المصدر نفسه، ص16.

³ - لمزيد من التفصيل حول هذا المفهوم، أنظر: طه عبد الرحمن في "تجديد المنهج في تقويم التراث" الباب الثالث، لاسيما الفصلين الأول والثاني منه بدءا من الصفحة 237 إلى 297. (منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، لبنان-بيروت، ط2، د ت).

⁴ - طه عبد الرحمن: حوارات من أجل المستقبل، مصدر سابق، ص29.

من ضيق حادثة الزمن إلى سعة حادثة القيم؟ وبعبارة أكثر اختصاراً ووضوحاً: كيف نكون مبدعين للحادثة، لا ناقلين لها؟

2- روح الحادثة ومبادئ تطبيقها

لاشك أن التحديث الفكري والعمل في الواقع العربي يتأسس على تصور زمني للحادثة، أي يقوم على نقل أصم أجوف للحادثة في صورتها المألوفة والشائعة في بلاد الغرب، لاعتقاد راسخ هو أن التقدم يقتضي اللحاق بالركب الغربي. هذا الموقف الفكري هو أقصى ما استطاعه وعي مقلدة المتأخرين، ولم يتجاوزه قيد أنملة. وهو موقف شنيع في تصور طه عبد الرحمن، الذي انبرى إلى العمل على تقويضه:

يعرض طه عبد الرحمن لتعاريف كثيرة للكتاب حول مفهوم الحادثة، فهناك من عرفها بأنها "النهوض بأسباب العقل والتقدم والتحرر، ومن قائل أنها" ممارسة السیادات الثلاث عن طريق العلم والتقنية؛ السیادة على الطبيعة والسیادة على المجتمع والسیادة على الذات"، بل نجد منهم من يقصرها على صفة واحدة، فيقول أنها "قطع الصلة بالتراث" أو أنها "طلب الجديد" أو أنها "محو القدسية من العالم" أو أنها "العقلنة" أو أنها "الديمقراطية" أو أنها "حقوق الإنسان" أو "قطع الصلة بالدين" أو أنها "العلمانية، . . . أو أنها "مشروع غير مكتمل"¹. لاحظ طه عبد الرحمن أن تعدد هذه التعريفات أوقعها في تهويل لهذا المفهوم، حتى تبدو الحادثة وكأنها "كائن تاريخي عجيب يتصرف في الأحياء والأشياء كلها، تصرف الإله القادر بحيث لا راد لقدره"². إن هذه التعريفات وغيرها جعلت التقليد يترسخ أكثر، بحيث دخل الفكر المقلد في فتنة مفهومية يصعب الخروج منها، إنها ذلك التيه الفكري - كما ألمعنا سابقاً - فالجتمعات الأخرى تصنع المفاهيم، من قبيل الحادثة والعقلانية والعولمة وما بعد الحادثة، إلخ. . . مفاهيم لا يقوى المتلقي العربي والمسلم على استيعابها أو مضاهاتها، لذلك يقرر طه عبد الرحمن أن "المجتمع المسلم ما لم يمتد إلى إبداع مفاهيمه، أو إعادة إبداع مفاهيم غيره، حتى كأنها من إبداعه، فلا مطمع من أن يخرج من هذا التيه الفكري الذي أصاب العقول فيه."³

وبما الحادثة مفهوم ليس من إبداعنا، فينبغي أن نعيد إبداعه كما لو أنه إبداعا من عندنا، وهذا هو الإبداع المطلوب، فإن لم نكن قادرين على إبداع المفاهيم، فليجب أن نكون قادرين على إعادة إنتاجها، وتلك هي مؤشرات الأمة القادرة على النهوض والبقاء والاستمرارية الفاعلة والمؤثرة.

¹ - طه عبد الرحمن: روح الحادثة، ص 23.

² - المصدر نفسه، ص 24.

³ - المصدر نفسه، ص 11.

يعتقد الأستاذ طه عبد الرحمن أن هناك فرقا بين واقع الأشياء وبين روح الأشياء، والمقصود بروح الأشياء هو جملة المبادئ والقيم التي يكون ذلك الواقع تجسيدا وتطبيقا لها، فالحادثة لها واقعها ولها روحها¹. أي أن الأمر الجدي والجوهري هو الذي يقصد البحث عن الحادثة كقيم، لا عن الحادثة كواقع. إن هذا التفريق بين واقع الحادثة وروحها هو الأرضية الصلبة التي سيشيد عليها طه عبد الرحمن تصوراتهِ وتأويلاته للحادثة، فلقد بات في خلد الرجل أن جميع الأمم الحضارية تتساوى في الانتساب إلى روح الحادثة إذا ما تم الأخذ بالمبادئ والأسس التي تقوم عليها وتتقوم بها. ومن ثم فالقضية الجديرة بالبحث والمعالجة هي تلك التي تسعى إلى الخروج من واقع الحادثة الغربية بتطبيقاتها المعروفة والمشهودة إلى روح الحادثة بقيمها الإنسانية ذات الاحتمالات التطبيقية اللامحدودة. فما هي هذه المبادئ؟

لاشك أن الحادثة الغربية ومناصريها من المقلدة، تزعم أنها هي الحادثة الكلية الكونية، على أساس وحدة العقل والتاريخ. لا يتفق طه عبد الرحمن مع هذا الطرح ويراه مخالفا لمقتضيات الفطرة الإنسانية، التي تتأسس على القيم الدينية والأخلاقية وترتكز على الشعور الإيماني. وهذا "التشبيء" للحادثة مرده إلى الخلط بين روح الحادثة وواقع الحادثة. يحدد طه عبد الرحمن روح الحادثة الإسلامية في مبادئ ثلاثة هي:

أ- مبدأ الرشد: ومضمونه اختصارا، الالتزام بقاعدة سلوكية ومعرفية، يمكن صياغتها في العبارة التالية: "لا تقبل وصاية أحد على تفكيرك". إن العمل وفق هذا المبدأ يخرج صاحبه من حالة القصور والإتباع إلى حالة النضوج والرشد. وهو مبدأ ضروري وأساسي ويتفق مع التصور الإسلامي للحادثة. ومن دونه، لا يزداد التقليد إلا تعاظما. فما نراه اليوم هو أن "مقلدة المتأخرين" لم يتمكنوا من تحقيق مبدأ الرشد، والقول بأن الحادثة الإسلامية تتحقق بهم، هو قول دونه ولوج الجمل في سم الخياط. والقصور²، كما يفهمه طه عبد الرحمن هو "اختيار التبعية للغير"، وهذه التبعية أشكال ثلاثة هي: اتباعية استنساخية وآلية³

¹ - المصدر نفسه، ص 23.

² - لم يعرض طه عبد الرحمن إلى مبادئ الحادثة المألوفة، أي الحادثة الغربية مبادئ من قبيل (العقلانية، الذاتية، الحرية، ...) وذلك لاعتباره أن هذه المبادئ متضمن ومتفرع عما اقترحه في مبادئه الخاصة، إذ يقول عن مبدأ العقلانية مثلا: "تندرج العقلانية ضمن مبدأ النقد باعتبارها وسيلة له. وتندرج في مبدأ الرشد باعتبارها أصلا له. وتندرج في مبدأ الشمول باعتبارها سببا فيه، لذلك جاز أن نستغني عنها كمبدأ مستقل بنفسه...". انظر: روح الحادثة، ص 25.

³ - يستلهم طه عبد الرحمن الإجابة الكانطية عن السؤال الكانطي: ما الأنوار؟ ويعدها نموذجا في اعتماد الإنسان على استخدام فكره والإشراف عليه ومسؤوليته عنه، تلك الإجابة معروفة ومشهورة في كل الكتابات التي تتناول قضايا الحادثة والحرية والعقلانية الخ، يقول كانط: "ماذا تعني الأنوار؟ إنها خروج الإنسان عن حالة قصوره، ذلك القصور الذي يكون الإنسان ذاته مسؤولا عنه...".

17- طه عبد الرحمن: روح الحادثة، مصدر سابق، ص 25.

ويبنى مبدأ الرشد على ركنين أساسيين هما: الاستقلال والإبداع. فالاستقلال هو بلوغ مستوى يمكن من الوصاية على الذات والفكر والعمل بحيث يستطيع الإنسان الراشد تحقيق ذاتيته في التأمل والنظر والتفكير والفعل، ومن ثم يكون هو منطلق الحركة. وأما الإبداع، فيعكس قدرة هذا الإنسان على السعي إلى "أن يبدع أفكاره، وأقواله، وأفعاله، وكذا أن يؤسس هذه الأفكار والأفعال على قيم جديدة يبدعها من عنده، أو على قيم سابقة يعيد إبداعها حتى كأنها قيم غير مسبقة"¹

إجرائيا، يمكن أن تتحقق الحداثة الإسلامية وفق هذا المبدأ، على مستويات مختلفة، وذلك بمقتضى -الجمع بين "التنوير الذي هو توعية تخرج المدعو (المدعو إلى العودة إلى الدين الإسلامي) من الجهل السابق إلى المعرفة النافعة، وبين مقتضى التحرير الذي هو تعبئة عملية تخرجه من قيود المخلوق القديمة إلى أفعال الخالق الواسعة"² (19). ومن بين هذه المستويات، نأخذ مستوى واحدا كنموذج، هو مستوى الترجمة المبدعة و"تأثيل" القول الفلسفي؛ لنلاحظ ابتداء، أن المتفلسف العربي يتحرك فكريا في ساحة المنقول، ولما كان المنقول وليد الترجمة بالضرورة والطبيعة، فإن الفلسفة العربية الإسلامية تكون تابعة لها. ولا فلسفة عرفناها أو نعرفها، دون الترجمة. والترجمة التي يمارسها الكثير من المثقفين، ولاسيما أولئك الذين يحسبون على الفلسفة وقضاياها، أي أولئك الذين "يكابدون" رمضاء الهم الفلسفي في هذه الأمة، هي ليست من الترجمة في شيء من منظور الأستاذ طه، إنها ترجمة بكاء وعمياء، وهذا سر انعدام الإبداع الفلسفي العربي، فالفلسفة العربية - رغم وجود الترجمة - هي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، لأن "حياة الفلسفة تقاس بوجودان الإبداع فيها، وموتها يقاس بفقدان هذا الإبداع منها، والفلسفة العربية لا إبداع فيها، والسبب في موتها هو الطريقة التي تمارس بها هذه الترجمة، إذ هي طريقة بكاء لا تنطق، ولا إبداع بغير نطق، وطريقة عمياء لا تبصر، ولا إبداع بغير إبطار. ويأتي بكاءها من أنها تريد أن تنطق لغة أجنبية في لغة عربية، فلا هي نطقت هذه اللغة ولا تلك، ويأتي عياها من كونها تريد أن تبصر مجالا أجنبيا في مجال عربي، فلا هي أبصرت هذا المجال أو ذاك"³

لذلك، بقيت الحضارة العربية الإسلامية - ولا تزال رغم بعض الجهود المتواضعة جدا في مجال الترجمة منذ تلك لحظة ابن رشد وهو يشرح المنقول الأرسطي كما يرى طه عبد الرحمن - سجين أفكار الآخر القديم (اليونان) أو الحديث والمعاصر (الغرب الحالي). ولا تزال عاجزة

¹ - طه عبد الرحمن: المصدر نفسه، ص 26.

² - طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق، مصدر سابق، ص 173.

³ - طه عبد الرحمن: حوارات من أجل المستقبل، مصدر سابق، ص 95.

عن رفع تلك الوصاية التي يمارسها عليها. والمخرج من هذا الوضع، لا يتم إلا بالعمل على تجديد ممارسة فعل الترجمة، ترجمة حداثية مبدعة. ولقد فصل طه عبد الرحمن الحديث في الأنواع الثلاثة للترجمة التي اقترحها (التحصيلية، التوصيلية، التأصيلية). ليؤكد على أهمية النوع الثالث، على اعتبار أنها ترجمة استكشافية فيها تتجلى معالم الابداع في المفاهيم، والابتكار في التصورات، بعيدا عن الإتياع والتقليد.

إن تفاصيل وآليات نجاعة ونفع هذه الترجمة، عرض لها الأستاذ طه عبد الرحمن في الفصل الثالث من "روح الحداثة" والذي عنوانه "الترجمة الحداثية والاستقلال المسؤول"¹ وعلى هذا الأساس، فإن الانتقال من الاستقلال المقلد إلى الاستقلال المبدع، والانتقال من الإبداع المقلد إلى الإبداع المبدع، يسمح بإبداع حداثية عربية إسلامية من الداخل، لا إنزالها من الخارج² ومن دون سلوك هذا الدروب، أي من دون مراعاة مقتضيات الإبداع على مستوى القول الفلسفي ومراعاة مقتضيات التراث الأصيل، فإن روح الحداثة الفلسفية تظل ميتة ولن تكون صبغتها الواقعية ثابتة³.

ب- مبدأ النقد: انه يعني اختصارا، تملك ناصية الفكر النقدي، ويمكننا التعبير عنه في صيغة قاعدة سلوكية نقدية ومعرفية، كالآتي: "لا تتلق ما يصل إليك على أنه مسلمة وحقائق ملزمة". ولقد كان القدامى من المسلمين ينعنون هذا الأسلوب في النقد بـ "الاعتراض" أي أن المتلقي يعترض على ما يعرض عليه، وما يصل إليه، حتى تقوم الأدلة والشواهد عليه والتي يأتي بها الناقل - المدعي - ويعرضها أمام نظره. ومن البين أن هذا المبدأ يقوم ويتأسس على المطالبة بالتدليل كي يتحقق التسليم به. ولذلك فهو ضروري وأساسي، لأنه يعكس مدى قدرة العقل كفاعلية متجددة على التلقي المفيد وذلك بإعمال النظر التمحيص، وإصدار الأحكام نقيا أو إثباتا.

يقضي- هذا المبدأ عند طه عبد الرحمن أن: "الأصل في الحداثة هو الانتقال من حال الاعتقاد الى حال الانتقاد"⁴. وهو يبنى على ركنين أساسيين هما: التعقيل والتفصيل.

فالتعقيل أو العقلنة، هو الاستناد الى مبادئ العقلانية (التنبؤ، التجريب، الحساب، التقنين والتطبيق). أي أن الظواهر العلمية، والسلوكات البشرية، ومختلف المؤسسات الاجتماعية،

¹ - راجع أيضا: طه عبد الرحمن: فقه الفلسفة¹(الفلسفة والترجمة).المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط1، 1995. وتأمل في محاولته الترجمة لكوجيتو ديكارث في الباب الرابع بفصوله الثلاثة (بدءا من ص 409 الى غاية ص499).

² - محمد الشيخ: جاذبية الحداثة ومقاومة التقليد، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص210.

³ - طه عبد الرحمن: الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط2، 2006، ص149.

⁴ - طه عبد الرحمن: روح الحداثة، مصدر سابق، ص26.

ينبغي أن تكون خاضعة لهذه المبادئ، التي بفضلها "نتمكن من أن نحقق على التدريج أشكالا مختلفة من التقدم والتطور في الإحاطة بهذه الظواهر والمؤسسات والسلوكات والموروثات"¹. وأما التفصيل أو التفريق، فهو تحويل العناصر المتشابهة في الشيء إلى عناصر متباينة من أجل ضبط آليات كل عنصر منها، ففي مجال الثقافة مثلا، يكون التفصيل في القيم النظرية، والقيم العلمية، والقيم الرمزية. وفي ميدان المعرفة، يظهر التفريق بين العلم والفن والسياسة والأخلاق. وفي الحقل الاجتماعي، يتجلى التفريق في تباين وظائف وأدوار الأفراد والجماعات الفاعلة. . .

والانتقال من التعقيل المقلد إلى التعقيل المبدع، لا يكون إلا من خلال تقويض ودحض لبعض المسلمات الغربية من مثل "أن يعقل العقل كل شيء"، فالعقل لا يمكن أن يدرك ذاته بذاته، ويتعذر عليه إدراك الكل، لأنه جزء من كل، وعقل العقل يحتاج إلى عقل أقوى منه. وما دام العقل جزء من كل فمن غير المعقول أن يحيط الجزء بالكل. وكذلك مسلمة "أن الإنسان يسود الطبيعة" فهي باطلة من الأساس، فسيد الشيء هو مالهو والإنسان لم يخلق الطبيعة ولا هي مخلوقة بأمر - أو اقتراح أو طلب منه - بل سخرت له، يقول طه عبد الرحمن: "الطبيعة أم الإنسان وليست أمة له فقد خرج من رحمها كما خرج من رحم أمه التي ولدته والوالدة لا تكون أمة لولدها"³. فالعقل في التصور الإسلامي للحداثة يواد الطبيعة ويراحمها ولا يصارعها ويغالبها، والتعقيل المبدع يتميز بأنه يكون موسعا وليس مضيقا، وكذلك متنوعا وليس أحاديا، ولذلك فإن التعقيل الإسلامي هو ميثاق كوني شامل" يشمل العوالم كلها، المرئي منها وغير المرئي"⁴

يرفض طه عبد الرحمن أن يكون معيار التحديث، هو اعتماد التفصيل المطلق، كفصل السياسة عن الدين، أو فصل الحداثة عن التراث، أو فصل العقل عن الدين، الخ. . . . ولذلك فالانتقال من التفصيل المقلد إلى نظيره المبدع يقتضي الإقرار بأن الحداثة قد وقعت في هذا التقطيع. فالفصل بين الحداثة والدين لا ينبغي أن يكون مطلقا، ذلك أن في الأفكار والتصورات الحداثية الكثير من المضامين والأساليب التي لا تتعارض مع الدين، فالدين لا يتعارض مع العقل، ولا يعارض نموه وتطوره. وهكذا فالوعي بالحداثة، شرط أساسي في الانتقال من التعقيل المقلد إلى التعقيل المبدع، وكذلك في الانتقال من التفصيل المقلد إلى التفصيل المبدع، لأن "الحداثة لا تنال إلا بالإبداع، بمعنى أنه على الحداثي (. . .) أن يدع

¹ - المصدر نفسه، ص 27.

² - طه عبد الرحمن: روح الحداثة، مصدر سابق، ص 27-28.

³ - طه عبد الرحمن: روح الحداثة، مصدر سابق، ص 45.

⁴ - المصدر نفسه، ص 46.

في تعقيبه للأشياء وتفصيله لها¹ وإذا كانت الحادثة الغريبة على مستوى تطبيق هذا المبدأ تتأسس على التعقيل الأداتي، وعلى التفصيل المطلق، فإن التطبيق الإسلامي لروح الحادثة، يقوم على التعقيل الموسع، وعلى التفصيل الوظيفي الموجه. ولقد قدم طه عبد الرحمن نماذج حية استقاها من الواقع المعاصر، كنظام العولمة (بالنسبة للتعقيل)، ونظام الأسرة في الغرب (بالنسبة للتفصيل)، حيث انتهى إلى القول بأن "التعقيل الإسلامي يدفع المضار الناتجة عن التعقيل العولمي (..)" وأن التفصيل الإسلامي يدفع المضار التي تنتج عن ممارسة التفصيل داخل الأسرة الغريبة²

ج- مبدأ الشمول: ويعني أن من صفات الحادثة أنها تنتشر في المجتمعات كلها، وفي المجالات كلها، أي أنه لا يمكن حصر الحادثة في مجال مخصوص، لأن الأصل في الحادثة، الإخراج من حال الخصوص إلى حال الشمول³ والخصوص على نوعين:

- خصوص المجال: حيث يكون وجود الأفراد في دائرة جغرافية محددة،

- خصوص المجتمع: حيث أن أولئك الأفراد يتصفون بصفات حضارية وثقافية معينة.

والشمول الحداثي لا يتحقق إلا بتجاوز الخصوصية في هذين المجالين، أي الخروج من مضائق الخصوصية الجغرافية والثقافية الحضارية إلى فضاء الكونية والعالمية. ومبدأ الشمول يحتوي هو الآخر على ركنين مهمين هما: التوسع والتعميم. فالتوسع، يعني أن أفعال الحادثة تطال كافة المجالات الحياتية، وجميع مستويات السلوك، إن الفعل الحداثي ينبغي أن ينفذ ويؤثر في ميادين العلم والدين والفكر والسياسة والأخلاق والاقتصاد، إلخ.. كما يوسع النقد، بحيث لا يفلت شيء من قبضة النظر العقلي. يقول طه عبد الرحمن: "الروح النقدية التي تتمتع بها الحادثة، تجعلها لا تفرق بين مجال ومجال في واجب الاستيفاء لمقتضيات النظر العقلي"⁴

وأما التعميم، فيشير إلى أن أفعال الحادثة تتعدى الحدود الجغرافية والتاريخية والحضارية، فمنتجاتها وقيمتها، ترتحل إلى كافة المجتمعات، لتبدأ عملية محو الخصوصيات والفروق بالتدرج وهذه هي العولمة، بحيث تتغير دلالات بعض المفردات من مثل الإنسان والمكان، ويتقلص الزمن، وتزايد وسائل الاتصال إلخ..

والانتقال من التوسع المقلد إلى التوسع المبدع يقتضي- دحض بعض المسلمات من قبيل أن الحادثة قدر محتوم، وهو موقف استسلامي انهزامي يجب رفضه، يقول طه عبد الرحمن: "إن

¹ - المصدر نفسه، ص 34.

² - المصدر نفسه، ص 98.

³ - المصدر نفسه، ص 28.

⁴ - المصدر نفسه، ص 29.

الحداثة كما شاء لها الغرب أن تكون، لم تفرض عليه من خارج بطبيعة الأشياء، ولا من فوق بإرادة الإله، وإنما وضع قواعد بنائها بمحض إرادته وأنشأ مؤسساتها من عنده¹، وكذلك مسلمة أن الحداثة تورث القوة الشاملة، فهي مردودة، لأن القوة لا ينبغي فهمها في إطارها الضيق، فالحداثة الغربية بإنجازاتها الضخمة، حققت القوة المادية ليس إلا، ولم تؤدي بهم إلا إلى مزيد من الغطرسة والاستبداد والعنف، بدل العقل والحوار والديمقراطية. وبهذا تكون هذه الحداثة "قد ورثت أهل الغرب ضعفا روحيا فاحشا على قدر هذه القوة المادية الساحقة"².

ويغدو واضحا أن من مسلمات التوسع المبدع في التطبيق الإسلامي للحداثة هو أن الإنسان أقوى من الحداثة، وهو يملك "القدرة على أن يبدع حداثة ثانية - أي واقعا حداثيا - أفضل منها"³. كما أن الواقع الحداثي ينبغي أن يستوعب روح الإنسان مثلما يستوعب بدنه. وفي هذا توسع مبدع في روح الحداثة بلا أدنى شك. وأما الانتقال من التعميم المقلد إلى التعميم المبدع يقتضي هو أيضا العمل على درء بعض الآفات، من مثل أن قيم الحداثة قيم كونية، ولقد فات أنصار الحداثة الغربية أن هناك فرقا بين روح الحداثة وواقعها، ولذلك كان التطبيق الغربي للحداثة "تطبيق محلي تولى أصحابه إلزام الشعوب به وفرضه على واقعها، فهو إذن عبارة عن المحلي الذي رفع إلى رتبة الكوني عنوة"⁴.

وإجمالا، فإن من مسلمات التعميم المبدع هو التأكيد على أن الحداثة ليست كونية بقدر ما هي حداثة مبدعة، فالإنسان المسلم يتوسل بعقلانية الآيات وليس بعقلانية الآلات، ولذلك فإن التطبيق الحداثي الإسلامي يصير "تعميما وجوديا يشمل الكائنات كلها"⁵. بخصوص ركن التوسع، درس طه عبد الرحمن مفهوم المواطنة في التطبيق الحداثي الغربي الذي يركز على النظرتين الليبرالية والجماعية، ليجد أنه ضيق وقاصر، فالتصور الليبرالي يوقع المواطنة في انفصال مثلث: انفصال عن الذات وانفصال عن الواقع وانفصال عن الآخر، ويؤدي التصور الجماعي يوقعها في انغلاق مثلث: انغلاق في الجماعة وانغلاق في الخصوصية، وانغلاق في العادات، ولذلك فالمواطنة الحققة والصالحة "لا تكون إلا مواطنة متصلة ومفتوحة، أي عبارة عن مؤاخاة"⁶. فالمواطنة ليست تعبرا عن حقوق وواجبات، وقوانين وحريات الخ... كما

¹ - المصدر نفسه، ص 56.

² - المصدر نفسه، ص 57.

³ - المصدر نفسه، ص 56.

⁴ - المصدر نفسه، ص 65.

⁵ - المصدر نفسه، ص 67.

⁶ - المصدر نفسه، ص 234.

هو الحال في التصور الغربي، انها أيضا قيم خلقية عالية وإرادة روحية، من خلالها تتجلى الطبيعة البشرية الحقة. وفيما يتعلق بركن التعميم، يلاحظ طه عبد الرحمن أن التطبيق الغربي لروح الحداثة يقوم على مبدأ التعميم البشري الذي لا يخرج عن دائرة الآدميين وفقط، والتضامن تكون دائرته محصورة في العلاقات بين أفراد النوع الإنساني، في مقابل التصور الحداثي الإسلامي الذي يجعل مبدأ التعميم الوجودي يطال كل الكائنات، بحيث تكون العلاقات تتأسس على مبدأ التراحم، يقول طه عبد الرحمن: "التراحم هو التضامن وقد شمل الكائنات كلها الناطقة منها وغير الناطقة"¹. فرغم أن التطبيقين الغربي والإسلامي على مستوى هذا الركن، يتعاملان بإطلاق كوني، بمعنى أن كل منهما يتعامل مع العالم بكليته، إلا أنهما لا يتفقا على مدى هذا الإطلاق، فإذا كان هذا الإطلاق في التطبيق الحداثي الغربي "يتعلق بكل الأشخاص والمجتمعات والأمم، فإن التطبيق الحداثي الإسلامي، يرتقي بهذا الإطلاق درجة، فيجعله متعلقا، لا بالبشر وحدهم، وإنما بكل الموجودات التي يضمها العالم، عاقلة كانت أو غير عاقلة"².

بناء على هذا التحليل، نخلص الى النتيجة التالية: أن روح الحداثة الإسلامية لها خصائصها: فهي روح راشدة وناقدة وشاملة.

إن التمييز بين روح الحداثة وواقعها، تترتب عليه نتائج منها:
- أن الحداثة ليست تطبيقا واحدا، فهي روح لا تتجلى في مظهر واحد، ولما كانت هذه الروح جملة من المبادئ وليست مبدأ واحدا، فالمبدأ كما يضيف طه عبد الرحمن "لا يستنفذه أبدا تطبيق واحد، إذ هو

مبنية القاعدة العامة التي تجري على حالات مختلفة"³.
- عدم التناسب والتوافق بين روح الحداثة وواقعها، فواقع الحداثة الغربية ليس إلا وجهها من وجوه التطبيقات الممكنة - واللامحدودة كما عبرنا - لهذه الروح، ولما كان لكل مجتمع خصوصياته فانه يمكن القول أن لكل مجتمع حداثته الخاصة، أي أن الواقع الحداثي واقع خاص. ويلاحظ طه عبد الرحمن أن واقع هذا التعدد موجود، فالحداثة الغربية هي في حقيقة أمرها حداثات متعددة، فهناك حداثة ألمانية، وحداثة فرنسية، وثالثة انجليزية، الخ. . .

¹ - المصدر نفسه، ص 237.

² - المصدر نفسه، ص 275.

³ - المصدر نفسه، ص 30.

وهكذا فروح الحداثة ليست ملكا لمجتمع متحضر مخصوص، أو تطبيقا فريدا في عصر- معين، فالجميع يتساوى في الانتساب الى روح الحداثة، ولذلك لا يستبعد - في منظور - طه عبد الرحمن أن تكون روح الحداثة قد تحققت في الماضي عند أم غابرة. إن روح الحداثة ممكنة التطبيق في مجالات تداولية متباينة تمام التباين، وهي القاعدة التي أرسى عليها طه عبد الرحمن إيمانه بضرورة السعي في إنجاز حداثة إسلامية مميزة، مصدر أصالتها هو خصوصيات المجال التداولي الإسلامي. إن قيام حداثة إسلامية، أو بالأحرى، تحقيق تطبيق إسلامي لروح الحداثة، يقتضي تهيئة شروط موضوعية عامة منها:

- العمل على اجتنب آفات التطبيق الغربي لروح الحداثة، حيث كان من نتائج ذلك التطبيق المنحرف أن أدى في أحوال كثيرة إلى "نتائج مضادة للنتائج التي كان يتوخاها أصحابه أو يتوقعونها، أو يراهنون عليها."¹

- أن الحداثة لا تكون إلا تطبيقا محليا داخليا، وليس تطبيقا خارجيا، فلا وجود لحداثتين داخلية وخارجية، والادعاء بأن ماهر خارج الحداثة الغربية يمكن وصفه بالحداثة الخارجية لا يقوم على أي أساس، إذا ما وضعنا في اعتبارنا ان الحداثة ليست سوى تطبيق مباشر لمبادئها، فلا حداثة إلا من الداخل والقول بحداثة "برانية" إنما هو: "تطبيق للتطبيق الغربي لهذه الروح، أي تطبيق من الدرجة الثانية، بل تطبيق يرفع التطبيق الغربي الى رتبة الروح، منقطعا كليا عن الروح الحقيقية للحداثة."²

- أن الحداثة لا تكون إلا إبداعا، ابداع فيه جلال وجمال، لأن عملية الابداع في صميمها هي عملية جالبية، انها تعني رمز نشأة الجديد وميلاد الممتع، فالحداثة الحققة هي تلك التي يتمكن أصحابها من روح العصر، أي هي المسائرة المبدعة للعصر ولتقتضياته، ومن ثم فالحداثة واجب عيني.

3- الحداثة مشروع أخلاقي

إن واقع الحداثة الغربية، بهذه التطبيقات، قد أدى بالإنسان الى الوقوع في آفات أخلاقية لا يمكن حصرها، وليس هناك من مخرج سوى التطبيق الإسلامي لروح الحداثة، على أساس المبادئ التي تم عرضها، وكذلك وفق ضوابط وغايات أخلاقية، ستعطيها بلا أدنى شك، الصفة العالمية، وتعيد للحداثة روحها الأصلية، ففي نظر طه عبد الرحمن، انه بفقدان الأخلاق يختل نظام الحياة، ولذلك فان النقد الأخلاقي للحداثة يقصد الحداثة الغربية، لأنها أخلت

¹ - المصدر نفسه، ص32.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - طه عبد الرحمن لبرنامج تلفزيوني يدعى "مسارات" لقناة الجزيرة الفضائية القطرية، تم بثه في جوان 2006.

بالصفات الأخلاقية التي تعطي معنى للوجود الإنساني. ان الإنسان يتحقق بالقيمة الأخلاقية، يقول طه عبد الرحمن: "القيمة الأخلاقية أسبق على غيرها من القيم، بحيث لا فعل يأتيه الإنسان إلا ويقع ابتداء تحت التقويم الأخلاقي"¹ والأفعال التي يأتيها الإنسان كلها ذات دلالة وقصد، منها ما قد يحط منه، ومنها ما يرفعه ويزيده سمو وتطلعا الى كمال أحسن. ان للأفعال اذن لباسا قيميا إذا تجردت منه تصير أفعالا آلية. إن الأفعال التي يظن انها فاقدة لأساسها القيمي هي أفعال عقلية لكنها: "لا تمثل إلا الجانب الآلي من القوة العقلية التي يتمتع بها الإنسان، وعلى الرغم مما حققته تاليتها في صورة أجهزة عالية الدقة من تقدم مادي، فإنها تبقى الجزء الأخس من العقل، بل تبقى الجزء الأسهل ضبطا وامتلاكاً، مقارنة بأفعاله التوافقة الى الكمال"². ولذلك يعيب الأستاذ طه عبد الرحمن على دعاة الإصلاح المسلمين انسياقهم وراء ذلك الوهم، حيث اعتقدوا أن قوة وعزة الأمة في التشييد والبناء والإكثار مما هو مادي، بيد ان الأمة كما يقول: "أحوج الى البدء بتجديد الإنسان منها في تشييد العمران"³

يبدو واضحاً، أن الحداثة الإسلامية في الخطاب الفكري لطه عبد الرحمن، هي في جوهرها حداثة أخلاقية، على نقيض الحداثة الغربية التي تصدر في رؤيتها عن الفصل الجلي بين العلم والأخلاق، وإبعاد اللاعقل (الغيبات) عن العقل. ولعل ما يقوم به الحداثيون ومن يقادهم من العرب والمسلمين من وضع لحدود فاصلة مطلقة بين الأخلاق، والدين، والسياسة، ما يؤكد على هذا التوجه الجاف، الخال من القيم الروحية، رغم أن بعض الفلاسفة الغربيين من أمثال ديكارت، اسبينوزا، وكانط وغيرهم، شيدوا تصوراتهم ونظرياتهم الأخلاقية على النصوص الدينية التي توارثوها. ان الحداثة التي لا أخلاق فيها تكون ضيقة ورؤيتها قاصرة، ولا تستطيع أن "تزودنا بأسباب العقل الكامل"⁴. وهذا التحديد للعقل يجعلنا نعود الى الفهم الخاص للعقل وحدوده عند طه عبد الرحمن، وهي مسألة على غاية كبرى من الأهمية، ذلك أن العقل الكامل - هاهنا - ليس هو ذلك العقل الذي يخضع الدين والاخلاق لسلطته كما هو الحال عند كانط، بل الأمر عند طه عبد الرحمن على نحو مخالف تماماً، أي أن العقل الكامل هو الذي يكون مؤيداً بسلطة الدين، يقول طه عبد الرحمن: "إذا كان العقل المجرد يقصد معرفة الصفات، والعقل المسدد معرفة الأفعال، فان العقل المؤيد يقصد معرفة الذوات، ولا سبيل

¹ - طه عبد الرحمن: روح الحداثة، مصدر سابق، ص 15.

² - طه عبد الرحمن: سؤال العمل (بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط 1، 2012، ص 83.

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق، مصدر سابق، ص 99.

الى معرفة الذات بطريق النظر لانه لا يوصل إلا الى الصفات، ولا بطريق العمل لأنه لا يوصل الى الأفعال، وإنما بلوغ ذلك يتم بطريق يجمع بين النظر والعمل والتجربة¹. فالعقل المؤيد هو العقل الذي يستطيع تحصيل اليقين في نفع مقاصده، بوسائل ناجعة².

ولتحقيق هذا التكافؤ والتكامل بين النفع في المقاصد والنجوع في الوسائل، وجب الجمع بين القول والفعل، والربط بين المعرفة العلمية والمعرفة الغيبية، وسلامة الزيادة في العمل، ودوام الاشتغال بالله والتغلغل فيه. يقول طه عبد الرحمن: "ينبغي التسليم بوجود عقل أكثر توسعا من العقل المجرد، وميزة هذا العقل الموسع ذي الأصل الديني انه يجمع بين الحقائق الوجودية التي يتوصل إليها العقل المجرد وحقائق إيمانية يضيق عنها هذا العقل، وهي التي ينبغي ان تتأسس عليها حقائقه، حتى تكتسب معناها ويستوي مبناها"³ (51). ولذلك فإن الأمة الإسلامية ستبلغ الحداثة الحقيقية متى كانت على درجة متصاعدة من المجاهدة والارتقاء العام في التخلق مع الله والذات والغير وجميع الموجودات والمخلوقات.

إن العقلانية المجردة لا ترقى الى مستوى العقلانية المؤيدة حيث يسود التكامل بين مقتضيات الجسم، ومتطلبات الروح. ولعل هذه الخاصية التكاملية هي جوهر التجربة الصوفية الذوقية، حيث يكون الجمع بين التخلق والتفقه، بين المجاهدة والجهاد. وهكذا فالحداثة التي تركز على العقلانية المؤيدة، هي الحداثة التي تبني على القيم والمبادئ والعبادة⁴، ولذلك لا يرى طه عبد الرحمن تعارضا بين التعقل الخصب وبين التجربة الحية، بل ان هذه الأخيرة تكون سببا من أسباب إثراء هذه المعرفة والتغلغل فيها. وعلى هذا الاعتبار فإن مبادئ روح الحداثة (النقد والرشد والشمول) لا تتعارض مع الخصائص العمل الأخلاقي الصوفي، إذا علمنا ان مصدر العلم في التصور التداولي الإسلامي، ليس هو العقل البشري. إن العلم في تصور طه عبد الرحمن "لا تصنعه عقول البشر من غير تسديد الوحي، وإن العقل فيه لا ينفع إلا من حيث ارتكازه على الاشتغال الشرعي"⁴.

وهكذا فصاحب العقل المتصل اتصالا تاما ومثاليا بالعمل الشرعي من جهته؛ جهة المقاصد وجهة الوسائل " تكون أعمال جوارحه مطابقة لأعمال قلبه، بل قد تغلب أعمال قلبه على أعمال جوارحه، فيكثر من الصالحات ويستغرق في المجاهدات. . . . يحصل له اليقين في نجوع الأعمال التي يتوصل بها لا في تحقيق هذه المقاصد، لأن هذه المقاصد والأعمال هي عين المقاصد

¹ - طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط3، 2000، ص129.

² - طه عبد الرحمن: سؤال العمل، ص110.

³ - طه عبد الرحمن: العمل الديني وتجديد العقل، مصدر سابق، ص11.

⁴ - طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق، مصدر سابق، ص149.

والأعمال التي تقررت في الشرع¹. ان الإنسان بتوقيفه في سلوك هذا النهج سيصير². يرى نسبة الأفعال الى الأمر الأعلى قبل أن يرى نسبتها الى نفسه، وإلا لم ير نسبتها الى الأمر الأعلى وحده، كما انه يشهد الخالق في خلقه قبل ان يشهد المخلوق في نفسه، وإلا لم يشهد إلا الخالق وحده، بحيث يكون طريقه في الاستدلال هو الاستدلال بالمؤثر على الآثار وبالمظاهر على المظاهر².

إن القول بأن الحادثة روحها أخلاقي عند طه عبد الرحمن، يعني أن الصوفي عندما يعظم الشرع فانه في حقيقة الأمر يسعى أيضا الى تعظيم المعارف الثقيلة والذوقية، تحقيقا للمقصد الأسنى وهو معرفة الله، ولذلك يصر طه عبد الرحمن على المرافعة من أن الإصلاح الروحي والأخلاقي القائم على نبذ العنف أو التغيير الثوري يترجم الاتصاف بأوصاف العقلانية المؤيدة، ومن ثم تكون الحادثة المؤيدة أكمل وأيقن، وتبعث في الأمة روح التجديد.

4- وقفة ختامية

كان هذا عرضا سريعا لنظرية الحادثة عند طه عبد الرحمن الذي سمحت به حدود هذه الورقة. وإذا كان يصعب الإحاطة بالجوانب التفصيلية الدقيقة لهذا المشروع الذي يحتاج إلى دراسة طويلة مستفيضة فإن الأمر الأكثر صعوبة هو محاولة تقييمه، خاصة وأن صاحبه مازال يواصل العطاء، مما يعني أن هذا المشروع يمكن الإضافة إليه، كما أنه يقبل التعديل أو التغيير. وقد يبدو ان نظريته قد تحتوي على بعض اليوتوبيا أو المثالية، إذ أنه يحيل في الغالب إلى مشروع أكثر مما يشير إلى واقع بعينه، وإن كان هذا البعد اليوتوبي لم يحصر المشروع في دائرة المستحيل أو عدم قابليته للتحقيق.

لاشك أننا أمام صاحب دعوة صريحة الى نقد العقلانية الحداثية الغربية، طلبا لإنقاذ الإنسانية من مفاصل الحضارة الغربية. لقد أراد طه عبد الرحمن رسم "معالم فلسفة عربية إسلامية جديدة تنزل السؤال حول كيفية الالتحاق بالغرب منزلة أدنى، وترفع السؤال حول كيفية المساهمة في إخراج الحضارة الإنسانية من مأزق الحادثة مرتبة أعلى"³(56).

ولقد لاقى صاحب مشروع الابداع الفلسفي وصاحب "التقريب التداولي" بعضا من العناء، فوصف جهده الفكري بأوصاف مختلفة، فنعت مثلاً، بالصوت النشاز أو المفكر المتفقيه الخ...، وهي أحكام جزافية تصدر عن خلفيات ومنطلقات إيديولوجية واختيارات نظرية ومنهجية.

¹ - طه عبد الرحمن: سؤال العمل، مصدر سابق، ص 94.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - خالد حاجي: من مضايق الحادثة الى فضاء الابداع الاسلامي والعربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط 1، 2005، ص 175.

وحتى ان كان هذا الاختلاف الإيديولوجي والنظري والمنهجي مألوفاً ومقبولاً في مجال العلم والمعرفة، لكن القدح والأوصاف المعيبة لا تعكس سوى قصور في الطرح وعجز عن المواجهة. كما أن سوء فهم تصوراته في كثير القضايا الفلسفية والترجمية، لم يخلق إلا مزيداً من الفشل في اللقاء بينه وبين معارضيه¹.

نعود إلى موضوعه روح الحداثة، لنعيد التأكيد على أنها في جوهرها مقولة غربية، أي أنها مفهوم منقول، فالتمييز بين الحداثة وروحها هي فكرة تنسب إلى الفيلسوف المعاصر صاحب الفكرة الشهيرة "الحداثة مشروع غير مكتمل" الألماني يورغن هابرماس (1929-الآن) والذي لا يزال بدوره يواصل العطاء المعرفي، حيث تفرد بفكرة قيم الحداثة والتحديث في كتابه "القول الفلسفي للحداثة" (ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1995)، فلقد بدا لهابرماس أن قيم وتراث فلسفة الأنوار أنه يتعرض لمساءلات ومراجعات تفكيكية وبنوية أركيولوجية ذات صبغة تدميرية، من قبل فوكو ودولوز، وبلا نشو وغيرهم... ومع ذلك فإن إعادة إنتاجها في الوسط التداولي العربي الإسلامي وفق الإخراج الطلحائي لها، يتم عن قدرة على التعامل الواعي مع الوافد من المفاهيم.

كما أن التقسيم والتشقيق الكثيف وهو أسلوب يعتمده طه عبد الرحمن، رغم أنه يعكس تلك القدرة المنطقية واللغوية والمعرفية التي يتمتع بها صاحبها، حيث أنه يمكن وصفه بأنه رسام حدود في جغرافيا الفكر الفلسفي العربي المعاصر، إلا أن تقسيم المقسم وتجزئ المجزأ قد يجعل عملية متابعة تحليلاته بدقة، مهمة على غاية من الصعوبة.

وأخيراً نقول مع الباحث المغربي خالد حاجي: "مشروع طه عبد الرحمن النقدي، وإن بلغ درجة عالية من البيان والتماكك، يظل في اعتقادنا بحاجة إلى شرح وتقديم، فطه عبد الرحمن إذ يدعو إلى نقد العقلانية، قد يصنف عند دعاة العقلانية في قائمة اللاعقلانيين، وأما حين يساهم في نقد الحداثة، داعياً بذلك إلى وضع إشكاليات النهوض العربي والإسلامي في إطارها الإنساني الأوسع، قد يجرد الفكر الإسلامي والعربي القائمين على ثنائية "الأنا والآخر" من أسباب الفعالية السياسية المباشرة، مما قد يجعل مشروعه محط

انتقادات سطحية، الهدف منها - في أحيان كثيرة - هو ترهيد القراء فيه"².

¹ - في مقالة في مجلة "كتابات معاصرة"، العدد 77، 2010، يعرض صاحبها سامي ادهم رأيه في نقد حداثة طه عبد الرحمن، برؤية فيها طغيان للإيديولوجي على حساب المعرفي الصرف. وفي الجريدة البحرينية "الوقت" العدد 116، جوان 2006، يصف صاحب المقال إدريس هاني أن المشروع الفكري لطه عبد الرحمن بأنه متدهور دون قدرة على المواجهة، الخ.....

² - خالد حاجي: من مضايقات الحداثة إلى فضاء الأبداع الإسلامي والعربي، مصدر سابق، ص 154-155.

الحضور الصوفي... والمعرفة الروحية

كتاب خاتمة الرسائل لأهل الوسائل

للشيخ سيدي عدة بن غلام الله

حمدادو بن عمر*

توطئة**:

شكل القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين (12-13هـ/18-19م) نقطة تحول بارزة في تاريخ التصوف بالجزائر على مستوى التأليف والتنظير والممارسة. ثم تكاملت عناصر هذا التحول وترسخت قواعده من خلال الحضور الفعلي المباشر للمتصوفة في قلب

* - أستاذ قسم التاريخ وعلم الآثار جامعة وهران الجزائر.

* - Avant propos: Dans le douzième et treizième siècles (12-13AH/AD18-19), un tournant marquant dans l'histoire du soufisme en Algérie sur la théorie et la pratique et la composition. Ensuite, les éléments intégrés de cette transformation et les règles établies de la fréquentation durant les événements mystiques directs réels dans le cœur de la vie sociale, politique et culturelle, qui définit le pays pour la première moitié du XIIe siècle (12e/18m) et après.

Aujourd'hui le chercheur algérien dispose d'important matériaux source de l'intérêt pour les domaines de la mystique dans diverses manifestations, qui ont fourni un terrain fertile pour les affaires et la valeur de la recherche est considérée comme le début de l'accumulation de l'expérience scientifique nous fera oublier et sans doute ce que nous ressentons au niveau de la pauvreté du sujet. Et suite aux tendances de, « l'Université d'Alger » au patrimoine algérien ancien et nouveau, nous étions impatients de nouveaux sommets, dans la sélection et la manipulation, le patrimoine et la culture algérienne est devenu, au premier rang dans les désirs les plus intimes et la réalité de la recherche et des études, mais nous avons vu que -d'autres hors les Algériens - qui recueillir la force orientalistes à battre manuscrits, malgré celui les difficultés de l'écriture, et la pourriture et l'ancienneté de l'histoire...

Et ont entrés dans le domaine de la recherche, nous étions embrouillées devant la participation des mystiques scientifique, qui comprenait différents arts ; mais avec des degrés divers de l'art à l'autre. Bien que la méthode de recherche ne nécessite pas un repos à tous les aspects de soufis qui touchés tout les sciences des arts différents, " Cependant, il a recensé un nombre important de contributions scientifiques qui englobent quelques exemples qui peuvent être suffisantes et qui aident à clarifier leurs doctrines et fins".

Nous avons opté pour un manuscrit messages Conclusion de la population des moyens de Sidi Adda Ben Ghoulamallah, comme un modèle et comme une contribution à la connaissance de ces soufis dans le comportement sur le terrain spirituel.

L'étude, qui a été l'un des premiers de nos préoccupations a été le passage vers la sortie d'un certain nombre de blogs et de l'étude et de la réalisation patrimoine; selon de nouveaux programmes dans les domaines des sciences humaines et socio- anthropologique. Il en est ainsi que les chercheurs ont établi des relations et des ponts de connaissances reliant le présent au passé, cela est la vision d'un chercheur académique qui presque toujours a la recherche de la vérité historique, des sources originales et sous-jacente que nous avons besoin d'éclairer et de la définir.

الأحداث الاجتماعية والسياسية والثقافية التي عرفتها البلاد طوال النصف الأول من القرن الثاني عشر (12هـ/18م) وما بعده.

ويتوفر اليوم الباحث الجزائري على مادة مصدريّة هامة تنهم مجالات التصوف بمختلف تجلياته، مما وفر أرضية خصبة لأعمال وأبحاث قيمة تعتبر بداية لتراكم تجربة علمية ستجعلنا ولاشك ننسى ما كنا نشعر به من فقر في الموضوع، وتنطلع بأمل ويقين إلى منجزات أخرى تبني وتؤسس لتاريخ ثقافي وعلمي متكامل.

وبفضل توجهات "الجامعة الجزائرية" إلى التراث الجزائري، القديم منه والحديث، صرنا نتطلع إلى آفاق جديدة، في الاختيار والتناول، وأصبح التراث الجزائري وثقافته، يحتل المرتبة الأولى في طوية الرغبات وواقع البحث والدراسات، بل إننا رأينا - من غير الجزائريين - من يستجمع قوته من المستشرقين ليخوض معركة المخطوطات، رغم ما يلاص ذلك من صعوبات الخط، وعفونة التاريخ والقدم...

ورغم الممارسة التي تأصلت في تربة نفسي في حقل الدراسات التراثية، إلا أن الخوض في مثل هذه الحقول العلمية غالبا ما يكون مصحوبا بالحيرة والحذر، لأن موضوع المساهمة العلمية لمتصوفة الجزائر عموما ومتصوفة الناحية الغربية من بلادنا خصوصا؛ من أهم المواضيع التي نوصي طلبتنا بإعطاء حيز لها، وجعلها ضمن اهتماماتهم البحثية.

ومع توجهات بعض الزملاء المستمرة، وحرصهم الشديد على حصر هذا البحر الذي لا ساحل له، قد رسمت لنا الصورة المطلوبة، فزاد ذلك من قوة عزمنا وإصرارنا بما يفرضه علينا مجال البحث على تناول مثل هذه المواضيع.

وبينا كنا نخوض معترك البحث، فإذا بنا نقدم رجلا ونؤخر أخرى باقين حائرين أمام مساهمة هؤلاء المتصوفة العلمية التي شملت فنون مختلفة؛ ولكن بنسب متفاوتة من فن لآخر. ولئن كان منهج البحث لا يتطلب بالضرورة الوقوف عند كل مظهر من مظاهر تأثير المتصوفة بكل فنون العلم المختلفة، غير أنه قد رصد جملة لا بأس بها من وجوه المساهمة العلمية والمتمثلة في عدد من النماذج والأمثلة لعلها تكون كافية للدلالة على سواها، ومسغفة في الوقت نفسه على بيان مذاهبها ومقاصدها. واخترنا مخطوط خاتمة الرسائل لأهل الوسائل لسيدى عدة بن غلام الله، كنموذج معرفي ومساهمة من هؤلاء المتصوفة في مجال السلوك الروحاني.

ومما يزيد من أهمية موضوع الدراسة هو حاجة التنقيب عن مثل هذه المخطوطات والمدونات التي تعكس بأمانة وصدق أصداء مساهمة متصوفة الجزائر وحضورهم الصوفي خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، من خلال دراسة تراثهم الأدبي والفكري والعلمي، ودور ذلك في

إرساء دعائم قواعد الثقافة والمعرفة الروحية في ربوع الغرب الإسلامي، وهو أمر لم يحصل من قبل في الدراسات السابقة، ولم يحظ بعناية الباحثين والدارسين إلا عرضاً. وقد جاءت هذه الدراسة التي كانت من أولى اهتماماتنا فيها المضي قدماً نحو إخراج عدد من المدونات التراثية ودراساتها وتحقيقها؛ وفق مناهج جديدة ضمن حقول الدراسات الإنسانية والسوسيو أنثروبولوجية. وهذا حتى يتسنى للباحثين إقامة علاقات وجسور معرفية تربط الحاضر بالماضي، وهي رؤية الباحث الأكاديمي الذي يسعى دائماً نحو البحث عن الحقيقة التاريخية، من أممات المصادر الأصلية الدفينة والتي تحتاج منا إلى تنويه وتعريف. وقبل أن نلج في صلب الموضوع ارتأينا أن نعطي لمحة موجزة عن المؤلف ثم التعريف بكتابه ومن ثم تقديم مقتطفات منه للباحثين والمهتمين بالتراث الصوفي والروحي بالجزائر.

التعريف بحياة المؤلف

نسبه وأسرته:

الشيخ سيدي عدة بن محمد الموسوم بن غلام الله بن عبد الرحمن بن أبي القاسم بن محمد الحياطي (دفين بوقادير) ابن أبي عبد الله محمد المغوفل (دفين بطحاء شلف) ابن محمد بن واضح بن عثمان، بن سيدي الحاج عيسى بن محمد الملقب "بفكرون" بن القاسم بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عب الواحد بن محمد بن عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن محمد المدعو حرمة بن عيسى بن سالم الملقب بأبي القاسم بن مزوار بن علي الملقب حيدرة بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم¹. والشيخ سيدي عدة بن غلام الله سليل أسرة عريقة، اشتهرت بالعلم والورع والصلاح والجهاد، وكان جده الأكبر سيدي أبي عبد الله محمد المغوفل² صاحب بطحاء شلف من الأولياء الصالحين، أما والده فكان شيخ زاوية ومدرسا وعالما زاهداً. توفي عام 1226هـ/ 1811م. عن عمر يناهز الخمسة وسبعين سنة.

¹ - الشيخ الإمام أبو عبد الله شراك، وثبة تاريخية تثبت نسب سيدي عدة بن غلام الله، مسجد الشرفية، وهران. للتنبؤ به فإن الشيخ أبي عبد الله شراك لم يبخل عنا بمعلوماته القيمة وتزويدنا بمصنفات الشيخ سيدي عدة بن غلام الله أو حتى بمصنفات أعلام المنطقة الغربية على وجه الخصوص. فله منا جزيل الشكر وكامل الامتنان.

² - أنظر دراستنا عن هذه الشخصية: محمد أبو عبد الله المغوفل، (828-923هـ) دفين وادي شلف والتعريف بكتابه فلك الكواكب وسلم الرقيا إلى المراتب، "المجلة الجزائرية للمخطوطات، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، ع5، 2008م. ص ص: 183-194.

المولد والنشأة: في أحضان هذه الأسرة العريقة التي توارثت العلم كبرا عن كبر. ولد الشيخ سيدي عدة بقرية تدعى "مشتى الفقراء"¹ وهي الآن تسمى الزاوية، تقع ما بين اجدوية ووادي ارهيو سنة 1208هـ/1783م. نشأ في أسرة اشتهر أهلها بالعلم والصلاح والجاه. فتولاه والده الذي كان عالما ومدرسا بالقرية المذكورة آنفا، بالعناية حيث أخذ مبادئ العلوم الأولى في زاوية والده أين حفظ بها القرآن الكريم³.

قد تظهر في أول نشأة الإنسان علامات يعز بها أو يهان، فيستدل على ما يكون بما كان، ورب فراسة أصدق من العيان، فتعلم مبادئ القراءة والكتابة على يد والده كما سبق ذكره، ثم على يد معلم الصبيان الشيخ سيدي الجيلالي بن المولود البوعبدلي حيث قرأ عليه القراءات السبع. لينتقل بعدها رفقة والده إلى القلعة وبالضبط بقرية الدبة، والتي كانت عاصمة العلم والعلماء آنذاك. درس بها العلوم النقليية والعقلية على يد الشيخ سيدي الحاج بن حمو، وابنه الشيخ سيدي أحمد بن حمو. وفي عام 1226هـ/1811م توفي والده يوم الثلاثاء من شهر شوال وبقي في كفالة جده.

كما يذكر الشيخ سيدي عدة مرضه الذي كاد والداه أن ييأسا قائلا: "إني مرضت حتى كاد الأبوين أبي الموسوم وجدي غلام الله - رحمهما الله - في اليأس من الحياة وقدم عندنا لبيت الشيخ بلمهل المازوني الساكن في بوعلوقة أستاذ الأبوين"⁴. ثم يواصل حديثه: "ثم نطق الجد غلام الله قائلا: أيها الشيخ ما عند الموسوم ولد إلا هذا الولد، هو الذي ننظر إليه يعمر، أدع له بالشفاء، وأن يكون عالما ولياً، وإلا فيموت صغيراً أولى. فضحك الشيخ حتى حضرته الدموع وهو يقول سبحان الله هكذا تكون الرجال، إن لم يكن الولد عالما ولياً فموته أولى. فقال له الجد: "نعم، فنطق الشيخ ووضع يده على رأسي وقال: "إن قرأ فهو عالم..."⁵.

دراسته بمدرسة مازونة الفقهية

لقد كان لعلماء مازونة وصلحاء سهل الشلف والريف الغربي عامة الدور الكبير في المحافظة على تماسك المجتمع ووحدته في مواجهة أهل الزيف والانحراف، وقد عاصر وتلمذ على يد

¹ - وتسمى أيضا مشتى الغرق، وهي بلاد سيدي محمد فغول قرب ضريحه ببطحاء شلف

² - جدوية: بلدية من بلديات ولاية غليزان، تبعد عن مر الولاية بحوالي 15 كلم.

³ - الشيخ سيدي محمد الموسوم والشيخ سيدي عدة.

⁴ - الشيخ أبو عبد الله شراك، مخطوط نبذة حول حياة الشيخ سيدي عدة بن غلام الله، مخطوط خزانة الشيخ أبو عبد الله شراك، ورقة: 08.

⁵ - مخطوط نبذة حول حياة الشيخ سيدي عدة بن غلام الله، ورقة: 11.

المازوني النوازي كبار فقهاء القرن العاشر الهجري من أمثال العلامة أحمد بن يحيى ¹ الونشريسي صاحب المعيار الذي ترك سيرة حسنة وعلماً ينتفع به إلى اليوم. يرجع الفضل في بروز مدينة مازونة إلى الوجود كحاضرة علمية إلى الهجرة الأندلسية التي استقرت بها فأُسست بها هذه الجالية الموريسكية زراعة وصناعة فأصبحت شبيهة بقراهم ومدنهم الأندلسية وكنا قد أشرنا في عمل سابق لنا أن كل مدينة تظهر بالمغرب الأوسط ناتجة عن استقرار الأندلسيين الفارين بدينهم من أسبانيا ومحكم التفتيش، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر نذكر الهجرة الموريسكية إلى مازونة، فيها ظهرت مدرسة مدينة مازونة التي أقامها الشيخ محمد بن الشريف البولناوي، وهي نموذج من نماذج مدارس الجهة الغربية من المغرب الأوسط ².

ثم أسس الفقيه العارف محمد بن علي الشارف المازوني مدرسة تربوية بـمازونة في بداية القرن الحادي عشر الهجري، وقام بالتدريس فيها إلى أن لقي ربه، ثم تجدد ازدهار المدرسة على يد الشيخ أبو طالب محمد بن علي، في بداية القرن الثاني عشر الهجري، وخلفه على المدرسة أخوان من أبرز تلامذة المدرسة هما: الشيخ محمد بن هني وشقيقه الشيخ عبد الرحمن بن هني ³.

ومن درس وتخرج من مدرسة مازونة الشيخ سيدي عدة بن غلام الله مجدد الطريقة الشاذلية ومؤسس الزاوية في جبل محنون بضواحي تيارت، وأبي راس الناصر العسكري ⁴، والتي رحل إليها عام 1227هـ / 1812م، حيث كانت تستقبل طلاب العلم بسبب انتشار شهرتها العلمية والأدبية والفقهية، ووفرتها لعدد من العلماء الأجلاء أمثال الشيخ سيدي أبي طالب المازوني، والشيخ سيدي محمد بومهدي والشيخ سيدي التهامي. لينتقل بعدها إلى قرية مافر بعرض بسناس، وذلك عند الشيخ العلامة سيدي محمد بن عبد الرحمن فأخذ عنه التوحيد والنحو وعلم الحديث وعلم الأصول، ولما تضرع في العلوم النقلية والعقلية

¹ الونشريسي (834-914هـ=1430-1508م) أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني، أبو العباس: فقيه مالكي، أخذ عن علماء تلمسان. ونقمت عليه حكومتها أمراً فانهبت داره وفر إلى فاس سنة 874هـ فتوطنها إلى أن مات فيها. عن نحو 80 عاماً. من كتبه (إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك) و(المعيار المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس وبلاد المغرب) اثنا عشر جزءاً، و(القواعد) في فقه المالكية، و(المنهج الفائق، والمنهل الرائق في أحكام الوثائق) و(غنية المعاصر والتالي على وثائق الفشتالي) و(نوازل المعيار). خبر الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط1980، ج1، ص:269.

² Belhamissi(m), Mazouna, une petite ville, une langue histoire, Alger, SNED, 1982. P:49.

³ -بوعبد الله غلام الله، نظرة عامة على التعليم الأهلي في سهل الشلف خلال النصف الأول من القرن العشرين (أعمال الأسبوع الوطني الثالث للقرآن الكريم) الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف 1424هـ/2003م، ص:37.

⁴ -أنظر: دراستنا أبو راس الناصر وكتابات التاريخ، رسالة ماجستير مخطوطة، إشراف أ.د بن نعمية عبد المجيد، جامعة وهران، 2003م.

وأتمى تحصيله العلمي تصدر للتدريس بزاوية أبيه كما تفرغ للإمامة والفتوى وإصلاح ذات البين وإطعام الفقراء والمساكين.

هكذا كانت مازونة¹ مدرسة وحاضرة فقهية، ولا نعدم البحث في تراث هذه الحاضرة التي كانت في يوم ما عاصمة بإيلك الغرب الجزائري؛ فنعثر على مصادر دفيئة تمكننا من سد فجوات كبيرة في تراثنا الفقهي خاصة والعلمي عامة.

لقد كان لزوايا العلم والمعرفة المكانة الكبيرة في الحفاظ على القرآن والسنة النبوية، فلا تخلو حاضرة أو قرية أو تجمع ريفي بالغرب الجزائري إلا وفيه للعلم والمعرفة زاوية مشهورة أو شيخ رباني قعد للتدريس وتهذيب الناشئة².

شيوخه:

من العلماء الذين نهل منهم الشيخ سيدي عدة بن غلام الله علمه وورعه، نذكر جملة منهم:

1. والده الشيخ سيدي محمد الموسوم
2. الشيخ سيدي الجيلالي بن المولود البوعبدلي
3. الشيخ سيد الحاج بن حمو
4. الشيخ سيدي أحمد بن حمو
5. الشيخ سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمن
6. الشيخ سيدي محمد بوطالب المازوني³
7. الشيخ سيدي محمد بومهدي المازوني⁴
8. الشيخ سيدي التهامي المازوني⁵

¹ مازونة: بلدة بالمغرب بالقرب من مستغانم، وهي على ستة أميال من البحر، وهي مدينة بين أجيل، ولها مزارع وبساتين وأسواق عامرة، ولها يوم يجتمع فيه لسوقها أصناف البربر بضروب من الفواكه والألبان والسمن، والعسل بها كثير، وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصباً. محمد بن عبد المنعم الجيمري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تج: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، طبع على مطابع دار السراج، ط2، 1980، ص: 521.

² بلغيث محمد الأمين، مدراس العلم والقرآن الكريم بالغرب الجزائري، منذ القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، قراءة تاريخية، ص: 02.

Belhamissi (Mazouna, 3), p:50 (m).

⁴ Ibid, p: 52.

⁵ أبو عبد الله شراك، مخطوط "نبذة حول حياة سيدي عدة بن غلام الله" خزانة الشيخ أبي عبد الله شراك، المدينة الجديدة وهران. ورقة: 15.

• توليه القضاء على عهد الأمير عبد القادر

لما سمع الأمير عبد القادر بشخصية الشيخ سيدي عدة بن غلام الله¹ وعلمه وعدله وصلاحه، أسند إليه منصب القضاء، فقبله بعد تردد وباستشارة من شيخه سيدي مولاي العربي بن عطية، وكانت خطة القضاء التي كان يشرف عليها تمتد من وادي مينا والظهرة إلى وادي أسلي بالشلف².

ولقد كان الأمير عبد القادر يحبه ويحترمه، ويتجلى لنا ذلك من خلال ما كتبه الشيخ سيدي عدة بن غلام الله في سيرته الذاتية قائلاً: "وبقيت معه يحبني ويعظمني بحيث إذا قرأ رسالتي يبلها ويضعها فوق رأسه" ويواصل حديثه قائلاً: "وفي سنة 1257هـ/ 1841م كنت معه جنبي لجنبه قال له خديمه: "لعل أهل الشلف إن هجرنا لا يخرج معنا إلا عدة بن غلام الله، فقال له: "إن خرج عدة كأنهم خرجوا أهل الشلف"³.

وبقي قاضيا عدلا إلى عام 1257هـ/ 1841م أين انتقل بعائلته وسكن بقرية الحمادية قرب قرية عمي موسى إلى غاية 1258هـ/ 1842م.

تلاميذته:

إن مكانة وهيبة الشيخ سيدي عدة بن غلام الله وعلمه وورعه، كل هذه المواصفات جعلت منه شخصا مؤثرا في جميع التراكيب الاجتماعية آنذاك، فراح أتباعه ومريدوه يلتفون حوله ناهلين منه علمي الشريعة والحقيقة. من ين تلاميذته نذكر:

1. الشيخ سيدي الموسوم صاحب قصر البخاري
2. الشيخ سيدي بن عبد الله الغريسي
3. الشيخ سيدي الحاج البشير بن حواء الغريسي
4. الشيخ سيدي علي لقرع الغريسي
5. الشيخ سيدي محمد بن إبراهيم الغريسي
6. الشيخ سيدي محمد بن أحمد بربارة
7. الشيخ الحاج محمد البوعبيدي العطافي

¹ - المصدر نفسه، ورقة: 15.

² - شلف: نهر بالمغرب مشهور بقرب مليانة، وعليه مدينة قديمة أزيلت فيها آثار أولية كانت تسمى شلف، وإليها ينسب هذا النهر

وهي اليوم خراب. الروض المعطار في خبر الأقطار، المصدر السابق، ص: 343.

³ - الشيخ عدة بن غلام الله، السيرة الذاتية، ناسخه الشيخ أبي عبد الله شراك، ورقة: 12.

8. الشيخ أحمد بالختار البوعبدلي
 9. الشيخ سيدي محمد بالختار البوعبدلي
 10. الشيخ سيدي الحاج الطاهر البوعبدلي
 11. الشيخ سيدي المصطفى البوعبدلي
 12. الشيخ سيدي أحمد العصفوني
 13. الشيخ سدي محمد الغالي بن هني
 14. الشيخ سيدي محمد بن عيسى
- القائمة طويلة جدا لا يمكننا حصرها إلى جانب علماء من تونس ومراكش درسوا على يد الشيخ سيدي عدة بن غلام الله.

• مؤلفاته

خلف الشيخ سيدي عدة بن غلام الله كما هائلا من المخطوطات النفيسة وال ذخائر القيمة، لا زالت إلى يومنا هذا حبيسة الرفوف، وشاهدة عيان على قيمة ما ألفه صاحبها. نذكر منها:

1. كتاب مفتاح القلوب في حديث النبي المحبوب¹
2. كتاب نتيجة الفتاح كطلوع الفجر للصباح²
3. كتاب ريحان القلوب في الصلاة على النبي المحبوب³
4. كتاب دليل النجاة المبلّغ لروضات الجنات على أربعة أرباع
5. كتاب الجمعة على نمط تنبيه الأنام⁴
6. كتاب ألفية رمضان
7. كتاب الصبيان على متن السنوسية
8. كتاب رسالة الكراس⁵
9. كتاب طليعة السعداء

¹- يقع هذا الكتاب في جزأين ويوجد بالخرانة العداوية بتيارت.

²- يقع هذا الكتاب في جزأين ويوجد بالخرانة نفسها.

³- يقع هذا الكتاب في جزأين ويوجد بالخرانة نفسها.

⁴- يقع هذا الكتاب في جزأين ويوجد بالخرانة نفسها.

⁵- قد أهدى لنا معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف الدكتور بوعبد الله غلام الله نسخة منها إلى جانب نسخة الشيخ أبي عبد الله شراك. يقع هذا الكتاب في جزأين ويوجد بالخرانة العداوية بتيارت.

وفاته: توفي الشيخ سيدي عدة يوم الاثنين من عام 1283هـ / 1866م عن عمر يناهز الخمسة وسبعين سنة، وفن بإشارة منه في عرش أولاد الأكرد بضواحي مدينة تيارت، بعد أن ذاع صيته في الآفاق، وتخر على يديه عدد من الشيوخ والعلماء داخل الوطن وخارجه.

• التعريف بالكتاب

يندرج الكتاب ضمن فلسفة التصوف، حيث اعتمد صاحبه على ثنائية النسب الروحي والنسب الطيني. وهي لغة تختلف عن اللغة العادية التي تدافع عن النمط الصوفي المتجسد في ما يصطلح عليه «الصوفية العامة» أو «الولاية العامة». التي تستنير وتستضيء بهدى المنقول المتواتر. وقد قال الشافعي: إذا لم يكن العلماء أولياء الله، فليس لله ولي؛ وأما الولي بلا علم، فالعداوة أقرب إليه من المحبة». ويعطي أهمية كبرى لشيخ والمريد ومسألة التربية ومحبة الشيخ وغيرها من القضايا الهامة التي تشكل الوعاء العام للتصوف.¹ كما يعد "الكتاب" وثيقة علمية نادرة، كفيلة بإثراء الوعي الفلسفي الصوفي، والتفكير الديني والانشغال الأدبي في ذلك الوقت، وهذا ما يعطي الكتاب قيمته التأليفية المرتبطة أساساً بمكانة مؤلفه العلمية والدينية. الروحية.

والشيخ سيدي عدة مثله مثل باقي أهل السلسلة العرفانية، يعرض في هذا المؤلف مسألة النسب من منظور باطني. فهو بهذه المعادلة يلتقي مع المعادلة الربانية في وصف النسب الطيني لدى ابن سيدنا نوح عليه السلام بأنه "عمل غير صالح". "وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ".²

مما يفيد أن النسب الحقيقي هو النسب الروحي. "نسب القلب" الذي ينتج عن زواج أثري روحي متعال بين قلب المريد وقلب الشيخ فقلوب المشايخ في السلسلة الصفوة، وعليه فمسألة احترام المريد للشيخ وتقديره والذوبان في محبته والإخلاص له من المسائل المحسومة في الفكر التصوفي بشكل عام وعلاقة الشيخ بالمريد تنطلق من القول في الأوساط الشعبية والنخب الصوفية، يرسمان العلاقة بينهما "من لا شيخ له فشيخه الشيطان".

ويرى الدكتور عمار يزلي أن الشيخ سيدي عدة، كثيرا ما يؤسس لهذا الجانب الأساسي في نسج الرابطة القلبية بين أتباع الطريقة الواحدة أو ما بين الطرق المختلفة التي كلها تمثل الطريق إلى الله. فالرضاعة المادية، معروف عنها أنها من المسائل الأساسية في ربط تلك

¹ - ينظر دراسة: العربي بوعمامة، الكتابة المنقوبة، رسالة ماجستير مخطوطة، إشراف أ. د طيبي محمد، علم الاجتماع، جامعة وهران، 2005م.

² - سورة هود، الآية: 45.

العلاقة النموذجية في المحبة: الأمومة. فالرضاعة مع التربية تتم فعل الولادة. . والولادة بدون رضاعة وبدون تربية تفقد الوالدة أمومتها فيما تحتفظ فقط بالجانب الوضعي: الولادة. كما أن الوالد قد يفقد خاصية الأبوة إذا ما فقد العلاقة مع مولوده التي هي علاقة التربية، وعلى هذا الأساس ينبغي أن تفرق بين الأم والوالدة من جهة والوالد والأب من جهة ثانية¹.

يركز الشيخ سيدي عدة على النسب القلبي باعتباره أساس استمرار المحبة الروحية والتفاني فيها، ذلك أنه يرى أن المحبة المطلقة بين الشيخ والمريد هي ولادة ثانية، بل الولادة الحقيقية والأولى، لأنها ناتجة عن فتح القلب وليس عن عمل الصلب. .

الحب والمحبة القرابية الدموية (الطينية)، تبقى محبة مبنية على المصلحة وإن داخلها الجانب العاطفي الحسي إلا أن المادية تطفئ على العاطفة المطلقة إذا لم يكن الحب حبا روحيا أساسه النسب القلبي. . المحبة الدموية الطينية محبة، لكنها لا ترقى إلى حدود المحبة المطلقة التي نجدها في الفلسفة اليونانية كثيرا ما يشار إليها بالحب الأفلاطوني . . أي الحب المثالي. . غير المادي المتعالي عن المصلحة².

وكذلك النسب الروحي، ليس مسألة جديدة لدى أهل التصوف والعرفانيين بشكل عام، غير أن الصيغة التي اعتمدها الشيخ سيدي عدة والمعادلة التفضيلية المؤسسة لها، فهي حجرة الزاوية في أية طريقة إلى الله، ومن مكونات الفكر الصوفي بشكل عام.

• اللغة الصوفية

استعمل المتصوفة لغة خاصة كأداة تعبير عن تجربتهم، من حيث الأسلوب، المصطلحات، الرموز، الإشارات والتأويل، ويستعمل الصوفي الشعر والمناجاة والأوراد، والجمل المسبوكة والقصيرة والأحكام والمحاور وما إلى ذلك مما نجده من أشكال تعبيرية مماثلة في كتاباتهم.

فهذه اللغة غير شائعة ومثيرة للدهشة؛ بحيث تصدم الحس المألوف فليست المصطلحات وحدها جديدة، بل أن الكلمات تأخذ وظيفة مختلفة ومعاني جديدة. ولذا عبر المتصوفة باللغة " والتي يعاد بفضلها إنتاج أو تمثيل أو نمذجة الواقع والحدث أيا كان مصدره وتوسعوا في أشكال التعبير التي سمحت بها اللغة، وشكلوا نسقا خطايا مختلف المكونات والظواهر النصية من شعر وقصص وأدعية ومناجاة"، وحكم وأخبار تنظمها مجموعة من القوانين التي

¹ - جوهرة المسائل في "خاتمة كتاب الرسائل لأهل الوسائل" قراءة في مفهوم "بناء القلب" وأفضليتهم على "بناء الصلب" لدى الشيخ سيدي عدة بن غلام الله، منشورات أشغال الملتقى الأول حول الشيخ سيدي عدة بن غلام الله وأثره في الفكر والتصوف، طبع جمعية الفكر والثقافة بتيارت، 1999، ص: 120.

² - خاتمة كتاب الرسائل لأهل الوسائل، المصدر السابق، ص: 12.

تحكم العلاقات والتفاعلات فيما بينها، قصد بلوغ هدف معين وكتمبير عن تجربتهم في الاتصال بالله، هي تجربة معرفية عاطفية كما أنها تجربة في الكتابة والإبداع. "لقد عبر المتصوفة أنه بإمكانهم أن يؤمنوا لأنفسهم عالما قابلا للمعرفة وهذا العالم هو ما افترضوه وقصدوه".¹

• مقتطفات من كتاب خاتمة الرسائل لأهل الوسائل - للشيخ سيدي عدة بن غلام الله بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والشكر لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا جزيلا مباركا طيبا في الدنيا ويوم الدين، آمين، آمين، آمين.

فما يجب به الاعتناء فتح باب القلب²، فهو أول قدم السائرين في طريق الوصول لمعرفة الرب قال الله عنه ووفقه وأعانه لما به بلوغ هذا المقام بجاء سيدنا محمد عليه السلام. لما انتهت رسائل المحبين أولاد القلب، المحبوبين أفضل من أولاد الصلب، كما هو محقق عند المشايخ الربانيين، وأرثى أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، إذ هم رضي الله عنهم ورضوا عنه ورضي عنا بهم أعظم منزلة على أولاد الصلب لشرفهم العظيم لأنهم خرجوا من نور ذكر القلب الذي هو بيت الرب كما قال في حديث القدس عن المبلغ عنه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، يقول الله جل جلاله وتقدست أسماؤه: "لا تسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن"⁽⁴⁾ إلخ الحديث. يقول في مقام القلب المجرب الصحيح خديم المحبين:

الناكرون بالقلب شربوا نعم الشراب أخبارهم صحيحة لا شك ولا ارتياب
علومهم جليلة أعماهم صواب سكنى ملك عظيم سماء بلا سحاب

¹ - العربي بوعمامة، الكتابة المنقبية، المرجع السابق، ص: 99.

² - يشير إلى هذا قول الدكتور عماريزي في مقال له: حول قضية أولاد القلب، بقوله: "ابن القلب"، يربطه رابط القلب بأبيه.. والقلب هنا يقصد به تلك المضغعة التي إذا صلحت صلح الجسم كله. والتي لا تتوقف لحظة عن النبض دلالة على الحياة وعلى الحركة. لهذا سميت قلبا، فقلب الشيء في اللغة العربية هو أهم شيء في الشيء. لهذا ترى الشيخ سيدي عدة يستعمل هذه المعادلة التقريبية لإفهام العامة فهم الخاصة. عماريزي، سيدي عدة بن غلام الله: خاتمة كتاب الرسائل لأهل الوسائل، منشور أشغال الملتقى الأول حول الشيخ سيدي عدة بن غلام الله وأثاره في الفكر والتصوف، طبع جمعية الفكر والثقافة بتيارت، 1999، ص: 120.

³ - يقول الدكتور عماريزي: "بينما لا تمثل بنوة الصلب سوى مجرد بنوة بقوة الفعل أي تحصيل حاصل شكلي لصلة شكلية. وهذا ما حاول الشيخ سيدي عدة التركيز عليه، بل والتأسيس عليه لفكرة المحبة المطلقة والنسب الشريف.. فالشريف بصالح الأعمال لا بالنسب الطيني أو الانتساب إليه دمويا ومناصبته العداء قولاً وعملاً. هكذا كنا كثيرا ما نجد شيوخ التصوف في حالات خاصة لا يفضلون رؤية أحد من غير أبناء القلب، والأكثر قربا منهم، مفضلينهم حتى على أبناء الصلب. باعتبار أن الصلة بينهم هي صلة أرضية ترابية طينية بينما الصلة بينهم وبين ابن القلب صلة روحية متعالية. عماريزي، سيدي عدة بن غلام الله: خاتمة كتاب الرسائل لأهل الوسائل، ص: 120.

⁽⁴⁾ ذكره: ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تج: أحمد عبد الله القرشي رسلان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002م، ص: 65.

وهذا من المحرب عند العبيد، أن القلب يذكر كذكر اللسان صراحة بحرف وصوت، وكذلك الجوارح تذكر كما صح عند أحبائنا المشرفين على أولاد الصلب، ولشرفهم ورد الوحي الخارج لهم في الوسائل خلفا عن سلف من أول الأقطاب إلى مشائخنا أجمعين، كل واحد منهم له علم يخصه. وقليل أن تتكرر الرسالة. فهم - رضي الله عنهم - كالأشبال عند النورانية¹ حتى أن لو كانت آلاف الألوف من أهل البدايات يتكلم لهم بعلم البدايات، ولو كانت آلاف الألوف من أهل النهايات يتكلم لهم بذلك، ولا يكل. وكذلك حال المذاكرة يتكلم بعلم أهل البدايات ويتكلم بعلم أهل النهايات، وكل واحد يدلله الله على علمه ويفهمه من أجله. فتارة في الأعمال يتكلم وتارة في الأحوال وتارة في المقامات، ولهذا قال له:

علومهم جليلة أعمالهم صواب

وكذلك في الأمور الغيبية حتى يقول المحب، إنه كشف عن حالي. ولهذا قال:

أخبارهم صحيحة لا شك ولا ارتياب

وكل ذلك من فتح القلب. فلهذا المقام الرفيع قال شيخ كشائخنا سينا علي الشاذلي، رضي الله عنه وأرضاه عن: أن لو كانت الأشجار أقلاما والبحور مدادا لنفذت ولا ينفذ ما عندي. قال تعالى: "مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ"². قوله عندكم من العلوم الكسبية، وما عند الله العلوم الوهبية. فانظر رسائل كل أحد تجد ما ذكر من العلوم المذكورة. وآخر ذلك رسائل العبيد إلا فضل الله العظيم بمنته بهم. كما قال: ما تصدر أستاذ للمريدين حتى فاضت عليه أنوارهم. فيخرجون من نور القلب كما تفيض شهوة أولاد الصلب فيخرجون من ماء الصلب.

• [القلب]

وما به إعلامك والله الفتاح العليم إنما ذكرت هذا القلب لأجل ما فتح لي. فما من أحد يفتح له باب يدخل منه إلا يذكره ويمدحه غاية حمده. سنة الله في خلقه. وقد قال شيخ مشائخنا

(¹) وبعد الحلاج من كبار الصوفية الذين تغنوا بالذات الربانية، وقد استطاع أن يبرهن على وجود الله اعتمادا على التجلي النوراني والمحبة الروحانية التي يعجز عن إدراكها أصحاب الظاهر والحس المادي.

ولا دليل بآيات وبرهان	لم يبق بيني وبين الحق اثنان
هذا توحد توحيدي وإيماني	هذا وجودي وتصبري ومعتقدي
قد أزهرت في تلالها بسلطان	هذا تجل بنور الحق نائره
وأنتم حدث بيني عن أزمان	لا يستدل على الباري بصنعتة

أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، طبعة ليدن، 1960م. ص: 153.

(²) سورة النحل، الآية: 96.

شيخ الجن والإنس والملائكة، سيدنا ومولانا عبد القادر الجيلاني¹ رضي الله عنه وأرضاه عني وجدت كل باب عامر حتى وجدت باب النذل فراغا فدخلت منه، وقال أستاذ أستاذي سيدنا مولاي العربي الدرقاوي² رضي الله عنه وأرضاه عني: وجدت المفتاح يد رجل عامي لا يعرف لا قدرا فأخذته من يده وقسته على الباب فافتتح، وقال أستاذي رضي الله عنه وأرضاه عني: لما من الله علي قبضت ذكر الاسم الأعظم الله، الله، الله، فألهمني الرب الكريم فدخلت قبة لبعض الصالحين رضي الله عنه ونويت نواصل فيها سبعة أيام نذكر الاسم ولا نأكل ولا نشرب ففعلت ذلك، ثم أتتني سنة مثل النوم فرأيت القبة مملوءة نورا الخ ما ذكره رضي الله عنه ورضي به عنا في الدنيا ويوم الدين آمين، آمين، آمين.

وأما العبيد خدام المحبين لما أن أراد الله به خيرا ألهمه إلى العزلة فاعتزل سبعة أيام من غير مواصلة، بل صائما. وعند المغرب يفطر فطورا قدر ما يسد الرمق ويشرب، فما تم سبعة أيام حتى انطبع الاسم في قلبه، فوجده ذاكرا، سواء كان هو ذاكرا باللسان أو صامتا. وبعد خروجه من العزلة بقي عليه منسجبا أياما عديدة فأتاه في تلك الأيام فقيه من إخوانه أولاد الشيخ الكبير سيدنا أبو عبد الله رضي الله عنه يطلب الاستخارة مع المشورة يريد أن يخرج البلاد. فمجرد ما تكلم معه ورد في قلب العبيد المسؤول قوله تعالى ((فَأَسْتَمِمْ))³ الخ لأن السائل كان مدرسا في القرآن العظيم وأراد أن يترك الجامع فلما سمعها منه سكن حاله وبقي مدرسا في القرآن والفقهاء حتى انجذبت له جميع القلوب وشعلت قنديلة قلبه فتزوج وعمر عبارة جيدة.

¹ عبد القادر الجيلاني (471-561هـ=1078-1166م) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي: مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين، ولد في جيلان. وانتقل إلى بغداد شابا، سنة 488 هـ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر. وكان يأكل من عمل يده، وتصدر للتدريس والافتاء في بغداد سنة 528 هـ وتوفي بها. من مؤلفاته: "الغنية لطالب طريق الحق" و"الفتح الرباني" و"فتوح الغيب" و"بالفيوضات الربانية"، خير الدين الزركلي، الأعلام، ج4، ص:47.

² من ذرية أبي العباس سيدي أحمد بن المولى إدريس الأنوار بن مولانا إدريس الأكبر. ولد مولاي العربي أوائل النصف الثاني عشر بقربة عبد الله من قبيلة بني زروال. نشأ بها وتعلم القراءة وحفظ القرآن الكريم، وعندما صححه وأتقنه بالروايات السبع، اشتغل بطلب العلم فرحل لمدينة فاس وأقام بها مدة قرأ خلالها على أكابر علماء وقتها ما قدر الله له من العلوم، ينظر: مولاي العربي الدرقاوي، رسائل مولاي العربي الدرقاوي المسماة بشور الهدية في مذهب الصوفية، نج:عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009، والامام مولاي العربي الدرقاوي، مجموعة رسائل مولاي العربي الدرقاوي الحسني، نج: بسام محمد بارود، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، أبوظبي، ط1999.

³ سورة الزخرف، الآية:43.

فلذلك ذكرت هذا الباب العظيم كما قال أستاذي رضي الله عنه: كلما يقع للمريد في البدايات فهو دليل على صحة طريقه تثبيتها له وتشويقا لفتحه إنه من أهل الفتح. ولذا قيل للشيخ عبد القادر رضي الله عنه: زحمتونا في الأعمال وأردتم تراحمونا في الإِسعاد. الإِسعاد لا تراحم. لله درهم رضي الله عنهم أجمعين ورضوا عنه. ولكن لكل مجتهد نصيب، ولا يخلو أحد مما عمل. قال صلى الله عليه وسلم: "من جدّ وجد"⁽¹⁾ وقال صلى الله عليه وسلم: تحركوا ترزقوا⁽²⁾ الخ الحديث، الجامع بين الحس والمعنى.

وما به إعلامك وربك الفتح العليم ذو الفضل العظيم إن أردت أن تشاهد بعينك وتسمع بأذنك فعليك بذكر الاسم الله، الله، باللسان حتى يتمكن من القلب، فإذا تمكن من القلب يسري في عوالمك، وهم الجوارح كاليدين والرجلين حتى في عروقك ودمك ولحمك وعظمك كالسريان الماء في الشجر والأغصان فيثمر الجنان وهو القلب النوراني بالعلوم الوهبية اللدنية التي قال فيها تعالى: "وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا"⁽³⁾ يقول مجربها فصحت عنده وعند أحبائه بمنة الله وكرمه.

ثمرة العلم العمل، وثمره العلم والعمل الإخلاص، وثمره الإخلاص عمل لا يطلع عليه الناس من الجن والملائكة والإنس، أي لا يطلع عليه شيطان يفسد ولا ملك يكتبه ولا إنسان يمدحه. فهذا أول قدم من أقدام الوصول. ولعز هذا المقام، مقام القلب كان لبعض المشايخ الأقدمين رضي الله عنهم أسماء يذكرونها في الخلوات ويدعون بها. (اللهم أعطني مفتاح قلبي) الخ. لأنه إذا ملك الوجود بأسره سفلي وعلوي من جميع جوارحه كلها أعلاه كالعينين والأذنين واللسان، وأسفلها كالفرج والرجلين حتى يصيرون لا يتصرفون إلا برضاه وهو فيما يرضي الله.

وفي الحديث النبوي على صاحبه الصلاة والسلام كل صباح يوم يشكون الجوارح للقلب: "إن استقمتم استقمنا" الخ، لأنه سلطانهم وهم رعيته. فعلى ما كان يكونون. ومما أستاذ كل أستاذ سيدنا ومولاي علي الشاذلي رضي الله عنه في دعوة مفتاح القلب الاسم السادس من الأسماء العظام (سقفا طيس)⁽⁴⁾ للفتح على القلب. تقول: يا سلام الخ ثم تقول: "أسألك

¹ - هذه حكمة أو مثل وليس حديث ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم.

² - هذا مثل وليس حديث ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم.

³ - سورة الكهف، الآية: 65-66.

⁴ - يقال أن اسم الله الأعظم هو: "طهور بدعق محبيه صورته سقفا طيس سقاطيم أحون قاف آدم حمهاء أمين". وقد قال الإمام مالك رحمه الله في هذه الألفاظ السريانية والعبرانية والعجمية: وما يدريك لعلها تكون كفراً. محمد عبد السلام خضر الشقيري، السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، تج: محمد خليل هراس، دار الفكر، ص: 267.

بالأساء العظام أن تعطيني مفتاح قلبي الخ"، وكل ما ذكرته هنا من علوم الأقدمين رضي الله عنهم أجمعين إلا ليتحقق العاقل أن ذكر القلب فتح.

[فضائل القلب]

ومن فضائل القلب أن الذاكر باللسان له الحسنة بعشرة كما قال تعالى: ((مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا))¹ الخ الآية. والذاكر بالقلب الحسنة بسبعين أو بسبعين ألفا. وفضل ذكر القلب على اللسان كفضل صدقة السر على الإعلان الخ. يقول من جربه فصيح كنار على علم.

يا من تريد ان ترتحم	وترى الفتح القريب
اسمع من شيخ محقق	واذكرن ذكر القلب
اسم الله المعظم	متصلا حتى تغيب
يظهر سر منك فيك	وهذا شيء عجيب
تسمع وتنطق به	وترى الغيب بالغيب
أنت الغيب والحاضر	فمثل الكون بلا ريب
هذا المقام صح عندي	والشاهد بالتجريب
به سقي الأحباب	شربوه بالتدريب

ولما أن ذكرناه بحضرة أكبر أولاد القلب ضج أكبرهم مقاما وغشي عليه فشرعوا في الحضرة التي هي وقت الشهود والعيان. لله الحمد والشكر والفضل والمنة. أكرم الرب الكريم هذه الطائفة البوعبدلية الدقاوية الشاذلية الجيلانية النبوية بفتح ذكر القلب بلا مشقة عظيمة كأهل الدعوات والأساء، كما تقدم.

حتى أن بعضنا من أولاد قلبنا فقيها مدرسا ذكر الاسم الأعظم الله، الله، الله من طلوع الشمس في خلوة صائما. فلما أتاها عند غروب الشمس أخبرنا بذكر القلب وصحته بعد أن كان متحيرا كيف يذكر القلب. فأول النهار في ريب وآخره في صدق. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. أدامه الله لنا ولعواقبنا وأحبابنا خلفا عن سلف إلى سيدنا عيسى بن مريم على نبينا ومولانا محمد عليه الصلاة والسلام.

(¹) سورة الأنعام، الآية: 160.

• [الذكر]

وما به إعلامك. والله الفتح العليم أن تمكن الذكر من القلب فممه غاية الحب. ومنه الرقي شيئاً فشيئاً إلى أعلى الرتب. ولم يحصل لنا بتدبير ولا تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين أو ثمانين سنة، وإنما حصل لنا ولأحبائنا بمنة الله وكرمه بالعزلة على الخلق والصيام أيامها وذكر الله. الله. الله. على الدوام ما دامت فيها بلا عدد ولا نوم إلا من غلبة، ولا كلام مع أحد ولا خروج إلا في ليل والطهارة الدائمة وذكره بين جهر وخفي قدر ما تسمع نفسك ولا تزيد على الصلوات الخمس مع الرواغب شيئاً. بل ذكر الله. الله. الله على الأبد كما قال عليه الصلاة والسلام من قوة المحبة إدمان ذكر المحبوب. وقال: "يُحِبُّهُمُ وَيُحِبُّونَهُ"¹ فإذا أحبته غبت عن كل محبوب فثبت في القلب ذكره لثبوت حبه فيصير ذكره دائماً في القلب.

سواء كنت ذاكرة أو صامتا أو آكلاً أو شارباً أو مناكحاً. وإن حصلت لك نكبة أو غفلة يفرغ القلب به من حيث لا يشعر، تجهد ذاكرة من غير... عليك. فصاحب ذكر اللسان مكلف حامل، وصاحب ذكر القلب محمول هنيئاً. فهو الذكر الذي قال فيه تعالى: ((وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا))² الخ الآية.

قال أستاذي سيدي مولاي العربي بن عطية البوعبدلي رضي الله عنه وأرضاه عني في الدارين ونسله وأحبابه أجمعين آمين. آمين. قال: كنت مدمناً على ذكره أياماً حتى صارت الخلائق تسمع الزعيل من قلبي من بعيد. وإذا وقع بي ذلك وأنا قائم في الصلاة يقطع الصلاة عني وأسابق الخواطر الباطنية على أن نسبها بذكر الاسم فضغفت تلك الخواطر من قلبي واستقر الاسم فيه حتى صار يفرغ به. اهـ.

خاتمة:

نأمل أن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد عرفت بأحد مصنفات الشيخ سيدي عدة بن غلام الله السلوكية ذو البعد الروحي العرفاني، ثم إن عناية الباحثين بهذا النوع من الحقول المعرفية من شأنه أن يثري ملكتهم المعرفية، كما يمكن أن يكون إضافة علمية إلى مكتبة التراث السلوكي الروحي بالجزائر عموماً وبالغرب الجزائري على وجه الخصوص. لقد حاول الشيخ سيدي عدة بن غلام الله المريني والمعلم والأستاذ من خلال تأليفه "خاتمة الرسائل لأهل الوسائل" أن ينير عقول المريدين والأتباع إلى ضرورة التأكيد على أن الشيخ سيدي عدة بن غلام الله أراد لنا ولمريديه وأتباع الطريقة البوعبدلية، نسبة إلى هذا "العبيد" كما كان يلقب

(¹) سورة المائدة، الآية: 54.

(²) سورة الأحزاب، الآية: 35.

نفسه تأدبا مع الله وتحقيرا للنفس وتواضعا أمام الله وأمام المشايخ أهل الوسيلة، كما يشير الدكتور عمار يزلي إلى أن الشيخ سيدي عدة بن غلام الله حاول أن يوضح لنا معنى الرابطة الروحية وعلاقة القرابة الحقيقية التي تسمو على كل أشكال القرابات الفيزيولوجية التي قسمت الناس إلى أسر وبيوتات وعشائر وقبائل وسلالات، متصارعة متحاربة أحيانا باسم الرابطة الدموية وباسم النسب التي بنى عليها بن خلدون كل نظريته في الحراك الاجتماعي، باختصار عصبية النسب الطيني وعصبية أبناء الصلب¹.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الحديث الشريف

- (1) أبو راس الناصر وكتابه التاريخية، رسالة ماجستير مخطوطة، إشراف أ. د. بن نعمة عبد المجيد، جامعة وهران، 2003م.
- (2) بلغيت محمد الأمين، مدراس العلم والقرآن الكريم بالغرب الجزائري، منذ القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، قراءة تاريخية.
- (3) بوعظمة العربي، الكتابة المنقبة، رسالة ماجستير مخطوطة، إشراف أ. د. طيبي محمد، علم الاجتماع، جامعة وهران، 2005م.
- (4) حمدادو بن عمر، محمد أبو عبد الله المغوفل، (828-923هـ) دفين وادي شلف والتعريف بكتابه فلك الكواكب وسلم الرقيا إلى المراتب، "المجلة الجزائرية للمخطوطات، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، جامعة وهران، ع5، 2008م، ص: 183-194.
- (5) الجيميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تَح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، طبع على مطابع دار السراج، ط2، 1980.
- (6) الزركلي خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط1980، ج1.
- (7) الدرقاوي مولاي العربي، رسائل مولاي العربي الدرقاوي المسماة بشور الهدية في مذهب الصوفية، تَح: عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009.
- (8) الدرقاوي مولاي العربي، مجموعة رسائل مولاي العربي الدرقاوي الحسني، تَح: بسام محمد بارود، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، ط1999.
- (9) السلمي أبو عبد الرحمن، طبقات الصوفية، طبعة ليدن، 1960م.
- (10) الشقيري محمد عبد السلام خضر، السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات، تَح: محمد خليل هراس، دار الفكر.
- (11) الشيخ شراك أبو عبد الله، وثيقة تاريخية تثبت نسب سيدي عدة بن غلام الله، مسجد الشريفة، وهران.
- (12) الشيخ شراك أبو عبد الله، مخطوط نبذة حول حياة الشيخ سيدي عدة بن غلام الله، مخطوط خزانة الشيخ أبو عبد الله شراك، مسجد الشريفة، وهران.

(¹) عمار يزلي، سيدي عدة بن غلام الله، خاتمة كتاب الرسائل لأهل الوسائل، ص: 120.

- (13) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تخ: أحمد عبد الله القرشي رسلان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2002م.
- (14) عمار يزلي، جوهرة المسائل في "خاتمة كتاب الرسائل لأهل الوسائل" قراءة في مفهوم "أبناء القلب" وأفضليتهم على "أبناء الصلب" لدى الشيخ سيدي عدة بن غلام الله، منشورات أشغال الملتقى الأول حول الشيخ سيدي عدة بن غلام الله وآثاره في الفكر والتصوف. طبع جمعية الفكر والثقافة بتيارت. 1999.
- (15) غلام الله بوعيد الله، نظرة عامة على التعليم الأهلي في سهل الشلف خلال النصف الأول من القرن العشرين (أعمال الأسبوع الوطني الثالث للقرآن الكريم) الجزائر، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف 1424هـ/2003م.
- (16) Belhamissi(m), Mazouna, une petite ville, une langue histoire, Alger, SNED, 1982.

استكشاف الصحراء

الإفريقية والجزائرية قبل القرن 19م

أ. موساوي طاهر / جامعة بشار

مقدمة*

إن الصحراء الإفريقية الكبرى عموماً والصحراء الجزائرية كأهم جزء منها لم تكن معروفة من قبل، ولم تكشف أسرارها وبقيت مجهولة طوال قرون عديدة، وقد كان السفر عبرها بقصد استكشاف الفيافي الشاسعة التي تمتد بين المحيط الأطلسي ونهر النيل وبين نهر تشاد والبحر الأبيض المتوسط، والتي تشغل أكثر من ثلث مساحة القارة الإفريقية، أمراً ليس بالهين ولا باليسير، فهي مناطق قاحلة تسطع فيها شمس محرقة في معظم فصول السنة، يزيد من غموضها وخوف الأجانب من أهوالها تلك الأساطير التي تروى عن متاهاتها وعن سرايها الخداع، وقد زاد من قوة هذه المناعة ما عرف به السكان الذين يقيمون في أطرافها من شوكة في الدفاع عن أراضيهم وعاداتهم ومعتقداتهم، لذلك توالى المحاولات من أجل استكشافها منذ القدم، تعود أولى محاولات التعرف على أطراف الصحراء الشالية إلى زمن الإغريق ثم القرطاجيين والرومان إلى أن تمكن العرب المسلمون من ولوجها وتتبع مسالكها ووصفها، الأمر الذي ضاعف من رغبة الأوروبيين في استكشافها خلال القرن الثامن عشر، هذه الرغبة تحولت إلى حقيقة وواقع خلال القرن 19م، حيث استطاع الأوروبيون اختراق الصحراء

* - Résumé

L'exploration du Sahara africain et algérien est une étude brève et courte sur les étapes de cette découverte tout au long de l'Histoire jusqu'au 19^e siècle, siècle où les grandes puissances coloniales européennes ont entrepris leurs incursions et colonisation en Afrique afin de mieux connaître le Sahara et contrôler son commerce.

C'est pourquoi cette étude s'est intéressée aux tentatives des Grecs et Carthaginois d'envahir le Sahara africain y compris le désert algérien pour bénéficier du commerce. L'étude a évoqué aussi les tentatives des Romains de prospecter le Sahara lorsqu'ils avaient dominé le nord-africain.

L'étude a également touché en détail les expéditions effectuées par des voyageurs et géographes arabes, entre le 10^e et 18^e siècle et qui avaient traversé les déserts africain et algérien et décrit leurs sentiers, villes et tribus ainsi que leurs commerces. Enfin, cette étude a parlé de l'intérêt européen pour le Sahara africain à la fin du 18^e siècle et de leurs envies d'étudier les œuvres des voyageurs arabes, et leurs engagements et volonté de traverser les sentiers qu'ils ont empruntés.

L'étude propose d'étudier les motifs de cet intérêt surtout chez les Britanniques et les Allemands.

الإفريقية بما فيها الصحراء الجزائرية في كل الاتجاهات وتمكنوا من بسط نفوذهم عليها، غير أن الإشكال المطروح هو: ما هي مراحل استكشاف الصحراء الإفريقية عبر التاريخ؟ وبما نفسر رغبة الأوروبيين في استكشافها خلال القرن 18؟

1 - مراحل استكشاف الصحراء الإفريقية عبر التاريخ

1.1 - استكشاف الإغريق والقرطاجيون للصحراء الإفريقية الكبرى:

لم يقدم الرحالة القدماء من الإغريق والقرطاجيين والرومان إلا معلومات ضئيلة ومحدودة، حيث قدم عنها "هيرودوت" Herodotus¹ معلومات أولية بعد أن قام برحلة إلى برقة ودواخل ليبيا في القرن الخامس قبل الميلاد، وذكر أنها كانت أقل جفافا قبل نصف مليون سنة،² أما بالنسبة للقرطاجيين فقد مثلت لهم محطتي طرابلس وسيراته المراكز التجارية الذين كانت تلتقي عندهما الطرق التجارية التي تشق الصحراء وتربط البحر المتوسط ببلاد السودان وأعلى نهر النيجر، ولم تبلغ الصحراء في عهد القرطاجيين درجة الجفاف التي وصلت إليها اليوم، لذلك كان من الممكن قطع الصحراء بدون صعوبة كبيرة على شرط اجتنب التلال والكثبان الرملية، وأن أسهل طريق نسبيا هو الذي كان يمر من معبر واحات فزان ويربط بين البحر المتوسط والسودان،⁴ ورد بأن أحد القرطاجيين واسمه "ماغون" Magon⁵، كان قد قطع الطريق الصحراوي ثلاث مرات دون أن يتزود بالماء، مما يدل على أن جفاف الصحراء كان مغايرا لما هو عليه الآن، لوجود ينابيع مياه عبر ذاك الطريق الصحراوي.

يظهر أن التجار القرطاجيين لم يسافروا في أول الأمر بأنفسهم إلى بلاد السودان لجلب ما فيها من خيرات، بل قضا مدة طويلة وهم يستخدمون وسائط، فقد كانت القوافل تأتي تحت حراسة "الغرامنت" Garamantes⁶ إلى أن تبلغ طرابلس، وكانت قوافل "الفروزين"

¹ - هيرودوت: (425. 484 ق.م)، مؤرخ ورحالة يوناني، له "تاريخ" هو من أهم المصادر لمعرفة أخبار الأمم القديمة وأساطيرها. (المنجد في اللغة والأعلام)، ط 16، دار المشرق بيروت، لبنان، 1991، ص 606.

² - يحي بوعزيز: (اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كُتبوه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها)، مجلة الأصالة، "ملتقى الإسلامي الثالث عشر"، تمراست، الجزائر، 1979، ص 45.

³ - محمد الصغير غانم: (التوسع الفنيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص 94.

⁴ - أحمد صفر: (مدنية المغرب العربي في التاريخ ج 1)، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959، ص 123.

⁵ - محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص 95.

⁶ - الغرامنت: قبائل ليبية عاصمتهم غرامة Garama، استوطنوا صحراء ليبيا، جنسهم قريب من التوارق، استعملوا العربات التي تجرها أربعة خيول قبل ألف سنة قبل الميلاد. فقطعوا بها الحمادات الصحراوية في حربهم للجيش بجبال التبستي. نفس المرجع ص 124.

¹Pharusiens تصعد من مسلك آخر إلى مدينة قرطبة، هكذا كان التجار القرطاجيون يتزودون بالبضائع الواردة من الأراضي البعيدة الحارة كالعاج والتبر وجلود الحيوانات المفترسة. كانت سبراتة من أهم الأسواق التابعة للقوافل الصحراوية القادمة من السودان، ففي القرن الخامس كان التجار يأتون إليها من قرطاج وينزلون بها في انتظار قدوم قوافل الصحراء، ولكن بعد ذلك عزم القرطاجيون على التوغل بأنفسهم في تلك المسالك الصعبة، ومما لا شك فيه أن بعثات القرطاجيين ورحلاتهم الصحراوية الكبرى بدأت تظهر في القرن الخامس، إذ في ذلك التاريخ صار البونيقيون يريدون الاستغناء عن الوسائط والالتحاق مباشرة بمصدر الخيرات التي تتركز عليها تجارتهم، فصارت قوافلهم تحطط الصحراء الكبرى وتقتصد بلاد السودان لجلب الرقيق والتبر والعاج وغير ذلك من ثمين المواد².

لا يمكن نكران أهمية التجارة الصحراوية بالنسبة لقرطاج، فمنفذا الطبيعي على البحر الأبيض المتوسط كان بلاد طرابلس أو ليبيا بأسواقها المشهورة مثل: لبدة وسبراتة وطرابلس، لذلك يمكن القول بأن الصحراء كانت من أهم أركان ثروة قرطاج خصوصا وأن القرطاجيين كانوا لا يجدون أمامهم مزاحمين ينافسونهم في هذا الميدان الذي امتازوا به دون غيرهم حتى لقبوا قرطاج بملكة إفريقية³، وقد راجت في قرطاج بضائع الصحراء التي كانت القوافل تحملها من النيجر إلى طرابلس عبر مرزوق، وبلاد الغرامنت مثل الذهب، الجلود، ريش النعام، والعبيد، التي تباع بالأقمشة والحلي.

2.1 - تعرف الرومان على الصحراء الإفريقية والجزائرية

خلال الاحتلال الروماني للشمال الإفريقي اقترب الرومان من أطراف الصحراء الشمالية وأقاموا قلاعا وقواعد عسكرية وسكنية في بنغازي، طرابلس، غدامس، إفريقية القنصلية، تبسة، الأوراس، نوميديا الشرقية وموريطانيا القيصرية⁴، وقد شعر الأباطرة الرومان بالحاجة إلى توسيع منطقة النفوذ نحو الجنوب، بقدر ما كان يخشى عدد السكان وتزدهر حالة الزراعة. هذه الحركة التوسعية بدأت تظهر في أوائل القرن الثاني ثم تجلت بوضوح في آخر ذلك القرن وفي بداية القرن الثالث، ففي سنة 238 م كان اليمس - أي الحد الروماني المادي - يصل إلى الجنوب، وقد تم إنشاء مراكز في الواحات مثل بونجهم، غدامس، شط الجريد، واحتى

¹ - الفروزون: قبائل ليبية فيما وراء العرق الكبير الغربي، مدنيهم شبيهة بمدينة الغرامنت، كانت تراقب المسلك الصحراوي الذي يبدأ من موريطانيا ويصل إلى السنغال. نفس المرجع ص 124، 125.

² - محمد الصغير غانم: نفس المرجع، ص 95.

³ - أحمد صفر: المرجع السابق، ص 126.

⁴ - يحي بوعزير: (اهتمام الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء)، مجلة الثقافة، العدد 57 مايو/ يونيو، الجزائر، 1980، ص 16.

نفطة وتوزر بين شط الجريد وشط الغارسة، ثم يتجه هذا الحد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي أين أقيمت مراكز حراسة بالوحدات الكائنة على تخوم الصحراء كواحة تفرين، بادس، جالة، دوسن، ومن دوسن نحو بوسعادة وبوغار، ومن أهم هذه المراكز مركز مسعد بجبال

أولاد نايل الذي تأسس سنة 201م، وكان التجار الرومانيون يذهبون حتى إلى فزان¹ في مطلع القرن الأول المسيحي تمكن "كورنيليوس بالبوس" Cornélius Balbus من عبور الصحراء عام 19م من ليبيا إلى جبال تاسيلي بالهقار، في محاولة للوصول إلى مجرى نهر النيجر، واقتفى أثره آخرون بعد ذلك إلى السودان والآير ومن بينهم "سبتوميوس فلاكوس" Septimus Flaccous و"جوليوس ماتيرنوس"² Julius Matternus.

3.1 - وصف الرحالة العرب للصحراء الإفريقية والجزائرية

شهدت الصحراء الإفريقية الكبرى في العصر الوسيط مدا إسلاميا واسعا عن طريق البلدان العربية في الشمال الإفريقي وعن طريق صعيد مصر والساحل الإيتري وبلاد الحبشة والصومال في الشرق، ولعب المرابطون والموحدون دورا مهما وبارزا في نشر الإسلام في أعماق الصحراء خلال القرن العاشر الميلادي وما بعده إلى القرن الثاني عشر. قامت بالصحراء الكبرى مراكز عمرانية وحضارية مهمة من أبرزها مدينة تمبوكتو، قلو وجني، كما قامت مجموعة من الممالك والإمبراطوريات فيما بين القرن 14م والقرن 19م، اختلفت أعمارها وقوتها في غرب إفريقية وشرقها، ولقد لعبت التجارة دورا بارزا في ربط الصلات والعلاقات وتوحيد طابعها بين هذه الممالك والإمارات الصحراوية طوال العصر الوسيط والحديث، حتى قضى عليها الأوروبيون جميعا خلال القرن التاسع عشرة واحدة تلو الأخرى. إن أول من تعرف على أسرار المناطق الصحراوية هم الرحالة العرب الذين جابوا الصحراء الكبرى طولا وعرضا خلال العصر الوسيط وتعرفوا على أوضاع تلك الممالك والدول وظروفها السياسية والحضارية وذكروا ذلك في كتبهم، أمثال "ابن حوقل" في القرن العاشر ميلادي و"البكري" في القرن الحادي عشر و"الإدريسي" في القرن الثالث عشر و"ابن بطوطة" في أواخر القرن 13م ومطلع القرن 14م و"ابن خلدون" في القرن 14م و"الحسن الوزان" في

¹ - أحمد صقر: المرجع السابق، ص 307. 308.

² - يعي بوعزيز: المرجع السابق، ص 16.

القرن 15م ومطلع القرن 16م و"العايشي" خلال القرن 17م و"الورثاني"¹. تحدث الرحالة والجغرافيون العرب عن الصحراء الكبرى وتركوا لنا وصفاً مختلفاً أطرافها، لاسيما المناطق الواقعة على حافتيها الجنوبية والشمالية، التي كانت تجوبها قوافل التجار، والتي زرع دعاة الدين الإسلامي فيها بذور حضارة نمت وترعرعت في مراكز عمرانية مثل أودغست وسجلماسة وتمبوكتو.

كانت هذه المدن مقصداً للقوافل من مختلف أطراف المشرق والمغرب تنقل إليها منتجات الشمال ومنتجات الأندلس التي تعبر المغرب وتحمل منها العبيد، التبر والعاج وغير ذلك، وعلى سبيل الذكر لا الحصر نذكر هنا وصف "ابن حوقل"² لسجلماسة بصحراء المغرب الأقصى، وهو الذي زار المغرب وتجول فيه من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى أقصى الجنوب، إذ يقول:

« سجلماسة مدينة حسنة الموضع جلييلة الأهل فاحرة العمل على نهر يزيد في الصيف . . . فيزرع بمائه حسب زرع مصر في الفلاحة . . . ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة، . . . وأهلها قوم سراة مياسير يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر، مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وساحة ورجاحة. وأبنيتها كأبنية المكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية³. »

وقال "الإدريسي"⁴ في بلاد السودان: « . . . وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة، إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو من بلاد الزاب، يجلبه إليهم أهل ورقلان الصحراء. والنيل يجري في هذه الأرض من المشرق إلى المغرب، وينبت على ضفتيه القصب. . . في النيل أنواع من السمك وضروب من الحيتان الكبار والصغار ومنه طعام أكثر أهل السودان، يتصيدونه ويملحونه ويدخرونه. . . وأسلحة هذه البلاد القسي والنشابات، . . . وحليهم من النحاس والخرز والنظم من الزجاج، . . . وأهل المدن منها يزرعون البصل والقرع والبطيخ يعظم عندهم كثيراً، ولا حنطة عندهم ولا حبوب أكثر من

¹ - يحي بوعزيز: (تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001، ص 42. أيضاً إبراهيم مياشي. (توسع الاستعمار الفرنسي في الجزائر الغربي الجزائري 1882. 1912)، منشورات المتحف الوطني، الجزائر، 1996، ص 37.

² - ابن حوقل: رحالة وجغرافي من أهل بغداد. توفي سنة 971 هـ. جاب العالم الإسلامي، اشتهر بكتابه (المسالك والممالك). (المنجد في اللغة والأعلام). المرجع السابق، ص 07.

³ - إسماعيل العربي: (المدن المغربية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 125. 126.

⁴ - الإدريسي: هو أبو عبيد الله الشريف ولد سنة 1100 وتوفي سنة 1165. رحالة مغربي. من مؤلفاته: (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). (المنجد في اللغة والأعلام)، المرجع السابق، ص 31.

الذرة، ومنها ينتبذون ويشربون، وجل لحومهم الحوت، ولحوم الإبل المقددة، كما قمنا بوصفه¹. أما "ابن بطوطة"² فقد تحدث عن الصحراء حينما توغل داخلها في رحلته الثالثة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" حيث سجل ملاحظاته عن بلاد السودان والتي مر بها عند عودته من رحلته المشهورة "رحلة ابن بطوطة" تحت عنوان "ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحتته: « فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فمنهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسمع أحدا في شيء منه، ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه، ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات، وضرب أولادهم عليها، . . . ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا. . . ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبا³. »

كما قام الرحالة "الحسن الوزان"⁴ المعروف في الغرب بـ "ليون الإفريقي" برحلة إلى الصحراء في مطلع القرن السادس عشر قدم من خلالها عدة معلومات هامة عن هذه البقاع، وقسمها إلى خمس مناطق متميزة وهي: « صحراء زناتة التي تمتد من المحيط إلى سبخات تغازي، وصحراء ونزيجة التي تمتد من تغازي التي كانت تمتد كثيرا بلاد السودان بالملح، حتى آير في الشرق. وصحراء تافيلالت في الشمال. صحراء التوارق التي يحدها عرق الغيدي من الغرب، وقورارة ووادي مزاب من الشمال، وأغاديس من الجنوب. صحراء لمطة التي تحدها ورقلة، وصحراء غدامس من الشمال. والصحاري التي تمتد حتى كانوا من الجنوب. صحراء البرداوة التي تقع بين صحراء لمطة في الغرب وصحراء أوجلة في الشرق، وفزان في الشمال، وبرنو في الجنوب. »

¹ - الإدريسي: (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس) مقتبس من كتاب: (نزهة المشتاق)، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص 34. 35.

² - ابن بطوطة: وهو محمد بن عبد الله (1304.1377)، ولد في طنجة. رحالة مغربي طاف في أنحاء العالم واستغرقت رحلاته زهاء 29 سنة. له (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، المعروفة برحلة ابن بطوطة. (المنجد في اللغة والأعلام)، المرجع السابق، ص 05.

³ - ابن بطوطة: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص 690.

⁴ - الحسن بن محمد الوزان الزياني: أوليون الإفريقي. المتوفى حوالي 1550م، مؤرخ ورحالة، ولد في غرناطة ونشأ في فاس. خدم الوطاسيين وقام بمهام دبلوماسية، أسره القراصنة وقادوه إلى نابولي بإيطاليا. له (المعجم العربي العبراني) و(وصف إفريقيا).

⁵ - إسماعيل العربي: (الصحراء الكبرى وشواطئها)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 18. 19.

بينما تحدث "ابن خلدون"¹ عن بعض مناطق الصحراء الإفريقية في معرض حديثه عن الأقاليم الجغرافية في كتابه (المقدمة) مستلها ذلك من كتب الرحالة والجغرافيين، حيث قسم الأرض إلى سبعة أقاليم، فذكر في الإقليم الأول منها:

« وأما الجزء الأول من هذا الإقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه، ويسمى نيل السودان، ويذهب إلى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك، وعلى هذا النيل سلا وتكرور وغانة، وكلها لهذا العهد في مملكة مالي من أمم السودان. وإلى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى، وبالقرب منها من شمالها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملمثين، ومفاوز يجولون فيها. . . وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين ووركلان . . . وفي الجزء الأول والثاني منه في الجانب الأعلى منها أرض (قنورية)، وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة، ثم مجالات (زغاي) من السودان. وفي الجانب الأسفل منها صحراء (نيسر) متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وفيها مجالات الملمثين من صنهاجة، وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة وملتونة (ومسوفة) ولمطة (ونزيكة)² ».

ويعد "العياشي"³ من أدري الناس بصحراء المغرب الأوسط لأنه اخترقها مرارا لكونه حج ثلاث مرات، ففي رحلته إلى المشرق خلال القرن السابع عشر وصف الصحراء على أنها أرض متنوعة، منها السهل المسترسل ومنها الحماد والجبال ومنها الرمال الكثيفة التي يحار فيها النظر، أرض لا يهتدي فيها إلا من مارسها. وقد سلك العياشي في رحلته ذهابا وإيابا الطرق الصحراوية بالمغرب الأوسط انطلاقا من سجلماسة، وسجل ملاحظاته حول هذه المضارب في كتابه المسمى "رحلة العياشي" أو "مائدة الموائد" ومنه هذه المقتطفات:

« ثم ارتحلنا من هناك وبلغنا وادي جبر وهو وادي كبير فسيح ملتف الأشجار كثير المرعى غامض المسعى، يجتمع إليه سيول من المساحات البعيدة، ولا تصل إلا بعد أيام عديدة، وابتدأه من ناحية بلادنا وعليه قرى ومزارع ويمتد كذلك إلى ناحية الصحراء والحمادة متصلة في جوانبه إلى أن يصل إلى أطراف الحماد الكبير الذي بينه وبين سجلماسة

¹ - ابن خلدون: هو عبد الرحمان بن خلدون، ولد بتونس سنة 1332م، وتوفي بالقاهرة سنة 1406م. عالم ومؤرخ وفيلسوف اجتماعي. اشتهر بكتاب (المقدمة) لكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر). (المنجد في اللغة والأعلام). المرجع السابق ص 07.

² - ابن خلدون: (كتاب المقدمة) مج 1، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 92-95.

³ - العياشي: هو أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر، ولد بقرية آيت عياش قرب تافيلالت في 1628م. وتوفي بالمغرب الأقصى سنة 1679م. كان عالما محدثا وصوفيا وشاعرا. إلا أنه اشتهر برحلته (مائدة الموائد). أنظر: مولاي بلحميسي: "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني"، الطبعة 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص ص 17-18.

ومن هناك تنقطع العمرة إلى أن يصل إلى أول قرى وادي الأساور فتتصل قواه كذلك نحو من عشرة أيام إلى قرية من توات فيتعطف يمينا في رمال كثيرة وهو من أطول أودية المغرب مسافة وأقلها فائدة وأكثرها مخافة ألا أنه في وقت مرورنا فيه في غابة العافية. . . .¹ .
أما عن "الورثاني"² فإنه هو الآخر حج ثلاث مرات، وكان قد سافر برا، حيث قصد سيدي خالد، أولاد جلال، بسكرة ومنها إلى سيدي عقبة، زريبة الوادي، زريبة حامد ثم توزر وقابس. . . . وقد وصف هذه الأماكن بالتفصيل.³

2. الاهتمام الأوروبي بالصحراء الإفريقية قبل القرن 19م

2.1 - دوافع الاهتمام الأوروبي بالصحراء الإفريقية:

ظلت الصحراء الإفريقية الكبرى بالنسبة للأوروبيين علما مجهولا قرونا طويلا، ولم تكن لهم إلا معلومات محدودة عنها، وقد بدأ اهتمامهم بالصحراء عندما شرعوا في الاكتشافات الجغرافية البحرية خلال القرن الخامس عشر وما بعده. وقد كانت المعلومات التي سجلها الجغرافيون اليونان والرومان وكذا الجغرافيون والرحالة والتجار العرب هي المعلومات الوحيدة المتوفرة للباحثين عن الصحراء الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر، وظلت طبيعة الصحراء سرا مجهولا يتحدى علماء الجغرافيا.⁴

في أواخر القرن 18م ومطلع القرن 19م اشتد التنافس الاستعماري بين الفرنسيين والبريطانيين والألمان حول القارة الإفريقية، وشرع المغامرون الانجليز والألمان يفدون على إفريقيا مع نهاية القرن 18م. وكان من أسباب هذا التنافس:

أولا: فتح مجالات للصناعة والتجارة الأوروبية.

ثانيا: إيجاد حل لفائض السكان على الأماض البعيدة.

ثالثا: القيام بدراسات علمية متنوعة طبيعية، بشرية واقتصادية.⁵

¹ - العياشي: (رحلة العياشي)، مولاي بلحميسي، نفس المرجع، ص 66. 67.

² - الورثاني: هو الحسين بن محمد السعيد ولد في وهران ومن ثمة نسبته الورثاني، سنة 1125هـ وتوفي بنفس المكان سنة 1193هـ أكبر عمل ألفه في التاريخ والأخبار هو الرحلة التي سماها (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، عن أبي القاسم سعد الله: (تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري) ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 407. أيضا كتابه: (أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر)، القسم الأول، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص ص 187-189.

³ - أبو القاسم سعد الله: (تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري)، المرجع السابق، ص 409.

⁴ - المرجع نفسه.

⁵ - بوعزيز يحي: (اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها)، المرجع السابق، ص 48. أنظر أيضا: محمد علي القوزي: (في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر)، دار النهضة العربية، بيروت، 2006، ص ص 11. 14.

في الفترة نفسها بدأت أسواق إنجلترا تنتقل بعد أن تقلص نفوذها في أمريكا الشمالية وفقدت مستعمراتها هناك، فلم تجد عوضا عن تلك الأسواق والمستعمرات إلا في لأرض الإفريقية البكر، التي لم يكتشفها الأوروبيون بعد، لذا كان الإنجليز أول من أبدى اهتماما بإفريقية والصحراء.

استهوت التجارة الواسعة والمزدهرة بالصحراء الإفريقية الدول الأوروبية، فعزمت على غزو الصحراء واستعمارها، لذا اهتم الأوروبيون بدراسة ما كتبه الجغرافيون وما تركه الرحالة العرب،¹ ومن خلال ذلك تعرفوا على الطرق الصحراوية المختلفة التي كانت تسلكها القوافل التجارية وقوافل الحجيج، والتي سهلت عليهم اختراق الصحراء الإفريقية من شمالها إلى جنوبها، ومن غربها إلى شرقها، بما في ذلك الصحراء الجزائرية التي تمثل الجزء الأهم من هذا الامتداد، وتتبعوا منابع الأنهار الإفريقية كالنيل والنيجر وغامبيا وغيرها، وذلك عندما عزموا التوغل في الصحراء أواخر القرن 18م وخلال القرن 19م.

درس الأوروبيون الطرق الصحراوية التي ذكرت في كتب الرحالة العرب وتعرفوا عليها، كما حاول البعض منهم معاينة الطرق التي كانت تربط الأقطار المغاربية الثلاث بعضها ببعض، والتي تربطها أيضا بالمناطق المجاورة في السودان أو المشرق العربي.² ودرسوا الطرق الصحراوية التي تربط بين دول المغرب العربي وبلاد السودان ودواخل إفريقية، ومنها تلك التي ورد ذكرها في الكتابات الأوروبية وعانينا مستكشفوهم وعلى رأسهم المستكشف البريطاني جيمس "ريشارد صون".³ كما اهتم الأوروبيون على الخصوص بتجارة المغرب العربي مع بلاد السودان، أي أقطار مالي والنيجر وشمال نيجيريا من خلال معرفة أهم الأسواق والمراكز التي تتجه إليها تلك الطرق الصحراوية وتحمل إليها القوافل منتوجات الشمال الإفريقي ومستورداته الأوروبية، والتي يمكن جمعها في ثلاث مناطق هامة ورئيسية هي:

- 1 - سوق تمبوكتو الذي كانت له أهمية خاصة في السودان الغربي.
 - 2 - أسواق تشاد في السودان الأوسط والتي من ضمنها: بورنو، باقيري، سوكونو ووداي.
 - 3 - أسواق السودان الشرقي ومن ضمنها: دارفور وكوردوفان.⁴
- وإذا كانت القوافل تحمل إلى هذه المراكز الحبوب بمختلف أنواعها: الزيتون، التمر، الأقمشة الصوفية، المرجان، الأسلحة، البارود، الأغنام، ماء الزهر، العطور، الخردوات، البزاة،

¹ - Davezac. M: (de l'Algérie, et des Principaux Ouvrages Récemment Publiés à ce Sujet), N.A.V.G.H, 4 série. T7, 1841, PP. 257 - 317.

² - العربي الزبيري: (مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984. ص ص 124-123. أنظر أيضا: سعد زغلول عبد الحميد: (تاريخ المغرب العربي)، ج 4، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1995. ص 115.

³ - M. James Richardson: (Routes du Sahara. Itinéraires dans l'Intérieur du Grand Déserts d'Afrique), Imprimerie de le Martinet, Paris, 1850, PP. 4-28.

⁴ - Edouard Blanc: (Les Routes De L'Afrique Septentrionale Au Soudan), Société Géographique, Paris, 1890.

التوابل، الشواشي، الشيشان والمصنوعات الأوروبية المستوردة وما إلى ذلك من أشياء يجدها التجار في أسواق المغرب الغربي، فإنها تعود في كل مرة محملة بالتبر، العبيد، العاج، الكورو، جثث وريش النعام، جلود بقر الوحش والفول . . . الخ¹.

2.2 - بداية الاهتمام الأوروبي بالصحراء الإفريقية والجزائرية أواخر القرن 18م.

تشكلت في عام 1788م بلندن "الجمعية الإفريقية" The African Association للقيام برحلات إلى أعماق الصحراء، وذلك لأسباب اقتصادية، بعد أن فقدت بريطانيا مستعمراتها الأمريكية، فراحت تبحث عن مناطق جديدة في العالم لتستعمرها².

ارتبطت الجمعية الإفريقية في نفس السنة التي شكلت فيها، بسائح اسمه "جون ليديارد" Ledyard Jon³ يقوم برحلة لحسابها من أجل عبور الصحراء الإفريقية عبر وادي النيل إلى أعالي النيجر في اتجاه من الشرق إلى الغرب، ولكن هذا السائح واجه مغامرة المرض قبل مغامرة الصحراء، فقد مات قبل أن يبدأ رحلته في مصر، ضحية للحمى، وذلك بعد أن أتم استعداده للسفر قصد استكشاف الصحراء. وبالفشل نفسه انتهت محاولة قام بها المستكشف البريطاني في بلاد المغرب لحساب "الجمعية الإفريقية"، وهو "لوкас" Lucas⁴ والذي قام بمحاولة استكشاف انطلاقا من مدينة طرابلس الغرب، ولكن مقاومة السكان أرغمته على التراجع والعدول عن رحلته.

كما قام "المجور هيوتون" Le Major Houghton⁵ برحلته سنة 1790م من مصب نهر غامبيا وتوغل نحو الداخل، وكان يبعث ببعض الرسائل من حين إلى آخر إلى تاجر بريطاني يقيم على الساحل يدعى "لبدلي" Libdly حيث تلقى منه هذا الأخير أكثر من خطاب وفجأة انقطعت أخبار "هيوتون" ولم يعد يسمع عنه شيئا.

اتجهت الأنظار بعد ذلك إلى نهر غامبيا للشروع في إرسال البعثات من هذه الناحية، لأن البريطانيين قد أسسوا بها بعض المراكز التجارية منذ 1730م، حيث أقيمت لهم سلطة بريطانية متمثلة في حاكم بريطاني بمساعدة مجموعة من الجنود الوطنيين الذين يتلقون أجورهم من

¹ - محمد العربي الزبيري: (التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792 و1830)، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 167-169.

² - نجيب زبيب: (متى عرف الأوروبيون إفريقيا)، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج4، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1995، ص ص 69، 71.

³ - جون ليديارد: بريطاني الجنسية كان قنصلا في طنجة.

⁴ - لوкас (لوکا): كان نائبا للقنصل البريطاني في طنجة.

⁵ - هيوتون: بريطاني الجنسية كان قنصلا في مراكش.

"شركة إفريقية الغربية الملكية البريطانية"،¹ لذلك وقع اختيار الجمعية على "مونغو بارك" Mungo Park، وهو رحالة اسكتلندي لم تكن سنه تزيد عن 25 عاما عندما قام برحلته الاستكشافية داخل إفريقية ما بين أعوام 1795م و1797م. كانت المهمة التي كلف بها في تلك الرحلة هي التعرف على مجرى نهر النيجر وتتبعه إلى مصبه، وقد نال برحلته وكتابه شهرة فائقة، فاتصلت به الحكومة البريطانية من أجل تدعيم مشروعه وتقديم المساعدة اللازمة لرحلته الثانية.

كان المتطوع التالي الذي ارتبط مع "الجمعية الإفريقية" للقيام بعمليات استكشاف الصحراء واحدا من أكبر الرحالة المستكشفين والمغامرين بحياتهم، ويدعى "هورنمان" Horneman³ الذي قام برحلة إلى النيجر انطلاقا من مصر ما بين سنتي 1797م و1800م، على أن النجاح الحقيقي الذي سجله الرحالة "هورنمان" في استكشاف الصحراء قدر له أن يبقى مدة طويلة في العدم، حيث غطت عليه أخبار حروب "نابليون" الأولى. كانت المهمة الأساسية التي أنشطها "الجمعية الإفريقية" بالسائح الألماني هي مواصلة استكشافات "مونغو بارك"،¹ ولما وصل إلى النهر الإفريقي العظيم وأكمل استكشافات "مونغو بارك" توفي المستكشف الألماني الكبير في أحواز تمبوكتو.⁴ وقد سجل التاريخ أنه أول أوروبي اجتاز الصحراء.⁵

خاتمة:

ختما يمكن القول إن الصحراء الإفريقية استعصت على الأمم السابقة رغم محاولات التعرف عليها واستكشافها إلى أن تمكن الرحالة العرب من اختراقها في كثير من الاتجاهات، وجابوا معظمها، وكان لمؤلفاتهم وكتبهم التي جمعت ملاحظاتهم عن الصحراء ووصف ربوعها عظيم النفع بالنسبة للرحالة والمستكشفين الأوروبيين.

¹ - إبراهيم ميامي: المرجع السابق، ص 41.

² - مونغو بارك: رحالة وطبيب إسكتلندي، ولد في 1771م، قام بعدة رحلات إلى إفريقية يعتقد أنه قتل في نوي Noyé سنة 1806م، أنظر:

Paul Vuillot: (L'exploration du Sahara, Etude Historique et Géographique), Librairie Coloniale, Paris, 1895, PP. 2-3.

³ - هورنمان: رحالة ألماني، لم يتجاوز عمره سن 25 حينما قام برحلته لاستكشاف الصحراء الإفريقية باتجاه النيجر انطلاقا من مصر، وذلك ما بين أعوام 1797 و1800، لكنه لقي حتفه في تمبوكتو وعمره لا يتجاوز 28 سنة، أنظر نفس المرجع، ص ص 290، 292.

⁴ - إسماعيل العربي: (تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر)، المرجع السابق، ص 291.

⁵ - يحي بوعزيز: (اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومدى استفادتهم من طرق القوافل في غزوها)، المرجع السابق، ص 47.

⁵ - إسماعيل العربي: (تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر)، المرجع السابق، ص 292.

كانت الرحلات الاستكشافية العلمية الأوروبية في أواخر القرن الثامن عشر بمثابة محاولات لاستكشاف الصحراء الإفريقية، وكان المغزى من تلك الرحلات هو معاينة تجارة الصحراء عن قرب وتتبع مسالكها والوصول إلى مراكزها.

جاء الرحالة الانجليز والألمان مناطق عديدة من الصحراء، بما فيها الصحراء الجزائرية، ولقد حظي البريطانيون بالسبق في التعرف على الصحراء الكبرى، ويعود الفضل في ذلك إلى "الجمعية الإفريقية" التي أسسوها سنة 1788م، ثم نافسهم في ذلك مستكشفون ألمان. غير أن ما يلفت الانتباه في تلك الفترة بالذات هو قلة اهتمام الفرنسيين بالصحراء الإفريقية، ولكن مع مطلع القرن التاسع عشر تغير الحال تماما، حيث شهد هذا القرن تنافسا حاد بين البريطانيين والألمان والفرنسيين على حد سواء، لذلك يمكن الجزم بأن تلك الاستكشافات مثلت بداية لبسط النفوذ الأوروبي على الصحراء الإفريقية واحتلالها.

قائمة المصادر والمراجع

- ¹ ابن بطوطة: (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص 690.
- ² ابن خلدون: (كتاب المقدمة) مج 1، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 92-95.
- ³ الإدريسي: (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس) مقتبس من كتاب: (نزهة المشتاق)، تحقيق وتقديم وإساعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983.
- ⁴ العياشي: (رحلة العياشي)، مولاي بلحيسبي: "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني"، الطبعة 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- ⁵ -Davezac. M: (de l'Algérie, et des Principaux Ouvrages Récemment Publiés à ce Sujet), N. A. V. G. H, 4 série. T7, 1841.
- ⁶ -Edouard Blanc: (Les Routes De L'Afrique Septentrionale Au Soudan), Société Géographique, Paris, 1890.
- ⁷ -M. James Richardson: (Routes du Sahara. Itinéraires dans l'Intérieur du Grand Déserts d'Afrique), Imprimerie de le Martinet, Paris, 1850.
- ⁸ Paul Vuillot: (L'exploration du Sahara, Etude Historique et Géographique), Librairie Coloniale, Paris, 1895.

المراجع:

- ¹ إبراهيم مياي: (توسع الاستعمار الفرنسي في الجزائر الغربي الجزائري 1882 - 1912)، منشورات المتحف الوطني، الجزائر، 1996.
- ² أحمد صفر: (مدينة المغرب العربي في التاريخ ج 1)، دار النشر بوسلامة، تونس، 1959.
- ³ إساعيل العربي: (الصحراء الكبرى وشواطئها)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- ⁴ إساعيل العربي: (المن المغربية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
- ⁵ العربي الزيري: (مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984.
- ⁶ العربي الزيري: (التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792 و1830)، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 167-169.
- ⁷ أبو القاسم سعد الله: (تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري) ج 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1984.
- ⁸ (أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر)، القسم الأول، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- ⁹ سعد زغلول عبد الحميد: (تاريخ المغرب العربي)، ج 4، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1995.
- ¹⁰ محمد علي القوزي: (في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر)، دار النهضة العربية، بيروت، 2006.
- ¹¹ محمد الصغير غانم: (التوسع الفنيقي في غربي البحر الأبيض المتوسط)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992.
- ¹² المنجد في اللغة والأعلام، ط 16، دار المشرق، بيروت، لبنان، 1991.
- ¹³ منجيوب زيد: (متى عرف الأوروبيون إفريقيا)، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج 4، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، 1995.
- ¹⁴ يحيى بوعزيز: (اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء من خلال ما كتبوه ومدى استفادتهم من طرق التوافل في غزوها)، مجلة الأصالة.
- ¹⁵ "الملتقى الإسلامي الثالث عشر"، تترامست، الجزائر، 1979.
- ¹⁶ (تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001.

حضارة الإصلاح في منظومتي التربية والتعليم

د. بن نعمة عبد الغفار / جامعة وهران

تتكفل المنظومة التربوية في كل بلد بتحقيق طموحات المجتمع وتحديد وجهاته المتباينة في مجال الفكر، كما تبنت مهمة تنشئة الأجيال وهي مسؤولية لا يستهان بها بحال، فالأجيال المتعلمة شاهد الأمة على الثقافة، ولعلها افردت بهذه القيادة الرائدة، فهي هيئة تحظى بأهمية كبيرة بل أساسية، وأن أي شخص فتح اتصالاً بأي هيئة أخرى يفرض عليها بحثاً مضمناً عن مراحل اتماؤه إلى الهيئة التربوية كعامل ضروري للمركز في أي سلك اجتماعي على اختلاف نوعه.

ولهذه الأهمية فكر القائلون على شؤونها بإعادة النظر في مختلف الجوانب التي تحكمها، وأطلقوا برنامج الإصلاح كقناة يتم من خلالها التحوّل مع المنظومة التربوية بما يضمن تحقيق النتائج، والاطمئنان إلى مرتبة مقبولة ضمن المنظومات التربوية العالمية، وللوقوف على مختلف المعايير المتبعة في هذا الشأن يأتي هذا لمحاولة تحديد موقع المنظومة التربوية من قضية الإصلاح، وتطرح إشكالية مهمة في هذا الصدد مفادها: كيف يمكن للمنظومة التربوية أن تتخذ مكاناً معتبراً من قضية الإصلاح، وهل يمكن لها أن تفرض تعايشاً سلمياً بين مناهج التعليم، والعلوم المتهجّة كمقررات دراسية والتخصصات المتفرعة عن كل علم.

يمكن تلمس واقع المنظومة التربوية انطلاقاً من أنه ليس سداً لفراغ الحياة أن يفرض التعليم في مختلف مراحلها على أجيال متعاقبة، ولكنه واجب ديني نلتزم به، وضرورة حضارية تغذى منه العقول البشرية من أجل تفعيلها في واقع الناس المعيش، وإنه لنظام عالمي لم ينسلخ منه إلا كل متخلف عن ركب الحضارة حتى وإن حالت بينها الظروف على اختلافها، على نحو استعمار، أو سلطة قاهرة، أو فقر مدقع أو غيرها.

إن التعليم شامة الأمم وسلم رقيها، وهو الشاهد الأساس في تصنيفها، واعتبارها ضمن مقاييس القوة والضعف في الأجندة العالمية، وهو المنقذ لها من مختلف ممارسات الإقصاء التي تتعرض لها الأمم في مختلف عصور الحضارات وأزمات التعاقب، بل هو الكفيل بإعداد أمة لها ماض مجيد، وحاضر مستعد لدخول مغامرات حضارية وفكرية حادثة، ومستقبل رائد لأي تحد تفرضه التكنولوجيات المحتملة، أو التطورات في مختلف المجالات.

ليس بعيداً أن تُعير قضية النهوض الحضاري للتعليم حساباً ذا قيمة، فالقضية شمولية عامة، والتعليم لا يحقق خطوات مباركة إلا بتضافر جهود شتى، فهو مشروع كلي جماعي ولكل

مكلف مسؤولية ملقاة على عاتقه، تشكل حجر عثرة في طريق التعليم إذا نقص منها شيء، وليست هذه دعوى إلى المثالية التعليمية فهو أمر صعب بمكان، بقدر ما هو سعي لتحقيق تعليم متكامل أقل ما يقال عنه أنه تعليم تنموي وفكري وثقافي، يضمن الكفاية الاجتماعية من حيث توفير الإطارات، والكفاية الاقتصادية من حيث تكوين اليد العاملة الماهرة، والعدالة الاجتماعية من حيث ديمقراطية التعليم والثقافة.¹

وبالتالي ضمان مستوى تعليمي عالي وعصري يتماشى مع التطورات الحديثة، وظهر من خلال الواقع استجابة كبيرة إذا اعتمد التجديد في المنظومة التربوية وعلى مختلف المستويات، تحت غطاء الإصلاح. الذي شغل حيزا كبيرا في مختلف المجالات، واتخذ أنماطا عديدة ومختلفة تسعى جميعها لتحقيق أكبر قدر ممكن منه، وبات أكيدا جمود الفكر الإنساني من دونه، وإلا فإنه أحد رموز الحضارة الإنسانية في العصر الحديث، ولأجله تأسست مدارس بأكمها واتخذت كل واحدة منها منهجا مستقلا، به تُجسّد مفهوم الإصلاح وتطبق وقائعه، وتثمن نتائجه، وفق قواعد وأساسيات يُحسب أنها تجني ثمارا في هذا الصدد ولا مُعتبر إلا بدليل.

مفهوم إصلاح المنظومة التربوية

يرد تعريف الإصلاح من وجه عام على أنه: "تغيير كلي للمؤسسة التعليمية فهو يحدد لها أهدافا جديدة مع المحافظة على بنيتها التحتية وتركيبها البشرية."²

والتغيير الكلي قد يكون بإحداث إضافات جزئية في نظام التعليم، سواء في هيكل التعليم مثل زيادة أو إقصاء سنة في إحدى مراحل التعليم أو تغيير نظام التشعيب إلى علمي وأدبي ورياضيات في المرحلة الثانوية، أو في مضامين المناهج مثل إضافة أو حذف بعض المقررات، وإدخال بعض المفاهيم الجديدة في بعض المقررات، أو في تقديم خدمات التعليم في المدرسة، مثل العناية بالنشاط المدرسي رياضيا كان أو اجتماعيا أو ثقافيا، أو تطوير الكتب المقررة ونحوها. وقد يكون الإصلاح موجهاً إلى الإجراءات، مثل نظام اليوم الكامل في بعض الدول ونظام الفصلين الدراسي، والساعات المعتمدة ونحوها.

يظهر من خلال هذا البيان صعوبة تحقيق محتوى الإصلاح، إذ يتطلب من دون شك تدخل الدولة بشكل أو بآخر، من خلال اعتماد سياسة "التخطيط التعليمي أو التربوي وهي العملية المتصلة التي يتم عن طريقها تنمية الموارد البشرية بما يُمكن كل فرد من تنمية قدراته إلى أقصى

¹- تري رايح، مبادئ التخطيط التربوي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 30، ويعتبر صاحب الكتاب هذه المظاهر الثلاثة أهدافا للتعليم في كل مجتمع.

²- الوثيقة الرسمية لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي، La refonte de l'enseignement supérieur، المطبعة الرسمية شارع بارك، الجزائر، 1971.

درجة ممكنة، ومن الإسهام بكل فعالية في تقديم النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وفق أهداف محددة، وفي إطار السياسة العامة للدولة.¹

ويبدو واضحاً علاقة التخطيط التربوي بالتخطيط الشامل للدولة، الذي يسعى إلى تحقيق التنمية في جميع المجالات، أولى الاعتبارات التي تُحسب في برنامج الإصلاح، "إذ تستمد التربية والتعليم أهدافها من أهداف الدولة التي تحددها الخطة العامة، كما يجب أن يتلائم مع السياسة العامة من حيث كفاية الأشخاص للأعمال التي يتم إعدادهم لها، فأساس التخطيط التربوي هو تصوير المستقبل بالصورة التي تطلع إليه الدولة"² ولعل هذه القاعدة هي النتيجة التي يجب أن يصل إليها الإصلاح، وقبل أن نتغنى بشعار المواكبة العصرية، يجب العمل على عقلنة هذه المواكبة من خلال استغلال نتائجها للصالح العام، في توفير الكفاءة الداخلية لنظام التعليم، ثم تحقيق التنمية الوطنية.

من جانب آخر تسري هذه العقلنة من خلال التوفيق بين العلوم أو المواد العلمية وبين وسائل ومناهج التعليم، أي أن الإصلاح يجب أن يشمل الجانبين معاً، إذ نلاحظ على مستوى التجربة الجزائرية تكثيف الجهود على مستوى المادة الدراسية أو العلمية من حيث تطوير المقررات الدراسية وتغييرها وإحداث تعديلات مختلفة، في حين يُهمل الجانب التعليمي المتعلق بكل ما له اتصال بالمحيط التعليمي، كالأستاذ، والطالب، والإدارة، والمكتبة، والتقييم، والإبداع، وغيرها، وإذا وقفنا على المفهوم التقليدي للمناهج التربوي الذي يعرف بـ "مجموع المعلومات والحقائق والمفاهيم والأفكار التي يدرسها الطلبة في صورة مواد دراسية، اصطلاحاً على تسميتها بالمقررات الدراسية"³ ينتابنا الإحساس بجفاف هذا المفهوم وعدم فاعليته وحركيته، ولا نكاد نأمل في العملية التنموية المنشودة، مما يحيلنا إلى المفهوم الحديث الذي يليق ببرامج الإصلاح وهو: "مجموع الخبرات التربوية الاجتماعية والثقافية والرياضية والفنية والعلمية، التي تخططها المدرسة وتهيئها لطلبتها ليقوموا بتعلمها داخل المدرسة أو خارجها بهدف إكسابهم أنماطاً من السلوك، أو تعديل أو تغيير أنماط أخرى من السلوك نحو الاتجاه المرغوب، ومن خلال ممارستهم لجميع الأنشطة اللازمة والمصاحبة لتعلم تلك الخبرات تساعدهم في إتمام نموهم"⁴ ويظهر الفرق جلياً بين المفهومين إذ يبدو المفهوم الثاني أكثر ملائمة للواقع، ومواكبة لمتطلباته، من حيث "مرونته وتركيزه على الكيف، واهتمامه بطريقة تفكير الطالب ومهاراته، تشترك فيه

¹- تركي راجح، مبادئ التخطيط التربوي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 18

²- المرجع السابق، ص 21.

³- المرجع نفسه، ص 25.

⁴- المرجع السابق، ص 29، 30.

جميع القوى العاملة بما فيها الأسرة، يُعدّل حسب احتياجات الطالب وظروفه، مصادره متعددة ومواده الدراسية متكاملة، للمتعلم فيه دور إيجابي يحكم عليه بحسب تحقيقه للأهداف، وتنبأ له الحياة المدرسية جوا مناسبا، وللمعلم فيه دور أيضا حين يحكم بمدى مساعدته للطلبة في تحقيق النمو المتكامل، يتعامل مع الطالب كفرد اجتماعي فاعل،¹ ومن هذه الزاوية تكاد تكون التجربة الجزائرية عميقة جدا في هذا الإطار، بسبب عدم تجسيد هذه المفاهيم على أرض الواقع، حتى وإن حدث تغيير في المنظومة التربوية فاهتمامه بالكَم على حساب الكيف أمر ظاهر بين.

الخطوط العريضة للإصلاح

اتضح مما سبق علاقة إصلاح التعليم بالتخطيط الشامل للدولة، ومرد هذا كله إلى القائمين الفاعلين، ومنه يمكن القول إن عملية النهوض بالتنمية الوطنية يكون "بتكوين أكبر قدر ممكن من الإطارات المؤهلة وبأقل تكلفة ممكنة"²

إصلاح العلوم أو المقررات الدراسية في المنظومة التربوية الجزائرية

إذا أرادت المنظومة التربوية أن يكتب لها النجاح فيجب اتقاء الاعتدال على الكم، ولا يمكن للإصلاح أن يحقق خطواته المنشودة من دون مراعاة الطاقة البشرية المحدودة لزاما، ثم إن تكديس المقرر الدراسي بالمادة العلمية لا يأت بأكل يُذكر، ولا يقتصر إصلاح العلوم (المادة الدراسية) في تغيير مضمونها فحسب، بل في تتبع مراحلها في جميع المستويات التعليمية، فمادة اللغة العربية مثلا في السنة الثالثة من التعليم الابتدائي تعتمد في مقرر الإصلاح على أربعة نقاط أساسية وهي: استقبال المتعلم لخطاب شفوي وإدراك مدلوله، استقباله لخطاب كتابي وإدراك مدلوله، تحرير خطاب شفوي وإدراك مدلوله، تحرير خطاب كتابي وإدراك مدلوله³ وهي مراحل إذا تمكن التلميذ من تحقيقها فهو إنجاز عظيم، لكننا إذا اطلعنا على ما يوحى به الإصلاح في مادة اللغة العربية كذلك في السنة الثالثة من التعليم المتوسط نجد يؤكد على أن التلميذ مطالب بإتقان تقنيات التعبير الكتابي والشفوي على حد سواء، والفارق بين المستويين أربعة سنوات لم يتعد فيها المتدربون نطاق التعبير، وهذه أزمة حقيقية تلاحقنا حتى في مستوى السنة الأولى من التعليم الثانوي، ولعل التركيز على هذا الجانب كان بسبب ضعف المستوى القرائي للمتعلّمين باعتبار القراءة هي المدخل الأساس للتعبير شفويا كان أم كتابيا، والغرض الأساس من كل هذا هو تزويد اللسان على النطق السليم للكلمات، ولا

¹ - خالدي مسعودة، التعليم العالي في الجزائر بين الضرورات وحتميات الحادثة، دراسة ميدانية في جامعة تيارت، رسالة ماجستير، 2001، 2002.

² - موقع إلكتروني يهتم بالمنظومة التربوية الجزائرية.

يتأتى هذا إلا بالقراءة، التي كان ينبغي تركيز الجهود في إعطائها قدر معتبر في السنوات الأولى من التعليم، في حين نجدها لا تحظى إلا بساعة واحدة في الأسبوع في السنة المتحدث عنها، وهذا ما ينبه إلى وضعية التعبير والإنشاء في المنظومة التربوية، إذ أن ضعف المستوى اللغوي يصاحب الطلبة حتى في المستوى الجامعي، يضاف إلى ذلك أن نسبة كبيرة من التلاميذ الوافدين من التعليم الابتدائي، حين يلجون السلك الإعدادي، لا يفهمون بالفعل ما يقرأون، ونسبة أخرى لا يستهان بها منهم، لا يعرفون القراءة إجمالاً، مع العلم أن القراءة والكتابة تبقى بالنسبة للتعليمين الابتدائي والإعدادي من الأهداف والمطامح الأساسية التي ينبغي التركيز عليها.

يقول الدكتور محمد صاري متحدثاً عن اللغة العربية في الجامعة الجزائرية: "على الرغم من الكم الهائل من المواد التي يتلقاها طالب قسم اللغة العربية وآدابها خلال السنوات الأربعة من التكوين، فإن مستوى خريجي هذه الأقسام لا يعكس حجم المجهودات المبذولة. فالطالب المسجل في هذا الفرع يمضي في الطريق التعليمي إلى آخر الشوط، ثم يتخرج من الجامعة أمياً أكاديمياً أو شبه متعلم، يعجز عن القراءة الجهرية المعبرة، وعن كتابة مقال علمي أو أدبي أو خطاب وظيفي بلغة عربية سليمة من اللحن والأخطاء الفاحشة. فمعارفه اللغوية، وكيفية استعماله للفصحى مشافهة وتحريراً لا تدل على شهاداتهم الجامعية".¹

من جهة ثانية فإن مطالبة المتعلم بالوقوف عند حد إدراك محتوى النص أمر محمود، ولكنه يكون أكثر فاعلية لو سلطنا مبدأ التدرج الذي يعتمد على عمليات تلقين القراءة بالتدرج، بحيث نكتفي مثلاً في نهاية السلك الابتدائي الأول بفك رموز الحروف بطريقة سليمة، بعدها نرتقي بالمتعلم إلى القراءة العادية التي تتم دون مجهود والتي يمكنها أن تكون معبرة. وفي نهاية التمدرس بالإعدادي، يمكن أن ننتظر من المتعلم السهولة في القراءة والفهم الكامل للمقروء، وفي المراحل المتقدمة من التعليم يمكن أن نعمل على توجيه التلاميذ إلى القراءة لاستخراج المقاطع الأساسية لكل فقرة على حدة، وبالتالي التوصل بسرعة إلى التعرف على مقال أو أجزاء من كتاب مع إدراك محتواه الأساسي أو حتى تفاصيله. وبالتالي التوصل إلى معرفة كافية تسمح بعرض المقروء وتحليله واستغلاله دون تحريفه. كما أن القراءة الصامتة مثلاً، يمكنها أن تكون تهيئاً للقراءة الجهرية، ويمكنها أن تكون كذلك وسيلة ناجعة لجعل القراءة "شخصية" لأنها متحررة من الضغط والإكراه النفسي- الذي تخضع له القراءة الجهرية² وهذا مستوى يضمن علاقة المتعلم بجميع المواد كما تشير بعض المواثيق التربوية أن: "تنمية مهارات

¹ محمد صاري، التقويم وأثره في تحسين أداء الأستاذ الجامعي، ص 2.

² ديداكتيك التعبير، تقنيات ومناهج، محمد أولحاج، السلسلة البيداغوجية عدد 16، دار الثقافة البيضاء، 2001، ص 3.

الفهم والتعبير باللغة العربية ضروري لتعلم مختلف المواد¹ ويعكس علاقته بالبيئة والمحيط الاجتماعي أيضا لأن القراءة والتعبير عمليتان اجتماعيتان وهما أداة التواصل، وعوامل لبناء الشخصية بكل اتجاهاتها، الإسلامية والقومية معا.

إذا انتقلنا إلى مستوى أكثر عمقا وهو ميدان الجامعة لا يختلف الأمر كثيرا في عدم توازن المقررات الدراسية مع واقع العصر، فتنحصر العلوم الإسلامية مثلا لم يفكر القائمون عليه في تدريسه وفق قواعد التجديد في العلوم الإسلامية التي يدعو لها الكثير من الدعاة والباحثين لهم باع واسع في التجربة الإسلامية، كأصول الفقه، والفقه انطلاقا من أن المعرفة الإسلامية هي معرفة متطورة، عملا بقاعدة صلاح الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان، مع الاحتراز في هذه الدعاوى من المساس بالأصول، ويمكن في هذا الإطار فتح مجال لانتهاج سياسة التكامل بين المواد، ولعل بدايتها من تجسيد نظام ل م د في الجامعة الجزائرية الذي اعتمد طريقة جمع المواد المتقاربة تحت وحدة دراسية واحدة، وهذا يفيد في تنظيم أفكار المتعلم وتصنيف المواد في الخانة اللائقة بها.

ومن المؤسف في الجامعة الجزائرية أن نفتقد على الأقل في العلوم الإنسانية إلى مادة رئيسية جدا خاصة في التخصصين المذكورين آنفا - علم المكتبات والتاريخ والحضارة الإسلامية - وحتى الأدب العربي وهي مادة تتعلق بالمخطوطات العربية وخدمة التراث أي ما كانت تسميتها، إلا ما نجده في بعض مخابر البحث² التي حملت على عاتقها هذه المسؤولية.

ومن جهة أخرى لا يمكننا أن نتصور فقر تخصص علم المكتبات من مقررات دراسية تهتم بالمعلومة ولتسمى إن أردنا ب "تقنيات المعلوماتية"³ أو "حماية المعلومة" من القرصنة التي تتعرض لها في كل دقيقة، وهذا أفضل ما يتماشى مع برامج الإصلاح في عملية توازنية بين تحديات القرصنة وأبجديات الحماية، وهذه دعوى إلى تجديد المحتويات الدراسية التي باتت لا تتجاوب مع الواقع، وإذا أشرنا في ما سبق إلى نظام الوحدات الدراسية التي تجمع مواد متقاربة في المادة العلمية، فينبغي التنويه بالمحاولة الجزائرية في المستوى الثانوي حين جمعت الأدب والفلسفة في شعبة واحدة، وهي مبادرة محمودة لكننا لو تصفحنا محتوى المقرر الدراسي في الأدب العربي وجدناه بكل محاولاته لا يستجيب للوحدة العربية التي يدعو لها الكثيرون، ذلك أنه مقسم في إجماله إلى وحدتين أساسيتين: 01 - وحدة متعلقة بالدين تشمل اللغة

¹ - يرد هذا كثيرا في الميثاق المغربي.

² - مثل مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية . جامعة وهران. تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد المجيد بن نعمة. وهناك دعوة إلى ضرورة إدراج هذه المادة في مقررات التدريس على مستوى تخصص علم المكتبات.

³ - التطورات الحديثة تفرض تجسيد المعلوماتية في جميع التخصصات، وفي جميع ميادين الحياة.

العربية قبل الإسلام، رواية الشعر الجاهلي، قيمة المراكز الأدبية، النثر الجاهلي، الخطب، الحكم الشعبية، ظهور الإسلام، أثره في الشعر، الشعر السياسي، الشعر الاجتماعي، 02 - وحدة متعلقة بالنصوص والأدباء. وتشمل الشعراء كمرئ القيس في الوصف، وعنزة في الفخر، وزهير في الحكم، الأخطل في السياسة، وجريز في المدح، أمثلة من أخلاق الإسلام كالخمساء في الرثاء، وحسان في المدح. وكذا نمط الرسائل كعبد الحميد الكاتب.

يعلق عثمان سعدي على هذا المقرر قائلاً: "أنه مملوء بالحشو والتكديس وتكليف التلميذ أكثر من طاقته، وأنه ليس من المبالغة أن يعتبره مقرراً أقوى من منهج لسنة من سنوات كلية الآداب (قسم اللغة العربية) لإحدى الجامعات العربية المشهورة"¹ ونجده يشير إلى انتهاج منهج خفيف يربط بين مقرر النصوص والأدب ومقرر الدين على حد سواء، كأن تدرس نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية في أدب المجتمع والنظم الإسلامية ومكارم الأخلاق في خانة واحدة، وتدرس مختارات لأدباء الأمة العربية في شتى أقطارها تتصل بالوطنية أو الجهاد في خانة أخرى، وتدرس مختارات من أدب العصور المختلفة مثل الحماسة والفنونة والبطولة في خانة مستقلة، وبه يمكن الوصول إلى وضع مقرر "يرز الدين الإسلامي على أنه دين الحياة كما هو دين للعبادات"² هذا الذي أفضت إليه الدراسة ثمنه المعايير المعتمدة في اختيار المحتويات نذكر منها ما يلي على سبيل المثال لا الحصر:

- صدق المحتوى: بمعنى الصحة والدقة والارتباط بالأهداف والمواكبة مع الاكتشافات العلمية المعاصرة، والأهمية للمجتمع والمعلمين.
- ارتباطه بالواقع الاجتماعي والثقافي.
- توازن المحتوى بين العمق والشمول، وبين النظري والعملية التطبيقي، وبين الأكاديمي والمهني، وبين احتياجات الفرد والمجتمع.
- مراعاة المحتوى لمعارف المتعلم السابقة.
- مراعاته للاحتياجات المستقبلية للمتعلم.

ويكون لزاماً عقب عملية الاختيار أن يخضع المحتوى لعملية ترتيب وتصنيف وفق معايير تضمن صلابته وتماشيه مع مختلف الأجيال يحددها المهتمون في مجال التربية بثلاثة معايير⁴ وهي:

¹ - عثمان سعدي، قضية التعريب في الجزائر، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1967، ص 69.

² - المرجع نفسه، ص 69.

³ - توفيق أحمد مرعي، المرجع السابق، ص 83.

⁴ - المرجع السابق، ص 83.

معيّار الاستقرار: ويقصد به العلاقة الرأسية بين الموضوعات من الصف الأول الأساسي إلى الصف الثاني عشر.

معيّار التكامل: ويكون بالربط بين المواد والموضوعات، كربط التاريخ بالجغرافيا، أو ربط موضوعات معينة في صف معين بالموضوعات نفسها في صفوف سابقة أو لاحقة.

معيّار التوحيد: ويقصد به وضع المواد المتخصصة في وحدات معا، وهذا الذي يدعو إليه نظام ل م د في الجامعة الجزائرية، وعموما فإن الإصلاح في المقررات الدراسية يجب أن لا يغفل تركيز سياسة الالتقاء¹ التي تُشعر الأسرة التعليمية بأكملها باندماجها في الجماعة وأنها صارت جزءا مقبولا منها وإشراكها في العملية السياسية، وقد أكدت الدراسات أن "ضعف الالتقاء نتيجة طبيعية في ضوء الاغتراب² الذي يحققه المناخ المدرسي والمقررات الدراسية التي تغذي ثقافة السمع والطاعة"³ كما أن بعض "المقررات لا تهتم بقضايا المجتمع بدءا بالبيئة المحلية للمتعلم"⁴.

المنظومة التربوية وإصلاح التعليم

يجب التمييز بين مصطلح "التعليم" و "التعلم" فالتعليم يخص جانب المعلم، ويعرفه بعضهم "بأنه تيسير التعلم وتوجيهه، وتمكين المتعلم منه، وتهيئة الأجواء له". أما التعلم فيخص التلميذ ويعني: "التغير المستمر - نسبيا - في الميل السلوكي، وهو نتيجة لممارسة معززة"⁵.

ولا حاجة لتكرار الحديث عن أهمية التعليم كما ورد في بداية هذه الموضوع، بقدر ما يجب التنبيه إلى أن "الدول المتقدمة التي قطعت شوطا كبيرا في طريق التقدم والتطور، قد نظرت إلى التعليم على أنه أداة من أدوات التجديد، أو أعادت النظر فيه على نحو يمكنه من أن يكون كذلك"⁶ وهي دعوة تستفيد منها الدول النامية أو السائرة في طريق النمو، وهي بحاجة إلى بذل مجهودات مضاعفة في سبيل تحقيق التعليم المرن النابع من التخطيط الشامل للدولة، ولهذه الفرضية ترجمة واقعية يشارك فيها المجتمع المدني بأكمله بداية ب:

¹- أغلب التعاريف الواردة فيه توجي بالانتساب إلى جماعة معينة.

²- يقصد به إحساس المتعلم بكونه غريبا عن وطنه.

³- لطيفة إبراهيم خضر، المرجع السابق، ص 126.

⁴- المرجع نفسه، ص 127.

⁵- دوقلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ترجمة عبده الراجحي وعلي أحمد شعبان، دار النهضة العربية، بيروت 1994.

ص 25-26.

⁶- ديوان المطبوعات الجامعية، مبادئ التخطيط التربوي، ص 63.

01 - المعلم أو الأستاذ: قبل أن يشرع المعلم في تطبيق برامج الإصلاح يطالب بداية بوعي الخطاب الإصلاحي الذي يدعو إلى تصفية النفس من كل ما يكدرها حتى يتمكن من تكوين الجيل القادر على تحمل المسؤوليات، وبه يكتسب الشخصية الاجتماعية التي يحرص المهتمون في مجال التربية بتعريفها بـ "الشخصية القادرة على ترجمة الطاقة العقلية إلى طاقة نفسية تتفق ودورها مع المجتمع، وهي الشخصية الكامنة وراء التطور الاجتماعي والاقتصادي"¹ وهي مرتبة عالية المستوى، الوصول إليها هي مسؤولية الدولة بالدرجة الأولى، والتي مع الأسف تعتبر التعليم قطاع غير منتج، زيادة على عدم التكفل بالأسرة التعليمية على الوجه الذي يمكنها من تكوين الشخصية الاجتماعية الفاعلة في المجتمع والاقتصاد.

من هنا ننتقل في البحث عن الأدوار الحضارية للمعلم الذي ينبغي النظر إليها من زوايا ثلاثة²:

- الأدوار الأكاديمية: "وتتمثل في وظيفة المعلم وما تتطلبه من تكوين معرفي وعقلي ومنهجي وسلوكي، ومن خبرات ومهارات في طرائق التدريس وإدارة القسم والدرس والمحاضرة، وأوضاع المتعلمين الاجتماعية والنفسية.

- الأدوار الاجتماعية: وتشمل مشاركة المعلم في الفعاليات الاجتماعية المختلفة، واستفادته من وسائل الاتصال الحديثة للمساهمة في خدمة قضايا المجتمع، وعمله على وضع شخصيته محل القدوة في سلوكياته ودوره الاجتماعي، وقد تأكد أن تكوين المعلم هو تكوين إسلامي محض وهو الدين الوحيد الذي هذب سلوكيات الإنسان من جميع جوانبها.

- الأدوار الحضارية: ويكون فيها المعلم ناقلا لقيم الحضارة من خلال مبادئه وتعلمه وشخصيته وسلوكياته وثقافته، وقد تتعدى مهمته الإطار التعليمي إلى الإطار الخارجي في المجتمع، ويكون فيه من جانب آخر إنسانا رساليا، يعمل من أجل أداء الدور الإنساني والرسالة الحضارية الكبرى، إذ يكون مفيدا لكل من احتاج إليه.

02 - المتعلم: وهو المحور الأول والهدف الأخير من مجمل العملية التعليمية التربوية، لذلك ترصد الدولة لصالحه مصاريفا ضخمة في انتظار عائدات التكوين المتمثلة في "تكوين عقله، وجسمه، وخلقه، وروحه، ومعارفه، ومهاراته، واتجاهاته، وسلوكه"³ وتحقيق الحد الأدنى من هذه المقومات ليس بالأمر السهل فضلا عن تحقيق أغلبها أو كلها، وللمتعلم حق المشاركة في

¹ لطيفة إبراهيم خضر، دور التعليم في تعزيز الانتماء، عالم الكتب، ط1، 2000، ص 111.

² تري راج، المرجع السابق، ص 112.

³ عبد العزيز يرغوث، المرجع السابق، ص 12.

تكوين الدور الحضاري للأسرة التعليمية، " وما يلاحظ في الدول المتقدمة أن المتعلمين أصبح لهم دورا أساسيا في تحديد مدى فاعلية المؤسسات التعليمية وكفاءتها وقدرتها"¹، والحق أن محيط المتعلم مسؤول بالدرجة الأولى عن المراحل التي تسبق التعليم، في عملية التهيئة لاستقبال المعرفة أو ببساطة استقبال الجديد مما يجمله المتعلم، وهذا ما يعينه في المستقبل على ربط العلاقة بينه وبين المادة التعليمية وهي مرحلة محممة في نجاح التعليم، ويحرص المهتمون على تسميته "بالسلوك المدخلي وهو يشير إلى كل ما سبق للمتعليم أن تعلمه، وقدراته العقلية، وتطوره، وبعض المحددات الاجتماعية والثقافية لقدرته على التعلم"² ولا شك أن هذا كفيل برعاية المهارات التي تنمو من البدايات الأولى إلى أن يكون عنصرا فاعلا وفعالا.

المؤسسة التعليمية

تعنى المؤسسة التعليمية بدور كبير في تطبيق الإصلاح فهي المناخ الذي يسمح بتجسيد المعطيات وانتظار النتائج، وهي المجتمع المدرسي البيئة المسؤولة عن تكوين الجيل المنشود، ولعل من أجل مهماتها في مجال الإصلاح تكريس مبدأ الجماعة المدرسية، وهي " مجموعة من الطلاب لهم ميول مشتركة وهوايات واحدة ويشتركون معا في نشاط معين يهدف إلى إشباع هذه الميول " ولا ينبغي أن تنسحب لفظة الهواية والميل إلى الجانب السلبي، إنما يجب توظيفها في الحقل الذي يضمن انتساب هذه الجماعة في ما بعد إلى تخصص واحد بحسب الرغبة الشخصية، لا عن طريق التوجيه المفروض مهما كانت دواعيه وأسبابه، وعلى المؤسسة التعليمية أن ترعى هذه الجماعة من خلال التصنيف والمتابعة المستمرة في جميع المراحل الدراسية إلى أن يصلوا إلى المرحلة الجامعية، مما يسهل عمليا اختيار تخصص مرغوب والانتساب إليه بكل قناعة، وهذا سبيل مساهمة هذه الجماعة على مستويات عليا في العملية التنموية المنشودة من وراء إصلاح التعليم، لأن الأمة التي تضع لنفسها خطة للتنمية الشاملة لا تستطيع أن تهمل أو تتغافل عن إعداد العناصر البشرية اللازمة، المتناسبة مع حاجات التنمية بحيث يعطى العمل في كل مهنة إلى من يصلح له فقط، وكذا العمل على التوفيق بين رغبات الأفراد في التعليم الذي يميلون إليه، وبين احتياجات المجتمع "³.

¹- توفيق أحمد مرعي، المرجع السابق، ص 221.

²- محمد سلامة محمد غباري، الخدمة الاجتماعية المدرسية، المكتب الجامعي الحديث، مصر، 1989، ص 172.

³- ديوان المطبوعات الجامعية، المرجع السابق، ص 68.

من قضايا الإصلاح في التعليم

01 - إصلاح التعليم والعولمة

العولمة ظاهرة غير مستقرة على مدلول موحد فهي تختلف باختلاف التصورات، ويمكن تقريب المدلول من خلال النظر في مختلف تعاريف ومميزات الظاهرة نذكر منها: انفتاح مجالات الثقافات البشرية على بعضها البعض، تداول الأفكار عالميا وتسارع انتقال المعلومات وزيادة حركة الاتصال، نقل القيم الحياتية بصورة متسارعة، ولا شك أن لهذه الظاهرة انعكاساتها على التعليم، "وأول عمل ينبغي القيام به من أجل الاستفادة من العولمة هو تفعيل التعليم حضاريا أي البحث في الرسالة الحضارية الكبرى للتعليم لا من أجل تخرج المعلمين والمهنيين الذين نحتاج إليهم في المجتمع ولكن بصورة أساسية من أجل تشكيل الثقافة والشخصية الحضارية القادرة على فهم التحولات العالمية الكبرى".¹

02 - إصلاح التعليم والتعريب

تحسن الإشارة إلى أن الجزائر لا تختلف عن الدول العربية الأخرى التي عانت من الاستعمار في انتشار لغة المحتل، وكونها اللغة السائدة، وعند الاستقلال "كانت الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري تتحرق شوقا إلى لغتها، وتتمنى أن تراها تحل محل الفرنسية باعتبارها لغة وجودها في الجزائر غير شرعي، فهي لغة المحتل فرضها على الجزائريين بالقوة"²، سعيًا منه لطمس معالم الشخصية الجزائرية الإسلامية العربية، وهذا ما جعل الجزائريين يشعرون ضد هذه النية، وتم إدراج اللغة العربية في التعليم في سنة الاستقلال (1962)، وإذا لاحظنا الجهود المبذولة في هذا الشأن نجده لا زال بحاجة إلى تعزيز الجهود، فالمصطلح تطور بتطور الزمن "حيث اتخذ مفهوما عصريا على علاقة وطيدة بالقضايا التراثية والفكرية والتواصلية والمعرفية، واستهدف العمل الاصطلاحي بتعميم اللغة واستخدامها في جميع ميادين المعرفة البشرية، وانتقل من المفهوم اللفظي إلى المفهوم الفكري الذي يحمل صفة إنسانية تعني بالفرد العربي وأصالة فكره وشخصيته"³ ولا ينبغي بأي حال من الأحوال غض الطرف عن اللغات الحية والعالمية الأخرى كالإنجليزية التي فرضت نفسها في عالم المعلوماتية فرضا يوجب تعلمها لضمان التماشي مع واقع التطورات، والحق أن اللغة العربية تعاني أزمة حقيقية مع برنامج الإصلاح، ولا ينبغي النظر إلى التعريب من منطلق المؤسسة التعليمية فحسب، بل من منظور إسلامي وشرعي أصلا فهي لغة القرآن الكريم وهي تساهم بشكل أكبر في بناء الشخصية

¹- عبد العزيز برغوث، طبائع العولمة وضرورة الحوار الحضاري، كوالالمبور، ط1، 2003، ص 20 وما بعدها.

²- تري رايح، المرجع السابق، ص 50.

³- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة، ج 777، ط 2، 1999، ص 5.

الإسلامية.

أخيرا يمكن الإشارة إلى أن إصلاح التعليم هو في الأصل عملية تنموية تدخل ضمن التخطيط الشامل للدولة وأن متابعة خطواته بين مختلف القطاعات يسهل تحقيق نتائجها، وتنبغي الإشارة إلى أن التعليم في الجزائر على رغم الصعوبات التي يواجهها إلا أن له مميزات ومؤهلات تجعله أكثر مرونة وهي بحاجة إلى رعاية خاصة كمجانية التعليم، كما أن ضمان العملية الإصلاحية يوجب على الدولة إشراك المؤسسة التعليمية في القرار السياسي والتكفل بها في الجانب الاجتماعي، وأن انتهاج سياسة استهلاكية التعليم وعدم إنتاجيته يجمد كل نية حسنة لتقديم أقل ما يمكن من المسؤولية في إطار التعليم، وأن النظر إلى الإنتاج بمنطق الأفكار والمعارف يثمن الفاعلية الحقيقية للمؤسسة التعليمية، ويجسد معاني التعايش السلمي بين الدولة وبين أفراد شعبها.

الفهارس:

- 1- تركي راخ، مبادئ التخطيط التربوي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 30، ويعتبر صاحب الكتاب هذه المظاهر الثلاثة أهدافا للتعليم في كل مجتمع.
- 2- الوثيقة الرسمية لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي، La refonte de l'enseignement supérieur المطبعة الرسمية شارع بارك، الجزائر، 1971.
- 3- تركي راخ، مبادئ التخطيط التربوي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص 18.
- 4- المرجع السابق، ص 21.
- 5- توفيق أحمد مرعي، محمود محمد الحيلة، المناهج التربوية الحديثة، مفاهيمها وعناصرها وأسسها وعملياتها، دار المسيرة، عمان، ط 1، 2000، ص 19.
- 6- المرجع السابق، ص 25.
- 7- المرجع نفسه، ص 29-30.
- 8- خالتي مسعودة، التعليم العالي في الجزائر بين الضرورات وحتميات الحادثة، دراسة ميدانية في جامعة تيارت، رسالة ماجستير، 2001، 2002.
- 9- موقع إلكتروني يتم بالمنظومة التربوية الجزائرية.
- 10- محمد صاري، التقويم وأثره في تحسين أداء الأستاذ الجامعي، ص 2.
- 11- ديداكتيك التعبير، تقنيات ومناهج، محمد أولحاج، السلسلة البيداغوجية عدد 16، دار الثقافة البيضاء، 2001، ص 3.
- 12- يرد هذا كثيرا في الميثاق المغربي.
- 13- مثل مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية - جامعة وهران، تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد المجيد بن نعيم، وهناك دعوة إلى ضرورة إدراج هذه المادة في مقررات التدريس على مستوى تخصص علم المكتبات.
- 14- التطورات الحديثة تفرض تجسيد المعلوماتية في جميع التخصصات، وفي جميع ميادين الحياة.
- 15- عثمان سعدي، قضية التعريب في الجزائر، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1967، ص 69.
- 16- المرجع نفسه، ص 69.
- 17- توفيق أحمد مرعي، المرجع السابق، ص 83.
- 18- المرجع السابق، ص 83.
- 19- أغلب التعاريف الواردة فيه توجي بالانتساب إلى جماعة معينة.
- 20- يقصد به إحساس المتعلم بكونه غريبا عن وطنه.
- 21- لطيفة إبراهيم خضر، المرجع السابق، ص 126.
- 22- المرجع نفسه، ص 127.
- 23- دوقلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، ترجمة عبده الراجحي وعلي أحمد شعبان، دار النهضة العربية، بيروت 1994، ص 25-26.
- 24- ديوان المطبوعات الجامعية، مبادئ التخطيط التربوي، ص 63.
- 25- لطيفة إبراهيم خضر، دور التعليم في تعزيز الانتماء، عالم الكتب، ط 2، 2000، ص 111.
- 26- عبد العزيز برغوث، الأدوار الحضارية للمعلم ودواعي التجديد في فلسفة التعليم، الجامعة العالمية، ماليزيا، ص 15-16.
- 27- تركي راخ، المرجع السابق، ص 112.
- 28- عبد العزيز برغوث، المرجع السابق، ص 12.
- 29- توفيق أحمد مرعي، المرجع السابق، ص 221.
- 30- محمد سلامة محمد غباري، الخدمة الاجتماعية المدرسية، المكتب الجامعي الحديث، مصر، 1989، ص 172.
- 31- ديوان المطبوعات الجامعية، المرجع السابق، ص 68.
- 32- عبد العزيز برغوث، طبائع العولمة وضرورة الحوار الحضاري، كوالامبور، ط 1، 2003، ص 20 وما بعدها.
- 33- تركي راخ، المرجع السابق، ص 50.

¹ - باحث: بالمركز الوطني للبحث في العصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ، ملحقة تلمسان (مركز الدراسات الأندلسية)

تجليات شرف الفقيه في بلاد المغرب

أ.عباس رضوان*

مقدمة*

تعتبر الرحلة في طلب العلم أمرا شائعا بين طلبة العلم والمعرفة في المجتمعات المغاربية حيث كانت فكرة ضرورة الأخذ عن الشيخ مباشرة والجلوس إليه لها أهمية كبرى في التعليم فلم يكتفي الطالب المسافر بقراءة مصنفات الشيخ وحده وإنما حرص على أن يقرأها عليه أو يسمعها عنه حتى يتمكن من التفقه عنه وصحته.

هذا ما يقودنا الى البحث عن معرفة قيمة ومكانة الفقيه الذي هو ملزم لشيخه في اكتسابه للعلوم والمعرفة والاخلاق الحميدة التي تجعل منه أهلا لشرف العلماء، ما يثير فضولنا العلمي هو البحث عن علاقة طالب العلم بالفقيه وسبب لزومه ومعاشرته والتسليم له، محاولا بذلك البحث عن أهمية الشرف في حياة الطالب وبمحة عن شيخ العلم والمعرفة، وعلاقة الشرف بكل ذلك وكيف يتصور الطالب تلك العلاقة مع الفقيه وماهي تصوراته وتمثله للفقيه المعلم، واين تتجلى مكانة الفقيه عند طالب العلم خصوصا المسافر الذي اثار على نفسه تحمل كل المشاق والمتاعب قصد حفظ كتاب الله.

ماهية الشرف

الشرف: تعني كلمة الشريف "حسب" سيريل فلاس "Cyril Glass"، النبيل أو السيد والسادة هم ورثة الأنبياء أو الشيخ ذو مكانة مرموقة في المجتمع وتعني بالتركية الخان أو السيد أو الشيخ، اما حسب الفرد بل "Alfred Bel" هو لفظ يستعمل لمناداة أشراف القوم ويطلق على النبي نفسه وصف سيدنا ومولانا خصوصا في التصلية عليه "في الصلاة" وهي مرتبطة كذلك بالمشايخ والعلماء والفقهاء¹.

* - باحث بالمركز الوطني للبحث في العصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ، ملحقة تلمسان (مركز الدراسات الأندلسية).

* - الكلمات المفتاحية: النسب، الشرف، الفقيه، البركة، المقدس، الطالب "المريد"، العِلْم، المجتمع المغاربي سنحاول من خلال هذه الدراسة توضيح احدى مكانزمات التراتب الاجتماعي، الفاعل فيها أحد أقطاب المجتمع ألا وهو الفقيه، الذي حاز مكانة مرموقة في المجتمع بفضل انتباهه واختياره وسلوكه طريق العلم، الذي بفضل أخذ العلوم الشرعية وحفظ لكتاب الله وحمله في صدره، جعل منه هذا الأخير يحوز مكانة الشريف، والنسب الصالح والولاية التي تضيء عليه القداسة بسبب اخلاصه وبلوغه المقامات العليا في صحبة أولياء الله الصالحين وأل بيت حبيب الله.

¹ - محمد بن اسماعيل المقدم، حرمة اهل العلم، دار الايمان للطبع والنشر والتوزيع، ط2، الاسكندرية 2000 ص13.

الاعراض: جمع عرض، هو موضع المدح والذم من الانسان سواء كان في نفسه او في سلفه او من يلزمه امره وقيل هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه ان ينقص ويثلب، والحسب هو الكرم والشرف الثابت من جهة مآثرهم وشرف انسابهم وقيل هو الافعال الصالحة مثل الشجاعة والجود وحسن الخلق والوفاء¹

أنواع الشرف وارتباطاته

أ_ الشرف المرتبط بالثروة: وهو ذلك الشرف المرتبط بإيديولوجية الدفاع عن الارث في المجتمعات بدون دولة، حسب "شنايدر" أما عن بيار بورديو يعتبره كأحد عوامل التراتبية الاجتماعية²، هو كذلك مرتبط بالميراث العائلي أو التركة أو الارض، التي تخلق نوع من التراتبية في قضية النصاب، اي ان هناك نظام معين في هذا المجال الذي يحدد تلك التراتبية في الاسرة بصفة خاصة والمجتمع بصفة عامة، والعرض مرتبط بالأرض، ذلك ما كان يفرق بين السيد والعبد وهناك مقولة مشهورة في الغرب الجزائري مفادها أنه "ألي باع أرضه باع عرضه" هذا ما يوضح أن هناك ارتباط وثيق بين ملكية الأرض والشرف، بمعنى أن النبيل أو السيد أو المولى هو صاحب الجاه والمال والمالك للأراضي والبساتين ويجوز العديد من العبيد والخدم الذين يحرثون الارض ويتمون بشؤونها وهم أقل رتبة وجاه وسلطان من سيدهم وولي نعمتهم مما كان نسبهم وبلوغهم لدرجة العلم.

ب_ الشرف المرتبط بالجسد: يسهر كلا الجنسين على احترام التقاليد، ويسهر الرجال على احترام الحشمة الجنسية للنساء من اجل أن لا تفسد طهارة نسبهم، وفقدان الشرف يولد العار³، والشرف العذري هو شرط مهم في المجتمعات الاسلامية، حسب مالك شبل "لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم والذي تتحقق من خلاله هوية الزوجة المغاربية"⁴ وهناك الكثير من الاسر تطلب من أهل العروس (البنت) تقديم شهادة العذرية لإثبات شرفها الجسدي (عشاء البكرة) الذي هو مرتبط بشرف الاسرة والعائلة ولقبها.

¹ - بياربونت، ميشال ايزار، معجم الانثولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2006 ص583.

² - نفسه ص583.

³ - مالك شبل "الجنس والحريم روح السراي، ترجمة عبد الله زارو، افريقيا الشرق، 2010 المغرب ص 10.

⁴ - احمد بن الحاج العياشي سكيكج، الرحلة الحبيبية الوهرانية، تحقيق بن عمر حمادو، العربي بوعمامة، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2011، الجزائر، ص72.

جـ_ الشرف المرتبط بالنسب: المرفوع الى سلالة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وآل بيته وكل سلالته من بعده، كما في الرحلة الحبيبية على لسان أحد المتصوفة يقول:

من نسل طه الرسول حقا لازل يرقى أوج المراقي¹

ويقول ايضا، صاحب الرحلة الحبيبية الوهرانية:

ونسبه عزها ثم من إصر لها وعندها المرضى أكرم محمد

سمت رتبة علياء أعظم بقدرها ولم تسم إلا بالنبي محمد²

شرف النسب يخرج عنه كل أنواع الشرف المذكورة بسبب عدم أنسابهم الى آل البيت المحمدي، من جهة القرابة الدموية أي كل من له اتصال ب آل البيت المحمدي هو شريف حتي وان لم تتوفر فيه كل متطلبات الشرف التي يتمتع بها الآخرين الذين ليسوا من اهل البيت والذين لا تربطهم بهم قرابة دموية أي له قرابة روحية.

د_ الشرف المرتبط بالعلم: يقول ابي زيد القيرواني في هذا الصدد جعل متعلق الشرف العلم لأن به يحصل الشرف في الدنيا على الاقران اذ هو أشرف ما يتزين به وجعل متعلق السعادة الاعتقاد، والمراد به الاخلاص، والمراد بالسعادة في الدنيا بامتثال الاوامر واجتناب المنهيات وفي الاخرة بالتمتع في الجنة³، شرف مكتسب من حفظ كتاب الله والتفقه في الدين (دراسة العلوم الشرعية)، والاخلاص للأولياء الله الصالحين وحبه لآل بيت رسول الله .

هـ_ الشرف المرتبط بالبركة: وهي بركة إلهية تتجلى في عجائبه وآياته⁴، وعدوية الاذواق ببركة الانخياش الى جانب سيد الخلق الاحمدي، يقول صاحب الرحلة الحبيبية الوهرانية

ولكن اهل الفضل من ينتمي لهم يجلون من بين الافاضل مقداره

يجلونه حتى يظن بأنهم يمدهم من بينهم من انواره⁵

تجلى البركة واكتساب الشرف، يظهر من خلال تلك التجليات والظواهر ونعم الله التي حى بها عباده وأوليائه الصالحين، من فتح الله عليه بالمواهب العلية والاسرار الربانية

¹ - نفسه، ص251

² - ابن ابي زيد القيرواني، كفاية الطالب الرباني، تأليف علي بن خلف المنوفي المالكي المصري، احمد حمدي امام، مطبعة المدني، القاهرة 1987، ص69_70

³ - بياربونت، ميشال ايزار، المرجع السابق، ص583

⁴ - احمد بن الحاج العياشي سكيكج، المرجع السابق، ص72

⁵ - Pisarkowa Krystyna: Le terme honneur, analyse pragmatique -linguistique. Persée: Langages, 23e année, n°89, 1988. pp. 65-70.

د- _ الشرف المرتبط بالأخلاق: هو عبارة عن قيمة أخلاقية تتمثل في الشهامة، الرجولة، الصدق، الشجاعة، الكلمة، هي أساس اثبات هذه الاخلاق، بمعنى الرجل الشريف هو الذي يوفي بوعده (العهد) وكل رجل يخرج عن هذه الصفات فهو غير شريف مثل القاتل، الخائن . . . أي انسان بلا كرامة، والشريف هو الرجل استثنائي ورمز للجهاد والشجاعة والصدق¹، تظهر نعمة الشرف على الانسان المتخلق بالخلق الحسن من خلال سلوكاته وأفعاله وأقواله، اذا عاهد أوفى، واذا تكلم نطق عن حكمة.

أصل شرف الفقيه في بلاد المغرب

يرد الكاتب ديكودي طويريس في كتابه تاريخ الشرفاء أنه كان في نوميديا فقيه عادي يعيش في تكمادارت احدى قرى اقليم درعة، يسمى محمد بن عبد الرحمن الزيداني، الذي نسب نفسه الى سلاله النبي صلى الله عليه وسلم، كان فقيها ومقرئا وبسبب ادراكه سر علم الحدثن، عرف أنه سيكون لا بناءه شأن عظيم في امارة المغرب، وانطلاقا من هذه الفكرة قرر في سنة 1502 ان يرسل ابنائه الى الحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، لان المغاربة الذين يذهبون الى الحج ويعودون منه يعتبرون صلحاء، ولما رجعا اكرمهما البربر وعظموهما، وحيثا حلا كان الرجال والنساء يهرولون اليها للتم اطراف ثيابهم²، بهذا الفعل طغت ميزة الشرف على الحياة الاجتماعية والسياسية، لما لها من أهمية في حياة العامة، حيث استثمار هؤلاء نسبهم الشريف حتي ولو ادعوا ذلك، كان الصلاح مبررا لكي يصبحوا شيوخ بركة يزورونهم للتبرك، حسب صاحب الرحلة الحبيبية "فالشيخ يصبح شيخا ليس فقط لأنه شريف يتوفر على البركة ولكن كذلك ورث السر من سبقة بعد أن اختارته العناية الالهية للخلافة"³، يقول التجاني:

يظنون بي خيرا وما بي خير ولكنني ارجوه من عالم السر

وما كان هذا الظن حتى أرادته وتحقيقه إن شاء من أيسر السير⁴

هذا ما ساعد على انتقال الشرف والوجاهة من جيل الى اخر تماما كانتقال الموروثات المادية والمعنوية، وما ظهور حركة الصلحاء في المغرب الا امتدادا واحياء للتراث الموحد، الناتج عن رفع ابن تومرت لنسبه الى النبي صلى الله عليه وسلم من جهة وتجميعه لكل الاحاديث

¹- ديكودي طويريس، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب 1988 ص14/13

²- احمد بن الحاج العياشي سكيح، المرجع السابق، ص227

³- نفسه، ص91

⁴- نورالدين الزاهي، بركة السلطان، دفاتر وجهة نظر، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2007 ص14_15

المتعلقة بالمهدي، وإعلانه على أنه المهدي المعصوم قصد استمالة الناس اليه واحتضانهم للحركة، هذا ما تجسد مرة ثانية في تاريخنا مع مؤسس حركة الصلحاء الجزولي حين إعلانه على أنه شريف ومهدي في نفس الوقت، جاء ذلك كله بسبب رفضهم للشرفاء المرتبطين بالسلطان السياسي المرابطي والمريني، مع تقديمهم الشكل الجديد لنوعية الشرف المرتبط بالناس والمؤسس على ثقتهم الكاملة في صاحبه، هذا النموذج الذي سيكون له أهمية كبرى في الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية للفرد المغربي، وما يميز هذا النموذج هي تلك القواعد التي أرسها هؤلاء على المستوى الحقل الديني، الذي على أساسه تم ترسيخ الأسس الشرعية السياسية القائمة على الشرف التي تركز على القواعد التالية حسب نور الدين الزاهي:

- العلاقة مع النبي علاقة مباشرة والصالح لا يعترف بأي وساطة بينه وبين النبي.
- القبيلة والجاه والمال والأولاد لم يعودوا مرتكزا للحظوة بل أصبح الشرف هو المرتكز.
- وحده الخطاب الاتي من النبي مباشرة يمتلك شرعية السيادة الدينية والسياسية.
- المهديوية بكل ما يرتبط بها من كرامات وخوارق عنصر أساسي يمكن الصالح من اثبات تفوقه وسلطته¹.

كل هذا كان حاجة إيجاد الأصل الخالص وليس فقط احترام المنحدرين من سلالة النبي الكريم، أي بروز النزعة الشريفة وضرورة الارتباط القرابي بشخصيته.

الشرف والمقدس

ارتبط الشرف في المغرب بالصلحاء من أولياء الله والفقهاء والعلماء والطلبة، بسبب حبهم لكتاب الله وحمله وتفقههم في الشريعة الإسلامية السمحة، ونظرا لحبهم للعلم وتسليمهم لبعضهم البعض طرح الله عز وجل بركته عليهم وكان من بين هؤلاء رجالات الله الصالحين وأولياءه ولم يخرج عن هؤلاء النساء الصالحات اللواتي كان لهن دورا كبيرا في انجذاب الفقهاء والعلماء وكذلك الشرفات من أهل البيت والمتصوفة والزهاد من أمثال ربيعة العدوية وغيرها من النساء، نجد أن رجال بوبريك الباحث المغربي يقدم لنا بحثا مهما حول بركة النساء، حيث يقول في هذا الصدد "لقد رفعت كرامات النساء الصالحات والمجذوبات والعابدات والوالهات والمجنونات بما حملته من تجربة روحية لدرجة أكبر الأولياء بل منهن من سمت المقام الفردانية وهو مقام القرب الذي يعتبره ابن عربي الدرجة العليا من الولاية²، ومكانة المرأة في الإسلام تمثلت في شخصية البنت التي بلغت سمو المكانة القدسية التي حملته عن طريق ارث أيتها البيولوجي والوحي الديني والرمزي لأنها الوحيدة التي خلفت ذريته بما يعنيه ذلك من

¹ - رجال بوبريك، بركة النساء، الدين بصيغة المؤنث، إفريقيا الشرق، 2010 المغرب ص15

² - نفسه ص93

استمرارية للإرث البيولوجي النبي صلى الله عليه وسلم، لذا سيظل المجتمع يرى في ذريته اشخاصا ليس فقط يحملون نسبا عاديا بيولوجيا انما عبر هذا الاخير يتسمر البعد الروحي ليس في شكل نبوة بل في شكل جسد مقدس وروح يتم تبجيله وتكرمه من منطلق الانتساب الى شخصية مقدسة¹، بمعنى من يحمل البركة المتأسسة على العلم والصلاح والكرامات والاصل الشريف من الطبيعي ان يكون متميزا عن لا يجوز اية رأسال² في هذا الصدد يقول نورالدين الزاهي يشترط في الفقيه توفره على ميراث يؤهله ليكون من تعبيرا بشريا للثقلين كتاب الله وسنة نبيه ميراث يتشكل من متغيرة الالتئام لآل البيت والقربة معهم لكن هذه القربة ليست نسليه او بيولوجية بل قرابة روحية، إن الميراث الروحي يحقق الانتساب الكامل للرسول ذلك الميراث الذي يتميز به الصوفية اولياء الله المرشدون³، هذا ما يجعلنا الى فكرة أنه ليس كل من ينتسب الى الاصل الشريف، فقط هو شريف وانما حتى وضع النسب هو شريف، شرفه من شرف العلم، بمعنى أننا نقيس قيمة الشرف بميزان العلم، أي شرف المرء يقاس بقيمة العلم الذي يحمله في صدره (القران، العلم)، من خلال هذا المبدأ يعتبر حملة القران الكريم شرفاء بشرف القران الكريم .

تصورات وتمثيلات المريد لشرف الفقيه

كان ولا يزال ديدان الطلبة البحث عن صحبة شيخا عارف، يقول القلصادي "ثم تحرك خاطري إلى الانتقال وتشوقت النفس إلى الارتحال وتذكرت كلام القاضي عبد الوهاب بلسان الحال:

سافر تجد عوضا عن تفارقه واتعب فان لذيد العيش في التعب⁴

واقصد ملازمة شيخا عارفا، يدان له بالولاء والطاعة ورجاءه حين الرجاء، وغناه حين الافتقار، ورفقته حين الخلوة وناصره إن هو غلب أو ظلم، يقول محمد بلخير:

أنا خديم رجل البيضا زين القباب محبوب خاطري لبدا متونس به يد الشيخ حرمتك ليك هدين النيا ومن قاصد شيخ لازم تبان عليه افضالوا⁵ كما تظهر مكانة الشيخ وحرمته من مدح أبو راس الناصري لمعسكري شيخه "المشرفي" قائلا:

¹ عبد الرحيم العطري، تحولات المغرب القروي، اسئلة التنمية المؤجلة، تقديم مصطفى محسن، دفاتر الحرف والسؤال، سلا، 2009، المغرب ص108

² نورالدين الزاهي، المقدس والمجتمع، افريقيا الشرق، المغرب، 2011 ص153

³ أبو الأجفان محمد "كتاب رحلة القلصادي"، الشركة التونسية لتوزيع تونس، 1978 ص110

⁴ محمد سرير، خطاب الرفض في شعر محمد بلخير "إنسانيات" العدد 104/2009-12-10/46 ص104

⁵ محمد أبو راس الناصري "فتح الإله" ترجمة محمد بن عبد الكريم المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص55

فيا لو رايتيه بدرسه جالسا وحوله حلقات الأسود الهوا صر

كانه قر الأفق في غيب السجى من بين كواكب النجوم الزواهر¹

يظهر أبى راس مكانة شيخه "المشرفي" لكثرة علمه وتجربته وتواضعه، مكان القمر الذي كان يحتل مكانة مقدسة في المجتمعات القديمة عند أصحاب الهياكل وهم عبدة الكواكب الذين انشغلوا بعبادتها وتعظيمها واتخذوا لكل كوكب صنما من الجوهر المنسوب إليه واتخذوا صنم الشمس من الذهب وزينوه بالياقوت والألماس وصنم القمر من الفضة²، بذلك يربط قداسة شيخه "المشرفي" بنور الشمس والقمر، فقداسة ومكانة الشيخ مرتبطة بنوعية العلم الذي يقدمه لطلبة لقول احمد باي بلعالم:

إذا أفادك إنسان بفائدة من العلوم فلزم شكره أبدا³

يقول علي ابن أبي طالب رضي الله عنه "أنا عبد من علمني حرفا إن شاء باع وإن شاء اشترى وإن شاء اعتق"⁴، يؤكد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه على قيمة ومكانة شيخ العلم حيث يقول أيضا "زوال العلم أهون من موت العلماء"⁵، جاء عن مسعود الانصاري البدرى رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من صلى علي صلاة لم يصل فيها علي وأهل بيتي لم تقبل منه" أخرجه الدررطني والبيهقي، وقال الامام الشافعي في هذا المعني مشيرا الي وصفهم ومنبها على ما أخصهم الله تعالى به من رعاية فضلهم:

يأهل بيت رسول الله حبكوا فرض من الله في القرآن انزله

كفأكوا من عظيم القدر انكموا من لم يصل عليكم لا صلاة له⁶

على هذا الاساس يظهر أن شرف العلم من شرف العلماء حسب مصطفى الجندي العلم وسيلة إلى البر والتقوى الذي يستحق به الكرامة عند الله تعالى وفخر الشيخ العارف أولى من فخره بأصله لقول أبي الطيب المتنبي

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ويأتي على قدر الكرم المكارم⁷

¹- الشهرستاني "الملل والنحل" تحقيق أميرعلي مهنا، دارالمعرفة بيروت، ج5، ط5، 1996ص

²- محمد باي بلعالم "الرحلة العلية إلى منطقة التوات"، ج1، مطبعة دارهومة، الجزائر 2005ص03

³- مصطفى الجندي الجفاني "تعلم المتعلم طريق التعلم" وزارة الأوقاف والقران الكريم، مخطوط تحت رقم 619ص18

⁴- مخطوط، مجهول المؤلف "كتاب النفائس لأولاد المدارس" طبع في بيروت سنة 1878ص15

⁵- نقلا عن السمهرودي، الاشراف على فضائل الاشراف، ابراهيم الحسني الشافعي، كتب المخطوطة، دار الكتب المصرية، مصر 963هـ

⁶- مصطفى الجندي، المرجع السابق ص26

⁷- نورالدين الزاهي، المرجع السابق، ص15

هذا ما ذهب اليه الباحث المغربي نور الدين الزاهي على أن ضرورة الارتباط القرابي بالرسول صلى الله عليه وسلم، أمر ضروري وراء ظهور النزعة الشريفة، أي أنها ضرورية لإيجاد هذا الاصل الخالص وليس فقط احترام المنحدرين من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم¹، حسب تعبير ميشوبلير لقد اثارت أذكار الجزولي وأتباعه لشعور المغاربة الديني ارتباطاته الواسعة بالنبي صلى الله عليه وسلم والمنحدرين عنه وما كتاب الجزولي دلائل الخيرات سوى سلسلة من الادعية للنبي والتكريمات لشخصيته ورسالته وأصبح كل من له ارتباط بالنبي من بعيد او قريب يحمل قيمة عالية وسامية بالمقارنة مع الناس الآخرين، بمعنى أن مكانة الفقيه العلمية هي من مكانة شرفه، والشريف حسب جاك بيرك هو الذي يستفيد من معاملة المثيرة للعطف دون أن يهمل علاقته بالسلف لذلك ينتظر منه دائما حسن الداء والتدخل ببركته³، هنا يحيلنا بيرك الى علاقة لها أهمية كبرى في حياة الطالب وهي علاقة بركة الفقيه بالنسب الشريف، هذا ما حدث مع السعديين الذين كانوا ينسبون أنفسهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويقولون إن السبب في قدوم سلفهم من الحجاز إلى المغرب، أن أهل درعه كانت لا تصلح ثمارهم وتعزيرها العاهات كثيرا فقبل لهم لو أتيتهم بشريف إلى بلادكم، كما أتى أهل سجلماسة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم فأقى أهل درعه بالمولى زيدان بن أحمد مضاهاة لأهل سجلماسة فعادت عليهم البركة⁴، بسبب هذا الفعل أصبح الشرف مفتوحا للامتياز من جهة ومن جهة أخرى مجالا لتأسيس شرعية سلطة الخطاب والفعل⁵، حيث تجسدت هذه الامتيازات في الالقاب التي يحملها الشريف وأبناءه والتي تميزهم عن باقي الناس (سيدي، الشريف أو مولاي الشريف) ثم ان صحة الشريف باعتبارها واجبا من الواجبات الدينية، وبما انهم ورثة النبي صلى الله عليه وسلم كان لهذا الأخير، أن يبعث الى السلطان ويطلب منه ما شاء كما قام سيدي شيخ محمد بن العباس وطلب من السلطان أن يكتب لسيدي أحمد بيتا في المدرسة فكتب له البيت وفرشه وسمنه وزيته ولحمه وجميع ما يمونه وهذا كله من بركة العلم والحرص في طلبه لقوله صلى الله عليه وسلم تكفل الله برزق طالب العلم يأتيه من غير تعب ولا مشقة وغيره لا يناله الا بالتعب والعناء والمشقة وهذا كله من دعاء

¹ - نفسه ص 11

² - Jacques Berque 'ulémas fondateurs usurgés du Maghreb' Edition sundbad paris 1982p34

³ - أبو العباس بن احمد بن خالد الناصري "الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى" تحقيق جعفر ومحمد الناصري ج3، دار الكتاب، المغرب 1955 ص03

⁴ - نورالدين الزاهي، المرجع السابق، ص30

⁵ - ابن مريم المليتي المديوني، البستان في ذكر العلماء والاولياء بتلمسان، تحقيق عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2011 ص101

الشيوخ له ورضاهم عنه وخدمته لأشياخه¹، كما أنه كان يأخذ قسطا من الزكاة لحسابه الشخصي²، في حين أصبح مجالا مفتوحا للامتياز ليتم فتحه على عوالم فكرية مختلفة على التصوف والمهدوية والتراث الموحي وكذا على معتقدات الناس (الكرامات والحوارق) بحيث أصبح يعتبر عاملا أساسيا في عملية تحريك الجهاد ضد الاستعمار، حسب تعبير ميشوبلير لقد كان الناس ينظرون الى من يتراسهم اذا كان شخصا منحدرًا من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم شريف باعتباره فألا ورمزا للنصر أثناء الدفاع عن الاسلام المهدد، لقد حول الصلحاء الشرف من مجال مغلق الى مجال مفتوح للامتياز أي من مجال يتعالى على العامة الى مجال يرتوي ويتسخ بثقتها³، هذا ما ذهب اليه عبد الرحيم العطري في قوله على انه نفس الامر بالنسبة لمن يحملون السلاح ويختصون تاريخيا بالدفاع عن المجال والانسان، فالبركة تؤمن المجال وتحصنه ضد التآكل والاختلال والسلاح أيضا يقوم بالدور ذاته ومن يحمل البركة أو السلاح سيحمل الخطوة والتميز عن باقي مكونات التشكيلة الاجتماعية في المجتمع⁴، بمعنى أنه كان لأل المقدس أو الصلحاء من المرابطين والشرفاء التحكيم والوساطة في قضايا المجتمع، حيث ساهموا بقسط وافر في صناعة القرار وتصريفه من خلال موقعهم التاريخي رغم تواجد العديد منهم في أسفل السلم الاجتماعي، نتيجة تحررهم من وضع الاتباع وارتقاءهم الى مستوى الفعل والتدبير الناتج عن حكمتهم وحسن تدبيرهم، كان لهم الحق في اكتساب الشرف.

شرف وبركة الفقيه

حدث وأن صادفنا من خلال دراستنا لأطروحتنا مناقشة حول قضية النسب الشريف التي أثرت بين طالبين مسافرين، بإحدى مساجد عينة بحثنا، وصفا زميله بالوضاعة "نسب وضع" وعلى انه من أهل البيت حسب الفرد بل Alfred Bel ارتبط مفهوم البركة بأصل النسب الشريف الذي يتمتع به هؤلاء الشرفاء بوصفهم ورثة القوة الباطنية التي كانت لجدهم النبي صلى الله عليه وسلم⁵، وله الحق في أن يحترمه ويسعى إلى خدمته كما يخدم شيخه، فليس التسليم وحده كافيا وإنما أصبح الشرف المحرك الأساسي في تحديد العلاقات والسلوك القائمة بينهم، لذا أصرا كلاهما على انه من نسب شريف بحجة أن الله عز وجل اصطفاها عن باقي عباده وأكرمهما بحفظ القرآن الكريم لقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه "كفى بالعلم

¹ نورالدين الزاهي، المرجع السابق، ص 17

² نفسه ص 20

³ عبد الرحيم العطري، المرجع السابق، المغرب ص 108

⁴ الفرد بل "الفرق الإسلامي في الشمال الإفريقي" ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1981 ص 432

⁵ محمد عمر بازمول "التأصيل في طلب العلم" مكتبة المصطفى PDF ص 13.

شرفاً أن يدعيه من لا يحتسبه ويفرح به إذا نسب إليه وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه¹، فأهل المحبة الإلهية اشرف من نسبة الأبوة الظاهرية وهي التي جعلت بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي رضي الله عنهم من أهل البيت وأبعد عنها أبو طالب ولم ينفعه نسبة العمومة التي هي اقرب الأنساب الإلهية لما حاجته المشيئة الإلهية وإلى هذه النسبة أشار الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض بقوله:

نسب أقرب في شرع الهوى بيننا من نسب أبوي²

شرف العلم والصحة ارتبط بشرف النسب، لهذا الطلبة مدركين جيداً أن بركة ورضي الشيخ مرتبطة بالعلم والصحة ومن تأذى منه شيخه حرم بركة العلم والصحة كون بركته متوارثة حسب جرمان تيون German Tillion³ تنتقل البركة من الكبير إلى الصغير ومن الأب إلى الابن عن طريق الوراثة⁴، ويمكن للشيخ منحها إلى من أراد وليس كل شيخ يمكنه تقديم ذلك إلا من اصطاح عليه الطلبة بما يسمى الكبريت الأحمر أي من جمع الله له بين العلم والعمل وأثار وقته وسعد به المكان والمحل الشريف الذي سره وعلمه كالماء الذي يجري⁴، باعتبارها قوة باطنية وروحية مستمدة من قوة نورانية خارقة متمثلة في القوة الباطنية الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، والتي خص بها سلالته بعده وهم أهل البيت الشرفاء وأتباعه، والتي يعبر عنها ماكس فيبر على أنها هبة ربانية وهي فكرة البشر العاديين الذين ينتقلون من أشخاص عاديين إلى اللاعادين⁵، والتي خص بها كذلك الله عز وجل نبيه يعقوب عليه السلام، إذ تجلت بركته من خلال قصته مع أبناء ابنه يوسف عليه السلام أين وضع يده اليمنى على رأس "أفرايم" واليسرى على رأس "منسي" ولما رآه يوسف شق عليه ذلك وقال "لا يحسن هذا يا أبت لأن هذا بكر ولدي فاجعل يمينك على رأسه، فكره ذلك يعقوب وقال علمت يا بني علمت وستكثر ذرية هذا وتعظم ولكن أخاه الأصغر يكون أكثر نسلاً وعدداً⁶(44)، ما أخاف النبي يوسف عليه السلام هو وضع والده يده اليسرى على رأس

¹ - محمد بن عبد الله بن مصطفى الخالدي النقشبدي، البهجة السنية في آداب الطريقة العلية الخالدية النقشبندية، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت 2008 ص40.

² - Germaine Tillion-IL' était une fois l'ethnographie-édition de la seule paris 2000p166.

³ - محمد بن يوسف الزباني، دليل الحيران وانبس السهران في اخبار مدينة وهران، تقديم المهدي البوعبدلي، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007 ص47.

⁴ - لوران فلوري "ماكس فيبر" ترجمة علي مقلد، دار الكتاب الجديد، بيروت 2008 ص73.

⁵ - أبي محمد علي بن احمد المعروف بابن حزم الظاهر "الفصل في الملل والأهواء والنحل تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل بيروت 1996 ص243.

⁶ - ايفون توران "المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة" ترجمة عبد الحميد اوزغلة دار القصبة لنشر الجزائر 2007 ص130.

ابنه، لأنه كان على علم ويقين من بركة والده التي خص بها الله عز وجل أنبياءه والصالحين من عباده، كونها لا تخضع لنسب الشريف فقط وإنما تخضع كذلك للإيمان القوي بالله والسبيل الوحيد للوصول إلى هذه المرتبة يتنافس الطلبة على العلم والترحال بحثاً عن شيوخ العلم حسب ايفون توران **Evon Touran** "أما بالنسبة للعالم المسلم فالتعليم ليس له إلا غاية واحدة ألا وهي معرفة الدين وعلومه التطبيقية¹، الذي بفضلها يمكن الارتقاء إلى المراتب العليا واكتساب النسب الشريف الذي أساسه العلم المستمد من رضي الشيخ "شرف العلم"²، لهذا كانت ضرورة وجود الفقيه (الشيخ) لتوحيد الطلبة، وإليه تعود عملية تسيير وضبط سلوكاتهم، لذلك يقال من لا شيخ له فالشيطان شيخه، تكمن أهمية الجلوس إلى المشايخ في التأدب معه ومن تأدب مع شيخه تأدب مع ربه وحرمة الشيخ على الطالب كحرمة النبي مع أصحابه، اختيار الشيخ واقتنائه لطالب المؤهل للمشيخة اللاحقة تتطلب معرفة ذوقية واحساسات تمكنه من اتقان عملية الاختيار التي ليست سوى عمل تنبئي بمال الطالب المستقبلي وطاقاته الدفينة، في هذا الصدد يرى نورالدين الزاهي أن عنصر البركة الذي يؤهل الشيخ لممارسة التقية يحتل موقعا أساسيا في علاقة الشيخ بالمريد إلى جانب المستوى المعرفي والأخلاقي والسلوكي للشيخ بوصفه ضمانة مادية ودينية على قدرته لممارسة شفاعته للمريد أو صد العدوان الطبيعي أو الانساني أو ضمان الدخول إلى الجنة، وتعتبر البركة سرا من اسرار الشيخ وهي أساس اعتقاد المريدين في خوارقه وكراماته كما أنها عامل أساسي لاعتقاد الجمهور والسلطان السياسي في حظوته³، ومن تحقق له شرف العلم تحقق له شرف النسب إلى العلماء، أن اعز واشرف المعاني هو العلم وقال تعالى في فضله في قصة موسى والخضر (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتِيلِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) الكهف (الآية 60)، مع ما انطوت عليه القصة من قطع البلاد في طلبه وركوب المشاق ولقاء النصب في سفره إلى علم يتعلمه بعد أن قال أنه علم أهل الأرض فلما بلغ مجمع البحرين ووجد الخضر قال له مستضعفا (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّا عَلَمًا) الكهف (الآية 66)، فلا معنى أعز وأشرف من العلم ولا يختاره الله إلا لأحب الخلق إليه وأكرمهم عليه⁴.

¹ شرف العلم: هو شرف النسب بفضل العلم يكتسب الطالب نسبه الشريف حتى وإن كان من نسب أبوي وضع "الوضاعة من الجهل".

² نورالدين الزاهي، المرجع السابق، ص 123

³ عمار طالي، محمد بن تومرت مهدي الموحدين، الطباعة الشعبية للجيش الجزائر 2007 ص 180

⁴ عبد الواحد ابن عاشر "متن ابن عاشر"، دار الهدى، الجزائر 2000، ص 24.

شرف الطالب من شرف الفقيه

الطالب ملزم بإتباع آداب معينة تجاه شيخه الذي ينير له الطريق إلى المعرفة الدينية، بصحته يكون قادرا على أخذ العلم والمعرفة والوصول إلى هدفه.
لقول ابن عثير:

من يصحب شيخا عارف المسالك يقيه في طريقه المهالك¹

اما السبيل الوصول إلى ذلك كان على الطالب أن يحترم شيخه ويثق به ولا يخالف له أمرا، ولا يتم ذلك الا بشروط:

أ- أن يكون اعتقاده بشيخه قويا، بحيث لا يحصل له مقصودا أو مطلوبا إلا على يد هذا الشيخ، وإذا تشككت نيته وذهبت إلى شيخ آخر حرم من بركته ورضاه في بلوغ ذلك المبتغى.
ب- أن يقتدي سلوكات شيخه وعليه أن يمثله أمام العامة أحسن تمثيل.

ت- أن يكون منقادا لأوامر شيخه ويخدمه بالمال والبدن والإخلاص له والصدق.

ث- أن يكون صادقا مع شيخه لا يخفي عليه أي سر مهما كان نوعه يجب أن يكون على ثقة تامة بقدرة شيخه ومساعدته في الحالة التي يحتاج فيها إليه.

ج- عدم رفع صوته في حضرة الشيخ أو الكلام حين كلامه، عليه دائما أن يستمع إليه وينتظر تلقي الأوامر منه.

ح- عند سؤال الشيخ أحد عن أية مسألة ينبغي على الجميع التزام الصمت، اما المبادرة في الجواب ممنوعة من غير طلب في حضرته.

خ- هو ملزم بإتباع القانون الداخلي للمؤسسة، وعليه ألا يتصرف بتهور مع الشيخ، ويجب احترامه مع الذهاب إليه في أوقات معينة ومجالس معينة كذلك.

د- كتمان أسرار الشيخ سواء أمام العامة أو الطلبة.

ذ- لا يتكلم إلا بما تكلم به الشيخ دون زيادة أو نقصان "كما انه ليس مجبرا في التكلم بلسان الشيخ".

ر- لا يتحمل أمانة تبليغ سلام الغير إلى الشيخ، لأنه من سوء الأدب.

ز- أن يسعى جاهدا إلى تطبيق أوامر شيخه دون كلل أو ملل، كما يستوجب عليه إظهار الاحترام والتقدير.

س- ألا يقوم بسلوك طائش كرمي الأوساخ أو الضحك بدون سبب في حضرة الشيخ.

يقول محمد الصالح حوتية "على المريد ان يتبع هذه الصفات حتى ينال غاياته ويكسب رضا شيخه وهذا بصفاء القلب وطاعة الشيخ فيقول:

¹- محمد الصالح حوتية، توات والازواد، ج1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر 2007، ص188

المريد ألي أصف يوصل والشيخ ألي كان كامل يطش به

سر الله ما ينجم غير العاقل والجهل لو كان في حجر يرميه¹

والأخذ بهذه الشروط تجعل من الطالب أكثر قربا من الشيخ، لذا نجد أن جميع الطلبة يسعون جاهدين للخدمة، حيث يتجلى ذلك في حسن الأدب والمعاملة الحسنة والتنافس على إرضائه، والفوز بالسر الرباني عن طريق صفاء القلب.

يقول سيدي مولاي عبد الله بن سليمان طلب مني سيدي وشيخي محمد بن الحاج التيلوليني أن أدرس في حضرته الطلبة، فلما انتهيت من الدرس فرح بي ونشأ أبيتا يمدحني فيها.

يا طالب العلم شمس العلم طالعة لولا عليها سحابة من القدر

فارصد سحب غرماملال² إن وردت لعبد الله ضيوفا ساحة القدر³

اذن يسعى دوما الطالب بالفوز الى مجالسة والتقرب الى شيخه، خصوصا في المناسبات مثل الجلوس الى جانبه وتقاسمه معه ذلك الطبق "مؤاكلته" في الجنائز، أين يحضر إلى جانبهم. في تلك اللحظة نجدهم يتنافسون على من يحظى بالجلوس إليه وإلى جانبه، حسب تعبير عبد الله حمودي "لأنه محرم عليهم ولا يحصل هذا إلا في بعض المناسبات الطقوسية التي ترفع نسبيا التحريم"⁴، كون هذه المناسبة الطقوسية يحضرها أكبر الطلبة، أين يلتفون حول الشيخ، ومعهم الطلبة المسافرين.

بوجود الشيخ تصبح الزعامة والسلطة له، هو من يقوم بتحديد السور القرآنية الوجوب تلاوتها في تلك الليلة، والدعاء وقراءة الفاتحة والذهاب أو البقاء، كما انه هو الذي يكرم من طرف صاحب الجنائز أو الوليمة بالتقديم له مبلغا من المال مقابل تلاوتهم للقرآن والدعاء للميت وأهله بالخير والفوز بالجنة"، بذلك هو حسب نورالدين الزاهي "يعتبر بذلك شخصية فوق الاطراف المنتمية لوسطه ورمزا كاريزماتي للجمهورية"، كل هذا ناتج عن الطاعة العمياء والخضوع والخدمة التي تصل حد العبودية التي يرضاها الطالب طواعية لأنه يعتبرها جزءا من الورع والتقوى والطريق للوصول الى الصلاح.

نستخلص اذن من هذا كله انه ليس كل شريف هو شريف النسب، وإنما اهل المغرب هم من البربر واصبحوا بفضل الاسلام وحملهم لكتاب الله واهتمامهم بالعلوم الشرعية الاسلامية

¹ - أغرماملال كلمة بربرية وهي قرية تابعة لبلدية زاوية كنته وتبعد عن ادرار 86 كلم طريق ادرار الى رقان

² - محمد سالم بن الحاج عبد القادر، ايسط العبارات واطيب النفحات بذكر بعض علماء وصالحى منطقة توات، شمس الزيبان للنشر والتوزيع، الجزائر 2011.

³ - عبد الله حمودي "الشيخ والمريد ترجمة عبد الحميد حجة دار تونيقال، ط3، المغرب 2003، ص 98.

⁴ - نورالدين الزاهي، المرجع السابق، ص 127.

وتفقههم في الدين، حملهم ذلك كله الى بلوغ مصف الشرفاء، بفضل العلم لقوله تعالى " لَأَمَّا يُخَشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " فاطر (الآية 28)، وجعلهم في المراتب العليا في المجتمع وأكسبهم مكانة في قلوب الناس، بسبب اخلاصهم ومودتهم وحبهم وطاعتهم لله وتواضعهم للناس، هذا ما كان ولا يزال الى يومنا هذا ممثلا في الفقيه المغربي الاصيل والمريد الحر النقي الشريف الذي لا يزيد ولا ينقص عن أصالة وشرف الفقيه، رغم عدم ارتباط جل فقهاء المغرب وافريقيا بالنسب القرابي الدموي المرتبط بالنبي صلى الله عليه وسلم وأل بيته، الا انهم اثبتوا جدارتهم واحقيتهم في الانتساب الى زمرة العلماء التي بدورها تخول لهم الارتباط الوثيق بالنبي صلى الله عليه وسلم، لأن المحبة الإلهية أشرف من نسبة الأبوة الظاهرية، فهؤلاء الفقهاء احبوا الله ورسوله حبا لا يضاهيه حب، دون الطمع في أي شيء سوى مرضاة الله وشفاعة رسوله الكريم، هذا ما يصبوا اليه الطلبة والمسافرين "المريد" من خلال مجالسته للفقهاء ومشايخ العلم، الذين يتمتعون بفضل ميراثهم الروحي بشرف النسب الكامل للرسول متجاوزين بذلك حصر الانتماء في النسب القرابي، قصد بلوغه مصف الشرفاء (ميراث روحي).

**الهوامش

**الفقيه: كلمة يتداولها المغاربة تعبيرا عن ذلك الطالب "معلم العلم" في المدارس العلمية العتيقة والمتنفة، الذي بلغ درجة من العلم القادر على تفسير القرآن الكريم ومتمكن من العلوم الشرعية أي من أتقن العلم وعلمه فهو فقيه وحاصل على الاجازة من مشايخه الذين درس على يدهم، كما احتفظ بلقب العالم عندما استقل الفقه بموضوعه.

شرف العلم: هو شرف النسب بفضل العلم يكتسب الطالب نسبه الشريف حتى وان كان من نسب أبوي وضع "الوضاعة من الجهل"

الأرشيف ودوره في صنع القرار الإداري

دراسة ميدانية بمديرية التعمير والبناء لولاية باتنة

أ. زكرياء قرجع /معهد علم المكتبات والتوثيق / جامعة قسنطينة 2

مقدمة **:

لا خلاف في كون الأرشيف من بين المصادر المعلوماتية الهامة، نظرا لما يمتاز به من صحة ومصداقية، ولاشك في كونه ناتج النشاطات الرسمية للهيئات والمؤسسات وحتى الأشخاص وهو أيضا من أهم الدعائم الأساسية للتسيير، والمرجعية الموثوق بها للبحث والتأريخ، فهو الحافظ وبلا منازع لأثر النشاطات، وهو ذاكرة المؤسسات والدول والشعوب، ومن هذا المنطلق، أتت هذه الدراسة مستمدة أهميتها من محاولتها الكشف عن جانب هام من الجوانب التي ينبغي أن يدعمها الأرشيف نظرا للطابع الرسمي الذي يتسم به، ألا وهو صناعة القرارات الإدارية، ومع كل ما يتسم به الأرشيف، وانطلاقا من واقع الإدارات العمومية الجزائرية ومن مديرية التعمير والبناء لولاية باتنة مثلا ومحلا للدراسة، انبثقت إشكالية هذه الدراسة المتمثلة في مدى اعتماد ذوو السلطة في التسيير على الأرشيف في صناعة القرارات الإدارية، وهل هناك مصادر معلوماتية أخرى يلجأ إليها المسؤولون في هذه العملية؟ وما مدى تمتعهم بالثقافة الأرشيفية التي تضمن تنظيم الأرشيف وحفظه بالطرق التي تمكن من استرجاع الوثائق المبتغاة وقت الحاجة؟

*- Résumé: Les archives constituent une source de transparence et de bonne gouvernance dans les différentes administrations des pays en développement vis à vis des partenaires au développement dans le cadre des missions à mi- parcours des programmes en cours. La gestion des archives est perçue aujourd'hui comme un élément qualitatif pour toute entreprise ou administration en quête de compétitivité et de productivité. Cette bonne gestion des archives a un impact direct sur les décisions prises dans l'entreprise ou dans l'administration ou le service concerné. Cette feuille scientifique à pour objet " Le rôle des archives dans la prise de décision administratif: étude de terrain à la direction de l'urbanisme de la wilaya de Batna " Répartie en deux grand axes ce travail de recherche traite dans sa partie théorique l'archive et son importance dans la gestion administrative et dans la prise de décision. La partie pratique est réservée exclusivement à l'étude de terrain qui a été menée au niveau de la direction de l'urbanisme de la wilaya de Batna à travers un questionnaire distribué à l'ensemble du personnel administratif exerçant, et une interview avec les responsables de l'institution concernée par l'enquête, L'étude est clôturée par des résultats et des propositions. Mots clés: Archives, Décision Administratif, Etude de terrain, Direction de l'urbanisme, Batna.

ولقد تبادرت إلى ذهن الباحث هذه التساؤلات وأحس بوجودها على أرض الواقع أثناء إجراء لدراسات استكشافية، والتي كانت بمثابة دافع ومحفز لإجراء دراسة معمقة تهدف إلى تحقيق الغايات الآتية:

- لتعرف على الوضع الراهن لصناعة القرار في الإدارة العمومية الجزائرية من حيث تحديد الدور الذي تقوم به الوثائق الأرشيفية في هذا الإطار.
- إبراز الصورة التي يُنظر بها إلى الأرشيف من قبل المسؤولين ومدى تمتعهم بالثقافة الأرشيفية.
- رصد أبرز الصعوبات التي تعرقل صناعة القرار في الواقع الإداري الجزائري.
- ولقد عمد الباحث لإثراء الشق النظري لهذه الدراسة إلى مختلف مصادر المعلومات المتاحة، والمتمكن منها لتبيان ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الوثائق الأرشيفية وصناعة القرارات الإدارية، واعتمد على منهج دراسة الحالة فيما يتعلق بالشق الميداني، مستعينا بأدوات علمية منهجية تمثلت في الاستبيان، المقابلة، الملاحظة، والتي بدورها مكنته من جمع المعلومات المرغوب فيها.

1- الأرشيف

ورد تعريفه في معجم أكسفورد الإنجليزي بكونه ذلك المكان المادي الذي تحفظ فيه الوثائق والمستندات التاريخية كما أشار إلى إمكانية إطلاق المصطلح على الهيئة المكلفة بعمليات الإشراف على المواد المحفوظة كذلك.¹ وقد أتى لفظ الأرشيف في هذا المعجم بصيغتين فعل واسم، فحَاء كفعل بمعنى يضع الأوراق والملفات في الأرشيف بصيغة الفعل الماضي *Archived* بمعنى "أرشف"، كما ورد في الغالب بصيغة جمع *Archives* وهي مشتقة من الكلمة الإغريقية *Archeion* التي تتصل بدائرة من الدوائر، وفي الأصل كانت تطلق على سجلات الحكومة ووثائقها، أي الأرشيف العمومي،² وفي معجم البنهاوي لمصطلحات المكتبات والمعلومات عُرِف الأرشيف بأنه عبارة عن مجموعة منظمة من السجلات والملفات التي تخص أو تتعلق بإحدى المنظمات أو المؤسسات أو الهيئات.³ وقد عرفه قاموس *Le robert* بأنه: "المكان الذي تودع وتحفظ فيه الوثائق".⁴

¹ - علي ميلاد، سلوى الأرشيف ماهيته وإدارته، ط1، القاهرة: الثقافة للطباعة والنشر، 1976، ص1.

² - عيود الألوسي، سالم؛ محجوب مالك، محمد، الأرشيف: تاريخه، أصنافه، إدارته، ط1، بغداد: دار الحرية للطباعة، 1979، ص5.

³ - شعبان عبد العزيز خليفة، المعجم الموسوعي في مصطلحات المكتبات والمعلومات، القاهرة: دار العربي للنشر والتوزيع، 1999، ص99.

⁴ - بودوير، الطاهر. - تبيين رأس المال البشري في ميدان، رسالة ماجستير: قسم علم المكتبات-قسنطينة -، 2009، ص13.

"والأرشيف مجموعة من الوثائق مهما كان تاريخها، شكلها، حاملها، أنشئت أو استلمت من طرف شخص، أو مؤسسة خاصة أو عمومية في إطار نشاطها الرسمي، نظمت وحفظت بصفة نهائية تبعل لهذه النشاطات".¹

من بين التعاريف التي أدلى بها بعض الخبراء في مجال الأرشيف نورد ما يلي:

تعريف *JINKINSON*: "الأرشيف عبارة عن وثائق تكون جزءا من المعاملات الرسمية، والتي تحفظ للرجوع إليها بطريقة رسمية عند الحاجة لذلك".² كما يعرفه الأستاذ عمر مجوني بقوله: "الأرشيف هو تلك الوثائق التي تحفظ قصد الرجوع إليها عند الحاجة، وهذه الحاجة لاستعمالها كدليل وبرهان في المعاملات والتعاملات اليومية في مختلف المجالات العلمية والعملية، ولها قيمة إعلامية عندما يتعلق الأمر بأخبار الماضي أو الإلهام في القضايا الآتية، ومن بين التعاريف الحديثة أيضا للأرشيف ما أدلى به *Charles samaran* بصفته أستاذًا بمدرسة الوثائق بباريس ومديرا للدار القومية بها، وأشرف على تأسيس المجلس الدولي لدور الوثائق التابع لمنظمة اليونسكو وعلى إصدار مجلته الدورية المسماة *archivum* بقوله: "الأرشيف هو كل الوثائق والأوراق المكتوبة الناتجة عن نشاط جماعي أو فردي، بشرط أن تكون قد نظمت ليسهل الرجوع إليها عند الحاجة إليها في البحث، وبشرط أن يكون قد أحسن حفظها داخل منظمة واحدة".³ ويجدر بنا أن نشير إلى أن الأرشيف في نظر المدرسة الأنجلو سكسونية يقتصر على الأرشيف المحفوظ حفظا نهائيا أو الأرشيف التاريخي، أما المدرسة الفرنكفونية فهي تتبنى مفهوما آخر للأرشيف إذ تعتبر الوثيقة أرشيفا من بداية إنتاجها إلى غاية تحديد مصيرها بالحذف أو الحفظ.⁴

هذا ونظرا لأهمية وقيمة الأرشيف سُنَّتْ وشُرِّعَتْ قوانين تكفل التعريف به وتحديد معالمه، ليتسنى للهيئات التنفيذية حفظه وحمايته من أجل الرجوع إليه وقت الحاجة، ومن هذا المنطلق نجد أن المشرع الجزائري أعطى عدة مفاهيم للأرشيف من خلال ما جاء في مختلف الأوامر والقوانين التالية:

¹- MOUDJEB, Ahmed. Contribution à la mise en place d'un system de gestion de documents administratifs étude de cas. la wilaya d'Alger. Magister en bibliothéconomie, Alger. 2001. P 22

²- علي ميلاد، سلوى- المرجع السابق، ص4

³- علي ميلاد، سلوى- المرجع السابق، ص 5

⁴- AMRANI, Lakhdar. Archives et informatique. Application de l'outil informatique aux archives de la wilaya d'Oran. Etat des lieux. Magister en bibliothéconomie. Oran. 2001. P59

- القانون 157-62: المتضمن تحديد مفعول التشريعات والقوانين الفرنسية السارية المفعول ما لم تمس بالسيادة الوطنية.¹ وفيه غياب للاهتمام بالجانب التشريعي لعدة مجالات، باستثناء إعطاء الأولوية للقطاعات الحيوية مثل الصناعات الثقيلة، مما أثر سلبا على الأرشيف الوطني وقطاع المعلومات في الجزائر.

- الأمر 71-36: الصادر في عام 1971 الذي جاء فيه في مادته الثانية تعريف للأرشيف باعتباره المواد التي تكلف مؤسسة الوثائق الوطنية بحفظها، والملاحظ في هذا الأمر ورود تسمية " الوثائق الوطنية " التي يقصد بها جميع الأوراق المنتجة والمستلمة من الإدارات، الجماعات، الهيئات، الشركات الوطنية، وغيرها من المؤسسات والمصالح والأحزاب والمنظمات، ومما كانت الفترة التي تنتمي إليها، إضافة إلى الوثائق الخاصة التي أصبحت ذات ملكية عمومية بعد تأميمها أو شرائها، أو التبرع بها أو هبتها أو استنساخ أصولها المعارة لهذا الغرض.²

- المرسوم 77-67: عرف الأرشيف مستعملا مصطلح الوثائق الوطنية أو التراث الوثائقي الوطني، ويشمل جميع الأوراق التي يقدّمها ويستلمها الحزب، والمنظمات الوطنية، والهيئات التشريعية من قضائية، وإدارية التابعة للدولة، والجماعات المحلية، والهيئات والشركات الوطنية، والمكاتب والمؤسسات الاشتراكية، والمصالح العمومية، والهيئات الخاصة، والأفراد، مهما كانت وأينا وجدت، ومهما كان العصر الذي ترتقي إليه.³

القانون 09/88 الصادر بتاريخ 1988/01/26 والمتعلق بالأرشيف الوطني

المادة 2: "إن الوثائق الأرشيفية بمقتضى هذا القانون هي عبارة عن وثائق تتضمن أخبارا مهما يكن تاريخها أو شكلها أو سندها المادي، أنتجها أو سلمها أي شخص طبيعيا كان أو معنويا أو أية مصلحة أو هيئة عمومية كانت أو خاصة أثناء ممارسة نشاطها."⁴

المادة 3: "يتكون الأرشيف بمقتضى هذا القانون من مجموعة الوثائق المنتجة أو المستلمة من الحزب، الدولة، الجماعات المحلية والأشخاص الطبيعيين والمعنويين سواء كانت محفوظة من مالكةا أو حائزها أو نقلت إلى مؤسسة الأرشيف المختصة."⁵

¹ - قانون 157-62 المؤرخ في 31 ديسمبر 1962، ج.ر.ع. 2، 11 جانفي 1963، ص. 18.

² - أمر 71-36 المؤرخ في 03 جوان 1971، الخاص بإحداث مؤسسات الوثائق الوطنية، ج.ر.ع. 49، 1971، ص. 794-795.

³ - مرسوم 77-67 المؤرخ في 20 مارس 1979، الخاص بالمحفوظات الوطنية، ج.ر.ع. 27، سنة 1977، ص. 456-465.

⁴ - القانون 88-09 المؤرخ في 07 جمادى الثانية عام 1408 للمؤلف ل 26 جانفي 1988 المتعلق بالأرشيف الوطني،

الجريدة الرسمية، ع. 4، 1988، ص. 139-المادة 2

⁵ - المرجع السابق. - المادة 3

ومن خلال هذه التعاريف نجد أن جلها رغم اختلاف التوجهات الفكرية تأثرا بالمدارس العالمية (الأنجلوسكسونية، الفرانكفونية) تتفق حول كون الأرشيف عبارة عن وثائق رسمية منتجة بطريقة عفوية، مجمعة ومنظمة لغرض الرجوع إليها وقت الحاجة، وفي هذا الإطار يجدر بنا أن نشير إلى مفهوم الوثيقة ليتضح ويتكامل مفهوم الأرشيف بمفهومها على اعتبار كونه وثائق كما هو وارد في جل التعاريف.

فالوثيقة هي: "كل وعاء مما كان نوعه يتضمن معلومات يتوصل إليها الإنسان مباشرة أو عن طريق الآلة، والوثيقة هي موضع الثقة والأمانة وهي مصدر حقيقة وقياس، ومصدر علم وقوة، وتعني أيضا ورقة أو مجموعة أوراق أو مجلد أو سجلات، ويعرف معجم المصطلحات الأرشيفية الوثيقة بأنها: "عبارة عن وحدة أرشيفية غير قابلة للتجزئة"¹، كما عرفها القاموس الفرنسي "لاروس" بكونها مادة أو كتابة تحوي معلومات وإثباتات شاهدة على الوقائع.

والوثيقة حسب تعريف قاموس لاروس عبارة عن "مدون يحمل صفة الإثبات، الإعلام، ومادة إثباتية ومستشهد بها."²

حسب مفهوم علم المعلومات فإن الوثيقة تتكون من نص يمثل معلومة مسجلة على وعاء، يضاف إلى ذلك في علم الأرشيف عنصر ارتباط الوثيقة بالمنشأ، وإذا فقدت هذه الصفة فقدت الوثيقة جزءا من قيمتها، أي أن إثبات المنشأ أمر مهم في تعريف الوثيقة.³ وهي كما يراها روسو جين إيفاز عبارة عن "مجموعة متكونة من حامل (القطعة) والمعلومة القابلة للاطلاع والاستعمال كحجة."⁴

وتعتبر الوثيقة الأرشيفية مصدرا مهما من مصادر تدوين التاريخ والكشف عن الحقائق، ولهذه الأسباب تسمى مراكز الوثائق "خزائن التاريخ"، و"مجمعات الخبرة" و"مرجع الذاكرة"، والوثيقة الأرشيفية تحفظ قصد الرجوع إليها وقت الحاجة لـ:

- استعمالها كدليل وحجة، وتستعمل أيضا كمرجع في العمل الإداري والبحث العلمي والتاريخي.

وللوثيقة الأرشيفية قيمة الحجية والإقناع *une valeur probante* وفي نفس الوقت قيمة الإعلام كمصدر معلوماتي *un source d'information, une valeur informative* ومن

¹ - مجلة المكتبات والمعلومات، مج 2، ع1، ديسمبر 2003، ص96.

² - Larousse / VUEF: Dictionnaire de français. 2001, P 128

³ - السويديان، ناصر بن محمد. التنظيم الموضوعي للأرشيف. مجلة مكتبة الملك فهد، مج13، ع1، جانفي 2006، ص 106.

107

⁴ - Rousseau, Jean-Yves.- les fondements de la discipline archivistique.- canada: presses de l'université de Québec ; 2003.- p 123

هذا المنطلق فالأرشيف ينتج عن العمل وفي إطاره داخل المؤسسة التي تنتجه وينفي هذا عن الأرشيف الإشهار والتجارة والاطلاع الحر بعكس ما يوجه للمكتبات أو مراكز التوثيق أو الصحافة. الخ، وما يميز الوثيقة الأرشيفية باعتبارها وثيقة رسمية ناتجة عن نشاط إداري رسمي هو:

- الإنتاج العفوي اللإرادي: فصدورها وإنتاجها غير إرادي وعفوي إلا أنه لازم لأداء النشاطات.

• المصادقية وصحة المعلومات: فهي وسيلة لإثبات الحقوق وفض النزاعات.
• الموضوعية: لا تحمل أي توجه سياسي أو أيديولوجي، فهي بذلك تتسم بالموضوعية والابتعاد عن الذاتية.

• عدم التجزئة: وهو الأمر الذي يشير إلى مبدأ الوحدة الأرشيفية ووحدة الرصيد الذي يعتبر أهم المبادئ التي لا بد من عدم المساس به، لأن ذلك يعرض الأرشيف إلى فقدان قيمته.
- الحياد: كما أن الوثيقة الأرشيفية تحتوي حقائق ومعلومات عن الإدارة والأعمال الموكلة لها فهي إذن تعتبر حيادية وغير متحيزة.

مما سبق ذكره تبين لنا أن الأرشيف هو ناتج مختلف الأعمال الإدارية إذ يتسم بالصحة والمصادقية نظرا ل عفوية إنتاجه وعدم انحياز معلوماته إلى جهة معينة، فهي تعبر عن الحقيقة الواقعة ما لم يطرأ عليها أي تزيف أو تحريف، لنا فهو يعتبر الدعامة الأساسية سواء من أجل فض النزاعات وإثبات الحقوق، أو من أجل استخدامه في مختلف الأغراض التسييرية والإجراءات الإدارية، إضافة إلى كونه حافظا للذاكرة الجماعية حيث يُعتمد عليه بصفة كبيرة في الدراسات التاريخية لكونه مرآة عاكسة لبعض الأحداث التاريخية المهمة، ويعد أيضا مصدر إلهام بالنسبة للدراسات والبحوث العلمية، وهذا ما أهله بجدارة لأن يكون موضع اهتمام وعناية.

2- صناعة القرار الإداري

كلمة القرار لغة تعني ما استقرَّ به الرأي من الحكم في مسألة ما، وتأخذ أيضا المعاني التالية: المستقر والثابت، المطمئن من الأرض ما استقر فيه أي حصل فيه السكن والسكون، كما تعني "انتهى الأمر وثبت"، كما تأخذ في اللغة الفرنسية المعاني التالية:

Arrêter, prendre une décision, choisir, décréter, se déterminer, disposer, édicter, établir, constater

واصطلاحا "هو فصل أو حكم في مسألة أو قضية أو خلاف"، وهو أيضا عبارة عن "اختيار بين بدائل مختلفة" ويعني أيضا "اختيار الطريق أو المسلك أو المنهج أو الحل الأفضل -

الأحسن- من بين عدة طرق أو مسالك أو مناهج أو حلول متكافئة" كما يعني أيضا الوصول إلى الغاية أو تحقيق الهدف" والقرار هو النتيجة المستخلصة من مجموع الفرضيات،¹ ومن جملة التعريفات السابقة يمكن تعريف القرار بأنه: مسار فعل يختاره المقرر باعتباره أنسب وسيلة متاحة أمامه لإنجاز الهدف أو الأهداف التي يبتغيها، أي حل المشكلة التي تشغله.

والقرار الإداري "عمل قانوني نهائي صادر بالإرادة المنفردة والملزقة لجهة الإدارة العامة الوطنية، لما لها من سلطة بمقتضى القوانين والأنظمة، وفي الشكل الذي يتطلبه القانون، بقصد إنشاء أو تعديل أو إلغاء حق أو التزام قانوني معين، متى كان ذلك ممكنا وجائزا قانونا ابتغاء المصلحة العامة".² يعتمد أساسا في تبنيه واتخاذ على الوثائق وبالأخص منها الوثائق الإدارية، وهي "وثائق مثل غيرها، تمكن الإنسان من الحصول على المعلومة أو الوصول إليها. وقد تكون الوثيقة مجرد قطعة خشبية أو حجرية أو معدنية اكتشفت ضمن البحوث الأثرية، ولها قيمة فكرية ووجود مادي وحجم ووزن، وتختلف الوثيقة الإدارية كوثيقة ورقية مدونة عن غيرها من الوثائق لأنها تكون في ذات الوقت الوعاء أو الحاوي والمحتوى، وهي الخبر أو المعلومة والوعاء في نفس الوقت، وهي تعد حجر الأساس في صناعة القرارات الإدارية، وهذه الأخيرة هي سلسلة الاستجابات الفردية أو الجماعية التي تنتهي باختيار البديل الأنسب لمواجهة موقف معين".⁴

وتعد عملية صنع القرار وظيفة إدارية وعملية تنظيمية، فهي وظيفة إدارية حيث تعد من المسؤوليات التي يتحملها المدير كما أنها عملية تنظيمية حيث أن الكثير من القرارات لا يمكن للمدير فقط أن ينفرد بها لكونها ناتجة جهود كثير من الأفراد على شكل جماعات أو مجالس إدارة، ففي الوقت الحالي لا يمكن للمدير أن يعمل في عزلة بل يتأثر في قراراته بأفكار المحيطين به وآرائهم، وبهذا المفهوم تعتبر صناعة القرار عملا إداريا وتنظيما. ويمكن أن نعتبرها أيضا "مجموعة الخطوات التي يتبعها صانع القرار ليقوم بالاختيار الفعلي للبديل الأفضل، مع ملاحظة

¹ - عوايدي، عمار. نظرية القرارات الإدارية بين علم الإدارة العامة والقانون الإداري. الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، 2003. ص 15-16

² - كنعان، نواف. القانون الإداري: الوظيفة العامة، القرارات الإدارية..... الأردن: الجامعة الأردنية: [د.ت.]. ص 237

أنظر أيضا: محمد رفعت، عبد الوهاب. النظرية العامة للقانون الإداري. الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة: 2009. ص 524

³ - القادري، محمد الصالح. - تحرير الوثائق الإدارية: الأسلوب والقواعد والتقنيات. تونس: المعهد الأعلى للتوثيق بجامعة منوبة: 2006. ص 7-8

⁴ - د. الغامدي، سعيد بن علي. صناعة القرارات الإدارية. متاح على الخط عبر الرابط التالي:

<http://siironline.org/alabwab/algharar-center/010.html> . تمت الزيارة يوم 2012/11/28

⁵ الصيرفي، محمد. القرار الإداري ونظم دعمه. الإسكندرية: دار الفكر الجامعي: 2007. ص 162

أن هذه الخطوات غير متفق عليها بين كُتّاب الأدب الإداري، فعلى سبيل المثال يقسم (بيتر دريكر) خطوات صنع القرار إلى 5 خطوات يشاطره فيها الكثير من رواد الأدب الإداري وهي:

- 1-تعريف المشكلة.
 - 2- تحليل المشكلة.
 - 3-تطوير البدائل.
 - 4-تقرير الحل الأفضل والأنسب.
 - 5-تحويل القرار إلى عمل مؤثر.
- في حين يقسمها (نجرو) إلى 9 خطوات:

- 1-الاعتراف بالمشكلة من حيث تحديدها وبلورتها.
- 2- جمع المعلومات.
- 3- تصنيف المعلومات وتحليلها.
- 4- البحث عن الوسائل.
- 5- تحديد البدائل.
- 6- تقييم البدائل.
- 7- القرار.
- 8- لتنفيذ.
- 9- التقييم والمتابعة.¹

ويجدر بنا في هذا السياق توضيح الفرق بين صناعة واتخاذ القرار الإداري، فصناعة القرار هي المراحل التي يتم فيها التشخيص، وتحديد المشكلة، وتحديد البدائل وتقييمها، وهي بذلك تمثل جميع المراحل التي يمر بها حل ما لمشكلة مطروحة، أما اتخاذ القرار فهو يمثل المرحلة الأخيرة التي يتم فيها اختيار البديل الأنسب، وهو الحسم والفصل في الاختيار بين البدائل، أي بعد أن تكون كافة المعلومات ذات العلاقة أمام المسئول الذي يتعين عليه اتخاذ القرار وبعد تقييم البدائل المطروحة كحلول للمشكلة القائمة تأتي مرحلة اتخاذ القرار وهي خلاصة ما

¹ - الصيرفي، محمد. المرجع نفسه، ص 154

يتوصل إليه صانعو القرار من معلومات وأفكار حول المشكلة القائمة والطريقة التي يمكن بها حلها، وهناك فرق بين اتخاذ القرار وصنعه . . فصانع القرار هو الذي يحدد القرارات وفق شروط معينة يضعها القرار ولا يجوز تجاوزها، أي هو الذي يسن القرار وفق الظروف والإمكانات المتاحة، أما اتخاذ القرار فهو الذي يختار القرار الذي يناسبه وفي ضوء الشروط الموضوعية مسبقا ويقوم على تنفيذ هذا القرار. وهكذا نجد أن مرحلة اتخاذ القرار هي في الحقيقة "عمل أداري" يمثل جانبا واحدا في عملية صنع القرارات، وحيث أن عملية صنع القرار عملية واسعة فهي تتضمن أكثر من إجراء أو طريقة، وهذا يعني اشتراك أكبر عدد ممكن من الإدارات والوحدات الإدارية ذات العلاقة في معظم مراحل القرار، أما عملية اتخاذ القرار فهي ذلك الجزء الهام من مراحل صنع القرار¹.

فأهمية هذه العملية الإدارية تفرض بالضرورة وفي غالب الأحيان الرجوع إلى مصادر تعين على الإرشاد والسداد في اتخاذ القرار، وهذه المصادر تنقسم بدورها إلى داخلية وخارجية، فالداخلية تتمثل في:

- الأشخاص أو الإدارات الفرعية داخل المنشأة مثل المشرفين ورؤساء الأقسام والمديرين بمختلف مستوياتهم، وهذه المصادر تغطي حقائق عن أساسيات مخططة ومنظمة لتدعيم القرارات إذا كان المستفيد المنتظر مدركا للحقائق المتاحة، ويتم تجميع البيانات على أساس رسمي طبقا للأحداث التي وقعت بالفعل، وبمجرد معرفة الحاجة إلى البيانات يتم تصميم أسلوب جمع البيانات لاستخراج الحقائق من الوثائق، والبيانات المجمعة داخليا ترتبط بصفة عامة بأعمال المنشأة والأنشطة المرتبطة بهذه الأعمال، وتستخدم البيانات الداخلية لإنتاج معلومات مفيدة تستخدم في صناعة واتخاذ القرار².

تحتاج عملية صنع القرار إلى المعلومات ذات الصلة بالقرار والمطلوب توفيرها في الوقت المناسب، ويمكن تصوير المعلومات على أنها المادة الأولية التي تصنع منها القرارات، فهناك علاقة مباشرة بين نوعية هذه المادة الأولية وجودة المنتج (القرارات المتخذة)، "لذلك لا بد من مراعاة نوعية المصدر المعلوماتي الذي يتسم بالصحة والمصدقية كالأرشيف"، وأن أي قصور أو نقص في إمداد الإدارة بما يلزمها من بيانات ومعلومات يعني تعريض الإدارة إلى اتخاذ قرارات غير سليمة أو ناقصة مما قد يؤثر أثرا سيئا على الجهاز الإداري³.

¹ - الصليبي، محمد مستور. الفرق بين اتخاذ وصناعة القرار. متاح على الخط عبر الرابط التالي:

تمت الزيارة يوم 20/4/2012 <http://www.manhal.net/articles.php?action=show&id=750>

² - خشية، محمد السعيد. - نظم المعلومات: المفاهيم والتكنولوجيا- القاهرة: المركز الدولي للبحوث السكانية: 1987. ص 51

³ - عباس حمودة، حمود؛ حامد عودة، أبو الفتوح. الأرشيف ودوره في مجال المعلومات الإدارية. جامعة القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ص7

- المصادر الخارجية: وهي مولدات وموزعات المعلومات الموجودة خارج نطاق المؤسسة، وتتضمن هذه المصادر بعض التقسيمات مثل العملاء والموردين، المنافسين، النشريات المهنية والاتحادات الصناعية، النقابات العمالية والهيئات الحكومية، هذا ولأن كل وظيفة إدارية تتضمن اتخاذ قرار، ويجب أن يكون هذا الأخير مدعماً بمعلومات جيدة، فإذا كانت المعلومات غير كافية أو غير رسمية فإن ذلك يؤدي بالضرورة إلى إصدار قرار غير سليم وبالتالي لا يحقق العمل الإداري الأهداف المنشودة منه.¹

يمكن القول بأن المعلومات ذات الجودة العالية في يد من يستخدمها بكفاءة ستحقق له أفضل دعماءة يستند إليها في صناعة القرارات الجيدة والتي سوف تقوده إلى الأداء الفعال للأنشطة الإدارية، والنشاط الإداري الكفء سيؤدي إلى بلوغ النجاح المنشود من خلال تحقيق أهداف المؤسسة، ولعل ما تطرقنا إليه حول الوثائق الأرشيفية وخصائصها يجعلها تنصدر المصادر المعلوماتية المعتمدة في صناعة القرارات الإدارية، وهو الأمر الذي سنحاول التحقق من مدى واقعيته من خلال دراستنا الميدانية.

3-الأرشيف وصناعة القرار الإداري: رؤية واقعية

تعد الدراسة الميدانية نزولاً إلى أرض واقع الظاهرة المدروسة لاستنباط المادة الخام على ما هي عليه باعتماد الأدوات المنهجية المعتمدة في هذا الإطار والمتثلة في سياق بحثنا هذا في الاستبيان، المقابلة، الملاحظة كما ذكرنا سابقاً، وقد اختار الباحث مديرية التعمير والبناء لولاية باتنة لاعتبارات أهمها:

- كون هذه المديرية ذات طابع إداري يتوافق مع موضوع البحث.
- النشاطات المعهودة إلى المديرية تحمل في طياتها بالضرورة قرارات إدارية ذات مستويات مختلفة.

وللقيام بدراسة الموضوع ومعالجته كان لابد من تحديد مجتمع الدراسة وعينتها، ولتوضيح حدود الدراسة وجب التنويه إلى أن مجتمع الدراسة يمثل الإدارات العمومية، والعينة المقصودة هي الأفراد الإداريين من ذوي السلطة في التسيير، ومن لهم قدرة ومساهمة في صنع أو اتخاذ القرارات الإدارية على مستوى مديرية التعمير والبناء لولاية باتنة باعتبارها مؤسسة ذات طابع إداري، وشمل جميع الموظفين من خلال إجراء مسح كلي لأفراد العينة المقصودة، والبالغ عددهم 30 فرداً، والذين تمكن الباحث من توزيع الاستبيانات عليهم، وتمكن من استرجاع 27 منها، ومنهم من تمكن من مقابلتهم وعددهم 10، وهؤلاء ممن يتقلدون مناصب إدارية

¹ - خشبة، محمد السعيد. المرجع السابق- ص 52

مهمة وذات تأثير بصفة أو بأخرى على النشاط الإجمالي والرسمي للمؤسسة، وهم يتوزعون على المناصب التالية:

- مدير المديرية.
 - 3 رؤساء مصالح. (مصلحة الإدارة والوسائل العامة، مصلحة البناء، مصلحة التعمير).
 - 10 رؤساء مكاتب (مكتب آليات التعمير، التأطير والتهيئة العقارية، شهادات التعمير والترقية، الهندسة المعمارية، الدراسات ومقاييس البناء، التنظيم التقني ونوعية البناء، أنماط ومواد البناء، تسيير المستخدمين، الميزانية والمحاسبة العامة، الشؤون القانونية والمنازعات.)
 - 9 مهندسين (هندسة معمارية، هندسة مدنية، تهيئة حضرية، إعلام آلي).
 - 7 نواب رؤساء المكاتب [(متصرفين إداريين + محاسبين)].
- لقد عمد الباحث إلى إجراء المسح الكلي لأفراد عينة البحث، حيث تمكن من جمع خصائصه من خلال البيانات الشخصية المدرجة في الاستبيان من حيث المناصب الإدارية، إضافة إلى المستوى العلمي والتكوين الأكاديمي والتخصص، لمقارنته بالمهام المنوطة بالموظف لمعرفة مدى تلاءم وتوافق التخصص مع الوظائف المكلف بها، حيث وجد أن الغالبية ممن يحملون شهادات جامعية (ليسانس، مهندس، مهندس دولة)، وواحد فقط يحمل شهادة دراسات عليا، والجدول التالي يبين التخصصات العلمية لأفراد مجتمع الدراسة:

النسبة المئوية	التكرار	التخصص
34%	9	هندسة معمارية
19%	5	تهيئة حضرية
11%	3	محاسبة وضرائب
11%	3	إدارة
7%	2	علوم قانونية
7%	2	إعلام آلي
7%	2	بناء
4%	1	هندسة مدنية
100%	27	المجموع

جدول 01: التخصصات العلمية لأفراد عينة الدراسة

جدول 02: مصادر المعلومات المعتمدة في صناعة القرارات الإدارية.

من خلال البيانات التي تم الحصول عليها حول مرجعيات الموظفين من أجل أداء مختلف المهام التي تتعلق بنشاطات المديرية، تبين أن الوثائق الأرشيفية بغض النظر عن عمرها هي الدعامة الأساسية في أداء غالبيتها، حيث تصدرت مختلف المصادر بنسبة 40% ثم تلتها بعد ذلك الإطارات البشرية المؤهلة بنسبة 33% على اعتبار أن الأدمغة والعقول البشرية تحمل معلومات هامة خاصة إذا امتزجت بالخبرة المهنية الطويلة، أضف إلى ذلك النظم الآلية خاصة بعد النتائج المبهرة التي حققتها التكنولوجيا الحديثة في مختلف مجالات الحياة إذ سهلت وسرّعت عملية الوصول إلى المعلومة المسجلة في مختلف ذاكرات الحواسيب، إضافة إلى نظم الشبكات المختلفة والتي قصرت المسافات، حيث جاءت نسبة الاعتماد عليها على مستوى

- في إطار مهامكم ووظائفكم الإدارية، إلى ماذا تلجؤون لاستقاء البيانات والمعلومات ؟		
المصادر المعتمدة في أداء المهام الإدارية	التكرار	النسبة المئوية
الوثائق الأرشيفية	19	40%
الإطارات البشرية المؤهلة (الخبرة)	16	33 %
النظم الآلية	10	21%
مصادر أخرى	3	6%
المجموع	48	100%

المديرية 21% وجاءت في المرتبة الأخيرة وبنسبة ضئيلة 6% المصادر الأخرى كالتنظيم القانوني والتنظيمية.

فمن خلال الاستقراء لمصادر المعلومات المعتمدة لصناعة القرارات الإدارية على مستوى المديرية وجدنا:

- أن الوثائق الأرشيفية المادية هي من أبرز المصادر المعلوماتية لأداء مختلف الوظائف والمهام.
- إن نقص الالتزام بالتعاليم التنظيمية داخل المؤسسة يجعل غياب المصدر المعلوماتي وقت الحاجة إليه أمر وارد وممكن الحدوث.
- لعل أغلب القرارات على مستوى المديرية يتم اتخاذها باللجوء إلى الأرشيف الإداري كونه يعكس القضايا الآنية ويستجيب لمستجدات الأحداث في إطار أداء المهام بالمقارنة مع كل من الأرشيف الوسيط والتاريخي، وهو ما تدعّمه دورية إقبال المسؤولين على الأرشيف حيث صرح الموظفون أنهم غالبا ما يعتبرون الوثائق الإدارية مرجعهم الأساسي.

- ماذا يعني لكم مصطلح "الأرشيف"؟

لقد طرح الباحث هذا السؤال بشكل مفتوح أتاح للمبحوث حرية الإجابة حسب قناعته الخاصة، فكانت أغلب الإجابات تتوجه نحو اعتبار الأرشيف تلك الوثائق التي لم تعد لها قيمة ولا يحتاجها الموظف في أداء أعماله اليومية، باستثناء النسبة القليلة التي تعي وتدرك قيمة الوثائق من خلال اعترافهم بالدور الإيجابي الذي تلعبه في مساعدتهم لتأدية مهامهم بنوع من الثقة والارتياح، ولاقتناعهم بإمكانية الحاجة إليه مستقبلا.

لذلك فإن البيانات المحصل عليها عبارة عن مؤشر على محدودية الوعي وضبابية الفهم لحقيقة الأرشيف لدى أغلب أفراد عينة الدراسة، لذلك ولا غرابة في الأمر إن ضل غبار الإهمال يسيطر على هذا القطاع في ضل غياب عوامل التثمين.

ومن خلال الدائرة النسبية المقابلة نلاحظ أن عدد تكرارات من لا يعتبر الوثائق الإدارية أرشيفا 17 من 27 بنسبة 63% وهذا راجع حسب بيانات الاستبيان في هذا السؤال إلى شيوع التمييز بين الوثائق الإدارية ذات الأهمية، والأرشيف الذي تراجعت قيمته ولم تعد للإدارة حاجة فيه إلا نادرا، أما الأفراد الذين يعتبرون الوثائق الإدارية أرشيفا كانوا بتكرار 10 من 27 بنسبة 37%، ويرجع هذا إلى كون هؤلاء من لديهم خبرة طويلة في العمل وهم ممن صادفتهم مشكلات الحاجة الماسة إلى الوثائق ولم يجدوا مخرجا إلا بعد الحصول على الوثيقة المبتغاة.

عدد انتهاء حاجتكم من الوثائق المحفوظة لديكم، هل تقومون بدفعها إلى المكلف بحفظ الأرشيف بطريقة قانونية؟		
نسبة قيام الإداريين بعملية دفع الأرشيف	التكرارات	النسبة المئوية
نعم	22	81%
لا	5	19%
المجموع	27	100%

جدول 3: نسبة قيام الإداريين بعملية دفع الأرشيف

من خلال بيانات الجدول نلاحظ أن غالبية أفراد العينة يقومون بعملية الدفع كإجراء تنظيمي في المؤسسة ككل ويمس جميع مسؤولي المكاتب المنتجين للوثائق، بتكرار 22 من 27 وبنسبة 81% ويرجع ذلك إلى الضرورة التي يفرضها الحيز المكاني، - ومن خلال ملاحظة الباحث ومعايشته لهذا الإجراء باعتباره المكلف بحفظ ومعالجة الأرشيف في المؤسسة- تبين أن عملية الدفع لا يقوم بها الموظفون إلا إذا تكدست لديهم الوثائق فيدفعونها إلى الأرشيف حتى ولو كانت في عمرها الأول، والأدهى من ذلك أنهم يقومون بتحرير العديد من النسخ- 3

أو 4 - ولدى بعض هؤلاء اعتقاد أنه من الضروري وضع نسخة في الأرشيف للرجوع إليها في حالة ما إذا...، وذلك دون مراعاة تاريخها على الإطلاق.

أما الأفراد الممثلين بتكرار 5 من 27 بنسبة 19% فهم ممن تفرض عليهم طبيعة نشاطهم عدم الاحتفاظ بالوثائق، وإن كانت هناك وثائق فهي قليلة لا تشغل حيزا كبيرا باعتبار هذا الأخير هو الهاجس الوحيد الذي يدفعهم إلى إجراء عملية الدفع.

هذا ومن خلال ما تم الحصول عليه من بيانات حول جوانب متعلقة بالثقافة الأرشيفية لدى أفراد عينة الدراسة خلص الباحث إلى الاستنتاجات الجزئية الآتية:

- إن الاعتقاد السائد حول مفهوم الأرشيف لم يرقى إلى المستوى الحقيقي والمطلوب، حيث أن مفهوم الأرشيف لدى أغلب موظفي المديرية مازال يقتصر على الوثائق ذات الأهمية المنعدمة بالنسبة للإدارة.

- إن عدم الاطلاع على ماهية القطاع الأرشيفي وقلة الالتزام بالنصوص التشريعية المنظمة له وراء عدم الانضباط بالقواعد التقنية المنظمة له عبر مختلف مراحل معالجته العلمية.

- إن الثقافة الأرشيفية المتمثلة في الوعي والإدراك بأهمية الوثائق تعاني من محدودية في التوسع وضباية في الفهم لدى موظفي مديرية التعمير والبناء لولاية باتنة. وقد استغل الباحث أسلوب الملاحظة أثناء اتصاله بالمبحوثين في مكاتبهم من أجل: - مشاهدة الحالة التنظيمية للوثائق والعلب.

- مراقبة الحالة النفسية للمبحوث خاصة أثناء المقابلة.

- مراقبة التصرفات والسلوكيات التي يقوم بها الموظف أثناء أداء بعض المهام، وقياس مدى اهتمامه وأخذه لها بعين الاعتبار وروح المسؤولية، مع مشاهدة الموظفين أثناء تعاملهم مع وثائق الأرشيف.

يكون الباحث موظف سابق بالمديرية، فتح له المجال ليشاهد عن كثب عمليات البحث التي تتم أحيانا على مستوى قاعة الأرشيف من طرف بعض الموظفين وهو الأمر الذي يمكنه من مشاهدة الحالة النفسية للموظف حينما لا يجد ضالته، واستغل الباحث أيضا هذا الأسلوب من أجل معاينة الحالة التنظيمية للوثائق داخل قاعة الأرشيف، الوضعية العامة، طرق الترتيب الفكري والمادي، الشروط العامة وتجهيزات ووسائل الحفظ.....

النتائج العامة للدراسة

- البيئة الإدارية مازالت تمارس نشاطاتها بالشكل التقليدي وفي الغالب ما نجد أن الوثائق الأرشيفية المادية هي من أبرز المصادر المعلوماتية لأداء مختلف الوظائف والمهام.
- أغلب القرارات الإدارية التي تتخذ على مستوى المديرية ذات طابع تنفيذي، وهو ما يبين أن لها سلطة محدودة باعتبار أن أغلب القرارات الاستراتيجية أو التكتيكية تتم صنعها واتخاذها على مستوى أعلى في الوزارة أو رئاسة الحكومة أو الجمهورية.
- أغلب القرارات على مستوى المديرية يتم اتخاذها باللجوء إلى الأرشيف الإداري كونه يعكس القضايا الآتية ويستجيب لمستجدات الأحداث في إطار أداء المهام بالمقارنة مع كل من الأرشيف الوسيط والتاريخي، وهو ما تدعمه دورية إقبال المسؤولين على الأرشيف حيث صرح الموظفون أنهم غالبا ما يعتبرون الوثائق الإدارية مرجعهم الأساسي.
- أغلب القرارات الإدارية تتخذ شكلا كتابيا (وثائق) خاصة أثناء التعامل مع أطراف أجنبية، وفي ذلك ضمان للحقوق وتعهد بالالتزامات تجاه مختلف الأشخاص الطبيعيين أو المعنويين.
- ما زالت الإدارة الجزائرية ممثلة في مديرية التعمير والبناء تعاني نوعا من التخلف الإداري حيث شكاوى الموظفين من العراقيل الإدارية التي تقف كأكبر حاجز أمام الحصول على المعلومة المبتغاة والحقوق الوثائقية في الوقت المناسب.
- إن نجاح القرار الإداري وسلامته في نظر المسؤولين وصناع القرار مرهون بمدى معرفة انتقاء الوعاء المعلوماتي الذي يخدم موضوع القرار، إضافة إلى حسن تنظيم واستغلال تلك المعلومات المجمعة على الوجه الصحيح الذي يحقق الغاية من القرار.
- شيوع النظرة القاصرة تجاه مصطلح الأرشيف أسقط تأثيره على الوضعية التنظيمية للأرشيف المتواجد بقاعة الحفظ المؤقت في ظل غياب المتخصص في المجال سابقا.
- يمكن القول أن نقص الوعي وقلة الإعلام والتكوين أدى إلى نوع من العشوائية وعدم التقنين في بعض مراحل المعالجة المطبقة على مستوى المكاتب كالترتيب والفهرسة.
- عدم الإطلاع على ماهية القطاع الأرشيفي وقلة الالتزام بالنصوص التشريعية المنظمة له وراء عدم الانضباط بالقواعد التقنية المنظمة له عبر مختلف مراحل معالجته العلمية.
- الثقافة الأرشيفية المتمثلة في الوعي والإدراك بأهمية الوثائق تعاني من محدودية في التوسع وضبابية في الفهم لدى موظفي المديرية.

- تأييد المبحوثين على أهمية الوثائق خاصة الإدارية منها في صنع واتخاذ القرارات الإدارية انطلاقاً من المناصب التي يشغلونها، لكن بالرغم من ذلك نجد أن هناك إهمال لتطبيق القواعد التقنية للوثائق رغم اقتناعهم بضرورتها لحفظ الوثائق واسترجاعها وقد أكدوا على الاستعداد للاهتمام بها مستقبلاً.

هناك تدهور في الحالة التنظيمية على مستوى قاعة حفظ الأرشيف نظراً لعدم توفير الإمكانيات اللازمة لحفظ الوثائق على الوجه السليم وهي بحاجة ماسة إلى عملية توسيع وتزويد بأجهزة الوقاية، ولتوفير الإنارة الطبيعية والتهوية الكافية، واستبدال الرفوف بأخرى ذات نوعية جيدة متحملة للثقل، وكذا توفير الميزانية اللازمة.

إن الأرشيف المتواجد بقاعة حفظ الوثائق بحاجة ماسة إلى إعادة تنظيم باعتدال التقنيات الأرشيفية وتطبيق عمليات المعالجة العلمية، وذلك بتوظيف رسمي لوثائقي أمين محفوظات توفر له الأجواء والشروط المهنية الضرورية والمحترمة.

- قطاع الأرشيف مازال لدى الكثير من المبحوثين قليل الشأن، على اعتبار أن الباحث أثار الدهشة لدى بعض أفراد عينة الدراسة لمخالفته ما هو معتاد عليه حينما أظهر اهتمامه بالأرشيف كموضوع للدراسة والبحث.

وعلى هذا الأساس وانطلاقاً من التكوين الأكاديمي، يمكننا أن نسهم باقتراحات وتوصيات عليها تساعد الإدارات والوثائقيين على تفعيل الوثائق الأرشيفية أثناء صناعة القرارات الإدارية، إذ نوجزها على النحو الآتي:

- باعتبار أن الوثائق في عمرها الأول (الإداري) هي المرجع الأساسي في أداء المهام الإدارية على وجه العموم وفي صنع واتخاذ القرارات الإدارية على وجه الخصوص، فهي تجعل تدخل الأرشيفي في تسيير الوثائق الجارية أمراً تقتضيه الضرورة لضمان مروره عبر مختلف مراحله بصورة تضمن حفظه السليم، وتعيد له الاعتبار والمكانة التي يفتقدها في الوضع الراهن.

- منح الأرشيفي السلطة القانونية في اتخاذ التدابير اللازمة التي تضمن تطبيق مراحل المعالجة في المنع.

- ضرورة إدراج بند ضمن بنود القانون الداخلي للمؤسسة يتضمن حتمية استشارة الموظفين للأرشيفي في كل الإجراءات المتعلقة بالوثائق، سواء المادية التعاملية أو التقنية أو القانونية.

- ينبغي على الأرشيفيين أن يتحلوا بالمرونة في التعامل لكسب ثقة الموظفين وبالتالي تجد كلمتهم الأذان الصاغية والعقول المستجيبة.

- تكوين لجنة علمية متخصصة تقوم بدورات تقييمية لأوضاع الأرشيف على مستوى مختلف المؤسسات خاصة العمومية منها عبر إقليم كل ولاية، والغرض منها تنفيذ التعليمات الصادرة عن مؤسسة الأرشيف الوطني، وتسليط العقوبات الإدارية والمادية على المؤسسات المخالفة

- للإجراءات التنظيمية لإجبارها على المراقبة المستمرة لأوضاع الوثائق على مستوى المكاتب، وكذا قاعات الحفظ.
- تنظيم دورات تكوينية إعلامية لموظفي المديرية بصفة خاصة والمؤسسات العمومية بصفة عامة لتوعيتهم بأهمية الوثائق وضرورة حفظها بإتباع الإجراءات التنظيمية المتمثلة في المبادئ الأساسية للتقنيات الأرشفية لضمان الحفظ الأنسب للوثائق.
- إن النهوض بقطاع الأرشفة لا بد أن يتضمن اهتماما بتوظيف المختصين في المجال، إضافة إلى توفير شروط وتجهيزات الحفظ اللازمة، موازنة مع سن النصوص التشريعية المنظمة والمواكبة لمتطلبات العصرنة.
- ينبغي إعادة الاعتبار للأرشفة من الناحية الإدارية بإدراجها كمكتب ضمن الهيكل التنظيمي للمؤسسة له مكانة وصلاحيات تعيد له الاعتبار بين سائر المكاتب.

• خاتمة

لقد تبين لنا من خلال دراستنا التي أجريناها على مستوى مديرية التعبير والبناء لولاية باتنة، أن للأرشفة دورا حقيقيا فعّالا ومهمّا في أداء المهام الإدارية عموما وفي صناعة واتخاذ القرارات على وجه الخصوص، إلا أن هذا الدور لم يرق إلى المستوى المطلوب ولم يحقق النجاح في الخدمات الإدارية المقدمة للمستخدمين بالوجه الذي يرضيهم عنها، لكون هذا القطاع ما زال يعاني من قلة الاهتمام خاصة بعد تراكم ترسبات التنظيم العشوائي مع غياب الإرادة في اكتساب تقنياته العلمية، وعدم الاطلاع على التقنيات المنهجية المعتمدة في الميدان في ظل الغياب شبه التام للتطبيق الصارم للنصوص التشريعية التي سُنّت من أجل الاهتمام بالقطاع وتنظيمه وإيلائه العناية الخاصة به فيما يتعلق بمعالجته علميا وحفظه بصورة تضمن استرجاعه على حالته عند الحاجة إليه.

حيث أنه لا يمكن إلقاء اللوم على المصالح التي تسهر على سير النشاط الطبيعي على مستوى المديرية، بل لا بد على السلطات العليا في البلاد المتمثلة في الهيئة التشريعية التي تتحكم في سير طبيعة نشاطات مختلف المؤسسات العمومية أن تهتم بقطاع الأرشفة بسن نصوص قانونية مساندة لمستجدات الواقع، ومُدعّمة باليات تنفيذ تخرجها من صبغتها القولية إلى الفعلية، وتعيد له الاعتبار والمكانة الحقيقية باعتباره كنزا ثقافيا وموروثا حضاريا.

قائمة المراجع:

- 1- أمر 71-36 المؤرخ في 03 جوان 1971. الخاص بإحداث مؤسسات الوثائق الوطنية. ج. ر. ع. 49. 1971.
- 2- بوديرة، الطاهر. - تبيين رأس المال البشري في ميدان. رسالة ماجستير: قسم علم المكتبات - قسنطينة - 2009.
- 3- بوحوش، عمار؛ الذنبيات، محمد محمود. - مناهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث. - ط5. - الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية: 2009.
- 4- الجريدة الرسمية، ع. 4. 1988 ص. 139-المادتين 2، 3
- 5- خشبة، محمد السعيد. - نظم المعلومات: المفاهيم والتكنولوجيا. - القاهرة: المركز الدولي للبحوث السكانية: 1987.
- 6- زيدان، محمود. - الاستقراء والمبج العلمي. - ط4. - القاهرة: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر: 1980.
- 7- القادري، محمد صالح. - تحرير الوثائق الإدارية: الأسلوب والقواعد والتقنيات. - تونس: المعهد الأعلى للتوثيق بجامعة منوبة، 2006.
- 8- القانون 88-09 المؤرخ في 07 جادى الثانية عام 1408 للمولف ل 26 جانفي 1988 المتعلق بالأرشيف الوطني.
- 9- قانون 157-62 المؤرخ في 31 ديسمبر 1962. ج. ر. ع. 2. 11 جانفي 1963.
- 10- السويدان، ناصر بن محمد. التنظم الموضوعي للأرشيف. - مجلة مكتبة الملك فهد. - مج13، ع1، جانفي 2006.
- 11- شعبان عبد العزيز خليفة، المعجم الموسوعي في مصطلحات المكتبات والمعلومات. القاهرة: دار العربي للنشر والتوزيع، 1999.
- 12- الصيرفي، محمد. القرار الإداري ونظم دعمه. الإسكندرية: دار الفكر الجامعي: 2007
- 13- عباس حمودة، حمود؛ حامد عودة، أبو الفتوح. - الأرشيف ودوره في مجال المعلومات الإدارية. - جامعة القاهرة: مكتبة نهضة الشرق. 1985
- 14- عبود الألوسي، سالم؛ محجوب مالك، محمد. الأرشيف: تاريخه، أصنافه، إدارته. - ط1. - بغداد: دار الحرية للطباعة: 1979.
- 15- علي ميلاد، سلوى. - الأرشيف: ماهيته وإدارته. - القاهرة: دار الثقافة. 1986.
- 16- عوايدي، عمار. - نظرية القرارات الإدارية بين علم الإدارة العامة والقانون الإداري. - الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع. 2003
- 17- كنعان، نواف. القانون الإداري: الوظيفة العامة. القرارات الإدارية. الأردن: الجامعة الأردنية: [د.ت].
- 18- مجلة المكتبات والمعلومات، مج 2. ع1، ديسمبر 2003،
- 19- مرسوم 77-67 المؤرخ في 20 مارس 1979. الخاص بالمحفوظات الوطنية. ج. ر. ع. 27. سنة 1977.

20- Larousse / VUEF: Dictionnaire de français. 2001

21- Rousseau, Jean-Yves. - les fondements de la discipline archivistique. - Canada: presses de l'université de Québec ; 2003.

21- MOUDJEB, Ahmed. Contribution à la mise en place d'un system de gestion de documents administratifs étude de cas: la wilaya d'Alger. Magister en bibliothéconomie, Alger. 2001.

البحث في الدّراسة التّرجميّة: مناهج أم مقارنة؟

Daniel Gile* دانيال جيل

ترجمة د. محمد بسنّاسي (دكتوراه في التّرجمة/جامعة ليون 02، فرنسا)

مقدمة**:

يُنظر إلى مفهوم الدّراسة التّرجميّة (traductologie) بنظرات مختلفة (أنظر مثلا بالار 2006) في أوساط المترجمين، ومكوّني المترجمين، والباحثين في الدّراسات التّرجميّة؛ فهذه الزّمر قد تتوالج انتماءاتهم في حالات عديدة إلى أكثر من مجموعة واحدة. سنميّز هنا من جهة بين تفكير وخطاب مؤسّس على التّجربة المهنيّة، والملاحظة والتّطر، ومن جهة أخرى، بين البحث بالمعنى الجامعي للكلمة، والذي سيكون مدار حديث هذا المقال.

* - التعريف بصاحب المقال:

دانيال جيل من الأساتذة الفرنسيّين الذين لهم تأثير كبير في حقل الدّراسة التّرجميّة. ولقد سمح له تكوينه العلميّ (في الإحصاء الرياضي والبحث العمليّاتي) يخوض المدارس العلمية في مواضيع الترجمة الفورية ونظيرتها التحريرية بخلفية رصينة وأصيلة. وما أعطى لأبحاثه نوعا من النظرة الشمولية هو إتقانه للعديد من اللغات، حتى أنّه حاصل على دكتوراه في اللغة اليابانيّة.

اشتغل جيل بالتدريس في العديد من المعاهد والجامعات في فرنسا: الإنالكو، جامعة ليون الثانيّة، جامعة السوربون، وفي غير فرنسا مثل الجامعة الكاثوليكيّة في بلجيكا. عُيّن كأستاذ زائر في الصين: قوانغدونغ وشنغهاي، كما تبنّى رئاسة الجمعية الأوروبيّة للدّراسة التّرجميّة (من 2004 إلى 2007)، وهو عضو في هيئات تحرير الكثير من المجلات والنشرية المتخصصة في قضايا الدّراسة التّرجميّة الصادرة في دول مثل (كندا، بريطانيا، ألمانيا، إسبانيا، التشيك، الصين، اليابان، أستراليا، إفريقيا الجنوبيّة). لقد تحصل أيضا على دكتوراه في اللسانيات، وأسهم بمقالات علميّة غزيرة بالفرنسيّة والإنجليزيّة للدفع قدما بمنعى المدارس التي تتخذ من الترجمة الفورية والترجمة التحريرية موضوعا خصبًا لتحليلها وتمحيصها. وأدار مع باحثين آخرين مؤلفات متنوّعة بطول ذكرها في هذا المقام، ولعلنا نكتفي بذكر الكتب التي ألّفها منفردا، وهي:

- نظرات في البحث حول الترجمة الفورية (1995).

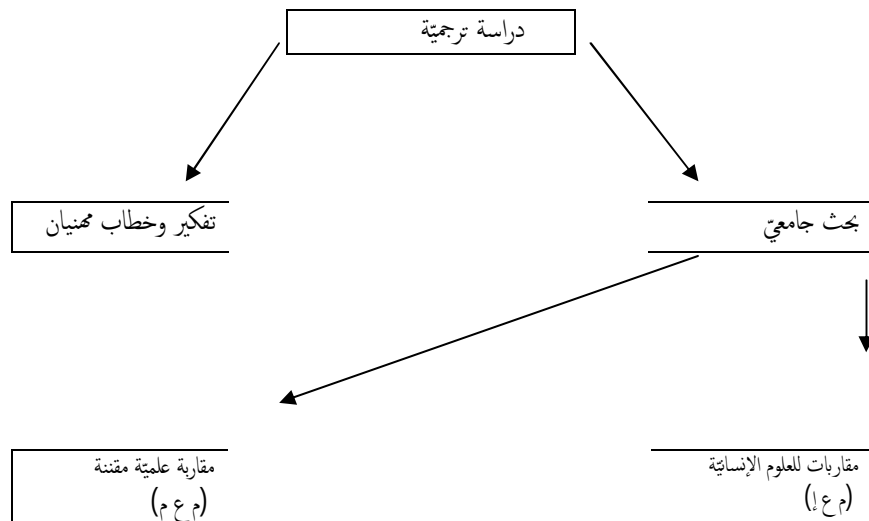
- مفاهيم أساسيّة ونماذج لتدريب المترجمين والتراجمة (1995).

- الترجمة فهمها وتعلمها (2005).

** - ملخّص البحث: يمكن أن تُصنّف المقاربات الرّائجة في البحث الجامعيّ المخصّص للدّراسة التّرجميّة ضمن نوعين كبيرين: أمّا النّوع الأوّل فهو متّصل بالعلوم الإنسانيّة (م ع إ) والنّوع الآخر فهو مستلهم من البحث العلميّ المقنن (م ع م). إنّ المناهج المستخدمة في النّوع الثّاني من البحث تميّز غالبا بتعقيدها النّسبيّة. أضف إلى طابعها الدّخيل نوعا ما. إنّ دراسي التّرجميّة (traductologues) الذين لم يتلقوا تكوينًا وفقًا لمناهج البحث، يكونون أحيانا منجذبين نحو التّأثير الكامن في المناهج الأكثر تقدّمًا، وإلى التّفانّة الجديدة: غير أنّ استعمالهما قد يَضحّ بدون فائدة تُذكر. عندما تكون قيمتهما المضافة ضئيلة مقابل تكاليف مرتفعة في الموارد، وعندما يعودان بالسّلب على السّلامة الإيكولوجيّة للدّراسة. كلمات أساسيّة:

مقاربة علميّة مقننة، مقاربات العلوم الإنسانيّة، سلامة إيكولوجيّة، مناهج دخيلة، صرامة.

يرى العديد من الباحثين ومكثفي الباحثين في العلوم الطبيعية، وفي العلوم الاجتماعية بوجود "منهج علمي"، "إجراء علمي" أو "مقاربة علمية" تُعرّف أي نشاط بحثي (أنظر مثلا كريستنسن 1977، أحال إليه سابوران 1988). ولا يتحدث آخرون بطريقة حصرية تماما عن "الإجراء العلمي" الذي هو قوام كل بحث ذي طابع تجريبي (بوقران 1988، ص1)، ويُستشف من هذا، أن هناك أنواع بحث أخرى، حتى وإن لم تنسجم بالعلمية. إن "الإجراء العلمي" التقليدي المتخذ كنموذج في العلوم الطبيعية، في علم النفس التجريبي، وفي حقول أخرى من العلوم الاجتماعية سنسميه هنا "مقاربة علمية مقننة" (م ع م) دون أن نتحدث عن عالميتها أو تجانسها، وسندرج بقية الإجراءات التي نجدها في الدراسة الترجيمية، وفي حقول شتى من العلوم الإنسانية (مثل: الهرمونطيقا أو تطور النظريات الأدبية) في مجموعة سنسميها: "مقاربات العلوم الإنسانية" (م ع ل). أنظر الترسية رقم 1.



الترسية رقم 1: تصنيف أولي للمقاربات العلمية في الدراسة الترجيمية.

لقد أُول الموضوع الثالث والعشرون للمؤتمر السنوي للجمعية الكندية للدراسة الترجيمية "منهجية البحث في الدراسة الترجيمية" على أساس أنه تنطبق عليه بالأخص المقاربة العلمية المقننة، والتي ستشغل موضوع اهتمامنا. سنذكر سبب وجود هذه المقاربة، وبعضاً من مبادئها الأساسية، وسنشير إلى بعض المناهج المستعملة في الدراسة الترجيمية وما تنطوي عليه من محدودية. ومن هذا المنطلق، سنذهب إلى التحسيس بضرورة توافر نوعية أحسن في ثانيا

التحليلات، والتي بدونها حتى التقنيات الأكثر كمالا لا تحوّل الوصول إلى نتائج مقنعة. لن نفرّق بين الترجمة التحريرية والترجمة الشفوية في تحليلنا، لأنّه بمنظور المقاربات ومناهج البحث؛ فالمسائل، والمشاكل الأساسية التي يطرحها نوعا الترجمة تبقى هي نفسها.

1. م ع م (المقاربة العلمية المقتنة)

وصفت العديد من التصوص الفلسفية والتعليمية "العلم". فخلّلت التصوص النظرية طبيعة الإجراء ومحدوديته (أنظر مدور 1979، شيهان 1988، بلاستو وإقاراشي 1989، أولي 1994، شالمارس 1999). وبخصوص التصوص التعليمية (أنظر مثلا جود وآخرون 1991، باي 1992) التي هي أكثر وصفية وغالبا ما تأتي توجيهية. وإننا لنلّفى الكثير منها بين تضاعيف كتب تعليم مناهج البحث في العلوم السلوكية، إذا قابلناها بالعلوم الدقيقة أين الطبيعة العلمية للبحث لا تبدو أنّها تعالج التساؤلات نفسها، بحيث يركّز فيها على التقنيات.

إنّ وصف العناصر التي يثوي عليها العلم، وتعدادها في هذه التصوص يختلفان من نصّ لآخر؛ لكن بعض الأفكار مطروقة فيها بانتظام، وإنّ تحليلها للمنطق المتضمن فيها يتيح استشفاف من خلال تمثيلها المقتن أنّ مسعى العلم، بالنسبة لكلّ الكتاب الشارحين له تقريبا، يتمحور حول الوقائع (فهو إذن تجريبي)، "متحلّ بالصرامة" أي أنّه منتظم، وحذر، وموضوعي إلى أقصى مدى، شكّي وقدي (متّسم بالتقدّ الذاتي). يتضح أيضا أنّ هذه المعايير منبثقة عن وعي بالتثبّت لدى الإنسان من حيث كونه مستكشفا للواقع. هذا التثبّت مرتبط بمحدوديته الحسية والإدراكية خلال جمع ومعالجة المعلومات؛ لكن قد ينزع كذلك إلى التثبّت في إجراءاته وتحليلاته بمفاضلاته العاطفية. ومن هنا فلا مناص من التأكيد على مناهج سليمة وراسخة في التقنين، وعلى ضرورة تقديم مداخلات رصينة، ومراجعتها بعيون باحثين آخرين، وعلى تعزيز الامتحانات التي تشوي عليها المسيرة العلمية للباحث. ومن ثمة، لزم كذلك تكثيف مراقبة المتغيّرات، وتوضيح مادّة البحث، والمناهج ونتائج المقالات المنشورة، وتحديد المعايير الكمية، وإجراءات التثبّت، وتقييم المتغيّر أثناء إعادة تطبيق المنهج.

ويقول آخر، فما يميّز ربما أكثر جلاء خطة الباحث في المقاربة العلمية المقتنة هو ذلك الشكّ الأصيل، والبحث المنتظم في مكامن الضعف إبّان استكشاف العالم، وفي التّطلع لتجاوزها بمختلف الوسائل، وأخيرا التّركية المنهجية للأفكار عن طريق معطيات قابلة للملاحظة (أنظر مثلا سوكال 2008).

2. مكانة المقاربة العلمية المقتنة في الدراسة الترجمة

لكي نضبط موقع المقاربة العلمية المقتنة في الدراسة الترجمة، لعلنا من الأفيد التذكير بتطور هذه الأخيرة باختصار بتحديد بعض الخطوط العريضة. فمن المؤثق وجود تفكير غزير حول الترجمة منذ قرون خلت (أنظر على سبيل المثال باسنت 1991 لأخذ لمحة مركزة بخصوص تطورها في البلدان الغربية)، ويبدو أن توافقا عاما حصل بشأن بروز حقل جامعي حديث يعني بالترجمة في أواسط القرن الماضي. من بين النصوص التي بشرت بهذا التحول، نلغى محاولات جون كاتفورد ورومان جاكوبسون، وكتب جورج مونان ونيذا، وربما كتاب الأسلوبية المقارنة لصاحبه فيني ودارليني، غير أنه يمكننا تحديد بدايات حركة أكثر تنظيلا في سنوات السبعينيات؛ حيث نلغى من جهة مبادرات نابعة أساسا من لدن اختصاصيين في الأدب المقارن (هارمنس، هولمس، لامبار، توري وآخرون) إذ كانت ينتهم المعلنة تتمثل في خلق حقل جامعي مكريس للترجمة، وإن النص البالغ الشهرة الذي غالبا ما يُحال إليه هو "إسم وطبيعة الدراسات الترجمة" لصاحبه جامس هولمس (1972-1987). وفي حين ذاته، تطوّر في عديد المراكز الأوربية تنظير مؤسس على ممارسة الترجمة وتعليمها. نذكر على وجه أدق المراكز الألمانية بنظرياتها الوظيفية التي تنكب على الترجمة التحريرية، وبالأخص نظرية سكوبوس، ونذكر المدرسة العليا للترجمة والمترجمين (م. ع. ت. م) في باريس بـ "نظريتها للمعنى" والتي أصبحت فيما بعد تسمى "النظرية التأويلية للترجمة"، إذ أعدت في البداية للترجمة الفورية قبل أن تُعمم على الترجمة التحريرية. ولقد ظهر في الوقت ذاته في روسيا تنظير متمحور كذلك على الترجمة الفورية، وبخاصة إدراك التأويل، بدفع من شيلي شارنوف.

إن زُمر من الزعيل الأول من دراسي الترجمة في سنوات التسعينيات كانوا جامعيتين أديتين، وآخرين مترجمين أو تراجمة، وآخرين لسانيين، ومن خلال لوائح مصادره ومراجعهم ومنشوراتهم، يتبين أنهم لم يتكفوا على مناهج البحث المتصلة بالمقاربة العلمية المقتنة، وأنهم لم ينتهجوا معاييرها في مدارسهم، وعلى التقيض من ذلك، فأوائل الأعمال الموافقة للمنهجية العلمية والتي دارت حول الترجمات الفورية لباحثين نفسانيين ولسانيين لاقى استهجانا من منتسبي المدرسة العليا للترجمة والمترجمين (أنظر بهذا الشأن جيل 1995 ص 55-56)، أما القلة القليلة من المترجمين ودارسي الترجمة الذين تكفوا على مناهج البحث (م ع م) لم يُصغ لهم إلا قليلا طيلة السبعينيات إلى حتى منتصف الثمانينيات.

لقد بزغ نشاط بحثي تجريبي حول الترجمة خلال النصف الثاني من الثمانينيات. إذ غالبا ما يُذكر هـ. ب. كرينغز وي. لورشر على أمتها من عبدا سبل البحث حول سيرورة الترجمة (أنظر فيما بعد)، ونلغى في سيرتها على الأنترنت على التوالي:

(<http://www.fb10.uni-bremen.de/lehrpersonal/krings.aspx>)

(http://www.uni-leipzig.de/~angling/index.html?mitarb_loerscher.htm)

أنها تخلوان من أي أثر لتكوين "علمي". واستتبع ذلك أعمال تجريبية أخرة خلال سنوات الثمانينيات، وبالأخص منذ سنوات التسعينيات سواء في الترجمة التحريرية أو في الترجمة الفورية، ويمكننا النظر من بين الأمثلة العديدة إلى المقالات المنشورة في المؤلفات الجمعية ل تيركونان كونديت وكونديت 1989، قران وطالور 1990، تيركونان كونديت 1991، لامبار وموزار مارسي 1994، تيركونان كونديت وجاسكلارين 2000، هانسن 2002، ونجد فيها مراجعا بصورة منتظمة تحيل إلى توالج الحقول. ومند عشرة سنين، نلغى كتابات تتصدى بخاصة لمناهج البحث (أنظر على سبيل المثال هانسن 2006، أو قوبفريتش 2008 بخصوص مناهج البحث في سيرورة الترجمة).

لقد ارتفع عدد البحوث التجريبية خلال السنين الأخيرة سواء حول الترجمة التحريرية أو الترجمة الفورية. بالنسبة للنوع الأول من الترجمة، فإننا لا نملك إحصائيات تحول لنا الفوز بفكرة عن مدى حجم هذا التطور، أما في الترجمة الفورية، فإن قاعدة البيانات (www.cirinandgile.com) تساعد على استخلاص أهم الاتجاهات، فالمعطيات ليست على قدر كبير من الوثوقية فقد تم انجاز الترتيب جزئيا من خلال الملخصات المتوافرة وبعض الشواهد، وليس من بعد قراءة كاملة للنصوص المعنية، ومع ذلك فالإتجاه العام للتطور الذي يتبدى من الجدول رقم 1 يبدو واضحا. ونسجل من جهة أخرة أن النشرة رقم 40 (جوان 2010 CIRIN) تحتوي 48% من البحوث التجريبية من مجمل سبعين نسا، وهذه البحوث التجريبية أنتجت في معظمها بعد سنة 2005.

العدد الإجمالي للنصوص	نسبة البحوث التجريبية	
63	10%	1974-1970
123	10%	1979-1975
188	11%	1984-1980
319	12%	1989-1985
581	17%	1994-1990
820	26%	1999-1995
965	37%	2004-2000
685	37%	2009-2005

جدول 1: تطور نسبة البحوث التجريبية حول الترجمة الفورية من خلال ما نُشر حولها من 1970 إلى 2009 تبعا لقاعدة بيانات (CIRIN) تم تحيينها في أكتوبر 2010.

لم تُستتب هذه الوثبة في البحث التجريبي بالضرورة بتعديل في الرؤى الجوهرية لدارسي الترجمة، والذين ما زالوا يفضلون الأخذ بالأفكار العامة والنظريات بدلا من اقتفاء البحث التجريبي، ولأدّل على ذلك من دراسات الشواهد- الموظفة في البحوث- التي جرث لحدّ الآن (أنظر مثلا جيل 2005، 2006، نصر 2010)، فنسبة الاستشهاد بالأبحاث التجريبية في مجمل ما نُشر ضعيف جدّا، حوالي أقل من 10% على العموم، مع تسجيل بعض النسب المرتفعة لما يتصل الأمر بموضوعات خاصة مثل البحث في سيرورة الترجمة أو البحوث المتناولة للنوعية في الترجمة الفورية. فيدور الباحثون والنصوص الأكثر ورودا في الاستشهاد في فلك الاتجاه الخاضع لمقاربة العلوم الإنسانية، وليس ذاك المنتمي للمقاربة العلمية المقتنة أو ذلك البحث الأميل للتجريب بالمعنى الشامل، حتى ولئن ناخ، في مفارقة فريدة من نوعها، الباحثون الأكثر استشهادا بهم في مقاربة العلوم الإنسانية مثل جيديون توري أو أندرو شاسترمان على أهمية البحث التجريبي.

ما يتخض عن هذه المعطيات هو طغيان مقاربات العلوم الإنسانية في الدراسة الترجمة، وكون البحث التجريبي لم يعرف له بعدّ فيها من رسوخ صلد، فتكوين الباحثين درج على التقليد وافتقد للعلمية، وهذا ما يُفسّر مواطن الضعف العديدة التي تُسجل في البحوث التجريبية في الدراسة الترجمة (أنظر مثلا بيم 1994 ص 147، توري 1991 ص 262، جاسكلابين 2000، جيل وهانسن 2004)، وبالتالي هذا ما يبرر أيضا كتابة المقال الحالي.

3. مناهج وتقنيات البحث التجريبي في الدراسة الترجمة

3.1. تصنيف

من المهم أن نميّز بين سبر غور الترجمة من جهة سواء على مستوى السيرورة أو النتاج أو التكوين، وبين مدارس سيات الترجمة وخصائص المترجمين بمعزل عن فعل الترجمة كذلك الدراسات حول شخصية المترجم، حول مكانته الاجتماعية، حول ما يطرأ في دماغه خلال مسيرته المهنية، حول دوره في المجتمع وحول عطاء الترجمة للأدب.

فالجزمة الثانية من الدراسات تنتمي خاصة للتاريخ، لعلم النفس، لعلم النفس العصبي، لعلم الاجتماع، للأدب المقارن، للفلسفة، وقد تلتجى إذ ذاك للمناهج الرائجة في هذه الحقول (استطلاع، حوارات، تحليل الخطاب، الإنكباب على الأرشيف، الملاحظة الطبيعية،

وأجراءات فيزيولوجية أثناء نشاطات أخرى غير الترجمة) وهذا دون أن تغير خصوصيات المترجم أو الترجمة بشكل محسوس من فاعليتها.

2.3. دراسات طبيعية ودراسات تجريبية غير دخيلة

لقد استندت البحوث التجريبية للمترجمين والترجمة في سنوات السبعينيات والثمانينيات نسبيا على مناهج وتقنيات بسيطة، وخاصة النطق بصوت مرتفع فيما يخص الترجمة، أما فيما يتصل بالترجمة الفورية، ففي أغلب الحالات، تم الاكتفاء على ملاحظات طبيعية، على استطلاعات، وتجارب بسيطة يُطلب فيها من عدة ترجمة أن يترجموا خطابا آتيا أو تعاقبيا حتى يُمحّص الإنجاز وتُستخلص النتائج. ولقد كان هذا الشأن في أبحاث دانيكا سلسكوفيتش (1975) وماريان ليدر (1981)، وينطبق الأمر كذلك على أغلبية الدراسات التجريبية لدانيال جيل، والشئ نفسه بالنسبة لاستطلاعات هيلدغوند بوهرل وكورز إنغريد حول ما هو منتظر في مجال النوعية، ولعلنا نكتفي بهذه العتبات من النماذج. ولا زالت الدراسات البسيطة دون تدخل مهم في سيرورة الترجمة حاضرة في الأبحاث حول الترجمة، وبخاصة حول الترجمة الفورية. وهذا النوع من الدراسات يسمح على سبيل المثال بتحليل إستراتيجيات وخطط المترجمين والترجمة، وذلك بتمحيص ما يُنتجونه مقابل نص انطلاقا يحوي خصائص معينة، مع احتمال تساؤلات بعدية عن طريق الاستطلاعات والحوارات، فهذان الأخيران يسمحان بفحص مواقف ومشاعر وعادات المترجمين.

تكمّن الميزة السامية للدراسات الطبيعية والتجريبية غير الدخيلة والدخيلة بعض الشيء في عدم تشويهاها بشكل محسوس لسيرورة الترجمة، فالباحث هنا لا يتدخل (وعليه تُضمن السلامة الإيكولوجية أي مشروعية سبر غور العالم المحسوس انطلاقا من نواتج محصل عليها في محيط البحث وبخاصة التجريبي منه). بمرور الوقت، تمكنت هذه الدراسات من الانتفاع من التطور التقني، وهي قيمة الآن بقياس النتائج الكلامية بدقة، والتوقعات، والتنغيم والخصائص اللسانية للملفوظات في لغة الوصول على مدونات، ومتابعة تسلسل أخذ النقاط في الترجمة المتعاقبة بالنسبة لتوالي الخطاب الأصلي، وكذا إجراء حسابات على المدونة، وقد كان هذا ممكنا بفضل ظهور الحواسيب المحمولة، والكاميرات المصورة، والبرمجيات المجانية أو بخسة الثمن لمعالجة النصوص، والصوت، والصورة. وبهذه الوسائل، فالملاحظات والتحليلات لا تزداد إلا دقة. إذ تسجل البرمجيات حركات المترجم، ولقد كان ترانسلوج رائدا في هذا المجال (<http://www.translog.dk/default.asp?id=20>) كما أنّ الكاميرات وواصفات النظرة تعدّ مفيدة للغاية إبان تتبع سيرورة الترجمة بفضل إمكانية مشاهدة تسلسل دقيق لمراحل التحرير، ولتوالي التشذيبات الذاتية، كما تسمح بتقصي نظرات المترجم في أي لحظة وربطها

بمراحل التحرير للتوصل من زوايا مختلفة (استعمال عدة مناهج للتصدي لموضوع واحد في دراسة واحدة) إلى مجموعة معطيات ثرية حتى تُدرك الظواهر الملائمة. ما تمنحه هذه المناهج والتقانات لم ينضب بعد. فما تم إنجازه لحد الآن من بحوث تجريبية يعد قليلا نسبيا، وما ينقص هو تطبيق هذه المناهج على مواد ولغات مختلفة، أما استثمار الأبعاد القابلة للقياس (الزمنية، المعجمية، التركيبية، المرئية) فليس هو الآن إلا في بداياته الأولى.

3.3. مناهج وتقانات دخيلة

إلى جانب الوسائل غير الدخيلة والتي هي في مجملها تصوّرات بسيطة نسبيا توجد مناهج أكثر تعقيدا وغالبا ما تتسم بالدقة، إذ تُسَيّر مكونا أو عدة مكونات للترجمة وإن اقتضى الأمر تعديل السيرة، أو حتى لو انطوت على محيط عمل أو أجهزة قياس تعيق أداء المترجم مثلما اعتاد عليه صنعه في وسطه الطبيعي.

فبروتوكول النطق بصوت مرتفع (ت أ ب: TAP) الذي استحدثه إريكسون وسميون في علم النفس خلال سنوات الثمانينات، تبناه في الدراسة الترجّمية هانس بيتر كرينغس (1986) وولفغانغ لورشر (1991)، واعتمد عليه العديد من دارسي الترجّمية في أوروبا وأيضا في أمريكا الشمالية. وحتى وإن أفرز بعض الاتجاهات ولا سيما فيما يتصل باستجلاء الفوارق بين الطلبة والمترجمين المتمكنين، فإن سلامته الإيكولوجية بوصفه أنموذجا لتتبع تصرف المترجم هي سلامة تشوبها الريبة (أنظر فيما بعد)، وهذا ما يقلل من إمكانياته ومن أمر استخدامه.

إنّ المحدودية المتأثّبة من الاستعمال الدخيل للتقانات هي أكثر وضوحا في البحث حول الترجمة الفورية. ففي دراسة حول النشاط الإلكتروني للدماغ خلال الترجمة الفورية، اضطرت إنغريد كورز (1995) أن تطلب من المتطوعين أن يُترجموا ذهنيّا وذلك حتى لا تتداخل حركات النطق الناجمة عن إنتاج الخطاب المنطوق مع ما يُجرى من قياسات بواسطة الأجهزة التي يحملها هؤلاء المتطوعون. وبهذا، فالباحثة لم يكن لها فحسب أيّ مراقبة على الخطاب الذي ينتجوه ذهنيّا، بل إننا لنجهل إلى أيّ مدى قد أمكن عدم النطق الفيزيائي وعدم الإنجاز الصوتي من تعديل ميكانيزمات الترجمة الفورية. في أوائل الأبحاث المستخدمة لتغييرات قطر الحديقة بغية قياس الحمولة الإدراكية أثناء الترجمة الآتية (تومولا وهيونو 1990) كان لزاما على المترجمة أن يُترجموا بضغط الذقن على جهاز أمام كاميرا. ولا يمكننا حقيقة إقصاء التأثير الكبير لظروف العمل هذه في سيرة الترجمة أو في ما تؤول إليه من نتائج. وهناك مناهج أخرى لها ضروب المساوي ذاتها مثل أخذ عينات دورية للريق أثناء أداء الترجمة الفورية (موزر مارسلي وآخرون 1998)، وكذا أخذ مختلف أشكال الصور الطبية للدماغ.

ليس هنا محلّ لإدانة هذه المناهج، فغالبيتها تتيح سير ما يُعتاص استكشافه بمناهج غير دخيلة، كما أنّها تعطي دقة وقياسات موثوقة وتسمح بنيل ملاحظات لا تتحقق إلا بها. فضلا على ذلك، فبعض من هذه المناهج تطورت في نسق تكون فيه نزعة الدخيلية أقل شأنا، وهذا هو الحال مع قياسات حجم الحديقة انطلاقا من أجهزة متصلة بالحاسوب دون حاجة المترجم أو الترجمان أن يكون في هيئة غير عادية. ومع ذلك فيبدو لنا من الضروري أن نعتزف بمساوئها، وأن لا ننساق وراء الجذب التقاني على حساب الرأي السديد.

4.3. مناهج، تقنيات، تقانات وصرامة

وبعيدا عن المحاسن التي تنماز بها المناهج والتقنيات المتقدم ذكرها، فهي لربما تجذب دارسي الترجمة لأنها ترمز إلى مستوى عال في البحث، وبهذا تتعت الإعدادات التجريبية بالرفيعة على ما هو عليه الحال في البحث الطبيعي (غالبا ما تأتي هذه الإعدادات لتهديب النواتج بعد المدرسة الطبيعية)، ويمكن افتراض أن جذب المناهج المستعملة في الحقول الأكثر رسوخا واعترافا بها من الدراسة الترجمة في الوسط الجامعي هو ما يسوّغ لها هذه المكانة السامقة. ومع ذلك فاستعمال هذه المناهج والتقنيات وكذا التقانات الجديدة في الدراسة الترجمة لا يتواءم دائما والمبادئ الأساسية للبحث العلمي المقنن، فهذا الأخير يصبو إلى تحسين استكشاف الواقع بعقلانية لا مرأ فيها تحت ميسم الصرامة. نلغى من العيوب الأكثر شيوعا في الميدان خلا في تصور الدراسات، بما في ذلك العينات التي تفتقد التمثيلية، إضافة إلى عدم استثمار أمثل للموارد المتاحة، والاختيار السيئ للمؤشرات، غياب المراحل المفصلية القيمة بتأطير المشاكل ومعالجتها، وإجراء تصويبات رهيبة، وكذا التعويل على مُستجوبين غير مؤهلين، والاستدلالات المنطقية غير المبررة وبخاصة التعميمات التي لا تسوّغها لا النواتج ولا الإعداد التجريبي. . . وعليه فالمشكل الجوهرى لا يكمن في المناهج والتقنيات والتقانات، بل بالأحرى في التحليلات الإستراتيجية غير الكافية وبصفة عامة في انعدام الصرامة.

4. بعض المبادئ لاختيار مناهج البحث

لكل منهج بحثي طاقة كمن وليس ههنا مجال لإقصاء منهج أو آخر. بيد أنه في توظيفهم العملي، يمكن قياسهم في مشروع بحث خاص، أي لما يتعلق الأمر بسؤال أو عدة أسئلة بحثية، وتقاس بالنظر لمحيط معين تجري فيه الدراسة. كل منهج يتطلب موارد، ويتسم بمحدوديته، وبعض المناهج أكثر ملائمة للمحيط البحثي من مناهج أخرة تقنيا واقتصاديا. ولما يتم اختيار منهج لمشروع معين، من المهم تقييم الإمكانيات بالتركيز خاصة على العناصر التالية:

1.4. منطق المؤشر

في الدراسة الترجمة كما في باقي حقول البحث العلمي، لا تقيس في غالب الأحيان الظاهرة التي تشغلنا، بل تقيس المؤشرات التي تزودنا بمعلومات عنها، فعلى سبيل المثال بوسعنا تقدير الكلفة المالية للترجمة، ومدة تحضيرها إلا أن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بنوعيتها، والتي تقاس بصفة عامة بواسطة التقييمات المرفقة أو عن طريق حساب الأخطاء، وما يتم حذفه والهفوات. فمعادلة مؤشر ما بنشاط بحثي هي وظيفة تتداخل فيها عدة أبعاد كالحساسية، الدقة، الوثوقية، سهولة الاستعمال، ثمن المؤشر. إن معالجة كل بعد تتطلب مقالا منفصلا مستقلا، لذلك سنكتفي ههنا بالحديث على سبيل التوضيح عن طبيعة الرابط المنطقي بين المؤشر وما يُفترض أن يُعلم عنه.

هذا الرابط يمكن أن يعكس خاصية السببية (فالظاهرة المدروسة هي سبب ظهور المؤشر) أو الاحتوائية (إذ إن المؤشر ينزع للظهور لما تحدث الظاهرة دون أن نعرف آلية هذا التسارع). فيبدو معقولا مثلا الافتراض أن خطأ، أو حذفًا، أو هفوة في الترجمة قد تنجم عن صعوبة راضية في نص الانطلاق أو عن ضعف ساور المترجم (وينبغي هنا تحديد الصعوبة أو الضعف الملاحظين)، وبهذا فالأخطاء، والحذف والهفوات قد تعود ببعض الفضل بوصفها مؤشرات عن الصعوبات الكائنة في نص الانطلاق أو عن طبيعة الضعف المساور للمترجم. بالمقابل، ففارق تنشيط أجزاء مختلفة في الدماغ تبعًا لترجمتنا للغة (أ) أو للغة (ب)، لا يُفسر في الحالة الراهنة لمعارفنا على أنه دال على صعوبة مرتبطة بالمهمة المطلوبة، وعليه فالفائدة المتصلة بهذا المؤشر الفيزيولوجي لدراسة قضايا الاتجاهية (الترجمة من أو نحو اللغة الأم) تبقى ضعيفة في الترجمة. إذا ما سعينا في مشروع بحث استجلاء محاسن ومساوئ الترجمة نحو اللغة الأم في مقابل الترجمة نحو لغة ثانية، فيبدو من الأفيد الانتكاء على الأخطاء، والحذف والهفوات من حيث أنها مؤشر بسيط نظريا، يتطلب تطبيقه جهدا لا تقانة متقدمة، خير من الالتجاء إلى مناهج التصوير الطبي حتى وإن أتاح هذا الإجراء اطلعا صراحة على بعض مما يجري داخل الدماغ. فبطبيعة الحال، إذا كانت قضية البحث تنحوي على تبين إذا ما كان الدماغ يشتغل باختلاف اتجاه الترجمة، فإن التصوير الطبي يُمثل وسيلة جيدة مقارنة بدراسة الأخطاء والحذف والهفوات.

وعلى كل حال، فالمؤشر البالغ الكمال على المستويين التقني والنظري ليس بالضرورة الأكثر فعالية في بحث ما.

2.4. التداخل المحتمل المتأني من المنهج

يبدو من المهم التنويه ببعديّ ثان بوصفه عامل جذب تمارسه مناهج علم النفس اللغوي أو تلك المتعلقة بعلم النفسي العصبي على العديد من دارسي الترجمة من الشباب ونعني به التداخل المحتمل الناجم عن إجراء البحث، فهناك احتمال تعديل يشوب الظاهرة لما تُدرس بالملاحظة. فلا يُطرح المشكل لاحقاً بالنسبة للملاحظة، ففي الحقيقة لا يتم تبديل حدث تاريخي بمجرد دراسته. لكن في المقابل إنّ مشكل التعديل يُطرح لما تُجرى ملاحظات بعجل، فعلى سبيل المثال، بمجرد علم المشارك أنّه طرف في موضوع بحث، قد يدفعه وهو العنصر الملاحظ إلى تعديل سلوكه كثيراً أو قليلاً يشعور منه أو بدون شعوره.

لما تنطوي هذه الملاحظة على تفاعل مباشر نوعاً ما بين الملاحظ والملاحظ مثلاً هو عليه الحال أثناء إجراء حوار أو استطلاع في شكل جملة من الأسئلة فإنّ هذا التداخل المحتمل يكون كبيراً. فالتداخل معروف في العلوم الاجتماعية، وهناك حزمة من التقنيات الخاصة المُعدّة للتصدي له (تكوين المستجوبين، صياغة الأسئلة، تسلسل الأسئلة، أسئلة التثبيت من الانسجام).

ينطوي منهج البحث على اختراق دخلي يشغل حيزاً مهمّاً في المحيط، بل وخلال سيرورة ما نحن بصدد دراسته، ف (ت أ ب) تجبر المترجم على صياغة أفكاره بصوت مرتفع في حين أنّه يقرأ نص الانطلاق ويصوغ نصاً في لغة الوصول. بالنظر لتعقيد عمليات الفهم والإنتاج اللغوي، بات مشروعا التساؤل حول مدى تأثير نطق كهذا بصوت مرتفع على الترجمة وذلك إثبات أدائها أي الترجمة. (أنظر توري 1995 ص 234-238 أو إينجلوند ديميتروفا 2005 الفصل الثالث).

ماذا يسعنا إذن القول بشأن المناهج المقترضة من علم النفس التجريبي والتي توجهها البارز يكمن في قياس زمن الاستجابة ونسبة الإجابات الصحيحة الدائرة حول نشاطات محددة ؟ فبغية تطبيق هذه المناهج على الترجمة التحريرية والترجمة الفورية يلزم إيجاد عناصر قيمية بقياس الزمن، أو إيجاد نشاطات تحتوي بوضوح على إجابات صحيحة وأخرى خاطئة، وإنّ هذا المراد ليس بالشيء الهين في جملة سيورات معقدة كذلك التي تعتمد على صياغة نص في لغة الوصول على أساس فهم وتأويل لنص في لغة الانطلاق وذلك في سياق تواصلية معيّنة. نلن في بحوث تجريبية بروتوكولات تنطوي على ترجمة كلمات أو جمل منعزلة ومجتثة من أيّ سياق تواصلية، كما هو عليه الشأن بالنسبة لنصوص الانطلاق التي ترد على شاشات الحاسوب فلا يظهر منها إلا بعض الكلمات في الآن ذاته في حين أنّ المتغير المُقاس هو السرعة التي بموجبها يستعرض المترجم النص. وفي كل هذه الحالات، إلى أيّ مدى تُحوّل المهمات أو شروط التنفيذ تعميم الملاحظات والنواتج على الترجمة الحقيقية ؟

لما تجبر التقانة الترجمان أو المترجم على أن يترجم ذهنيًا بحجة أنّ النطق سينجم عنه ضييع سيتواشج مع القياسات، أو لما يُطلب منه التوقف كل مرة عن تقديم أدائه الشفوي خلال ثلاثين ثانية ماضيا لفافة من قطن من أجل تحليل ريقه ومعرفة درجة تركيز هرمونات القلق، أو لما يُلصق ذقنه على دعامة حتى لا يتزعزع رأسه، أو لما يُطلب منه أن يتمدد في جهاز لقياس أبعاد نشاطه الدماغي، فإنّ هذه المناهج الدخيلة لتجرنا إلى الارتياح بشدة بخصوص السلامة الإيكولوجية للدراسة.

طالما أنّ مقارنة نتائج هذه التجارب مع دراسات تعدّ سلامتها الإيكولوجية سليمة موثقة لم تسمح باستخلاص أوجه شبه بين الاتجاهات حتى تمنحها تسويغا في الاستعمال، فإنّ الالتجاء الحصري، في مشروع يتصدى لسيرورة الترجمة، إلى مناهج تنطوي على احتمال تداخلات مع موضوع البحث يتطلب نظرا حذرا مهما بلغت التقنيات في المطلق من شأو. وبهذا الصدد، تشهد على سبيل المثال القياسات الثلاثية منذ بعض السنين شعبية في الدراسة الترجمية. ومع ذلك، إذا كان أحد المناهج يحتوي على مخاطر معتبرة في التداخل مع سيرورة الترجمة، فسيكون نفعه أكثر من ضرره. وبالتالي، عندما يعوّل الباحث على (ترانسلوج: translog)، وعلى إجراء حوارات مستقبلية أيّ على منهجين غير دخيلين، فإنّ إضافة إجراء النطق بصوت مرتفع تبدو قليلة الجدوى، إذ إنّها لن تجلب فائدة ذات بال، كما أنّها تهدد السلامة الإيكولوجية لكامل الدراسة.

3.4. مبدأ المردودية المعقولة

هناك بعدّ اقتصادي للبحث التجريبي بوصفه نشاط يتضمن جملة من العمليات المرتبطة بجمع المعطيات، كما يحتوي على عمليات أخرة متصلة باستثمار هذه المعطيات. سوف لن نتطرق ههنا لتكلفة البحث التجريبي المالية التي تمثل أهمية ضئيلة من الناحية المنهجية، لكننا سنتحدث عن أبعاد اقتصادية أخرة.

هناك مورد ثمين غير متوافر بشكل كبير، إذ إنّ تجده يعرف بطئا شديدا، ونعني به المورد البشري الذي يتوزع بين جمهور المترجمين والتزاجمة. فهؤلاء يقبلون المشاركة في البحوث ولاسيما التجريبية منها (لا يتفاقم المشكل لما يتعلق الأمر بالردّ على طائفة من الأسئلة أو الحوارات، كما توضّحه العيّينات الهائلة من البحوث الطبيعية في الدراسة الترجمية). خلال الإجراءات التجريبية المراقبة، وبخاصة تلك التي تعكف على مقارنة شروط مختلفة (على سبيل المثال دراسة ثلاثة أو أربعة مستويات من التجارب بخصوص ترجمة ما أو تحديد مستويات سرعة التلفظ في الترجمة الفورية)، فعدد الأفراد اللازمين بغية كشف التأثيرات (يعزى التنوع لعوامل خارجية لا للمتغيرات المدروسة) يقدر بالعشرات. بيد أنّه من الصعب توظيف

العشرات من المترجمين والتراجمة المحترفين، لذلك يستنجد الباحثون سواء بالطلبة وعلى كل فيصعب ههنا تعميم النواتج على محترفي الترجمة، وسواء بعينات ضئيلة الحجم بالنظر للتنوع الملاحظ (أنظر جيل 2005)، في البحث حول الترجمة الفورية فإن الإجراءات التجريبية للتدقيق في الفرضيات تفقد جزء كبيرا من قوتها، في مثل هذه الظروف، بوسعنا أن نفضل عليها دراسة حالات متعددة لتحوّل في المحصلة النهائية استخلاص نواتج من طريق طائفة تحليلات متباينة الزوايا.

نستطيع بسرعة إدراك محدودية موردين آخرين وهما الوقت الذي نملكه لإنهاء مشروع، وكذا العمل الذي يمكننا بذله خلال وقت ضيق. فإذا كان تحليل المدونات المعلوماتية يمنح حقيقة مزايا معتبرة، من شاكلة كشف ظواهر هامة من خلال عينات هائلة الحجم بسرعة وبدقة بالغتين، فإن تحضير هذه المدونات يمثل شغلا مُضنيا مقارنة باستعمالها في مشروع بحث وحيد. فالباحث الشاب الذي عليه إنهاء مذكرته في عام أو عامين قد يلتجئ إلى انتقاء عينات ذات طول قصير للتحليل، كما أنه قد يتكئ على فحصه بشكل يدوي، بدل تصفيف مدونة قد لا يقوى حتى على إتمامها أو أن تحضيرها قد يستهلك أغلب الوقت المتاح لديه. وهذا التحفظ لا ينطبق على استعمال المدونات المعلوماتية الموجودة من قبل ولا على الاشتغال الجماعي على المدونات شريطة أن يكون فريق البحث بما فيه الكفاية من الأفراد.

4.4. إبداع وتجديد

ما يقدم من مناهج تقليدية بين تضاعيف كتب تعليم مناهج البحث تقوم على أسس صلبة وهي مثبتة من طريق تجارب طويلة. ومع ذلك، فقد أُستحدثت لوضعيات لا نلفها دائما في الدراسة الترجمية. وبهذا المفهوم، يتفق أحيانا وأن يقل أداؤها إلى أن ينكمش حتى عطاؤها العلمي (ذلك أنها لا تستجيب لمبدأ الالتزام بالصرامة) أثناء توظيفها في الدراسة الترجمية، مقارنة بما تحرزه لما يُعَوّل عليها في حقلها الأصلي.

وكما سبق الإشارة إليه، فالبحث التجريبي التقليدي بالتدقيق في فرضياته في شكلها المعياري، وبأخذ عينات معتبرة ومراقبة طائفة من الأبعاد، يصطدم في الدراسة حول الترجمة الفورية بعقبتين أساسيتين تبدوان غير قابلتين للزحزحة وهما صعوبة تشكيل عينات هائلة وكذا صعوبة توفير تنوع ثري. بما أن هذا الصنف من التجريب تحت غطاءه التقليدي يفقد جزءا كبيرا من تأثيره، فمن الأحسن أن نفتح على تجريب أقل تشددا من شاكلة التجارب القائمة على الإضافات التدريجية والتي لا يتم زيادتها دفعة واحدة، بل بتكرار المهات والشروط المماثلة في فترات وأمكنة مختلفة. صحيح أن وحدة الزمان والمكان تُعدّ وحدة مفقودة، غير أن حجم العينة (أو كما ينعتها أهل الاختصاص شبه العينة) يمكن مضاعفتها مرتين أو ثلاثا أو

أكثر من ذلك، وبوسعنا حتى التفكير في استبدال الإجراء التجريبي التقليدي القائم على تحليل إحصائي بسلسلة من دراسات حالات متنوعة بعدة تحليلات من أوجه مختلفة دون استنتاجات إحصائية. سنفقد التحكم الصارم في المحيط وكذا في قوة الاختبارات الإحصائية، ولكن سنريح كماً هائلاً من المعلومات المتحصل عليها مع إمكانية تحقيق نتائج على مستوى طائفة متنوعة من الشروط. فقد يكون احتمال اتفاق في النزعات الملاحظة أكثر إقناعاً من نتيجة إحصائية ذات معنى على تجربة وحيدة مراقبة.

كما تتقوى الإجراءات التقليدية المستخدمة في الاستطلاعات عندما تتكيف وظروف عمل الدراسة الترجيحية. فلما يكون عدد المجهين المحتملين نسبياً غير كبير، فبدل المرور بعدة مراحل مفصلة دون استثمار المعطيات التي سمحت الإجراءات بإفرازها، بإمكاننا السعي لإدراجها جزئياً (مع كل الحذر المطلوب) دون إغفال الضبط التدريجي للأسئلة والحوارات (نلنى عند لاوارد 2009 استراتيجية حكيمة فيها تناوب بين الأسئلة والحوارات).

وليس معنى هذا في كل هذه الحالات سدّ طريق الحذر والصرامة، بل إيجاد توازن مثالي بين جمع معلومات صلبة وكافية وبين غواية استخدام الوسائل الأكثر تطوراً. . . في ظروف اعتيادية. في العديد من الحالات، قد يُفضي هذا التوازن المثالي إلى بروتوكولات غير معيارية، وإلى التخلي عن الإحصاءات الاستنتاجية، والتي ينبغي معرفة كيفية الابتعاد عنها لما تصير بفعل الظروف قليلة الفعالية.

الخلاصة

لا تزعج طائفة الملاحظات التي سقناها البتة الانسجام بالشمولية في التحليل المقارن لمناهج البحث المستخدمة في الدراسة الترجيحية. وإنّا رمت ببساطة لتحسيس بعض المطبات التي يقع فيها بسهولة دارسوا الترجيحية غير المكونين على مناهج البحث والمنجدين إلى نور الحقول المتداخلة، والمولعين بالإتقان والتقانة.

مفهوم البحث هو استكشاف انتهازي، وبعيدا عن أيّ إحالة انتقاصية، فالمقصود بالانتهازية ههنا استثمار الإمكانيات المتاحة خلال وقت وسياق معينين بغية إحراز تقدم في المعرفة. إنه لمُسوّغ إذن التفكير في الالتفات إلى التقنيات والتقانات الجديدة عندما تظهر. ومع ذلك، ففي المقاربة العلمية المقننة، والتي قوام إحدى أعمدها تتبع الهئات والتخلص التدريجي منها، فإن هذه الانتهازية تقتنر قسراً بالصرامة. إذ قد يُفضي تقييم حذر للحالة والموارد في حالات معينة إلى التقليل من مزايا المناهج التي قد يُنظر إليها في مقام آخر على أنّها الأكثر تكيفاً. وهكذا، فبالنسبة للأفراد من دارسي الترجيحية الذين لا يشتغلون في هيكل بحث متوافرة على إمكانيات كثيرة، فبالوسع نيل تقدم في البحث العلمي باستخدام مناهج تجريبية بسيطة، بل

وحتى بائتلاف مناهج تجريبية أصيلة تكون مبتعدة عن الانضباط الشديد المعمول به في الحقول الأخرى، أو أيضا الانتكاء على الدراسات الطبيعية القمينة بفتح أبواب كثيرة في المعرفة، وهذا خيرٌ من الاستنجاذ بمناهج متطورة لكن دخيلة أو ذات فعالية ضئيلة نظرا لخصائص محيط البحث في الدراسة الترجمة.

وعلى كلّ حال، فمن الضروري على الباحثة في الدراسة الترجمة أن يتحلوا حقا وحقيقا بعادات الصرامة، سواء في منطق تحصيلهم، أو في تطبيق مناهج البحث، إذ تشكل هذه الصرامة الضامن الأوحد لعلمية تدارس الواقع.

مراجع بيليوغرافية

- أولي أندري، سيرورة البحث. مدخل لمنهجية البحث، مطبوعات كيبك الجامعية، كيبك، 1994.
- إينجلوند ديميتروفا بريجنيتا، إجراء الخبرة والتوضيح في سيرورة الترجمة، أمستردام/فيلاذلفيا، جون بنيامين، 2005.
- بافي آرل، ممارسة البحث الاجتماعي، بلمونت، ط 6. وادسورث، كاليفورنيا، 1992.
- باسنت سوزان، الدراسة الترجمة، طبعة منقحة، روتلج، لندن/نيويورك، 1991.
- بالار ميشال، ماهي الدراسة الترجمة؟، المطبوعات الجامعية لأرطوا، 2006.
- بلاستو مايكل آرثر وإقراشي يوشيد، فكر العلم، كيوتو/نيويورك، 1989.
- بوقران جاك ب، "المنهج العلمي ومرحلة البحث"، تحت إدارة م. روبار: أسس ومراحل البحث العلمي في علم النفس، سانت هياسنت، ملوان، كيبك/باريس، 1988.
- بيم أطلوني، إيديولوجيات الخير في الخطاب أثناء تدريب المترجم، كويني 4، ص 139-149، 1994.
- توري جيديون، "التجريب في الدراسة الترجمة: آفاق وبعض المزالق"، تحت إدارة تيركونان كونديت، ص 45-66، 1991.
- توري جيديون، وصف الدراسة الترجمة وما خلفها، جون بنيامين، أمستردام/فيلاذلفيا، 1995.
- تومولا جورما وهيون جوكا، "الحولة الذهنية خلال الاستماع وملاحظة الخطاب والترجمة الآتية: دراسة قطر الحديقة"، تحت إدارة ج. تومولا: الفهم والتعبير باللغة الأجنبية، منشورات توركو للجمعية الفنلندية للسانيات التطبيقية، عدد 48، ياربوك، ص 179-188، 1990.
- تيركونان كونديت سونجا وكونديت ستيفن، دراسات تجريبية في الترجمة والسانيات، دراسات في اللغات، عدد 17، جامعة لونسو، كلية الآداب، 1989.
- تيركونان كونديت سونجا، البحث التجريبي في الترجمة والدراسة الثقافية، قوتنر نار فرلاق، تونينان، 1991.
- تيركونان كونديت وجاسكلارين ريتا، التصنت ورسم بيان سيرورة الترجمة التحريرية والترجمة الفورية، جون بنيامين، أمستردام/فيلاذلفيا، 2000.
- جاسكلارين ريتا، "التركيز على منهجية دراسة التفكير بصوت عال أثناء الترجمة"، تحت إدارة تيركونان كونديت وجاسكلارين ريتا، ص 71-82، 2000.
- جود شارل وآخرون، مناهج البحث في العلاقات الاجتماعية، هاركرت براس جوفافنتش كولاغ ناشرون، ط 6، أرلاندو، 1991.
- جيل دانيال، نظرات في البحث حول الترجمة الفورية، المنشورات الجامعية لليل، ليل، 1995.
- جيل دانيال وهانسن جيد، "افتتاحية السيرورة من خلال النظرة المعاكسة"، في هانسن ك. ود. جيل: مطالب، تغييرات وتحديات في الدراسة الترجمة، جون بنيامين، ص 297-306، أمستردام/فيلاذلفيا، 2004.
- جيل دانيال، "البحث التجريبي في دور المعرفة من خلال المظاهر المنهجية للترجمة الفورية"، في ه. دام، جن اينغبرغ وه. جريشيش أريوفاست: أنظمة المعرفة والترجمة، موتون دو قرير، 2، ص 149-171، برلين/نيويورك، 2005.
- جيل دانيال، "نماذج من الشواهد في أدب تعليمات الترجمة التحريرية والترجمة الفورية"، منندي 3، 2، ص 85-103، 2005.
- جيل دانيال، "توالم الحقول في الدراسة الترجمة، خيار إحصائي"، في أ. كازار: توالم الحقول في الترجمة، وقائع الملتقى الدولي الحادي عشر حول الترجمة المنظم من الجامعة التقنية بلديز، ص 23-37، اسطنبول، 2006.

- سابوران ميشال، "مناهج اكتساب المعارف"، تحت إدارة م. روبر: أسس ومراحل البحث العلمي في علم النفس، مالوان، سانت هاسين، ص 37-58، كيك/باريس، 1988.
- سلسكوفيتش دانيكا، لغة، ألسنة وذاكرة، آداب حديثة مينار، باريس، 1975.
- سوكال آلان، "مفهوم قراءة حول العلم"، 2008، [متصفح بتاريخ: 2010/10/3] <http://www.senseaboutscience.org.uk/index.php/site/other/228>
- شالماس، أ. ف، ما هذا الشيء المسمى علما؟ المطبوعات الجامعية المفتوحة، ط 3، باكينهام، 1999.
- شيمان مارتن، حدود البحث الاجتماعي، لونغان، ط 3، لندن/نيويورك، 1988.
- قران لورا وتابلور كريستوفر، مظاهر البحث التطبيقي والتجريبي في الترجمة الفورية، مطبوعات كامبونوتو، إيدن، 1990.
- قونغريتش سوزان، بحث حول سيرورة الترجمة، موقف، منبج وأفاق، قونتر نار فرلاق، توبنقان، 2008.
- كريستنسن لاري ب، منهجية تجريبية، بايكون أند بايكون، ألين، بوسطن، 1977.
- كريغنس هانس بيتر، ما يدور في أذهان المترجمين: دراسة تجريبية حول بنية سيرورة الترجمة لدى متعلم الفرنسية المتقدم، قونتر نار فرلاق، توبنقان، 1986.
- كورز إنغريد، "النظر للدماغ وهو يشتغل: دراسة استكشافية لتغيرات تخطيط النشاط الكهربائي للعصبونات خلال الترجمة الفورية الآتية"، نشرية الترجمان رقم 6، ص 3-61، 1995.
- لافارد لورون، المترجم المحترف أمام النصوص التقنية والبحث التوثيقي، دكتوراه غير منشورة، م ع م ت، جامعة باريس 3، السوربون الجديدة، باريس، 2009.
- لامبار سيلفي وموزار مارسى بريرا، البحث التجريبي في الترجمة الفورية الآتية، جون بنيامين، أمستردام/فيلادلفيا، 1994.
- لورشر ولفغانق، أداء الترجمة، سيرورتها، واستراتيجياتها: بحث نفسي لساني، قونتر نار فرلاق، توبنقان، 1991.
- ليدرر ماريان، الترجمة الآتية، آداب حديثة مينار، باريس، 1981.
- مدور بيتر ب، نصيحة لعالم شاب، بان بوكس، لندن/سيدني، 1979.
- موزر مارسى بريرا، كوتزلي ألكسندر، كوراك مارينا، "الأدوار الممددة في الترجمة الفورية: الآثار على مستويات النوعية، والقلق الفيزيولوجي والنفسي"، الترجمة الفورية، ل 3، ص 47-65، 1998.
- نصر ماري، تعلّمية الترجمة: دراسة إحصائية، دكتوراه، م ع م ت، جامعة باريس الثالثة السوربون الجديدة، باريس، 2010.
- هانسن جيد، دراسة ترجمة تجريبية: سيرورة ونتائج، دراسات كوتهاجن في اللغة، عدد 24، كوتهاجن، 2002.
- هانسن جيد، الترجمة بنجاح: اكتشاف وحل مصادر التدخل، قونتر نار فرلاق، توبنقان، 2006.
- هولمس جامس، إسم وطبيعة الدراسة الترجمة، تحت إدارة ج. توري: الترجمة من خلال الثقافات، مطبوعات بهري، نيودلهي، 1972-1987.

CIRIN Bylletin n° 40, juin 2010. www.cirinandgile.com (منشورة س ا ر ي ن رقم 40، جوان 2010)

المقال في اللغة الأصل:

Daniel Gile: « La recherche traductologique: méthodes ou approche? », in: *TTR* 24: 2, Paris, (pp. 41-64). 2012.

